

أحداث فى تاريخ الخليج العربى

دكتور/ خالد حمود السعدون

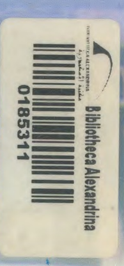
جامعة الشارقة

٢٠٠١

المكتبة الجامعي الحديث

الأزاريطة - إسكندرية

تليفاكس : ٤٨٤٣٨٧٩



أحداث في تاريـــخ الخليـــج العربي

د. خالد حمود السعدون

جامعة الشارقة

المكتبة الجامعية

الإسكندرية ـــ ت وفاكس ٤٨٤٣٨٧٩ ٠٣

تــوطـئـــة

تتراكم أحياناً أشتات أبحاث تفوتها- لسـبب أو لآخـر- فرصـة النشر حال الانتهاء من كتابتها، فتظل حبيسة الادراج ويحار كاتبها بعد حين بين تركها حيث هي مستسلمة لقدرها، أو السعي لإظهارها للنـور تداركاً لذلك القدر قبل نفاذه.

وتشترك عدة عوامل في ترجيح كفة الخيار الأول، إذ يمـر علـي كتابة بعض تلك الأبحاث زمن ما يجعل مادتها تتسم بشيء من القـدم. وقد يشيع في نفس كاتبها عند مراجعتها شعور مـن عـدم الرضـي يصاحب معاودة القراءة دائماً. كما أن غياب وحدة الموضوع بينها قـد لا يسوغ نشرها مجموعة في كتاب واحد.

ويخفف من فعل تلك العوامل بالمقابل إحساس طبيعي لدي الكـاتب بالحاجة للتواصل مع قارئه. فالكلمة حين تخط علي الورق كـالبذرة لا تنبت إلا حين ترتوي بوقوع عين القارئ عليها. ويخالط ذلك شعور- لا يخلو من بعض الغرور- بأن نشر تلك الأبحاث ربما يعود بشيء مـن الفائدة لأنها تلقي الضوء علي جوانب من تاريخنا بقيت معتمة إلي حـد ما نتيجة للاهمال أو نقص المعلومات أو سوء التناول .

بقيت بين الاحجام والاقدام حتى نفضت علي رداء الـتردد حيـن شجعني الأخ الدكتور/ خالد القاسمى علي النشر مبدياً استعداده الكريـم لتولي هذه المهمة، وهو بذلك جدير بأعمق الشكر وأصـدق الامتنـان. وأسهم في اقتناعي بجدوى النشر اشتراك هذه الأبحاث كلها في إطـار زماني واحد ومسرح مكاني متقارب.

إذ أنها جميعاً تتناول أحداثاً وقعت خلال الربع الأول مـــن القــرن الميلادي المنصرم على ضفاف الخليج العربي الشمالية والغربية .

ومن هنا جاء الاسم الذي اخترته لهذا الكتاب الـــذى أضعـــه أيـــها القارئ الكريم بين يديك راجياً أن تجد فيه بعض ما ينفــــع، والله مـــن وراء القصد.

الشارقة في١٧/٥/٢٠٠٠

د . خالد السعدون

الفصل الأول

أضواء على حركة الإدريسى فى عسير بين سنتى ١٩٠٩ - ١٩١٢

أضواء علي حركة الادريسى في عسير بين سنتى ١٩٠٩-١٩١٢(*)

أقر بدايةً بأنني لست باحثاً متعمقاً في تاريخ هذه المنطقة. فكل ما أردته هو التعرف علي أهم ملامح تاريخها القريب، استكمالاً لنقص معرفتي وقلة معلوماتي في هذا المجال. وخلال قراءاتي في المراجع المتاحة- وهي نادرة ندرة ظاهرة - تجمعت لدي ملاحظات اعتقدت أنها تسلط الضوء علي بعض أحداث المنطقة. فأحببت أن أشرك حضراتكم في استعراضها تعميماً للفائدة، وأملاً بحوار يغنيها ويقوم معوجها ويسد خللها.

ولعل من المفيد القول هنا أنني اعتمدت في التعرف علي الأحداث بصورة رئيسية علي ثلاثة مصادر. أولها عدة وثائق رسمية بريطانية غير منشورة. وثانيها مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا متصرف لواء عسير(١). باعتبار هذه المذكرات تمثل وجهة نظر عثمانية. وثالثها هو مؤلف الأستاذ/محمد بن أحمد العقيلي عن "تاريخ الخلاف السليمانى"(٢). باعتباره يمثل وجهة نظر محلية. ولقد اتبعت أسلوب مقارنة روايات هذه المصادر الثلاثة، لاعتقادى أن نتيجة مقارنة مثل هذه تفيد فى إعطاء صورة عن الأحداث، إن لم تكن صحيحة تماماً فهى أقرب الى الصحة مما لو اعتمدنا وجهة نظر منفردة.

ويحسن فى هذا المقام أيضاً إيضاح سبب قصرى الحديث على

(*) محاضرة عامة ألقيت فى كلية التربية بأبها يوم الأحد السابع من ديسمبر ١٩٨٦.

(١) سليمان شفيق باشا، مذكرات سليمان شفيق باشا متصرف عسير، اعداد محمد بن أحمد العقيلى، جده، ١٤٠٥هـ.

(٢) محمد بن أحمد العقيلى، تاريخ الخلاف السليمانى، ط٢، الرياض، ١٤٠٢هـ، ج٢.

الفترة الواقعة بين سنتى ١٣٢٧ ـــ ١٣٣٠ هـــــ/ ١٩٠٩ ـــ ١٩١٢م، فأبين أن مرد ذلك هو أن الوثائق البريطانية التى بين يدى تناولت هــذه الفترة فقط، وتوقفت عن متابعة الأحداث عند نهاية شهر أبريــل ســنة ١٩١٢. كما أن فترة عمل سليمان شفيق باشا فى متصرفيـــة عســير، والتى تناولها فى مذكراته، امتدت من سنة ١٩٠٩ حتى ســنة ١٩١٢. وتنصب معلومات تلك المصادر جميعاً على تطورات علاقة الإدريسى بالسلطات الحكومية العثمانية خلال الفترة المعنية. وتســهيلاً للعــرض سأورد ما ذكرته الوثائق البريطانية ثم أقارنـــها بروايـــات المصـــادر الأخرى، إن أوردت معلومات مناقضة عن الحادثة نفسها، وأرجح بينها إن كان الأمر بحاجة الى ترجيح، وتوفرت الأسس المنطقيـــة الكافيـــة للترجيح.

ولعل أهم الوثائق البريطانية المتوفرة لدى تقرير مطـــول أعدتـــه الاستخبارات البريطانية فى السودان ورفعته الى الوكيل البريطانى فـــى مصر الذى قام بدوره برفعه الى وزير الخارجية البريطانيـــة الســير ادوارد غرى. وبدأ هذا التقرير بالتعريف بشخصية الإدريســـى فقـــال: "هو محمد بن على بن أدريس بن أحمد بن ادريس، سليل الحسن بـــن على حفيد النبى [صلى الله عليه وسلم]. وهو فـــى حوالـــى السادســـة والثلاثين من عمره، ربعه لا هو بالطويل ولا القصير، ممتلئ الجســم، ذو بشرة داكنة مستمدة من أصله البربرى، إذ أن عائلته وفدت أصـــلاً من فاس فى المغرب"(١).

(1) IOR/R/15/5/25, No. 82, Mr. Cheetham to Sir Edward Grey, dated 28-7-1912, with enclosure.

ويحسن أن نتوقف هنا وقفة قصيرة لملاحظة أن بعض الغربيين، مهما أوتوا من علم وتوفرت لديهم المعلومات، يظلون عاجزين عن فهم دقائق ثقافتنا. فمعد هذا التقرير لم يفطن للتناقض الذى وقع فيه حين نسب الأدريسى الى الحسن بن على رضى الله عنهما، ثم جعله بربرى الأصل، وكل ذلك فى فقرة واحدة. ثم أن هذا المعد لا يعرف أن البربر بيض البشرة عموماً، فعزا سمرة الأدريسى لذلك الأصل، فى حين أن سبب سمرته هو خؤولة السودانيين له.

وواصل التقرير حديثه عن حياة الإدريسى الشخصية فقال: "كان الإدريسى متزوجاً امرأتين مصرية وسودانية. طلق أولاهما، وترك الثانية وابنته منها لدى ابن عم له فى دنقله، حيث يملك أعمامه وأبناء عمومته ثروة واسعة فى تلك المقاطعة السودانية، وكذلك قرب الأقصر فى صعيد مصر. وقد رحل الإدريسى لطلب العلم فى الحجاز وطرابلس الغرب ومصر والسودان، فتكونت له نتيجة لذلك خبرة بالعالم الخارجى الأكثر تقدماً فى محيطه المحلى. وأضاف هذه الخبرة الى ما فطر عليه من قوة الشخصية والذكاء والشجاعة[١].

وانتقل التقرير بعدها لتحديد طبيعة حركته،فقال أن عامة الناس فى عسير كانوا يعتبرونه "مهدياً"، رغم إنه هو شخصياً ينفى ذلك نفياً قاطعاً أى مصدر غيبى لحركته[٢]. كما أن سليمان شفيق باشا يشير الى ان التقارير الحكومية التى كانت تصل لاستانبول صورت حركته على أنها نوع من الشعوذة وادعاء الولاية والمهدوية. ولكن سليمان شفيق وصف

(1) Ibid.

(2) Ibid.

تلك التقارير بأنها ساذجة ومجرد أراجيف[1].

وإذا كان هذان المصدران قد اتفقا على نفي ادعاء الإدريسي للمهدية، فإن العقيلي لمح الى قبول الإدريسي لما كان يشاع عنه بين الناس من كرامات ومعجزات فقال: "فانسالت عليه الوفود من البلاد المجاورة، وأخذوا يروجون له في ظهور الكرامات ووقوع المعجزات، في عهد سادت فيه الجهالة وراجت البدع... واستغل الذكاء الوقاد والعقل النير سذاجة الميول، واستخدمها في مهمته التاريخية..."[2]. والغريب إن العقيلي أورد رغم ذلك في كتابه نفسه نص منشور أصدره الإدريسي وأذاعه بين الناس وقال فيه: "نحن بحمد الله مؤمنون من أهل السنة والجماعة، نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ونعمل على ما يوافق الشريعة المطهرة مبلغ علمنا وطاقتنا. نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونجتهد في إزالة البدع الضارة بالدين... لا ندعي شيئاً من الدعاوى المريضة التي يموه بها ذوو الأوهام على عقول العوام، فلا ننتحل المهدية كما يزعمون، ولا نشعوذ كما يفترون، ولا نزعم كشفاً ولا شيئاً في علم الغيب كما يشيعون..."[3].

ولا يستبعد أن يكون مرد هذا التناقض وجود الهوة المألوفة بين الفكر والممارسة. ومهما يكن الحال فالثابت وجود قناعة لدى أبناء المنطقة بامتلاك الادريسي لقوة غيبيه أو سحرية. تؤكد ذلك وثيقة بريطانية كتبت في سبتمبر سنة ١٩١٤ حيث قالت أن تلك القناعة لم

---

(١) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ٢٩.

(٢) العقيلي، المرجع نفسه، ص ص ٦٣٠ - ٦٣٣.

(٣) العقيلي، المرجع نفسه، ص ٧٧٠

تقتصر على أبناء المنطقة فقط، بل شاركتهم فيها القوات العثمانية المتمركزة فى عسير أيضاً. وبلغ الأمر بتلك القوات إنها كانت تخشى الصدام به نتيجة لتلك القناعة[١].

واختلفت المراجع أيضاً حول الأهداف التى سعى الإدريسى لتحقيقها من خلال حركته. فتقرير الاستخبارات البريطانية يقول أن الإدريسى "يعلن أنه أكثر من مصلح دينى متحمس، يضع نصب عينيه هدفين رئيسيين هما: تنقية الدين مما علق به من شوائب، وإقامة خلافة عربية فى مكة المكرمة، تحل محل الاستبداد التركى الجائر"[٢].

أما سليمان شفيق باشا فلا يعطى لحركة الإدريسى هذه الصفة الدينية والسياسية الواضحة، ويكتفى بالقول أنه كان مرشداً يدعو الناس لما فيه خيرهم حسبة لله تعالى، وأنه كان يحل مشاكل القبائل فى المنطقة طبقاً لأحكام الشرع الاسلامى، مما جعل القبائل تفد عليه "صبيا" من كل حدب وصوب فتبايعه وتنزل على حكمه[٣].

ولا تخفى هنا رغبة سليمان باشا، باعتباره ممثلاً للدولة العثمانية، فى التهوين من شأن الادريسى وجعله مجرد حكم بين القبائل، وليس ذا أهداف اصلاحية كبرى تتناقض بصورة جذرية مع سياسة الدولة العثمانية. ويتفق العقيلى مع سليمان باشا فى جعل هدف الادريسى الرئيسى هو دعوة الناس الى الله واقامة الشريعة والأمر بالمعروف

---

(1) IOR, L/P + S/10/463, Tel. From the pol. Res.at Adenm to the Sec. to the Gov. of Ind. In the for. And Pol. Dept., Simla, dated 30-10-1914.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 82.

(٣) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ٣٠.

والنهى عن المنكر. ولكنه أضاف الى ذلك طموح الادريسي الواسع وهمته الواسعة دون بيان حدود ذلك الطموح(١). ولم يعر حافظ وهبة الجانب الديني في حركة الادريسي التفاتاً، وقصر هدف حركته على رغبته في انتزاع عسير من أيدي الترك والاستقلال بها(٢).

أما متى بدأ الإدريسي دعوته في عسير فذلك ما لم يتطرق له سليمان شفيق باشا في مذكراته. وكذلك لم يحدد العقيلي تاريخاً معيناً لذلك البدء واكتفى بالقول أن الإدريسي بدأ الدعوة لنفسه بعد عودته من مصر الى مسقط رأسه "صبيا"(٣).

ولكن تقرير الاستخبارات البريطانية أورد أن ذلك البدء كان في غرة رمضان سنة ١٣٢٤ هـ/ أواخر سنة ١٩٠٦م. وكانت البداية في صبيا حيث استطاع بما له من شخصية مؤثرة الحصول بسرعة على تأييد آلاف المناصرين من أهالي الأرياف، لدرجة هددت بتفوقه على منافسه الإمام يحيى حميد الدين الذي كان في حالة ثورة على الترك في اليمن منذ سنة ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥م. تلك الثورة التي مثلت التحدي الأكثر خطورة الذي واجهه الترك منذ ضمهم جنوب غرب بلاد العرب(٤).

ويبدو أن اعلان الإدريسي لدعوته لم يؤد الى توتر علاقته على الفور مع السلطات العثمانية، بل جاء ذلك التوتر في مرحلة تالية، أدت الى نشوب الخلاف بين الجانبين سنة ١٩٠٨. ولم يذكر سليمان شفيق

---

(١) العقيلي، المرجع نفسه، ص ص ٦٢٧ – ٦٢٨.

(٢) حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣٩.

(٣) قرية قريبة من ميناء جازان في جنوب غرب المملكة العربية السعودية.

(4) IOR, R/15/5/25., No. 82

باشا فى مذكراته معلومات دقيقة عن كيفية نشوب القتال بين الإدريسى والقوات العثمانية. ولعل مرد ذلك أنه إن أراد أن يقتصر فى مذكراته على ما عاصره بنفسه من أحداث. ولذلك اكتفى بالقول إن ثورة نشبت فى عسير، وإنه عين بعد أحداث ابريل ١٩٠٩ فى استانبول(١). متصرفاً لعسير لمواجهة الوضع هناك(٢).

وتؤيد وثيقة بريطانية رواية سليمان شفيق باشا هذه، فتقول إنه ذو خدمة طويلة فى اليمن وعسير تحت ظل حكم السلطان عبد الحميد الثانى. وكان قائداً لثكنات سليمية فى "اسكتارى" فى استانبول حين حدث تمرد الثالث عشر من أبريل ١٩٠٩ الذى أعقبه خلع السلطان عبد الحميد. وتلى ذلك تقديم سليمان شفيق طلب نقله للخدمة فى عسير، فأجيب الى طلبه(٣).

ويتضح من وثيقة بريطانية أخرى إن تأزم العلاقات بين الإدريسى والسلطات العثمانية حصل قريباً فى ذلك الوقت. فقد وصلت معلومات للمقيم السياسى البريطانى فى عدن فى غضون شهر مايو ١٩٠٩ تشير الى ازدياد نفوذ الإدريسى بين قبائل منطقة عسير، وأنه كان يتراسل مع الإمام يحيى حميد الدين فى اليمن من أجل عقد اتفاق بينهما. وقد تسربت أخبار تلك المراسلات الى السلطات العثمانية فى المنطقة، فأدت الى قلقها وتخوفها. مما جعلها تقرر إلغاء سفر بعض الوحدات العسكرية التى أنهت فترة خدمتها فى المنطقة، وكانت على وشك

---

(١) يقصد الحركة المضادة للدستور التى انتهت بخلع السلطان عبد الحميد الثانى.

(٢) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ٣٠.

(3)P.R,O, F.O., 424, No. 43, Sir G. Lowther to sir Edward Grey, dated 20-7-1910.

مغادرة ميناء الحديدة. وقد ترتب على ذلك القرار إعلان تلك الوحدات تمردها على قيادتها(١).

أما تقرير الاستخبارات البريطانية فى السودان فلا يذكر السبب المباشر الذى أدى لاندلاع القتال بين الجانبين، ويكتفى بالقول: "رغم أن فكرة الإدريسى كانت تقوم أساساً على عدم الاتيان بأى شئ سوى اتباع مناهج اصلاحية، إلا أن ذلك جره سريعاً للاشتباك فى نزاع مع بونى باشا Boni المعين شيخاً للعرب من قبل الحكومة العثمانية. فجرت بينهما عدة وقائع خلال هذه السنة (١٩٠٩). استطاع الإدريسى خلالها الانتصار وغنيمة عدة مخازن مليئة بالأسلحة والذخائر"(٢). ويلاحظ هنا أن هذا التقرير لم يعط معلومات كافية عن "بونى باشا" هذا، ولا عن مبرر تعيينه من قبل الحكومة شيخاً للعرب فى منطقة قبيلة شديدة التمسك بتقاليدها، وهو تركى الأصل كما يدل اسمه. ولم أجد ذكراً لذلك الشخص أيضاً فى مذكرات سليمان شفيق باشا أو فى مؤلف العقيلى.

وواصل تقرير الاستخبارات البريطانية فى السودان روايته للأحداث فذكر أن القائد التركى الأعلى فى المنطقة سعيد باشا، اضطر قرب نهاية سنة ١٩٠٩ الى عقد معاهدة سلام مع الادريسى، لأن القائد كان مشغولاً كلية بالتعامل مع ثورة اليمن. وقد نصت المعاهدة على ترك الإدارة الداخلية فى منطقة عسير بصورة عملية للإدريسى، على أن تصان المصالح الحكومية بتعيين متصرف تركى. وحددت تلك

---

(1) IOR, R/15/5/7, Memorandum of information received during the month of May 1909 regarding external affairs relating to Turkish Arabia.

(2) IOR, R/15/5/25, NO. 82.

المصالح بأنها المدارس وسكك الحديد وأسلاك البرق[١].

وليس بين يدى أية معلومات تشير الى وجود مدارس حكومية أو أسلاك برق فى منطقة عسير حينئذ، كما أن سكك الحديد لم تدخل قط الى هذه المنطقة. ولعل المعاهدة أخذت فى الاعتبار ما سيكون وليس ما هو كائن فعلا فقط.

ولم يشر سليمان شفيق باشا فى مذكراته الى توقيع معاهدة صلح بين الإدريسى والحكومة العثمانية. وروى ما حدث بقوله أنه تلقى تعليمات من حكومته بالتوجه الى الإدريسى بمقره فى "صبيا" للانضمام هناك الى مندوبين يمثلون جمعية الاتحاد والترقى، الحزب الحاكم فى الدولة حينئذ، قدموا من استانبول لمفاوضة الإدريسى. فامتثل للأمر، وتوجه لصبيا، وجرت المفاوضات بين الطرفين فى أواخر ديسمبر ١٩٠٩. وأسفرت تلك المفاوضات عن اتفاق أقرت الحكومة بموجبه حق الإدريسى فى إيفاد مرشدين من قبله الى قبائل المنطقة لحل مشاكلها، على أن يوافق أولئك المرشدين مندوبون يعينهم المتصرف[٢].

أما العقيلى فقد جعل توقيع هذه المعاهدة فى أول عام ١٣٢٨ هـ/ أى حوالى منتصف يناير ١٩١٠. وروى أن الحكومة أوفدت من استانبول وفد يرأسه سعيد باشا ويضم توفيق الأرناؤوطى شيخ الطريقة الصوفية الأحمدية[٣]. وعند وصول الوفد جازان انتدب رئيسه عضو الوفد توفيق الأرناؤوطى لمقابلة

---

(1) Ibid.

(٢) سليمان شفيق المرجع نفسه، ص ٣٩.

(٣) تنسب الطريقة الصوفية الأحمدية للشيخ أحمد بن إدريس جد محمد بن على الإدريسى.

الإدريسى فى صبيا. فتمت المفاوضات التمهيدية هنـــاك، ثـــم اجتمـــع الإدريسى بعدها مع سعيد باشا قرب جازان، وأسفر الاجتماع عن اتفاق الجانبين على ما يلى:

١- اعتراف الإدريسى بالتبعية للدولة العثمانية.

٢- تعيينه بوظيفة قائمقام على صبيا والمناطق الملحقة بها.

٣- تعهده بمد أسلاك البرق بين اليمن والحجاز عبر أراضى عسير.

٤- سماحة الدولة بإقامة مراكز جمركية فى موانئ عســـير علـــى البحر الأحمر.

٥- اقرار الدولة لاقتراح الإدريسى بالغاء الضرائـــب والاكتفـــاء بجباية الزكاة الشرعية على الحبوب والأنعام، على أن ينـــوب الإدريسى عن الحكومة بالقيام بالجباية لقـــاء اســـتقطاع ثلـــث الحصيلة لتغطية نفقاته ونفقات جيش محلى يشكله لمساعدته فى تنفيذ تعهده بإقرار الأمن فى عسير.

وعلق العقيلى على بنود الاتفاق عادا اياها اعترافا ضمنيا من الدولة بسلطة الإدريسى واضفاء صفة الشرعية عليها(١).

ويلاحظ هنا أن العقيلى أورد تفصيلات لـــم يذكرهـــا المصـــدران الآخران، وكان حريا بسليمان شفيق باشا على الأخص ألا يغفل ذكرهـــا باعتباره شاهد عيان على ما جرى. ولو غضضنا الطرف عـــن تلـــك التفصيلات وركزنا على المحصلة النهائية للاتفاقية كما أوردها العقيلى

(١) العقيلى، المرجع نفسه، ص ص ٦٦٤ – ٦٦٧.

لوجدناها أقرب الى ما جاء فى تقرير الاستخبارات البريطانية فى السودان الذى جعل خلاصة الاتفاقية هى نيل الإدريسى الإشراف على الإدارة الداخلية للإقليم بصورة عملية. وحتى لو دققنا فى رواية سليمان شفيق ذاتها، لوجدناها أيضاً تماثل فى جوهرها ما أشار له التقرير البريطانى والعقيلى. فحسب تلك الرواية أقرت الحكومة بحق الإدريسى فى إرسال مرشدى من قبله لمباشرة شئون القبائل. وبما أن القبائل كانت تمثل الأغلبية المطلقة لسكان المنطقة حينئذ، تكون الحكومة قد خولته عملياً الإشراف على شئون أغلبية السكان.

ويبدو، حسب تقرير الاستخبارات البريطانية فى السودان، أن الإدريسى نفذ باخلاص ما ترتب عليه فى التزامات بموجب تلك الاتفاقية[1]. ولكن سليمان شفيق نفى ذلك فى مذكراته، وقال أن الإدريسى أخل بالتزاماته حين أخذ يرسل ممثليه للقبائل دون اطلاع المتصرف ودون اصطحابهم لممثلى الحكومة. واتهمه اللجوء الى الغش والخداع لتوسيع نفوذه على حساب الحكومة[2].

وقد نفى الإدريسى عن نفسه هذه التهمة برسالة وجهها لسليمان شفيق نفسه فى غضون شهر يوليو ١٩١٠. ومما جاء فى هذه الرسالة: "ان الاخلاص الذى يربطنا بالحكومة عظيم جداً مقارنة بالامام يحيى وابن سعود وزعماء عرب آخرين، رغم أننا بحمد الله أكبر مكانة من اولئك الزعماء. فهم لا يكفون عن اظهار احترامهم وتقديرهم لنا، حتى أن الإمام يحيى تخلى لنا عن حكم نقاط وأراضى جبلية كثيرة كان

(1) IOR, R/15/5/25, NO. 82.

(٢) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ٤٠.

يحتلها. كما أن ابن سعود الذى يجبى زكاة مقدارها ثلاثة ريالات عـــن كل جمل من الجمال التى تملكها قبائل قحطان حين تدخل أراضيه قرر الغاء تلك الجباية احتراما لنا. إن جهودنا ومساعينا منصبة على تقويـــة وحدة الأمة وتعزيز شرف الدولة ومجدها. وإننا نأمل، لذلك، أن تنـــال خدماتنا موافقة الحكومة ورضاها. ونحن على يقين من أننـــا أظـــهرنا للحكومة نوايانا الطيبة واخلاصنا، وأثبتنا لها بالمراسلات المتكررة التى تمت عن طريقكم وعن طريق سعيد باشا والشـــيخ محمـــد توفيـــق[١]. وستمتلئ قلوبنا ألما إذا ما أعارت الحكومة، بعد تلك الأدلة والـــبراهين كلها، أى اهتمام لأقوال اعدائنا ونظرت الينا بشك وحـــذر. وســـيؤدى اتخاذها لهذا الموقف أيضا الى تدمير قضية الوحدة التى نسعى اليـــها. فمن المهم جدا، لذلك، عدم الاهتمام بالأكاذيب والأقوال التافهـــة". ثـــم انتقل الإدريسى لتوضيح سبب إرسال ممثليه لبعض القبـــائل، فـــأورد معلومات مفصلة عن تحركات أولئك الممثلين وبين أن هدفـــهم كـــان اصلاح ذات البين بين تلك القبائل وحملها على الخضوع للسلطة[٢].

وتعزز هذه الرسالة ما ذكره سليمان شفيق فى مذكراته عن نـــص الاتفاق بين الجانبين على تخويل الإدريسى حق ارسال ممثلين من قبلـــه الى القبائل. إذ ترد فى الرسالة عبارات مثل "إن القبائل الأخرى والبدو ميالون لنا أيضا ومخلصون لحكمنا"، أو أنه أرســـل فلانـــا باعتبـــاره موظفا لديه وزوده بتعليمـــات مكتوبـــة، وهكـــذا. وورود مثـــل هـــذه الاعتبارات فى رسالة يوجهها الإدريسى لممثل الحكومة العثمانية فـــى

---

(١) لعله الشخص نفسه الذى أسماه العقيلى "توفيق الأرناؤوطى".

(2) P.R.O., FD., 424/224, Enclosure in No. 43.

المنطقة دون حرج تدل على أنه يمارس أمراً متفقاً عليه. ولكن يبدو أن تلك الرسالة لم تقنع متصرف عسير بسلامة نوايا الإدريسي فتوترت العلاقة بين الجانبين مجدداً. ونتيجة لهذا التوتر قرر الإدريسي الاتصال بالباب العالي مباشرة، حسبما روى تقرير الاستخبارات البريطانية في السودان. فأرسل وفداً لاستانبول ضم عضوين هما السيد صالح وأحمد بن محمد المجابد El-Mujabid. وكانت مطالب الإدريسي التي عرضها وفده هي:

١- تنفيذ شامل للشريعة الإسلامية في المنطقة يتولاه قضاة يتم اختيارهم من قبله.

٢- استبدال كافة الموظفين المستبدين العاملين في المنطقة.

٣- حصر صيانة الأمن العام في المنطقة به وحده، بينما يقتصر وجود الحاميات الحكومية على أبها، عاصمة اللواء، وبعض الموانئ الساحلية.

٤- جباية الضرائب على أيدي مندوبين محليين ودفعها لبيت مال محلي.

وطالب الوفد بالإضافة الى ذلك بإجراء اصلاحات إدارية أخرى، ستكون نتيجتها الوحيدة هي تأسيس قواعد استقلال الإدريسي، حسب رأي معد التقرير البريطاني[1]. ويلاحظ أنه لم يرد ذكر لهذا الوفد في مذكرات سليمان شفيق باشا ولا في مؤلف العقيلي.

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 82.

وهدد تقرير الاستخبارات البريطانية فى السودان رد فعل الباب العالى حيال تلك المطالب بأنه تمثل باعادة تعيين سعيد باشا واليا، بهدف الاستفادة من خبرته السابقة فى المنطقة ونجاحه فى انهاء تمرد الإدريسي بالشكل الذى مر بيانه سابقا. وقد وصل سعيد باشا الى ميناء القنفذة فى منتصف يناير ١٩١٠ ـ أى أوائل محرم ١٣٢٨هـ. وفور وصوله بدأت المفاوضات مع الادريسي. ولكن خوجة توفيق الذى انتدبه الإدريسى للقيام بالمفاوضات التزم جانب التشدد لدرجة أنهت امكانية التوصل الى تسوية سلمية بين الطرفين[1].

وتثير معلومة التقرير هذه بعض الأشكال. إذ أنه حسب التقرير نفسه، وكما مر، كانت اتفاقية سعيد باشا السابقة مع الإدريسى قد عقدت قرب نهاية سنة ١٩٠٩، أو فى نهاية ديسمبر كما حددها سليمان شفيق باشا فى مذكراته. فلا يعقل اطلاقاً أن يتم خلالٰ فترة لا تتجاوز شهراً أو أقل البدء فى تنفيذ تلك الاتفاقية، ونقل سعيد باشا من المنطقة، وانهيار الاتفاقية وتجديد الخلاف بين الإدريسى والسلطات الحكومية، وايفاد الإدريسى لوفده الى استانبول، ورد الباب العالى عليه باعادة تعيين سعيد باشا، ووصول الأخير للقنفذة وبدؤه مفاوضات جديدة مع الإدريسى. هذا من ناحية وفى ناحية أخرى فإن التقرير البريطانى أورد اسم خوجة توفيق مندوباً عن الإدريسى فى جولة المفاوضات الثانية هذه. وقد مر بنا فى رواية العقيلى أن توفيق الأرناؤوطى كان عضواً فى الوفد الحكومى الذى رأسه سعيد باشا فى جولة المفاوضات الأولى.

---

(1) Ibid.

وربما ورد فى الذهن أن خوجة توفيق قد لا يكون هو نفسه توفيق الأرناؤوطى. أو أنه حتى لو كان هو ذاته، فلعله بقى مع الإدريسى بعد جولة المفاوضات الأولى وأصبح من مساعديه المقربين. أو لعله عاد ثانية مع سعيد باشا، ولكن الإدريسى كان يثق به فخوله أن يتفاوض باسمه. ولكن كل تلك الفروض تنهار حين نجد الإدريسى يوجه رسالة للإمام يحيى عدد جولات مفاوضاته مع الحكومة فى المفاوضات الأولى، ولم يورد اسمه ثانية ضمن أسماء المفاوضين فى الجولات الثلاث التالية[١].

وبناء على كل ذلك، فأننى أرجح أن معد التقرير البريطانى قد وقع فى خطأ حين جعل مفاوضات سعيد باشا مع الإدريسى تتكرر مرتين، وحين جعل خوجة توفيق ممثلا للإدريسى فى جولة المفاوضات الثانية المزعومة. ولم يلاحظ، بشكل غريب، انعدام المنطق فى روايته حين جعل الفاصل الزمنى بين جولتى المفاوضات أقل من شهر. ولهذا تكون تلك المفاوضات التى ذكر سليمان شفيق باشا أنها جرت فى آخر ديسمبر ١٩٠٩، والتى ذكر تقرير الاستخبارات البريطانية أولا أنها جرت حول هذا التاريخ نفسه، ثم عاد وذكر أن جولتها الثانية جرت فى منتصف يناير ١٩١٠، وهو التاريخ نفسه الذى حدده العقيلى، هى مفاوضة واحدة لا اثنين. وبذلك يلزم أن يكون سفر الوفد الذى أرسله الإدريسى الى استانبول قد تم خلال سنة ١٩٠٩، أى قبل اجراء المفاوضات بين سعيد باشا والإدريسى خلال الفترة الواقعة بين أواخر ديسمبر ١٩٠٩ ومنتصف يناير ١٩١٠.

---

(١) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ص ١٣٧ – ١٣٨.

ومادمنا بصدد الحديث عن تلك المفاوضات فيحسن القول أن العقيلي خلط خلطا واضحا عند تناوله لتلك المفاوضات في مؤلفه. فقد أورد أولا الرواية المقتبسة آنفا، ولكنه ما لبث أن نقل عن مذكرات سليمان شفيق باشا خبر مفاوضاته مع الإدريسي. وذكر أن تلك المفاوضات أسفرت عن الاتفاق على "أن يظل الإدريسي على ما تم الاتفاق عليه بينه وبين سعيد باشا في القيام بشئون المنطقة على الطريقة الموضحة في الاتفاقية"(١).

وهذا شئ لم يرد له ذكر في مذكرات سليمان شفيق من ناحية، كما أنه أوقع العقيلي في تناقض صارخ من ناحية أخرى. إذ نسى أنه ذكر قبل عدة صفحات أن اتفاقية سعيد باشا مع الإدريسي وقعت في منتصف يناير ١٩١٠، في حين أن سليمان باشا أورد في مذكراته أن تاريخ مفاوضاته مع الإدريسي كان في أواخر ديسمبر ١٩٠٩.

ومهما يكن من أمر تلك المفاوضات، فإن النتائج التي تمخضت عنها لم تؤد الى حل دائم للمشكلة بين الحكومة العثمانية والإدريسي. إذ ما لبث الأخير كثيرا قبل أن يجدد نشاطه ضدها. ولا يذكر تقرير الاستخبارات البريطانية في السودان السبب المباشر الذي أدى الى إشعال فتيل الصدام مرة ثانية. ويكتفي بالقول أن الأغلبية العظمى من قبائل المنطقة انضمت للإدريسي، ولم يبق منها مخلصا للحكومة إلا تلك القبائل المتصلة مباشرة. بمناطق الوجود الحكومي. وأضاف أن الإدريسي وجه قوة مؤلفة من عشرين ألف رجل لمحاصرة أبها،

---

(١) العقيلي، المرجع نفسه، ص ص ٦٧٧ – ٦٨١.

عاصمة لواء عسير. ولكن تلك المدينة كانت محمية بصورة كافية من قبل قوة حكومية تضم ست كتائب مع مدفعية كافية يقودها سليمان شفيق باشا. وقد اتخذ الأخير للحصار أهبته، فأصلح حصون المدينة، وخزن فيها كميات كبيرة من الذخيرة والمؤن(١).

أما سليمان شفيق باشا فذكر أن تجدد تحرك الإدريسى ضد الحكومة كان فى أوائل يونيو ١٩١٠، حين أرسل رسائل سرية لمشايخ القبائل يدعوهم لتعبئة قبائلهم استعدادا للجهاد. وذكر أن هدف الإدريسى من وراء تلك التعبئة كان الزحف نحو مكة المكرمة والسيطرة عليها. وأضاف أنه بناء على تلك المعلومات حذر السلطات العليا فى استانبول، وطالبها بامداده بالتعزيزات الحربية الكافية لإحكام السيطرة على السواحل، ولمنع الإدريسى من تنفيذ مخططه. ولكن الحكومة المركزية ردت عليه بأنها مشغولة بمعالجة ثورة حوران فى سوريا، ولذلك فهى لا تستطيع امداده بأية قوات.

وطلبت منه بدلا من ذلك محاولة كسب أطول فترة سلام ممكنة مع الإدريسى عن طريق الاجتماع به واسترضائه. وقد امتثل سليمان شفيق للأمر، واجتمع مع الإدريسى فى صبيا فى أغسطس ١٩١٠. وجرت بينهما مفاوضات، كانت نقطة الخلاف الرئيسية خلالها هى رغبة سليمان شفيق بفرض سيطرة القوات الحكومية على الساحل، فى حين رفض الإدريسى ذلك رفضا حازما. فأخفقت لذلك المفاوضات وأخفقت معها خطة كسب الوقت. وأعقب ذلك تحرك قوات الإدريسى

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 82.

ومحاصرتها أبها. وكان عدد تلك القوات حسب تقدير سليمان شفيق باشا يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف رجل(١). وهو تقدير قريب مما ورد في تقرير الاستخبارات البريطانية كما مر.

ولم يقنط سليمان شفيق للحصار الذى فرض عليه. فقد ذكر التقرير البريطاني أنه قام بشن عدة غارات على محاصريه. وكانت أهم تلك الغارات هى التى شنها فى ديسمبر ١٩١٠، وباغت خلالها الأعداء، فأوقع فى صفوفهم خسارة بلغت مائتين وثمانين قتيلا. ولكن تلك الغارات لم تثبط بالمقابل عزم الإدريسى على مواصلة الحصار، أو تمنعه من توجيه بعض قواته للسيطرة على الطرق المؤدية الى موانئ القنفذة وجازان وحيدى واللحية. وكان هدفه من ذلك هو منع تسرب اية امدادات من تلك الموانئ عبر الوديان الجبلية الى أبها وقبائل المنطقة الداخلية التى ظلت موالية للحكومة(٢).

وقد لاحظ معد التقرير البريطانى المشار إليه أن المعلومات التى كان الطرفان المتحاربان يقدمانها تتسم بالتحامل لدرجة كبيرة لا يمكن معها اعتبارها وصفا أمينا للواقع. وأضاف أن ما سيورده من معلومات يمكن اعتباره رواية أمينة بصورة تقريبية عن العمليات الحربية المهمة التى جرت خلال سنة ١٩١١. فقد دخلت تلك السنة ومدينة أبها فى حالة حصار غير فعال، فى حين كانت الحاميات الحكومية الصغيرة فى موانئ الساحل مثل اللحية وجازان والقنفذة غير قادرة على التحرك خلف خطوطها المحصنة. وبينما كان أربعون ألف رجل يقفون فى

(١) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ٦٥.

(2) Ibid.

الميدان رهن إشارة الإدريسى، كانت السلطات الحكومية مشغولة بالعمليات الحربية فى اليمن وبالحوادث فى أوربا، لدرجة كانت معها غير قادرة على تجهيز قوات تكفى لأخذ زمام المبادرة فى أى مكان من عسير لعدة اشهر متوالية[١].

وحين أصبح المسؤولون العثمانيون فى وضع يمكنهم من التحرك مجدداً، بنوا خطة عملياتهم على أساس انجاد أبها بقوتين شمالية وجنوبية. تنطلق أولهما من ميناء القنفذة، بينما تنطلق الأخرى من ميناء جيزان أو ميناء اللحية. وتمهيداً لتنفيذ هذه الخطة فقد زحفت من مكة المكرمة فى أبريل ١٩١١ قوة تضم خمسة آلاف رجل من الخيالة والهجانة والمشاة المسلحين تسليحاً جيداً بقيادة أمير مكة الشريف حسين باشا ومعه ابناه عبد الله بك وفيصل بك. وكان هدف هذه القوة هو إقامة الاتصال بثلاث كتائب من الجند النظاميين كانت معسكرة مع مدفعيتها فى القنفذة. ولقد خصص لدعم تلك القوة الزاحفة بجوار الساحل ستة قوارب مدفعية، باشرت على الفور بقصف موانئ الوسم والبرك والشقيق التى كان أتباع الإدريسى يستخدمونها لإنزال الأسلحة والمؤن الى الساحل. وفى أثناء زحف تلك القوة انسل كثير من أفرادها عائدين الى دياهم، ولم يصل منها مع الشريف الى القنفة فى التاسع والعشرين من أبريل غير الفى رجل فقط[٢].

أما فى الجانب المقابل فقد زاد أتباع الإدريسى من نشاطهم، فسلمت لهم فى الأول من مايو ١٩١١ قرية مخايل، وهى موقع حصينى يقع

---

(1) Ibid.

(2) Ibid.

على بعد مسيرة ثلاثة أيام شمال شرق القنفذة، وذلك بعد حصار دام عدة أشهر. وقد وقع بأيدى قوات الإدريسى أثر ذلك التسليم مائتان وخمسون أسيراً من الجند النظامى. كما غنموا خمسمائة بندقية وخمسة وتسعين صندوق ذخيرة ومدفعين. وفى الوقت نفسه وصلت أخبار من أبها تبين الضيق الشديد الذى كانت المدينة تعانيه لدرجة بدت معها غير قادرة على الصمود أكثر من شهر آخر[١].

وبناء على ذلك كان لزاماً على السلطات الحكومية التحرك بسرعة لمواجهة الوضع. فغادر القنفذة نحو أبها فى الثالث من مايو ١٩١١ طابور نجدة مكون من ثلاث كتائب نظامية يرافقها أربعمائة فارس عربى يقودهم عبد الله بن الحسين. وقد اصطدم الطابور بقوة مؤلفة من ستمائة رجل يقودها محمد بن خرشان قرب قرية "قوز الشاهد" الواقعة على بعد ست ساعات من القنفذة نحو الداخل. قدب الذعر فى نفوس الفرسان العرب وفروا تاركين الجند النظامى فى اضطراب إنجلى عن هزيمة الطابور هزيمة تامة أسفرت عن مقتل أربعة ضباط ومائة جندى. ثم مات عدد أكبر نتيجة الظمأ أثناء التراجع الى القنفذة[٢].

ولا أملك هنا إلا التحفظ على معلومة التقرير البريطانى هذه. إذ أن المسافة بين قوز الشاهد والقنفذة لا تتجاوز ست ساعات فقط، حسب التقرير نفسه، ومن المعروف أن الظمأ لا يقتل انساناً خلال ست ساعات. ولكن ربما كانت فلول القوة المنهزمة قد ضلت طريقها وهى تتراجع دون نظام، فطالت عنيها المسافة، مما أدى الى تعرضها لعطش

---

(1) Ibid

(2) Ibid.

شديد أودى بحياة بعضها.

ولكن العقيلى يروى أن هذا الهجوم من جانب القوات الحكومية لم يكن الأول، بل سبقه هجومان استطلاعيان. وأضاف أن هذا الهجوم كان هجوما رئيسيا قاده الشريف حسين بنفسه، وضم قوة مؤلفة من ألفين وسبعمائة جندى نظامى مزودين بثمانية مدافع جبلية ومدفعين رشاشين. كما ضم ألفين وخمسمائة هجان من العرب وعددا من الفرسان. بينما كانت قوات الإدريسى من الجانب المضاد مؤلفة من عشرة آلاف رجل. وقد جرت المعركة بين الجانبين فى "وادى بيه"، وأسفرت عن هزيمة ساحقة للقوات الحكومية، أبيدت خلالها القوات النظامية التى لم ينج من أفرادها غير سبعين رجلا فقط أنقذهم الفرار[١]. وتبدو المبالغة واضحة هنا سواء فى إعداد القوتين أو عدد ضحايا المعركة.

ويتفق سليمان شفيق باشا فى مذكراته مع العقيلى بالقول أن الزحف على قوز الشاهد قاده الشريف حسين بنفسه على رأس كامل قواته، ولا يستبعد هنا أن يكون سليمان شفيق قد تجاهل عمدا ذكر القوة البريطانية الزاحفة الى جانب قوة الشريف حتى يحمل الأخير مسئولية الهزيمة التى لحقت بالمهاجمين. إذ أنه علل حدوث تلك الهزيمة بجهل الشريف بأحوال عسير وطبائع أهلها، وبأنه لم يمهد لزحفه باستطلاع كاف يمكنه من الحصول على المعلومات اللازمة عن قوة العدو[٢].

---

(١) العقيلى، المرجع نفسه، ص ص ٦٩٤ ـ ٦٩٦.

(٢) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ٧٣.

ويبدو من المستغرب أن يتهم رجل تركى عربياً بجهل أحوال عسير وطبائع أهلها وهى المجاورة لإمارته. كما أن اتهاماته للشريف، إن كان هو قائد الحملة فعلاً، بعدم اتخاذ الاحتياطات تبدو متهافتة. إذ أن اتخاذ تلك الاحتياطات أمر منوط بالضباط النظاميين وليس بالشريف الذى هو رجل مدنى غير مطالب بتولى المهام الفنية التى يعرفها العسكريون المختصون أكثر منه. ويلاحظ هنا أن مذكرات سليمان شفيق لا تخلو من تحامل واضح ضد الشريف. ولكنه رضخ للأمر حين أصرت حكومته على ذلك نتيجة لعدم كفاية القوات النظامية المتاحة تحت تصرفها حينئذ[١].

أما حول ما جرى بعد تلك الهزيمة، فيذكر تقرير الاستخبارات البريطانية فى السودان أن تعزيزات كبيرة وصلت للقوات الحكومية فى القنفذة حتى أصبحت فى العاشر من مايو ١٩١١ مؤلفة من تسع كتائب من الجند النظامى والدِريف (الاحتياطى حسب المصطلحات المعاصرة) وسريتى هجانة غير نظاميتين. وقرب نهاية شهر مايو خرجت قوة من القنفذة مؤلفة من ثلاث كتائب نظامية، وأربعمائة فارس والفا وخمسمائة هجان بقيادة فيصل بن الحسين. وكان هدفها هو شن هجوم مفاجئ على قوات الإدريسى المتحصنة فى موقع القوز. وبعد مسيرة ليلة استمرت ست ساعات وصلت القوة هدفها عند الفجر. واشتبكت فى قتل ضار مع المدافعين استمر تسع ساعات متواصلة، وانجلى عن هزيمة قوات الإدريسى التى قدر عددها بخمسة آلاف رجل يقودهم محمد بن خرشان ومصطفى النعمى.

---

(١) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ٧١

وقد اقتصرت خسائر القوات الحكومية على ثمانية وعشرين رجلا من الجند النظامى وثلاثة من غير النظاميين، وكانت وفاة عشرين منهم نتيجة لضربة الشمس لا إصابات المعركة. بينما خسر المنهزمون مائة وخمسين قتيلا وغنائم كثيرة من الأنعام والركائب والمعدات[1].

وروى العقيلى أن القوات المهاجمة التى شاركت فى هذه المعركة زادت على سبعة آلاف رجل، قادهم الشريف حسين بنفسه أيضا. وأضاف أن المعركة جرت فى وادى بيه، واضطرت قوات الإدريسى بعدها للانسحاب بعد أن كبدت المهاجمين أربعة آلاف وتسعمائة وعشرين قتيلا. وزاد على هذا الرقم ثلاثمائة وثلاثة وسبعين جنديا هلكوا نتيجة اصابتهم بالهيضة (الكوليرا). وجعل العقيلى هدف تلك القوة هو الوصول الى معقل الإدريسى فى صبيا، وليس فك الحصار عن أبها. ولكنها يممت وجهها صوب أبها بعد أن شعر الشريف بأن ما بقى لديه من قوات قليلة بعد تلك المعركة لا يمكنه من شق طريقها الى صبيا[2]. ويناقض هذا ما مر فى التقرير البريطانى من أن الهدف المقرر للقوة هو فك حصار أبها. وهو الهدف نفسه الذى ذكره سليمان شفيق باشا[3]. كما أن المنطق يخالف ما ذهب اليه العقيلى أيضا، إذ لو كان هدف القوة هو الوصول الى صبيا فعلا لكانت انطلقت من جازان حيث لا تفصلها عن صبيا إلا مسافة قصيرة، بدلا من أن تنطلق من القنفذة البعيدة، وحيث يمر مسافة قصيرة، بدلا من أن تنطلق من القنفذة

(1) IOR, R/15/5/25, No. 82.

(٢) العقيلى، المرجع نفسه، ص ص ٦٩٦ – ٦٩٨.

(٣) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ٧١.

البعيدة، وحيث يمر طريقها الطويل بكثير من القبائل الموالية للإدريسى، وبكثير من الجبال والوديان.

ويحسن ترك قوة الشمال تلك مؤقتا لإلقاء نظرة على الوضع فى الجنوب. فقد ذكر تقرير الاستخبارات البريطانية فى السودان أن القوة الحكومية التى كانت متمركزة فى جازان كانت فى حالة حصار لا تستطيع فك نطاقه نظرا لقلة الامكانيات المتاحة لديها. فى حين كان الإدريسى فى غضون ذلك إما فى معقله الرئيسى فى صبيا أو فى جبال "أبو سفيان" المنيعة. ولكن أيدى القوات الحكومية ما لبثت أن غدت طليقة نتيجة الاتفاق مع الإمام يحيى فى اليمن وانتهاء الحركات الحربية هناك، فركزت أنظارها على عسير. وقد تولى سعيد باشا والى اليمن توجيه العمليات بنفسه، فعين نشأت باشا لقيادة القوة الشمالية فى القنفذة، ومحمد على باشا لقيادة القوة الجنوبية فى جازان. وكانت القوة الأخيرة مؤلفة من أربع كتائب تضم ثلاثة آلاف رجل وثمانية مدافع. بينما غادر سعيد باشا نفسه الحديدة الى ميناء اللحية فى الرابع عشر من يونيو ١٩١١. وقبل ذلك بيوم واحد تحركت قوة من جازان بقيادة راغب بك نحو "الحفاير" للسيطرة على آبار "حلى" التى تمد جازان بالماء العذب من ناحية، ولتغطية تقدم قوة من اللحية نحو الداخل من ناحية أخرى(١).

ولم تعر القوة الزاحفة من جازان اهتماماً لقوة من أتباع الإدريسى كانت تتمركز فى المنطقة المجاورة للآبار، وهى مؤلفة من خمسمائة رجل، وذلك استهانة بها، وجهلاً بأنها عززت بجيش يتألف من حوالى

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 82.

عشرة الى اثنى عشر ألف مسلح. ولذلك حين وصلت القوة الحكوميـــة بسلام إلى الآبار لم تكن تعلم بأنها وقعت فى شراك حصار قاتل. ومـــا أن شن أتباع الإدريسى هجومهم عليها حتى وقعت فى اضطراب شـديد نتيجة عدم استعدادها بصورة كاملة.

وقد أدى ذلك الى هزيمتها فارة نحو جازان، تاركة فى الميدان مـــا بين ألف وألف وستمائة قتيل، والرقم الأخير هو الأرجح. ولم ينقذ فلول القوة المندحرة من الإبادة إلا وجود قاربى مدفعية راسيين عند جـلزان. إذ صبا نيران مدفعيتهما على اتباع الإدريســـــى، فتشــتت جموعـــهم، وتكبدوا من جراء القصف الجزء الأكبر فى خسائرهم التى بلغت ألـــف قتيل خلال قتال ذلك اليوم. ولكن قصف ذينك القاربين أصـــاب أيضـــاً عدداً كبيراً من القوات الحكومية مما أدى الى خسائرها الكبيرة الســالفة الذكر. كما أن جرحى تلك القوات لم يسلم منهم إلا أربعمائة جريح، لأن اتباع الإدريسى كانوا يجهزون بالخناجر على من يجدونه حياً منهم[1].

وذكر سليمان شفيق باشا أن هدف زحف تلك القوة فى جازان هـــو الحصول على الماء فقط. وقدر خسائرها بعد القتال الـــذى دام ثـــلاث ساعات فقط بألفين وخمسمائة قتيل. ويلاحظ أنه ذكر اسم أحمد عـــزت باشا على أنه القائد العام للقوات العثمانية فى اليمـــن حينئـــذ، وتتبعـــه القوات فى عسير* بدلاً من سعيد باشا كما مر فى التقرير البريطـــانى[2]. وجعل العقيلى فى أسباب هزيمة القوات الحكومية كما مر تواطؤ قائدها محمد راغب بك سراً مع الإدريسى الذى قبل لجوء ذلك القائد اليه فيمــا

(1) Ibid.

(٢) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ٢١.

بعد. كما أنه جعل هدف تلك القوة فى زحفها أكثر من مجرد الحصول على الماء[1].

أثارت أخبار تلك النكبة الجديدة ـ حسبما ورد فى التقرير البريطانى رد فعل سريع لدى القيادة العثمانية فى المنطقة. فما أن وصلت أخبارها الى الحديدة حتى أرسلت التعزيزات الى جازان على عجل لدعم القوات الحكومية هناك. إذ كانت تلك القوات تعانى فى صعوبات لا تصدق بسبب تفشى وباء الكوليرا بين صفوفها، وبسبب نقص مياه الشرب فى المدينة نتيجة لخسارة آبار حلى، مما حتم على السلطات جلب المياه للمدينة بالسفن فى جزيرة بريم وعدن.

لكن تلك التعزيزات التى وصلت جازان قوت وضع القوات فى المدينة لدرجة مكنت قائدها محمد على باشا فى إرسال بعض قواته للمشاركة فى حملة وجهت من القنفذة لفك الحصار عن مدينة ابها قرب نهاية شهر يونيو سنة ١٩١١[2].

وتحسن العودة لمتابعة الوضع فى الشمال، إذ يبدو أن القوة الحكومية التى احتلت موقع القوز فى آخر مايو كما لم تحتفظ بالموقع مدة طويلة. فانسحبت عائدة للقنفذة أما بارادتها أو قسرا. فقد ذكر التقرير البريطانى أن الحملة التى انطلقت فى القنفذة فى نهاية يونيو تألفت فى طابورين سلكا طريقين مختلفين. وضم الطابور الأول خمسة آلاف جندى نظامى يقودهم عزيز بك، بينما ضم الطابور الآخر ألفا

(١) العقيلى، المرجع نفسه، ص ٦٧٠.

(2) IOR,R/15/5/25, No. 82.

وخمسمائة مقاتل عربي يقودهم الشريف حسين. وكان مع الطابورين اربعون مدفعاً. وقد تصدرت للحملة الزاحفة فى موقع القوز جموع من أتباع الإدريسى يقودها السيد مصطفى النعمى.

ولكن القوات الحكومية استطاعت تشتيتها، ولم تلق فى طريقها بعد ذلك إلا مقاومة ضئيلة لأن العرب لا يستطيعون الصمود أمام نيران المدفعية. فاستطاعت تلك القوات أخيراً الوصول الى أبها وفك الحصار عنها فى السادس عشر من يوليو ١٩١١. وإذا كانت خسائر تلك القوات نتيجة القتل قليلة، فإن خسائرها بسبب الأمراض كانت هائلة. إذ اعترف المسئولون الحكوميون بوفاة أكثر من ثمانمائة جندى من أفرادها بسبب الكوليرا والديزانترى. وبعد فك الحصار عن أبها بذلك الشكل قفل الشريف حسين راجعاً إلى الطائف[1].

ولكن العقيلى صور زحف تلك الحملة بين القنفذة وأبها وكأنها معارك عنيفة متصلة، تكبدت خلالها خسائر فادحة[2]. أما سليمان شفيق باشا فقد انتقد فى مذكراته الخطة الحربية التى اتبعتها الحملة، لأنها كانت حريصة على فتح الطريق أمامها دون حرص مماثل على تأمين الطريق خلفها. فكان أتباع الإدريسى يعيدون احتلال المواقع التى تغادرها. والغريب أن حمل مسئولية ذلك الخطأ العسكرى للشريف حسين مرة أخرى، متناسياً الضباط الكبار الذين كانوا على رأس قواتهم النظامية الزاحفة معه. وأضاف أن خلافات نشبت بينه وبين الشريف حسين بعد وصوله ابها حول السياسة التى يجب أتباعها لمعالجة الوضع

---

(1) Ibid.

(٢) العقيلى، المرجع نفسه، ص ص ٦٩٨ – ٦٩٩.

في عسير. ولم يلبث الشريف بعدها طويلا في أبها، إذ غادرها الى الطائف عن طريق بيشة(١).

وقد أدى فك الحصار عن أبها وتعزيز وضع القوات الحكومية فيها ـ حسب التقرير البريطاني ـ الى رفع معنويات المسئولين الحكوميين حتى أصبحوا يخططون لمهاجمة صبيا نفسها. إذ كان محمد على باشا على رأس قوة في جازان تضم اثنتى عشرة كتيبة ينتظر إنهاء موسم الأمطار لينطلق بقوته نحو صبيا. ولم يكن الإدريسى بالمقابل يقف مراقبا للأحداث فقط، بل بادر للتحرك في منطقة الساحل في وقت مبكر من شهر يونيو ١٩١١. إذ وجه قوة يقودها الشريف منصور، تضم بين خمسة الى ستة آلاف رجل أغلبهم من قبيلة بنى عبس، فاستولت على الآبار التى تزود ميناء اللحية بالمياه، والواقعة على بعد سبعة أميال من الميناء. فأصبح موقف الميناء حرجا، فرغم أنه ذو سور يحيط به، وقلاع منفصلة واقعة على التلال الخارجية المطلة عليه، إلا أن حاميته كانت ضعيفة لا تضم إلا كتيبتين ونصف فقط. ولكن ذلك الموقف الحرج انقلب حين نشبت خلافات داخل صفوف قوات الإدريس التى تحاصر الميناء، مما اضطرها للانسحاب بمجرد وصول حمدى بك على رأس نجدة قادمة في الحديدة. وقد قام حمدى بك بتقوية تحصينات الميناء، وتركيز سريتين من الجند ومدفع واحد في موقع الآبار لحمايته وتأمين تزويد الميناء بالمياه(٢).

ولكن سنة ١٩١٢ دخلت ودخل معها انقلاب نوعى على الوضع في

---

(١) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ص ٧٤ – ٨٩.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 82.

عسير ويتمثل ذلك الانقلاب فى التعاون الحربى بين الإدريسى وإيطاليا. والحق أن تفاصيل هذا التعاون غامضة غاية الغموض. إذ لا تقدم المصادر المتاحة بين يدى معلومات كافية عن شروط ذلك التعاون والأسس التى أرسى عليها. فالتقرير البريطانى اكتفى بالقول أن الإدريسى قبل المعونة من إيطاليا لأن الدولة العثمانية هى العدو المشترك للجانبين. وأضاف أن ذلك العون عرض الإدريسى لنقد كبير بسبب قبوله أفضال دولة مسيحية(١).

وأيد أمين الريحانى، الذى طوف بالمنطقة شخصياً، ذلك التعليل. وأضاف أن الإدريسى كان مستعداً للتحالف مع أية دولة كانت ضد أعدائه، ولذلك تقبل مساعدات إيطاليا واستخدمها ضد العدو المشترك(٢). واكتفى كاتب مطلع آخر هو حافظ وهبه بالقول أن الإدريسى انتهز فرصة انشغال العثمانيين بحربهم مع الإيطاليين، فاستعان بهؤلاء(٣).

أما سليمان شفيق باشا فقال فى مذكراته أن الاتصالات بين الإدريسى والإيطاليين كانت سابقة لنشوب الحرب العثمانية ـ الإيطالية. وأنه علم بأمر تلك الاتصالات منذ عام ١٩١٠، وعلم أيضاً أن أولاد أخ الإدريسى الموجودين فى مصر كانوا يترددون على مقام سامٍ هناك لعقد الصلات بينه وبين عمهم(٤). ولكنه لم يوضح شخصية ذلك المقام، ولا النتيجة التى آلت إليها تلك الاتصالات. ولعله أراد بذلك

---

(1) Ibid.

(٢) أمين الريحانى، ملوك العرب، بيروت، ١٩٥١، ج١، ص ص ٢٨٩ – ٢٩٠.

(٣) حافظ وهبه، المرجع نفسه، ص ٣٩.

(٤) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ٤١.

الإيحاء بأن تحركات الإدريسى فى عسير كانت نتيجة تدبير إيطالى مسبق. وخرج العقيلى بهذا الاتهام من التلميح الى التصريح حين ذكر أن الإدريسى حين كان مقيما فى مصر قبل عودته لمسقط رأسه فى صبيا كان على اتصال مع "محمد على علوى" مترجم السفارة الإيطالية فى القاهرة، وأنه فتح عن طريق صديقه هذا اتصالات سياسية مع الإيطاليين منذ عام ١٩٠٥.

وأضاف أن إيطاليا كانت تخطط منذئذ لغزو طرابلس، ولذلك كانت تريد إشغال الدولة العثمانية مسبقا باشعال ثورة داخل أراضيها. وأضاف أن اتصالات الإدريسى مع الإيطاليين استمرت بعد عودته الى صبيا. وكانت تلك الاتصالات تتم عبر شخصين هما محمد سالم المصوعى وطاهر الشنيتى[١].

وإزاء قلة المعلومات المتاحة حول حقيقة تلك الاتصالات، يحسن قصر الحديث على ما ورد من معلومات عن التعاون الحربى بين الإيطاليين والإدريسى. فقد اشار التقرير البريطانى الى أن ذلك التعاون كان تعاونا فعالا، أنهى الأسطول الإيطالى خلاله سيطرة العثمانيين على ساحل البحر الأحمر، ودعم دعما مباشرا تحركات الأدارسة أثناء هجماتهم البرية ضد موانئ الساحل المحصنة. وكان المثل الأول للتعاون والتنسيق بين الجانبين قد حدث فى ميناء ميدى. إذ فرض عليه أتباع الإدريس حصارا محكما فى جهة البر تخلله قتال كثير متقطع. ثم جاء القصف البحرى الإيطالى ليؤدى الى استسلام القوة

(١) العقيلى، المرجع نفسه، ص ص ٦٢٧ – ٦٢٩.

الحكومية المحاصرة فى الميناء استسلاما غير مشروط فى التاسع والعشرين من أبريل ١٩١٢[١].

وقد أضاف العقيلى من جانبه تفصيلات أخرى عن كيفية احتلال ميناء ميدى. فذكر أن الأسطول الإيطالى قصفه قبل فرض الحصار سبعة وعشرين يوما حتى جاء الأسطول الإيطالى ثانية وصب نيران قذائفه على استحكاماتها، فتمكن أتباع الإدريسى من اقتحامها واحتلال الميناء[٢].

وقد أدى تعاون الإيطاليين الفعال – حسب التقرير البريطانى – إلى بث النشاط فى نفس الإدريسى. فقسم قواته قسمين، أرسل أحدهما الى قرية محايل لتضييق الخناق على سليمان شفيق باشا فى أبها، وأرسل الآخر بقيادة السيد مصطفى النعمى نحو القنفذة. وكان يؤمل أن يتعاون معه الأسطول الإيطالى فى قصف قلعة القنفذة كما فعل فى ميدى. ولكن التدخل الإيطالى المباشر المأمول لم يتم رغم نجاح قوات الإدريسى فى فرض الحصار على القنفذة من جهة البر. وفرض اتباع الإدريسى فى الوقت نفسه تقريبا الحصار على ميناء اللحية فى الجنوب. وتلقوا هناك دعم الإيطاليين، إذ بدأ أسطولهم بمحاصرة اللحية وجزر كمران منذ أوائل أبريل ١٩١٢. وقد أدى حصار اللحية من قبل الإيطاليين بحرا، ومن قبيل قوات الإدريسى المؤلفة من أربعة طوابير برا، الى سوء الوضع داخل الميناء نتيجة قلة المؤن. ولكنه لم يؤد الى

---

(1) IOR, R/ 15/5/25, No. 82.

(٢) العقيلى، المرجع نفسه، ص ص ٧١٤ – ٧١٩.

استسلامه فوراً[1].

وانتقل التقرير البريطاني بعد ذلك للمقارنة بين قوات الحكومة والإدريسي كما هي في نهاية شهر أبريل ١٩١٢. فقدر القوات الحكومية العاملة في منطقة عسير والساحل بخمسة عشر ألف ومائتي جندي نظامي، وستة آلاف وخمسمائة مقاتل عربي. وكانت تلك القوات تحت قيادة سليمان شفيق باشا متصرف عسير وفيصل بن الحسين[2].

وقد أوضح العقيلي سبب ظهور فيصل بن الحسين ثانية على مسرح أحداث المنطقة بقوله أن الحكومة العثمانية حين انقطع خط المواصلات البحري مع عسير واليمن، نتيجة سيطرة الأسطول الإيطالي على البحر الأحمر، أرسلت نجدة من القوات النظامية لتعزيز الوضع في عسير. وسلكت النجدة الطريق البرية المارة عبر مكة المكرمة والطائف. فعززها الشريف حسين بقوة من أتباعه يقودها ابنه فيصل[3]. وكان ذلك التعزيز استجابة لطلب تلقاه الشريف من الحكومة العثمانية[4]. وقد شكا سليمان باشا في مذكراته من عدم تعاون فيصل معه واصراره البقاء في موقع القوز دون التقدم الى أبها لتوحيد العمليات ضد الأدارسة. وعزا ذلك الموقف الى التزام فيصل بتوجيهات أبيه الذي كان حريصاً على منع توفر أسباب القوة الكافية بين يدي

(1) IOR., R/15 5/25. No. 82.

(2) Ibid.

(٣) العقيلي، المرجع نفسه، ص ص ٧١٤ – ٧١٩.

(٤) طالب محمد وهيم، مملكة الحجاز ١٩١٦ – ١٩٢٥، البصرة، ١٩٨٢، ص ٢٧٨.

سليمان شفيق[١].

أما عن توزيع تلك القوات الحكومية فقد ذكر التقرير البريطانى أنه كان على الشكل التالى:

١- أربعة آلاف وخمسمائة جندى نظامى ومائتى عربى من قبيلتى حرب وزبيد فى القنفذة.

٢- ثلاثة آلاف جندى نظامى وثلاثة آلاف عربى من قبيلتى الودعات وعبس محاصرين فى اللحية.

٣- ألف وستمائة جندى نظامى وأربعمائة عربى من مكة المكرمة تحت قيادة فيصل ابن الحسين فى دغار Dagar، أعاقتهم القبائل المعادية هناك عن مواصلة زحفهم جنوباً باتجاه أبها.

٤- خمسين جندياً نظامياً وخمسمائة عربى من قبيلة الشنابرة فى ميناء الليث.

٥- وباقى تلك القوات متمركز مع سليمان شفيق باشا فى مدينة أبها.

وعلى الرغم من عدم إحكام الحصار على المدينة فى ذلك الوقت، إلا أن المتصرف لم يمتلك القوة الكافية التى تمكنه من التحرك خارجها. إذ أنه مراقب باستمرار من قبل قوة صغيرة من أتباع الإدريسى[٢].

ولكن سليمان شفيق باشا أورد فى مذكراته ما يفيد بعكس ذلك. فذكر أنه خرج على رأس قواته من مدينة أبها وتوغل فى المناطق الجبلية لتوطيد سيطرته على بعض المواقع، ولضمان ولاء بعض

(١) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ص ١٨٩ – ١٩٤.

(2) IRO, R/15/5/25, No. 28.

القبائل[١].

وحول قوات الإدريسى، ذكر التقرير البريطانى ما يقال عن وقوف مائتى ألف مقاتل رهن إشارة الإدريسى. ولكنه لم يجند من هؤلاء بالفعل سوى ستة وأربعين ألف رجل. ومن هؤلاء خمسة وعشرون ألف رجل، يضمهم خمسمائة فارس، يقيمون معه فى حرض حيث مركز قيادته. وهناك ستة آلاف رجل يحاصرون ميناء اللحية، وهم مقسمون الى أربعة طوابير يقودها أربعة أمراء من قبيلة بنى مروان هم محمد بكرى وطاهر على ويحيى محمد معوذ وحيدر محمد محجب.

ويتمركز الطابوران الأولان منها فى وادى الفج جنوب اللحية بينما يتمركز الطابور الثالث فى وادى حران فى الشمال، والطابور الرابع فى الشرق. وتتوزع بقية قوات الإدريسى على محايل لمراقبة سليمان شفيق باشا فى أبها، وحول موانئ الساحل مثل الشقيق والوسم والبرك وحلى[٢].

وذكر التقرير البريطانى ما يقال عن وجود سبعين مدفعاً متنوعاً لدى الإدريسى ـ وقد غنم بعض تلك المدافع من القوات الحكومية فى جازان وميدى. كما أعطته إيطاليا مؤخراً اثنى عشر مدفع ميدان وثمانية مدافع جبلية، إضافة الى كميات وفيرة من البنادق والذخيرة. وهكذا أصبحت البنادق التى يتسلح بها أتباع الإدريسى ذات أربعة أصناف هى "أبونبوت" وهى بنادق جيدة من منشأ إيطالى. و "أبو

---

(١) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ١٥٦ و ما بعدها.

(2) IRO, R/15/5/25, No. 82.

أصبع" تجلب من جيبوتى، وهى فرنسية الصنع، وربما كانت من نوع غراس Gras. والصنف الثالث هو بنادق "ماوزر" من طراز قديم. أما الرابع فهو بنادق "ماوزر" حديثة الصنع تم الاستيلاء عليها من القوات الحكومية وهى تمثل خيرة بنادقهم. كما يمتلك الإدريسى أسطولاً كبيراً من المراكب الشراعية "السنابيك" يخدم مواصلاته الساحلية منذ أن ضمن له الإيطاليون السيطرة البحرية.

ويوجد فى قوات الإدريسى خليط من الترك والأحباش والسودانيين، وهم الذين يقيمون بأغلب المهام الفنية. وكذلك ليس هناك ما يدل على وجود أوربيون فى صفوف قواته. ورغم كل ما لدى الإدريسى من معدات حربية إلا أن قوته الرئيسية تكمن فى ولاء القبائل له. فالأغلبية العظمى من قبائل المنطقة أعلنت ولاؤها له، ولم يتخلف عن تأييده إلا القبائل المتصلة مباشرة بمراكز الوجود الحكومى. والحقيقة إن الحماسة بين أتباعه كبيرة جداً، حتى قيل أن الأمهات لا يندبن أبنائهم الذين يقتلون فى ساحات المعارك تحت رايته. ومن بين أهم القبائل المؤيدة له بنو مروان وغامد وزهران وحرب، وبعض قبيلتى زند وعبس فى اليمن. وقد عين لكل قبيلة من هذه القبائل قضاة ذوى سمعة جيدة لحل مشاكلها من خلال الالتزام الصارم بمبادئ الشرع الإسلامى(١).

وانتقل التقرير البريطانى بعد ذلك الى ذكر أبرز وزراء الإدريسى فقال أنهم محمد بن يحيى باصهى، وهو تاجر غنى، ويحيى بن زكرى، الذى يتولى الإشراف على بيت المال، ومحمد بن طاهر الذى قاد

---

(1) Ibid.

الهجوم على جازان، والسيد مصطفى النعمى الذى اكتسب شهرة أثناء حصار أبها[1]. ويخالف العقيبى ما جاء أعلاه باسقاط اسم السيد مصطفى النعمى من بين اسماء وزراء الإدريسى، ويحل محله اسم حمود بن محمد سرداب الحازمى[2].

وعلى الرغم من استخدام التقرير البريطانى والعقيلى لفظ "وزراء"، فليس من المعتقد أن ذلك يعكس وجود نظام حكومة عصرى بالشكل المألوف حاليا لإدارة المناطق الخاضعة لسيطرة الإدريسى. يدل على ذلك عدم ذكر مهام محددة أسندت لكل واحد من أولئك "الوزراء"، عدا إدارة أحدهم لبيت المال. ولهذا فهم أقرب ما نسميه الآن مستشارين أو معاونين مقربين.

ولم ينس التقرير البريطانى الإشارة إلى موقف الإمام يحيى حميد الدين فى الأحداث الجارية فى عسير خلال الشهور الأربعة الأولى من سنة ١٩١٢. فذكر أن الإمام قد عقد صلحا مع الحكومة العثمانية قرب نهاية سنة ١٩١١، وهو ملزم بموجب بنود الصلح بتقديم العون للقوات الحكومية عند الحاجة. وقد وضعه ذلك الالتزام فى موقف حرج نتيجة عدم تأكده تماما من وقوفه فى الجانب الرابح، لا سيما وأن كثيرين من أتباعه يتعاطفون مع الإدريسى بصورة علنية.

ولكن تعاون الإدريسى مع الإيطاليين جاء مخرجا له من هذا المأزق. فقد تذرع بقبول الإدريسى لمساعدة النصارى، وأرسل مفرزة

---

(1) Ibid.

(٢) العقيبى، المرجع نفسه، ص ٦٤٥.

صغيرة من أتباعه مؤلفة من ثلاثمائة رجل لمساعدة القوات الحكوميـــة المحاصرة فى ميناء اللحية[1].

وختمت الاستخبارات البريطانية فى السودان تقريرها بـــــالقول أن الإدريسى يدعى بأنه يمد سيطرته على أراضى واسعة تمتد من مينـــاء الليث شمالا حتى وادى حيرام جنوبا، ومن ديار قبيلتى يام والزند شرقا حتى البحر الأحمر غربا. وأضافت أنه يسيطر فعلا على ذلك الإقليـــم كله باستثناء المواقع الخاضعة لسيطرة القوات الحكومية المحاصرة فــى ابها والليث والقنفذة واللحية[2].

---

(1) IRO, R/15/5/25, no. 82.

(2) Ibid.

الخاتمة

وهكذا، بعد استعراض الروايات الثلاث البريطانية والعثمانية والمحلية ومقارنتها ببعضها وببعض المراجع الأخرى المتاحة، يمكن الخروج بالاستنتاجات العامة التالية:

١- أن الرواية البريطانية، رغم ما شابها من نواقص، كانت أكثر الروايات وفرة بالمعلومات ومنطقية فى سلسلة الأحداث. بينما كانت رواية سليمان شفيق باشا أقرب الى الخاطرات المتفرقة منها الى مذكرات متماسكة تتابع تسلسل الأحداث وتبدى رأى كاتبها فيها. أما رواية العقيلى فقد اتسمت بشئ من الاضطراب، فكررت سرد بعض الأحداث بشكل يغمض معه على القارئ أحيانا، ويتوهم أن السرد المكرر رواية لأحداث جديدة.

٢- أن حركة الإدريسى كانت حركة دينية فى جوهرها ذات اتجاه إصلاحى نسبى، مع عدم إغفال جانبها السياسى، وما اتصف به قائدها من طموح كبير. وقد اتفق التقرير البريطانى ومذكرات سليمان شفيق باشا على نفس ما أشيع من إدعاء الإدريسى لصفة المهدوية. ويؤكد هذا النفى منشور الإدريسى الذى أذاعه بين الناس وتنصل فيه بحزم من إدعاء أى مصدر غيبى لدعوته. ولكن ذلك لا يمنع من القول أن العامة قد نسبوا له تلك الصفة وآمنوا بتمتعه بقدرات سحرية. وحين تتعلق أذهان العامة بشئ يصعب اقناعها بعكسها كما تدل تجارب التاريخ.

٣- إن فكرة سعى الإدريسى لإقامة خلافة عربية فى مكة المكرمة بدلاً من خلافة السلطان العثمانى فى استانبول لم يرد لها ذكر فى كل المصادر التى تم الرجوع إليها، وانفردت الرواية البريطانية بذكرها. فلا مناص لذلك من التحفظ حول ثبوتها القطعي. ولكن ذلك التحفظ لا ينفى امكانية تطرق الإدريسى لهذه الفكرة بشكل من الأشكال، وتسرب تطرقه ذاك الى مصادر الاستخبارات البريطانية فى السودان. ويعزز تلك الإمكانية أن الفكرة ذاتها كانت متداولة فى بعض الأوساط العربية خلال تلك الفترة. وتحسن فى هذا الصدد ملاحظة ما ذكره سليمان شفيق باشا فى مذكراته حول أن نية الإدريسى فى بداية عملياته سنة ١٩١٠ كانت الزحف نحو مكة المكرمة. كما يلفت النظر حماس الشريف حسين أمير مكة المكرمة فى مقاومة الإدريسى. وإذا كان يمكن تعليل تلك المقاومة بطموح الشريف ورغبته بالظهور بمظهر الزعيم الأكبر فى جزيرة العرب أمام الحكومة المركزية فى استانبول، فإنها يمكن أن تفسر أيضاً بخوفه من ظهور منافس قوى له لا يكتفى بالسيطرة على عسير وساحله فقط، بل يريد أيضاً السيطرة على مكة المكرمة ذاتها، وربما لاتخاذها عاصمة لخلافته المأمولة.

٤- أن تعاون الإدريسى ثابت مع إيطاليا بعد قيام الحرب بينها وبين الدولة العثمانية بسبب غزو طرابلس الغرب سنة ١٩١١. ولكن شروط ذلك التعاون وأسسه غير واضحة بسبب ندرة ما

ورد حوله من معلومات من المصادر المتاحة. ولعلم أحد دارسى التاريخ فى هذه الكلية يتوفر على بحث هذا الموضوع فى المستقبل عند إعداد رسالته فى الدراسات العليا. فينقب فى دور حفظ الوثائق الإيطالية والتركية والبريطانية حتى يخرج بما يجلو خفاياه ويكشف أسراره. ويحسن القول هنا أن الإدريسى فى تعاونه مع الإيطاليين لم يكن غريباً عن روح عصره. فقد شاع بين الزعماء العرب المعارضين للدولة العثمانية فى تلك الأيام اتجاه الاستعانة بالدول الغربية لعلها تمكنهم من تحقيق استقلالهم ونيل بعض مطالبهم القومية.

٥- أن السلطات الحكومية العثمانية أظهرت قلة كفاءة واضحة فى تعاملها مع حركة الإدريسى. فأتيحت الفرصة للحركة لتثبيت أقدامها وتوسيع نشاطها حتى أصبحت خطراً استنزف الكثير من موارد الدولة بمواطنيها فى هذه المنطقة كان عاملاً مهما جعل أولئك الموطنين يتحمسون لحركة الإدريسى. وقد اعترف متصرف عسير سليمان شفيق باشا نفسه بهذا الواقع حين قال: "أن الدولة العثمانية التى احتلت عسير منذ أربعين عاماً اكتفت بان اتخذت لنفسه بضعة مراكز عسكرية، وكانت صلتها بالأهالى مقصورة على قيامها ببعض الحركات العسكرية بين حين وآخر لجباية الزكاة..."(١). ولكن الانصاف يستدعى القول أن حركة الإدريسى جاءت فى فترة كانت الدولة خلالها تعانى من عدة مشاكل داخلية وخارجية. إذ جاء انقلاب سنة ١٨٠٩

(١) سليمان شفيق، المرجع نفسه، ص ٣٤.

وعزل السلطان عبد الحميد الثانى سنة ١٩٠٩ ليشكل عـــــامل عدم استقرار فى قيادة الدولة العليا وشاغلاً لأجهزتها المختلفة. كما تميزت هذه الفترة بكثرة حوادث الاضطراب والتمرد فـــى ولايات الدولة المختلفة وخاصة العربية منها مثل ولاية دمشــق وولايتى البصرة وبغداد وولايتى اليمن. أما علــــى المســتوى الخارجى فقد انشغلت الدولة بمشـــاكل البلقـــان ثـــم المشــكلة الطرابلسية. وإزاء انشغال قيادات الدولة بهذه المشاكل الداخلية والخارجية المعقدة لم يكن منتظراً منها إظهار كفاءة عالية فـــى مواجهة الإدريسى فى منطقة نائية مثل عسير.



الفصل الثانى

أهمية الشعر النبطى باعتباره أحد مصادر التاريخ الحديث

أهمية الشعر النبطى باعتباره أحد مصادر التاريخ الحديث(*)

لابد قبل الولوج فى صميم هذا الموضوع من وقفة تمهيد يتم خلالها التعريف بعجالة بنشأة هذا الشعر وسبب تسميته. ويحسن الاعتراف سلفاً بأن هذه الوقفة لا تقدم اجابات شافية بقدر ما تحوى من ترجيحات واستنتاجات. إذ يتسم الموضوع بقدر ليس قليلاً من الغموض لم تبدده الكتابات القليلة التى تناولته.

وتجمع المراجع على أن هذا الشعر نشأ حين تطرق الفساد الى اللغة العربية، فشاع اللحن على ألسنة العرب نتيجة مخالطتهم للأعاجم. وفساد اللغة وشيوع اللحن لايحولان بين الناس وبين نظم الشعر باللغة التى يحكونها مهما كان حظها من الفصاحة. فلابد لكل لغة من أشعار راقية كانت أم سوقية. وقد سجل العلامة ابن خلدون هذا الواقع حين كتب: "ثم لما كان الشعر موجوداً بالطبع من أهل كل لسان لأن الموازين على نسبة واحدة فى أعداد المتحركات والسواكن وتقابلها موجودة فى طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة هى لغة مضد... بل كل جيل وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضر أهل الأمصار يتعاطون منه ما يطاوعهم من انتحاله ووصف بنائه على مهيع كلامهم..."(١).

(*) محاضرة عامة ألقيت فى كلية التربية بأبها فى السابع والعشرين من مارس ١٩٨٨. وقد أطلعت بعدها على بحث الأستاذ الدكتور/ عبد الله العثيمين، تناول فيه الموضوع من زاوية مقاربة. راجع: عبد الله العثيمين، الشعر النبطى مصدراً لتاريخ نجد، فى "مصادر تاريخ الجزيرة العربية، جامعة الرياض، ١٩٧٩، ج١، ص ص ٣٧٧ - ٣٩٦".

(١) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، بيروت، ١٩٨٢، ص ص ١١٢٤ - ١١٢٥.

أما متى ظهر هذا الشعر، فالأرجح أنه قديم قدم شيوع اللحن على ألسنة المتكلمين. وحيث أن تلك الظاهرة برزت منذ أيام الدولة الأموية، حتى أن اللحن والعجمة لم يقتصروا على عامة الناس، بل شاعا على ألسنة كثير من الخاصة مثل الأمراء والشعراء[1].

فلابد إذن أن يكون الناس قد نظموا شعراً ملحوناً منذ ذلك العصر المبكر. والغريب أن كتب الأدب العربى لم تنقل شيئاً من ذلك الشعر، رغم قولها مثلاً أن الرواة كانوا يأخذون على الشاعر الأموى الطرماح ابن حكيم استخدامه الألفاظ البدوية الغريبة فى شعره استخداماً غير دقيق، وكلغة بادخال ألفاظ النبط الأراميين فى قصائده[2]. وظل الحال كذلك الى أن ظهرت فى كتب الأدب العربى أسماء "المواليا" و"القوما" والـ "كان وكان" اعترافاً بوجود ذلك الشعر العامى.

ولا شك أن تلك الأنواع من الشعر العامى تمثل مرحلة وسيطة بين الشعر العربى القريضى والشعر النبطى كما هو معروف الآن.

وتجمع المراجع على أن هذا النوع من الشعر العامى البدوى سمى بالنبطى نسبة الى النبط، ليس لأنه موروث عنهم، ولكن لأن قائليه يشبهون أولئك النبط فى عجمتهم. وقد عرفت معاجم اللغة هذا المعنى، فذكر الفيروز آبادى فى "القاموس المحيط" إن "النبط ... جيل ينزلون بالبطائح بين العراقيين كالنبيط والأنباط وهو نبطى محركة ونباطى مثلثة ونباط كثمان وتنبط أو

---

(١) عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، القاهرة، ١٩٧٥، ج٢، ص ص ٢١١ – ٢٢٤.

(٢) شوقى ضيف، تاريخ الأدب العربى: العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٧٦، ج٢، ص ١٧٥.

تنسب اليهم..."[1]. ويأخذ الأستاذ الدكتور جواد على على اللغويين والإخباريين العرب تسمية سكان البطائح بالنبط، وهم يقصدون بتلك التسمية بقايا الشعوب القديمة، ومنهم مترسبات الآراميين فى العراق والشام الذين كانوا يتكلمون بلهجات عربية، ولكن برطانة أعجمية وبلكنة غريبة ظاهرة. فى حين أن تسمية النبط تنطبق علمياً على قوم استوطنوا شمال غرب شبه الجزيرة العربية وصحراء جنوب بلاد الشام، وسيطروا على تلك المنطقة ما بين القرن الرابع قبل الميلاد تقريباً وحتى القرن الميلادى الثانى[2].

ولا تمر تسمية هذا النوع من الشعر بالنبطى دون أن تثير اشكالاً. فقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته أن معاصريه من العرب فى أمصار المغرب كانوا يسمون هذا النوع من الشعر بالأصمعيات نسبة الى الأصمعى راوية الشعر المشهور. بينما كان العرب المشارقة يسمونه "البدوى" و "الحورانى" و "القيس"[3].

ومن المعروف أن ابن خلدون أنهى كتابة مقدمته سنة ٧٧٩هـ، فى حين أن أقدم ما وصل الينا من الشعر العامى الذى يحمل اسم "النبطى" يعود الى القرن العاشر الهجرى[4]. وعلى هذا تكون تسمية هذا النوع من العشر بـ "النبطى" قد ظهرت خلال الفترة الواقعة بين أواخر القرن

---

(١) محمد بن يعقوب الفيروز أبادى، القاموس المحيط، دار الجيل، بيروت، دون تاريخ، ج٢، ص ٤٠٢.

(٢) جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٧٨، ج٣، ص ص ٥ – ٧٥.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ١١٢٥.

(٤) عبد الله بن محمد بن خميس، الأدب الشعبى فى جزيرة العرب، الرياض، ١٤٠٢، ص ٧٧.

الثامن وأوائل القرن العاشر الهجريين. فلماذا أطلقت عليه هذه التسمية الجديدة وهجرت أسماؤه القديمة التى كانت مستخدمة زمن ابن خلدون؟

ولا تجيب المراجع المتاحة على ذلك السؤال، ولذلك لا مفر من معالجة هذا الإشكال بافتراض فرضين. أولهما أن هذه التسمية تسمية قاموسية أطلقها على هذا النوع من الشعر متعلمون عارفون بما تنسبه قواميس اللغة الى النبط فى عجمة، فقاسوا عجمة شعراء هذا النوع من الشعر الى عجمة النبط، وأطلقوا عليه هذه التسمية. وإلا ما الذى يجعل عوام الناس ينسبون هذا الشعر لقوم تفصلهم عنهم قرون طويلة إذابتهم فيما حولهم فى تجمعات بشرية بحيث لم يعد لهم وجود مادى قائم يجعل أسهمهم يتردد على ألسنة العامة؟ وما يعزز هذا الفرض أن استعراض قصائد الشعراء النبط يظهر أنهم لم يستخدموا هذه التسمية لوصف شعرهم، فكأن تلك التسمية بعيدة عن أذهانهم خارجة عن تصوراتهم.

أما الغرض الثانى فهو أن ابناء البادية حين أطلقوا على شعرهم تلك التسمية، إذا كانوا هم الذين أطلقوها، لم يكن فى أذهانهم قط نسبتها الى الأنباط. بل لعل المقصود منها هو قدرة الشاعر على استنباط المعانى كما يستنبط الماء من باطن الأرض. يدل على ذلك استخدام بعض العوام لكلمة "نبط" بمعنى مغزى الكلام أو هدفه الخفى. فيقولون: "عرف فلان نبطى"، أى أدرك مغزى كلامى وفحواه.

ومهما يكون سبب تلك التسمية، فإن الشعر "النبطى" يمثل مصدراً مهماً يزود الباحثين بالمعلومات عن أحداث التاريخ الحديث. ويحسن القول بادئ ذى بدء أن هذا الشعر شاع فى مناطق محددة هى وسط

وشمال شبه الجزيرة العربية وغرب العراق وجنوب وشرق بلاد الشام. ويحسن القول أيضاً أن الباحثين فى التاريخ الحديث لهذه المناطق يعانون أشد العناء من قلة (أو انعدام) المصادر التى تحمل وجهة نظر محلية معاصرة تجاه الأحداث. ولذلك يضطر أولئك الباحثون للاعتماد بصورة رئيسية على ما يرد فى المصادر الأجنبية وخاصة الوثائق الدبلوماسية وكتب الرحالة. ولا شك أن ذلك الاعتماد على المصادر الأجنبية لوحدها يعد أمراً خطيراً. فحتى لو فرض أن تلك المصادر توخت الدقة والتزمت جانب الموضوعية، فإنها لا تخلو أن يكون كاتبوها بعيدين ـــ قليلاً أو كثيراً عن فهم دقائق حياة هذا المجتمع الغريب عنهم لغة وتقاليد وممارسات. ولذلك تجئ أغلب الدراسات التاريخية الحديثة المعتمدة على تلك المصادر عاكسة لوجهة نظر مفردة غريبة عن روح المنطقة ومشاعر سكانها، رغم ما فيها من جهد علمى.

ولعل تجاوز هذا الواقع يتم ـــ فى أحد وجوهه ـــ بالرجوع لقصائد شعراء النبط واستخراج ما يرد فيها من معلومات وأخبار، واعتمادها وجهة نظر محلية صالحة لمقارنتها بما يرد من المصادر الأجنبية عن الموضوع نفسه. وتلك الأشعار جديرة بأن تكون كذلك الى حد بعيد، إذ أن الشاعر النبطى مصور لحال مجتمعه وناطق بلسان قومه يعكس وجهات نظرهم ويترجم مشاعرهم وأحاسيسهم. وهو أقدر أبناء مجتمعه على أداء ذلك الدور باعتباره أكثرهم وعياً وأفصحهم بياناً فى مجتمع كانت تسيطر عليه الأمية بشكل شبه تام. وقد يكون الشاعر فى بعض الأحيان شاهد عيان لما جرى من أحداث صورها فى قصائده، فتتضاعف بذلك أهمية الآراء والمعلومات التى أوردها.

وقد لا يقتصر دور الشاعر على مجرد وصف الأحداث التي عاصرها أو شهدها بنفسه، بل يتخطى ذلك بماله من شاعرية قوية الى الإسهام في توجيه أحداث عصره. وقد أدرك ذلك الدور "متنبي" الشعر النبطي محمد بن عبد الله العوني حين قال: "ليست العبرة بالذي يدبر الجيوش ويقودها ويحارب في الميادين، بل العبرة بالرجل الجالس أمام موقد قهوته ويستطيع وهو في جلسته هذه أن يشعلها حرباً ضروساً بين من يشاء من القبائل"(١).

ولعل من أبرز أمثلة هذا الشعر النبطي التحريضي المسهم في صنع الأحداث قصيدة العوني الشهيرة "الخلوج". وهي قصيدة طويلة مطلعها:

خلوج تجذ القلب بأتلى عوالها تكسر بعبرات تحطم سلالها

وقد بعث العوني هذه القصيدة للمقيمين في سوريا حينئذ من أهل القصيم. فصور لهم فيها حال بلدهم السيئة تحت حكم ابن رشيد أمير حائل، وما يعانيه أهلوهم من ذل، مستثيراً حميتهم وشهامتهم للتحرك من أجل تحرير بلدهم وانقاذ اهليهم.

وقد أخبرهم في هذه القصيدة أنهم لن يكونوا وحدهم حين تحركهم ضد ابن رشيد. بل سيكون معهم الشيخ مبارك الصباح ومن يتبعه من القبائل، وكذلك الشيخ سعدون بن منصور السعدون ومن يتبعه حرصاً

(١) ابن خميس، المرجع نفسه، ص ١٨.

منه على الثأر لأخيه وابن أخيه اللذين قتلا فى معركة الصريف[1].

ومن المعروف أن معركة الصريف (أو الطرفية) جرت سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠١م بين ابن رشيد من جانب، وابن صباح وابن سعود وابن سعدون من جانب آخر وانتهت بانتصار ابن رشيد انتصاراً ساحقاً[2].

أما عن القصائد التى تتضمن معلومات عن بعض الأحداث، فإننى، تجنباً للإطالة، أكتفى بإيراد مثلين منها. والمثلان قصيدتان للعونى أيضاً، أولاهما مطولة من مائة وثمانين بيتاً مطلعها:

قوموا كفاكم شر ميلات الأقدار   *شدوا على هجنى لهن الطرب دار*

وقد خصصها لوصف معركتى البكيرية والشنانة اللتين جرتا بين الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود من جانب والقوات العثمانية وابن رشيد من جانب آخر سنة ١٣٢٢ هـ/ ١٩٠٤م. بدأ العونى قصيدته بمقدمة تقليدية تصف الركائب التى حملتهم الى الأمير عبد العزيز، وتمدح الأمير. ثم انتقل لوصف تحرك قوات الأمير نحو عنيزة، وبين حال من وقف من أهل عنيزة الى جانب قوات ابن رشيد المدافعة عنها والتى كان يقودها ماجد بن عبيد الرشيد ومعه فهيد بن سبهان. ووصف كيفية انتصار قوات الأمير عبد العزيز على القوات

---

(١) محمد سعيد كمال (جامع وناشر)، الأزهار النادية فى أشعار البادية، الطائف، دون تاريخ، ج٥، ص ص ٣٠ – ٣٨.

(٢) خالد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت ١٣١٩ – ١٣٤١، الرياض، ١٤٠٣، ص ص ٥٢ – ٥٦.

المتحالفة متتبعاً سير المعركة منذ بدايتها حتى النهاية بشكل مفصل. وقد وردت تلك المعلومات كلها فى قصيدة واحدة، وهى تتفوق فى غزارتها على كثير مما جاء فى المراجع الأخرى التى تناولت تينك المعركتين. وكذلك كان الحال فى قصيدة أخرى للعونى تناولت أحداث معركة ثانية كان الشاعر خلالها شاهد عيان. وجرت تلك المعركة بين آل الرشيد وآل سعدون من جانب وقبيلة الظفير وأحلافها من جانب آخر. وقد ضمن الشاعر مشاهداته فى قصيدة مطلعها:

كابر وفاخر هل الدنيا وفاخرها يطفى لظى مطفى الهيجا مفاخرها

وتوضح تلك القصيدة أن سعود بن عبد العزيز آل رشيد، رغم كونه حاكم حائل، إلا أنه كان حينئذ فتى صغيراً لم يجاوز الرابعة عشر من عمره، وأن الحاكم الفعلى فى حائل كان زامل السبهان. وتذكر أن عجمى آل سعدون بعد أن تخلى عنه قومه عمل بنصيحة الشاعر نفسه فأتجه الى حائل يطلب النجدة ضد أعدائه من قبيلة الظفير وأحلافها. وقد هب ابن رشيد بالفعل لنجدته فاستنفر قبيلة شمر، وانضمت له ايضاً قبيلة مطير بقيادة فيصل بن سلطان الدويش. وسارت تلك الجموع حتى نزلت "ابو غار" غرب نهر الفرات. ولم يبادئ ابن رشيد ومن معه قبيلة الظفير بالحرب، ولكنه أراد فى البداية أن يكون تحركه مظاهرة قوة تهدف للضغط عليها ودفعها للاستجابة لمطالب حليفه عجمى.

غير أن أبى سويط شيخ قبيلة الظفير لم يستغل الفرصة المتاحة، ولم يلب طلب ابن رشيد، فنشبت الحرب بين الطرفين عند "شقراء". وكانت نتيجة المعركة هزيمة ساحقة للظفير وأحلافهم كبدتهم خسارة

ألف وسبعمائة قتيل[١].

وتعتبر المعلومات التى أوردها الشاعر فى قصيدته عن تلك الحادثة مفصلة بشكل كبير إذا ما قورنت بالمصدر الوحيد الآخر الذى ذكرهـا، وهو تقرير للمقيمية السياسية البريطانية فى بغداد حوى خلاصة أحداث شهر مارس وأبريل سنة ١٩١٢. إذ لم يزد ما جاء فى ذلـك التقريـر على القول أن ابن رشيد انحدر من حائل الى "الخميسية" علـى نـهر الفرات للامتيار. ولكن وجوده هناك أدى الى احتكاك بينه وبين القبـائل المحيطة بالخميسية مثل الظفير والخزاعل. ورغم ميل ابن رشيد للسـلم إلا أنه اضطر للصدام مع تلك القبائل صداماً أسفر عن انتصـار ابـن رشيد فى شهر مارس من تلك السنة[٢].

ولا يعنى اقتصار الاستشهاد على قصائد العونى أنه كان الشـاعر الوحيد الذى تناول بعض أحداث عصره فى قصـائده. بـل أن هنـاك العشرات من الشعراء غيره حوت قصائدهم معلومات كثيرة لا غنـى للباحث عن الإطلاع عليها. ولكن المجال لا يتسـع هنـا لاسـتعراض المزيد من تلك القصائد.

ويحسن الانتقال الآن الى صنف آخر من شـعراء النبـط، وهـم الشعراء من الساسة والأمراء. ولعل حضراتكم جميعاً تتفقون معى على أهمية ما تتضمنه قصائدهم من آراء ووجهات نظر باعتبارهم صنـاع الأحداث. ويمكن تشبيه قصائدهم بمـا يعـرف لـدى البـاحثين فـى

---

(١) كمال، المرجع نفسه، ج٥، ص ص ١٥ – ٢٩.

(2) IOR,L/P+S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq for the months of March and April 1912, p. 13.

التاريخ بـ "الوثائق الرسمية المنشورة". إذ أنها بديلة لهذا النوع من الوثائق فى عصر سادت فيه الأمية فى المنطقة وندرت عملية التدوين ندرة ظاهرة. ولعل من أشهر الأمثلة على هذا الصنف من الشعراء الأمير تركى بن عبد الله آل سعود مؤسس الدولة السعودية الثانية وابنه الأمير فيصل بن تركى، وجاسم آل ثانى حاكم قطر، والأميرين عبد الله وعبيد العلى الرشيد فى حائل، وغيرهم.

وتعد قصيدة الأمير تركى بن عبد الله آل سعود، ومطلعها:

طار الكرى من فوق عينى وفرا وفزيت من نومى طرت لى طوارى

من أبرز القصائد فى هذا الباب. فإضافة لاعتبارها فى عيون الشعر النبطى، تظهر القصيدة ما كان عليه قائلها من همة عالية وجلد كبير وصبر على المكاره. وقد ذكر الأمير فى قصيدته هذه ما بذله من جهود كبيرة لإعادة جمع الشتات فى نجد بعد سقوط الدولة السعودية الأولى على أيدى قوات محمد على باشا. وبين نجاحه فى تأسيس قواعد ملك مكين فى نجد استهداءً بمبادئ الشرع الشريف. ونعى الأمير فى قصيدته على بعض أبناء عمومته استسلامهم للأمر الواقع ورضاهم بالحياة المنعمة تحت ظل آسريهم فى مصر، وحثهم على التخلص من ذلك الوضع والقدوم الى نجد كى يشدوا أزره ويعاونوه فى مساعيه[1].

أما قصيدة الإمام فيصل بن تركى آل سعود التى مطلعها:

---

(١) منتخبات من الشعر النبطى لأشهر شعراء نجد، ص ص ١١ – ١٢ (لا ذكر للجامع ولا الناشر ولا مكان النشر ولا تاريخه).

فتكشف عما بذله الشاعر من جهود حثيثة فى سبيل إعادة بناء الدولة السعودية، وعما حققته تلك الجهود من وصول الى الهدف المرجو. واستعرض فيها الإمام من وقف الى جانبه خلال ذلك كله، ومن نكص على عقبيه[1].

ومن المعروف أن مهمة البحث التاريخى العلمى لا تقتصر على تتبع الأحداث السياسية والحربية وتدوينها، بل أن مهمته الأساسية هى محاولة تصوير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التى عاش الناس فى ظلها خلال فترة زمنية معينة. وليس هناك من هو أقدر من شعراء النبط على تقديم صورة الواقع الاجتماعى والاقتصادى الذى كانوا يعيشونه. فلا ريب أن الشاعر الصادق مرآة عصره ولسان مجتمعه، كما أن أكثر شعراء النبط كانوا يعيشون فى قاع المجتمع لصيقين بما كان يجرى فى ذلك القاع ويعكسونه فى قصائدهم. ويكفى للتمثيل على هذا الصنف فى القصائد بما كتبه الشاعر الساخر حميدان الشويقر[2]. إذ تحفل قصائده بكثير من الوصف الدقيق لما كانت عليه حياة أهل النصف الأول فى القرن الثانى عشر للهجرة فى شظف وفاقة وعناء. فنقل الشاعر صور ذلك كله بلغة لاذعة وتعابير حادة.

ولا يقتصر الأمر على الشويعر وحده، بل هناك كثير غيره من الشعراء صوروا ما فى بيئاتهم من عادات وتقاليد، وما مر بها من

---

(١) ابن خميس، المرجع نفسه، ص ص ٣٢٦ – ٣٢٨.

(٢) يمكن أخذ فكرة عن شعره فى : كمال، المرجع نفسه، ج٩، ص ص ٥ – ٥٩.

ضائقات اقتصادية، وما اجتاحها من أوبئة وأمراض، بل وما عاناه السكان من بعض المظالم السياسية. ويكفى للتدليل على هذا النوع الأخير من انشعر ذكر بيت واحد من "الحداء" قاله أحد أبناء القبائل العراقية وهو:

الله بلانا بلوتين ما بين "أفندم" و "محفوظ"[1]

وقد صور الشاعر ما كان يعانيه أبناء القبائل من جراء إزدواجية السلطة بين الموظفين العثمانيين الذى رمز لهم بكلمة "أفندم" وبين شيوخ القبائل الذى رمز لهم بكلمة "محفوظ". ولعل حضراتكم تلاحظون معى براعة هذا الشاعر الذى أوجز فى بيت واحد مؤلف من سبع كلمات فقط الواقع الذى يشكو منه ثم تخطى تشخيص الواقع الى نوع من فلسفة التاريخ، حين علل ذلك الواقع الشخصى بأنه بلوى وامتحان من الله سبحانه.

ولعل البعض سيعترض على اعتماد الشعر النبطى مصدراً من مصادر كتابة التاريخ الحديث في المنطقة. ولعل اعتراضه سوف يتركز على أن الشعر النبطى مر قبل تدوينه بمرحلة الرواية الشفهية، ولذلك فلابد أن قصائده أو بعضها قد دخلت فيها بعض التحريفات العفوية أو أدخلت فيها تحريفات متعمدة. وذلك فرض لا يمكن انكار حدوثه بالفعل، ولكن ذلك الحدوث ليس قاصراً على الشعر النبطى فقط، بل سبقه فى ذلك الشعر الإغريقى القديم والشعر العربى الجاهلى قبل تدوينها. ومع ذلك نجد أن الباحثين فى التاريخ الإغريقى والعربى لابد

(١) عبد الله فياض، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، بغداد، ١٩٧٥، ص ٥٣.

لهم من العودة لدراسة تلك الأشعار، إن لم يكن للتعرف على أحداث محددة، فللتعرف على الأحوال الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية السائدة وقت كتابته. وعلى هذا يمكن أن يكون الموقف تجاه الشعر النبطي مطابقاً لذلك تماماً. فيتم التعرف من خلاله على بعض مظاهر الأحوال الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية لأن احتمال التحريف في هذه الأمور ضئيل، إن لم يكن منعدماً. أما الأحداث وما يتصل بها من تواريخ وأسماء وأعداد التى ترد فى ثنايا قصائد الشعر النبطى فيمكن للباحث الوقوف أمامها موقف تحفظ الى أن يجد ما يفرزها فى المراجع والمصادر الأخرى المتاحة. وعندها يقوم بالمقارنة بينها مقارنة دقيقة ممحصة. وسوف تمكنه تلك المقارنة من الوصول الى صورة للحدث قريبة من الصحة وأكثر اتزاناً.

وثمة أمر آخر قد يعترض به أحد المعترضين، وهو صعوبة فهم اللهجات المحلية التى كتب بها الشعر النبطى على كثير من الباحثين. وليس لمثل هذا الاعتراض سند قوى، إذ يمكن القول أن أغلب المفردات المستخدمة فى صياغة الشعر النبطي أكثر فصاحة مما نستخدمه من لغة حديثنا اليومى. كما أن جامعى الشعر النبطى وناشريه يشرحون عادة فى هوامش الدواوين كثيراً من الكلمات الغريبة والمصطلحات الصعبة مما ييسر على القارئ فهمها. وليس فهم شعر كتب بلهجة عربية دارجة أكثر صعوبة من فهم محتويات وثيقة مدونة بإحدى اللغات الأجنبية التى يلزم الباحثون بتعلمها على أية حال.

وخلاصة القول أننى أعتقد أن من الواجب على الباحثين فى تـاريخ وسط وشمال شبه الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام خلال القـرون الأربعة الهجرية الأخيرة إلقاء نظرة مدققة على دواوين شعراء النبـط المعاصرين للفترات التى تتناولها بحوثهم. ولعلهم يتعرفون عـن هـذا الطريق على وجهة نظر محلية صميمة تجعل نتائج بحوثهم أكثر توازناً ودقة، وتجنبها مأخذ الاعتماد المطلق على ما يرد فى المصادر الأجنبية وحدها.

ولعل هذا القول نفسه ينطبق، الى حد كبير، على الأشكال الأخـرى فى الأشعار الشعبية فى بقية أنحاء الوطن العربى مثـل "الحمينـى" و "الموال" و "العتابا" و "الزجل" وغيرها.

الفصل الثالث

مشروع الاستيطان الصهيوني في العراق بين سنتي ١٩٠٨-١٩١٣

لا أري من الضروري تكرار الحديث هنا عن الحركة الصهيونية، فأمرها شائع معروف لدى أكثرية القراء الكرام، ولكن يهمني القول أن وفاة زعيم الحركة الصهيونية تيودور هرتزل سنة ١٩٠٤م أدت إلي انقسام الحركة الصهيونية بين "العلميين" و "السياسيين" ويصر "العلميون" علي ألا ينشأ الوطن الصهيوني إلا في فلسطين بينما يسعى "السياسيون" لايجاد حل فورى للمشكلة اليهودية سواء فى فلسطين أو غيرها[١]. وقد تكرس ذلك الانقسام أثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني السابع الذى عقد في مدينة بال في تموز (يوليو) ١٩٠٥م، حيث انشقت عن المنظمة الصهيونية بعض الفصائل المنضوية تحت اتجاه " السياسيين " ومن تلك الفصائل " المنظمة الاقليمية اليهودية The Jewish Territorial Organization بقيادة اسرائيل زانغويل Israel Zangwill[٢].

ولقد أصبح لزانغويل دور كبير في الدعوة لفكرة الاستيطان الصهيوني في العراق التي نحن معنيون بمتابعة تطوراتها في هذا البحث.

ويحسن القول قبل التعرف علي أنشطة زانغويل وزملائه في هذا المجال أن فكرة الاستيطان الصهيوني في العراق لم تكن من بنات

---

(١) آلن تايلر ، تاريخ الحركة الصهيونية : تحليل للدبلوماسية الصهيونية ١٨٩٧-١٩٤٧، ترجمة بسام أبو شريف، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٨-١٩.

(٢) حسان علي حلاق ، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧-١٩٠٩،بيروت ١٩٧٨، ص٢٠٧.

أفكار زانغويل في هذه الفترة. إذ أنها وجدت قبل انشقاقه عن المنظمة الصهيونية، بل وقبل انشاء هذه المنظمة ذاتها علي يد هرتزل سنة ١٨٩٧. ولعل أول من فكر في انشاء مستعمرة يهودية في العراق هو بول هوبت P.Haupt الأستاذ في جامعة جون هوبكنز John Hopkins . إذ أنه أعد في سنة ١٨٩٢ دراسة مفصلة عن الفكرة ووزعها علي عدد من أصدقائه طالباً منهم إبداء آرائهم فيها. وقد تناول هوبت في دراسته كل ما يتعلق بالفكرة مثل الظروف المناخية السائدة في العراق ومساحة الأرض المتوفرة هناك، والمنتجات المحتملة في المستعمرة، وسكة الحديد التي ستبني وكلفتها التقريبية، وكيفية الاستيراد للمستعمرة من الخارج عبر الخليج، والمواصلات داخل المستعمرة، وإمكانية استخدام الآلات الزراعية فيها، وكيفية أقامة تجارة تصدير في المستعمرة للخارج، وامكانية استغلال رواسب الأسفلت الضخمة المتوفرة في العراق، والوجود المحتمل للنفط، واستغلال مصائد الأسماك وغير ذلك[1].

ولم تبق الفكرة مجرد دراسة نظرية أعدها أحد الأكاديميين، بل طرحت بعد ذلك في ساحة المداولات السياسية بين الأطراف المعنية. إذ يشير بعض الباحثين إلي أن السلطان العثماني عبد الحميد الثاني عرض علي تيودور هرتزل سنة ١٩٠٢ قبوله بهجرة اليهود إلي العراق واستيطانهم هناك[2]. ويبدو من المستغرب هنا أن يقدم السلطان

(1) N.A R S., RG84, NO.47,G.BieRavndal, Con.-Gen., Beirut, to A.Bird, Am.Vice Con. InCharge, Bag., Dated 14/6/1909, enclosure No.1.

(٢) صادق حسني السوداني، النشاط الصهيوني في العراق ١٩١٤-١٩٥٢، بغداد ، ١٩٨٠، ص ١٠ ، وراجع أيضاً : محمود حسن منسي ، تصريح بالفور ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ٢٧.

عبد الحميد علي اعطاء هذا العرض لهرتزل،وهو المعروف عنه صلابته أمام الأطماع الصهيونية وعدم استجابته لأغراءاتها. وربما كان دافع عبد الحميد هو تشتيت انتباه الحركة الصهيونية المركز علي فلسطين، أو هو محاولة للاستفادة من القروض اليهودية لرفد الخزينة العثمانية التي كانت تعاني من ضائقة مالية مستحكمة، أو التخلص من الضغط الصهيوني المتزايد عليه. ومهما كان دافعه فأن تقديمه ذلك العرض لهرتزل- أن كان قد قدمه فعلاً - يدل علي خفة سياسية واضحة لم تحسب حساباً للنتائج الخطرة المترتبة عليه سواء بالنسبة إلي العراق أو فلسطين ذاتها أو الدولة العثمانية عموماً.

ورغم أن هرتزل رفض ذلك العرض مصراً علي استيطان اليهود في فلسطين أول الأمر، إلا أنه عاد وقبل العرض باعتباره خطوة تمهد لليهود الاندفاع نحو فلسطين من منطقة قريبة مجاورة. ويبدو أنه تحمس للفكرة فيما بعد حتى أنه كتب في غضون سنة ١٩٠٣ للصدر الأعظم يطالبه بتنفيذها مقابل تغطية الديون المالية للدولة العثمانية. ولكن السلطات العثمانية هي التي رفضت هذه المرة[١]. ولعل ذلك الرفض ناتج عن ادراك من تلك السلطات لمخاطر الحركة الصهيونية، ومحاولة لتدارك الخطأ الذى وقعت فيه أول الأمر حين قدمت ذلك العرض لهرتزل. ولا يبعد أن يكون تغير الموقف العثماني ناتجاً عن إيحاء ألماني بعد أن منح السلطان عبد الحميد الألمان امتياز تنفيذ سكة حديد بغداد في آذار (مارس)١٩٠٢، مع ما يتضمنه ذلك من خطط ألمانية لاعتبار العراق منطقة نفوذ اقتصادي ألماني، بعد ازاحة أو

---

(١) السوداني ، المرجع نفسه ، ص ص ١٠-١١.

تقليص النفوذ البريطاني هناك. علماً بأن الحركة الصهيونية كانت تتودد لبريطانيا حينئذ .

ويبدو أن تراجع السلطات العثمانية عن عرضها المذكور لم يكن نهاية المطاف لحلم الصهاينة بالاستيطان في العراق. إذ ذكر الوزير الألماني المفوض في بغداد فريتز غروبا في مذكراته محاولة " بعض المنظمات اليهودية الانكليزية والفرنسية مرات عديدة أن توطن في العراق مجموعات من الفلاحين اليهود من أوروبا الشرقية لاتساع الأرض ووفرة المياه في العراق من قلة السكان الذين يقومون بزراعتها. وفي سنة ١٩٠٧ أوفدت جمعية التوطين اليهودية I.C.A التي مقرها لندن وتتعاون تعاوناً وثيقاً مع الأليانس ايزرائيليت [١] في باريس اليهودي الفرنسي نييغو Niego إلي بغداد لدراسة موضوع التوطين. وقد بقي نييغو أربعة أشهر أو خمسة في بغداد وأعد تقريراً أبدي فيه رأيه في امكانية التوطين وكان مؤيدا له. وقد أقترح أن يبدأ توطين اليهود في أراضي كاظم باشا، صهر عبد الحميد، في شمال بغداد. وأقترح توطين خمسين ألف يهودي روسي وبولونى، فأيد المشروع وزير مالية تركيا جاويد بك، وهو يهودي دخل في الإسلام، ولكن عبد الحميد رفضه.."[٢]. ووقوع اختيار الصهاينة علي أراضي صهر السلطان عبد الحميد محاولة مفضوحة لربط جهات متنفذة بعجلة المشروع الصهيوني.

---

(١) المقصود هو : The Alliance Israelite Universelle

(٢) نجدة فتحي صفوة ، العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب ، ط ٢ ، بغداد ، ١٩٨٤، ص ص ١٢٣-١٢٤.

وجاء بعد ذلك انقلاب تموز (يوليو) ١٩٠٨ الـذى قادتـه جمعيـة الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد الثاني ليعطي دفعة قوية للأنشطة الصهيونية في الدولة العثمانية إذ تكاد المراجع أن تجمع علي تأكيد العلاقة الوثيقة التي ربطت الأوساط الماسونية واليهودية برجال جمعية الاتحاد والترقي قبل الانقلاب وبعده. كما أن التقارير الدبلوماسية البريطانية كانت تؤكد علي تلك العلاقة، مما جعل بعض الباحثين يشك في مدى دقة تلك التقارير ويميل للاعتقاد في أنها كانت تتسم بالمبالغة بعض الشئ رغبة من البريطانيين باشهار سلاح فعال بوجه الاتحاديين إذا وقفوا ضدهم، وبوجه النفوذ الألماني المتزايد في الدولة العثمانية بعد الانقلاب[١].

وتعكس تلك التقارير تغييراً في موقف السلطات البريطانية تجاه الحركة الصهيونية عموماً في هذه الفترة، وتجاه مشروع الاستيطان اليهودي في العراق بوجه خاص. وكما لاحظ أحد الباحثين فأن بريطانيا " لم تلبث أن ساورتها الشكوك في اتجاهات الصهيونية حيث ساد الاعتقاد في الدوائر البريطانية بعد ثورة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨ واتجاهها للتحالف مع ألمانيا بعد فترة وجيزة من ثورتها بأن اليهود عامة والصهيونيين خاصة أداة في يد ألمانيا لتقويض مركز بريطانيا في الشرق وضم الترك إلي المانيا... وقد كان لنشاط الوكالة اليهودية في الأستانة ونشاط اليهودي الفرد نوسغ A.Nossig[٢] أثر علي هذا

---

(١) سيرية قاسمية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨-١٩١٨، بيروت ١٩١٣، ص٤٥.

(٢) صهيوني ألماني انشق علي المنظمة الصهيونية واسس منظمة مستقلة أسمها . The Jewish Colonization Association.

الاعتقاد فقد أنشأت الوكالة الصهيونية لها فرعاً في الاستانة عام ١٩٠٨، وكان مديرها فكتور جيكوبسون V.Jacobson... يري أن تأييد ألمانيا للصهيونية أكثر أهمية من تأييد أية دولة أخري... أما نوسغ فأنه عقب الثورة التركية عام ١٩٠٨ مباشرة حضر إلي الاستانة ومعه مشروعات لتوطين اليهود في فلسطين والعراق... ولا شك أن فكرة تصدر من ألمانيا بتوطين اليهود في العراق لابد أن تثير شكوك بريطانيا ومخاوفها حيث لم يكن هناك مكان تتصادم فيه مصالح بريطانيا بمصالح ألمانيا أكثر من العراق ..."[١].

ونعود الآن إلي التعرف علي الجهود الصهيونية التي بذلت لدى الحكم العثماني الجديد الذى قام بعد الانقلاب حول فكرة توطين اليهود في العراق وما أسفرت عنه تلك الجهود عملياً. وأول ما يلاحظ في هذا المجال أن النظام الجديد في الدولة العثمانية أتخذ في وقت مبكر بعد الانقلاب موقفاً متعاطفاً إلي حد ما مع المساعي الصهيونية. إذ اجتمع ناظم بك السكرتير العام لجمعية الاتحاد والترقي بقائد صهيوني هو ماكس نوردو في باريس خلال شهر نوفمبر سنة ١٩٠٨ وأكد له أن اتفاقات قد عقدت مع " جمعية الاستيطان اليهودية"، و" التحالف الاسرائيلي العالمي" تتضمن موافقة الدولة العثمانية علي استيطان مائة ألف يهودي في اثنتين وثلاثين ولاية عثمانية شرط دخولهم إليها بشكل

(١) منسي ، المرجع نفسه ، ص ص ٣١-٣٢.

جماعات متفرقة.[١] ورغم ما في هذا الخبر من غموض لا يبين معه أسماء تلك الولايات ولا حصة كل منها من ذلك الرقم، والذى أعتقد أنه غموض متعمد القصد منه تمكين اليهود من التسرب إلي فلسطين أو الولايات القريبة منها علي الأقل، إلا أن المهم فيه هو كشفه عن اتجاه السلطات الجديدة نحو التجاوب مع المطالب الصهيونية، ولو بشكل متحفظ في بداية الأمر تجنباً لأثارة الرأي العام العربي والاسلامي سواء في داخل الدولة العثمانية أو خارجها.

ولم تلبث أوساط جمعية الاتحاد والترقي طويلاً قبل أن تخطو خطوة أخري للاقتراب من التطلعات الصهيونية، وذلك حين دعا أحمد رضا بك أحد زعماء الجمعية ورئيس مجلس النواب العثماني (المبعوثان) في ربيع سنة ١٩٠٩ لايجاد وطن ذى حكم ذاتي لليهود في العراق تحت ظل الدولة العثمانية .[٢] وقد جاءت هذه الدعوة عبر الحاخام الأكبر لليهود الذى عممها بدوره علي اليهود في كافة أنحاء العالم، حيث كان لها صدى كبير خاصة في الولايات المتحدة التي كانت تنشط فيها حينئذ ثلاثمائة وثلاثون منظمة صهيونية يصل عدد أعضائها العاملين إلي خمسين ألف رجل[٣]. ولذلك لا غرابة أن نجحت تلك المنظمات في تعيين أحد المنتمين إليها وهو أوسكار ستراوس Oscar Strauss سفير الولايات المتحدة لدى الدولة العثمانية خلال هذه

---

(١) صادق علي الربيعي، الاستيطان الصهيوني في فلسطين ابان حكم الدولة العثمانية ١٨٨٢-١٩١١،رسالة ماجستير مقدمة لمعهد البحوث والدراسات العربية سنة ١٩٧٨، ص ص ١٧١-١٧٢.

(2) N.A.R.S., RG84, No.47, enclosure No. 2

(3) N.A.R.S., RG84, No.47, enclosure No. 1

الفترة. وقد أخذ هذا السفير يعمل بنشاط مع المصرفي الصهيوني جاكوب شيف J.Schiff للتأثير علي أفراد الجالية اليهودية في الولايات المتحدة ودفعهم لتأييد فكرة توطين اليهود في العراق [1].

ويبدو أن الأوساط الصهيونية في الولايات المتحدة أخذت تنظر لمشروع الاستيطان الصهيوني في العراق وكأنه أصبح قاب قوسين أو أدني من التنفيذ العملي، حتى أنها أخذت تنظر في تقدير كلفة المشروع المالية. فقد ذكرت صحيفة " نيويورك تربيون The New York Tribune في عددها الصادر يوم ٢٤ مايو ١٩٠٩ أن تخمين كلفة المشروع بلغ أربعين مليون دولار لازمة لري الاقليم، ولكن عن طريق هذا الاتفاق مضافاً إليه كلفة النقل فأن الوضع في روسيا حيث يعيش خمسة أو ستة ملايين يهودي في حالة بائسة، دون الحديث عن يهود رومانيا الذين يقدرون بحوالي أربعمائة ألف نسمة، سوف يعالج كلية ... استلمت في هذه المدينة اليوم أنباء خاصة من لندن تفيد عن اجتماع للمنظمات اليهودية الاقليمية أعلن خلاله السيد زانغويل والسيز أندرو ونغيت Sir A.Wingate وماير سبيلمن M.Spielman وآخرون أن استيطان ما بين النهرين سيكون الحل للمشاكل التي أحاطت باليهود منذ شتتوا من فلسطين ... ينتظر أن يصل السيد شيف إلي لندن هذا الأسبوع ليتباحث مع أولئك الرجال الذين تلقوا تأكيدات من الحكومة التركية بأن بلاد ما بين النهرين ستمنح لليهود كي يطوروها ويديروها حسبما يرون ذلك ملائماً... من المزمع ارسال بعثة استكشاف عبر ما بين النهرين لغرض جمع المعلومات التي ستواجه الداعين لفكرة المستعمرة... في

(١) أورفان محمد علي ، السلطان عبد الحميد الثاني ، الانبار ، ١٩٨٧ ، ص ٢٩٥.

برقيات من لندن قال أصدقاء السيد زانغويل اليوم أن تعاون السيد شيف سيعني أن خطة انشاء مستعمرة فيما بين النهرين ستنال دعما ماليا لم تنله خطة أخري... ستتوقف الخطوة القادمة في الخطة علي تقرير البعثة التي ستقوم بدراسة شاملة لبلاد ما بين النهرين وتقدم تقريرها لمختلف المنظمات اليهودية العالمية التي تحبذ انشاء مستعمرة هناك.(١)

أما صحيفة شيكاغو ريكورد هيرالد The Chicago Record- Herald وهي أحدى الصحف الأمريكية الواسعة الانتشار حينئذ، فقد كتبت بدورها عن ذلك المشروع في عددها الصادر يوم الثامن عشر من مايو ١٩٠٩ قائلة "إن جاكوب شيف، وهو مصرفي، واسرائيل زانغويل، مؤسس ورئيس المنظمة اليهودية الاقليمية، انضما معا في جهد مشترك من أجل استيطان ما بين النهرين، باعتبار ذلك حلا وسطا بين خطط الاستيطان الصهيوني في فلسطين. وقد استلمت هذه الأنباء من قبل جاكوب فشمن J.Fishman رئيس تحرير صحيفة جويش ديلي نيوز The Jewish Daily News في هذه المدينة... إن جمعية أيكا The Ica Society، وهي منظمة الاستيطان اليهودية الأكبر والأغنى في العالم، والتي ترك البارون الراحل هيرش Baron de Hirsch في عهدتها خمسة وأربعين مليون دولار، أرسلت بعثة مسح جغرافي للتحقق من الأحوال هناك. وأظهرت التقارير أن الأرض خصبة جدا وأن كل المطلوب لجعلها منتجة هو توفر الري. لقد قبل الصهيونيون المشروع حالا لأن بلاد ما بين النهرين ليست بعيدة عن فلسطين. ويعتقد أنه من خلال جهود السيد شيف، الذى يتجول الآن في أوربا، يمكن للمنظمات اليهودية المتحدة في

---

(1)N.A.R.S., RG84, No.47, enclosure No. 1

العالم أن تتم الخطة، وأن العمل من أجل الاستيطان يمكن أن يبدأ في تاريخ مبكر" (١).

ويبدو للمدقق فيما كتبته هاتان الصحيفتان الامريكيتان تناقض واضح حول بعثة المسح المقرر أرسالها للعراق. ففي حين قالت صحيفة نيويورك تريبيون أن تلك البعثة سترسل فيما بعد، ذكرت صحيفة شيكاغو ريكورد هيرالد أن تلك البعثة قد أرسلت بالفعل، مع العلم أن الصحيفة الأولي صدرت بعد الثانية بستة أيام. وأعتقد أن هذا التناقض ظاهري فحسب إذ أن ما عنته صحيفة شيكاغو ريكورد هيرالد هي البعثة التي أرسلت سنة ١٩٠٧ من قبل منظمة إيكا والتي سبق أن نقلنا خبرها كما اورده فريتز غروبا. في حين أن ما عنته صحيفة نيويورك تريبيون في قولها أن بعثة سترسل للعراق هي البعثة التي أرسلت بالفعل فيما بعد، ووصلت بغداد في ديسمبر ١٩٠٩ كما سيمر بنا بعد قليل.

ورغم أن المراجع تكاد تجمع علي الدور الكبير الذى لعبه السفير الأمريكي في استانبول حينئذ في تشجيع ورعاية المشروع، إلا أن ما بين يدي من المراسلات الدبلوماسية المتبادلة بين القنصلية الأمريكية في بغداد وسفارتها في استانبول لا تكشف أي دور مباشر له ينم عن ذلك التشجيع. ولعله تجنب أن يظهر أمام حكومته في واشنطن بمظهر الصهيوني الصريح الذى يستغل مركزه الحكومي لخدمة أغراض غير رسمية. ولذلك لا عجب أن نري القنصل الأمريكي العام في بيروت -

---

(1)N.A.R.S., RG84, No.47, enclosure No. 2.

وربما بإيحاء خفي من السفير–هو الذى يفاتح القنصلية الأمريكية في بغداد حول المشروع. فقد جمع القنصل العام المعلومات المتوفرة لديه عن المشروع وارسلها لنائب القنصل الأمريكي في بغداد في شهر يونيو ١٩٠٩ طالبا منه أن يوافيه بما لديه من معلومات حول المشروع وعن رأيه الشخصي فيه باعتباره يعيش في موقع الحدث(١).

وفي شهر سبتمبر ١٩٠٩ رد نائب القنصل الأمريكي في بغداد(٢) علي القنصل الامريكي العام في بيروت قائلا: " أن أي شخص قضي أية مدة في تركيا(٣)،وخاصة فيما بين النهرين، يدرك أن الصعوبات الهائلة المصاحبة لتنفيذ أي مشروع كهذا تبدو جلية لدرجة تجعل من الصعب اعتباره عمليا بأي شكل في الوقت الحاضر. أن تركيا الآن أقل ملائمة مما هي دائما لقبول خلق أية حالة استقلالية أو جماعية Community في امبراطوريتها. وأية دعوة كهذه نشرت من قبل أحمد رضا بك بهذا المعني يجب أن تستقبل ببعض النزوع إلي الشك. يجب تذكر أن ما بين النهرين أو علي الأقل ذلك الجزء مما بين النهرين الواقع في دلتا نهري دجلة والفرات هو معقل الإسلام. ومشكلة التعامل

---

(1)N.A.R.S., RG84, No.47

(٢) من المفيد القول هنا أن نائب القنصل الأمريكي هذا كان بريطاني الجنسية، فقد درجت وزارة الخارجية الأمريكية علي تعيين مواطن بريطاني من المقيمين في بغداد والعاملين في الشركات الامريكية هناك لهذا المنصب، لأن الوزارة كانت تعاني خلال الفترة السابقة للحرب العالمية الأولي في كثير من الأحيان من صعوبة اقناع مواطن أمريكي بالتوجه إلي بغداد لتولي منصب القنصل هناك، لأنها مدينة نائية عن أمريكا، ولأن المردود المادي لتلك الوظيفة لم يكن مغريا.

(٣) كان الدبلوماسيون الأجانب حينئذ يعممون اسم تركيا علي الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية.

مع المدن المقدسة والأضرحة مثل تلك الموجودة في كربلاء والنجف وسامراء والكاظمين ومشهد[١]، اضافة إلي أضرحة أخري كثيرة أقل أهمية، لا يبدو أنها أخذت في حسابات القائمين علي هذا المشروع ، كما يستنتج من الفقرات التي ظهرت في نيويورك تربيون، ومن الصعب تصور تغير كهذا ذى اعتبار سياسي يستند إلي حركة دينية في جوهرها ينفذ دون اثارة تعصب اسلامي لحد يغمر القطر كله بالدماء والفوضي.

واستطرد نائب القنصل في رسالته يقول: " وحتى لو افترضنا أن دعوة أحمد رضا بك لم تنقل بدقة، وأن المشروع لا يعني أكثر من حيازة مقاطعات معينة من الأرض فيما بين النهرين لاقامة مستوطنات يهودية زراعية تحت ظل الحكم التركي، فستظل هناك صعوبات خطيرة للغاية يجب أخذها في الاعتبار. ففي ظل مشروع مثل هذا افترض بأن المستوطنين اليهود سيحتفظون بجنسياتهم السياسية، وستثور عنده قضايا خطيرة من وقت لآخر يمكن تصورها جيدا من خلال وجود مئات الآلاف وربما ملايين من الأجانب، غالبا من الروس، في جزء من الامبراطورية العثمانية غير مستقر وخارج عن السيطرة، أن تدفق عدة ملايين من اليهود فيما بين النهرين، إذا احتفظوا بجنسياتهم السياسية، سيمثل بالطبع عاملا جديدا وحادا في متاهة معقدة بالفعل للمصالح السياسية في الشرق الأوسط.

---

(١) كانت النجف تسمي في بعض المراجع المعاصرة " مشهد علي " أو " مشهد " فقط، وهي غير مدينة " مشهد الرضا" المعروفة في إيران ، والظاهر أن الأمر اختلط علي نائب القنصل فعدها مدينة أخري في العراق غير النجف.

ثم انتقل نائب القنصل للقول: " أن الحكومة التركية بطيئة الحركة، ولكنها وضعت الآن قيد الاعداد خطة لإعمار ما بين النهرين، حين حصلت علي خدمات السير وليم ولكوكس[1] للقيام بالمسح والوصف والنصح. وليس من غير المحتمل أن ينفذ هذا العمل في المستقبل القريب، أن لم يكن بتمويل تركي فتحت التوجيه التركي علي الأقل. وإن زيارة بعثة استكشاف يهودية ستفعل الكثير- بلا شك- لإزالة ما يوجد من سوء فهم واضح جدا متصل بالأحوال الواقعية. إن إعمار ما بين النهرين يمكن أن يحدث فقط بزيادة الأمن. وحين يأزف الوقت فربما يمكن انجاز ذلك الإعمار عن طريق الترك أنفسهم بمعاونة رأسمال أجنبي . ولكن جذب هذا الرأسمال يتطلب من الترك أولا نشر الهدوء في القطر وتوفير الاستقرار فيه بشكل يضمن درجة كافية من الأمن.

وعن الأملاك السلطانية(السنية) التي تردد أنها ستكون نواة لـ زروع الاستيطان الصهيوني، قال نائب القنصل:" يؤسفني ألا أستطيع اعطاءك أية أرقام حول سعة الأراضي التي كانت عائدة للمخصصات الملكية- ورغم أن ايرادات هذه الأراضي تدفع الآن للخزينة الامبراطورية إلا أنها لا زالت تدار من قبل الإدارة السابقة للمخصصات الملكية. ولا تمثل هذه الاراضي نسبة كبيرة من المساحة

---

(1) المهندس الانكليزي المشهور الذى اشرف علي تنظيم الري في مصر والهند، ثم تعاقدت معه الحكومة العثمانية سنة ١٩٠٩ لاجراء الدراسات الهندسية اللازمة لاعداد خطة ري العراق. وقد أنجز ما أوكل إليه سنة ١٩١١،فقدم للحكومة العثمانية سبعة تقارير ضمنها آراءه فيما يجب علمه لأصلاح الري في العراق.

الكلية للأراضي المزروعة حاليا، ولكن لأنـــها بعـض مـن أفضـل الأراضي المزروعة في القطر فإن ايراداتها كانت كبيرة دائما مقارنـة بالايرادات المستمدة من الأراضي الحكومية. وتقـدر ايـرادات تلـك الممتلكات في ولايتي بغداد والبصرة بما يتجاوز مائة ألف ليرة تركيـة سنويا"[١].

ورغم كل تلك العقبات الكبيرة التي تقف في وجه المشروع والتـي استعرضها نائب القنصل الامريكي في بغداد في تقريره الوارد أعـلاه، إلا أن الصهاينة مضوا قدما في محاولة تنفيذ مشروعهم الاستيطاني في العراق، فقد روي القنصل الأمريكي في بغداد أن ثلاثة وكلاء للجمعية اليهودية The Jewish Society [٢] المتهمة بتوطين اليهود في أجزاء ممـا بين النهرين وصلوا بغداد في شهر ديسـمبر ١٩٠٩. وأضـاف أنـهم متكتمون علي خططهم ولا يرغبون في مناقشتها مع الآخرين، ولكنـه علم من مصدر موثوق أنهم قاموا بمسح لأراضي قرب الفلوجة الواقعة علي نهر الفرات غرب بغداد. كما أنهم ايضا قابلوا ملاك اراضي معينة واقعة قرب النهر، معلنين عزمهم علي شراء مقاطعات واسعة إلي حـد ما إذا تم الاتفاق علي سعر مناسب[٣]. ويلفت النظر هنا أن المستكشفين الصهاينة الثلاثة ركزوا تحرياتهم علي الأراضي الواقعة قرب الفلوجـة باعتبار أنها أقرب الاراضي الخصبة إلي فلسطين. ويؤكد هذا التوجـه

---

(1)N.A.R.S., RG84, No.679, A. Bird, Am. Vice Con. In Charge, Bag., toG. Bie Ravndal, Am. Con. Gen., Beirut, Dated 9/9/1909.

(٢) لعل المقصود هو The Ica Society أو The Jewish Colonization Association.

(3)N.A.R.S., RG84, No.11.F.Simpich, Am.Con., Bag., to Oscar Strauss, Am.Amb., Const, Dated 21/12/1909.

ما لاحظه أحد الباحثين من أن مشروع الاستيطان الصهيوني في العراق كان في أحد وجوهه تمهيد للزحف الصهيوني باتجاه فلسطين(١). بينما يرى باحث آخر أن هدف الصهيونيين في هذه الفترة هو السماح لهم بتغلغل سلمي في فلسطين وأن كانوا قد أضافوا إليها كنوع من البقشيش تطوير العراق يمنح لهم كاقطاعية"(٢).

ولو انتقلنا من العراق إلي عاصمة الدولة في استانبول لوجدنا أن الصهاينة قد استمروا يشنون حملة دعائية مكثفة من أجل الحصول علي الموافقة الرسمية النهائية علي مشروعهم الاستيطاني في العراق. ففي أواخر سنة ١٩٠٩ حضر إلي استانبول الصهيوني نوسغ ووزع منشوراً علي الاتحاديين المتعاطفين مع مشاريع الهجرة اليهودية حث فيه علي السماح بالاستيطان اليهودى في مناطق واسعة من الدولة العثمانية تمتد من شط العرب إلي آسيا الصغري شاملة سوريا وفلسطين وقبرص، ومقابل ذلك تعهد بوضع المال والنفوذ اليهودي تحت تصرف الدولة العثمانية. وفي ديسمبر ١٩٠٩ كتب جلال نوري صاحب صحيفة (جون ترك) الصادرة في استانبول بتمويل صهيوني ، مدافعاً عن فكرة استيطان اليهود في العراق قائلاً: " لو كان لليهود اهتمام بهذا الجزء من الامبراطورية فأن رأسمالييهم سوف يجهزون تركيا بالمبالغ الضرورية لموازنة العجز المتكرر في الميزانية" (٣) . كما استمر الصهيوني اسرائيل زانغويل من جانبه يبذل جهوده لدى الحكومة التركية في

---

(١) السوداني ، المرجع نفسه ، ص ص ١٣-١٤.

(٢) قاسمية ، المرجع نفسه ، ص ٤٧.

(٣) قاسمية ، المرجع نفسه ، ص ٤٨.

السبيل نفسه. ففي مقال صحفي نشره خلال شهر ابريل ١٩١٠ عبر عن أمله في أن يقدم حقي باشا رئيس الوزراء العثماني المشورة الصحيحة لدولته، أي أن يحبذ لها الموافقة علي مشروع الاستيطان الصهيوني في العراق .

ومقابل ذلك تعهد زانغويل أيضا بتحمل اليهود جميع ديون الدولة العثمانية [١].

ولكن رغم تلك الجهود المركزة والاغراءات الكبيرة يبدو أن السلطات الحكومية الاتحادية لم تستطع أن تتجاوب بصورة مطلقة مع التطلعات الصهيونية بهذا الصدد، وكانت لديها تحفظات كبيرة تجاهها. نلاحظ ذلك مما كتبه القنصل الأمريكي في بغداد خلال شهر ديسمبر ١٩٠٩ حين قال:" لن يستطيع اليهود، كما أقترح اسرائيل زانغويل، الصمود قط للحر المرعب في الصيف، حتى لو كان بالأمكان التغلب علي اعتراضات الحكومة التركية علي جلب مستوطنين غير مسلمين (العراق) [٢]. ورغم أن القنصل لم يوضح ماهية اعتراضات الحكومة التركية تلك، إلا أنه يلاحظ هنا أن القنصل الأمريكي في بغداد وقبله نائبه لم يبديا أي تعاطف مع مشروع الاستيطان الصهيوني في العراق، رغم ما قيل من تأييد السفير الأمريكي في استانبول للمشروع. ولعل مرد ذلك أنهما من خلال عملهما في العراق تعرفا علي الواقع وأدركا الصعاب الكبيرة التي تحول دون تنفيذ ذلك المشروع. ولعل تلك

---

(١) أورفان محمد علي ، المرجع نفسه ، ص ص ٣٠٤-٣٠٥.

(2) N.A.R.S., RG84, "The Reclamation of Mesopotamia: Detailed report on the progress, present condition and future possibilities of the wilcocks Irrigation Project: by Am, Con., Bag, Dated 3/12/1909.

الصعاب اضافة لاعتراضات السلطات العثمانية التي مرت الاشارة إليها آنفا هي التي جعلت السفير الأمريكي أوسكار ستراوس يشعر بالاخفاق فيضطر لتقديم استقالته من مهام منصبه[1].

ولا ريب أن ذلك الاخفاق قد صدم التطلعات الصهيونية، ولكنه مع ذلك لم يجعل الصهاينة ينفضون أيديهم من مشروع الاستيطان الصهيوني في العراق. فقد كتب السفير البريطاني في استانبول في أغسطس سنة ١٩١٠ قائلا:-" إن اليهود الذين يبدون الآن في موقف الملهم والمسيطر علي الجهاز الداخلي للدولة يعملون علي السيطرة الاقتصادية والصناعية علي تركيا الفتاة ويبدون مصممين علي ألا يبدأ أي مشروع هام في العراق دون أسهامهم فيه بل دون سيطرتهم عليه"[2]. ويتضح من هذا النص أن الصهاينة قد حوروا خطتهم الأصلية وهي الاستيطان الفوري في العراق، واستعاضوا عنها بمحاولة السيطرة الاقتصادية ليس في العراق فحسب بل وفي الدولة العثمانية عامة، لعل تلك السيطرة تهيئ لهم فرصة تحقيق مشاريعهم الاستيطانية سواء في العراق أو في فلسطين حين يأزف الوقت الملائم. كما ويتضح من النص نفسه أن السفير البريطاني كان واثقا من السيطرة اليهودية علي جهاز الدولة العثمانية تحت ظل حكم الاتحاديين. فإذا كان الحال كما وصف السفير البريطاني، فما الذى جعل السلطات العثمانية تتردد في الموافقة علي المشروع الصهيوني باستيطان العراق؟

---

(١) قاسمية ، المرجع نفسه ، ص ٤٩.

(٢) حسن صبري الخولي ، سياسة الاستعمار الصهيونية تجاه فلسطين خلال النصف الأول من القرن العشرين، ج٢ ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٩.

أعتقد أن أوساطا متنفذة في جمعية الاتحاد والترقي كانت تتمني حقا لو أنها كانت قادرة علي تلبية التطلعات الصهيونية، ولكن ثلاثة عوامل حالت بينها وبين ذلك.

وتتمثل تلك العوامل في: المعارضة البريطانية، ومناوأة بعض القوي السياسية المعارضة في استانبول، وتألب الرأي العام المحلي في العراق. فبالنسبة إلي العامل الأول سبق أن ألمحنا بتغير الموقف البريطاني من الحركة الصهيونية في هذه الفترة وتعرفنا علي أسبابه.

وهو تغير لم يقتصر علي الأوساط الرسمية البريطانية فقط، بل شاركت فيه الصحافة البريطانية أيضا. وقد جعل ذلك مراسل جريدة "التايمز" اللندنية في استانبول يتابع الأنشطة الصهيونية هناك خلال سنتي ١٩١١، ١٩١٢ وينور قراء جريدته من أخطارها علي المصالح البريطانية ليس في العراق فقط، بل وفي العالم العربي عامة[١]. ولا يجب أن ننسي هنا أن العلاقات البريطانية- العثمانية شهدت بعض التوتر حول المصالح البريطانية في العراق ابتداء من سنة ١٩١٠. وقد صور وزير الخارجية البريطانية السير ادوارد غري ذلك التوتر بقوله:-" إن حكومة جلالته ليس لديها الرغبة للضغط من أجل نيل امتيازات جديدة فيما بين النهرين أو أي مكان آخر في تركيا، بشكل سيؤدي إلي أضعاف الحقوق التركية أو أعاقه الحكومة التركية، ولكن الدلائل تتراكم عن اتجاه من جانب السلطات التركية لإعاقة النمو الطبيعي للمصالح التجارية البريطانية القائمة والتي ليس هناك سبب

(١) منسي ، المرجع نفسه ، ص ٣١ .

معقول للاعتراض عليها...[1]. فكان من الطبيعي لذلك أن تتصدى بريطانيا لأي مشروع صهيوني ينفذ في العراق برعاية من جمعية الاتحاد والترقي الميالة لألمانيا لأضعاف النفوذ البريطاني في العراق.

أما العامل الثاني فيرتبط بالصراعات السياسية التي ثارت في العاصمة استانبول بعد تولي الاتحاديين الحكم سنة ١٩٠٨ . فعلي الرغم من أن الاتحاديين هيمنوا علي مقاليد السلطة التنفيذية والمجلس النيابي (مجلس المبعوثان)، خاصة بعد عزل السلطان العثماني عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩، إلا أنهم لم يستطيعوا أخماد كل الأصوات المعارضة لهم سواء داخل المجلس النيابي أو خارجه. ولذلك لم يكن من السهل عليهم التسليم المطلق بمطالب الحركة الصهيونية حتى لا يعطوا لمعارضيهم حجة قوية يستخدمونها في تأليب الرأي العام ضدهم، خاصة وأن أكثرية الرأي العام كانت ذات مشاعر دينية كما هو معروف.

ولقد تكتلت المعارضة النيابية في (مجلس المبعوثان) ضد المحاولات الصهيونية، وطرحت موضوع الهجرة اليهودية إلي أراضي الدولة العثمانية للمناقشة سنة ١٩١٢. وقد اضطر طلعت بك وزير الداخلية للاعلان خلال المناقشة عن معارضة حكومته للمخططات الصهيونية [2].

وتكشف التقارير الدبلوماسية البريطانية التي سنستعرضها الآن عن استنفار الرأي العام المتنور في المدن العراقية وتألبه ضد الاستيطان

---

(1) I.O.R.,L/R + S/10/188, No,212, Confid. Sir Edward Grey to Sir G.Lowther, Const., dated 20/8/1910.

(٢) منسي ، المرجع نفسه ، ص ٣٢.

الصهيوني في العراق، كما تكشف عن استمرار التصدي البريطاني لذلك المشروع. اضافة إلي ما تدل عليه من عدم يأس الصهاينة من مشروعهم واستمرارهم يبذلون الجهود لتخطي العقبات التي تعترض تنفيذه والالتفاف من حولها. ومن تلك التقارير ما كتبه المقيم السياسي البريطاني في بغداد في خلاصته للاحداث التي جرت في العراق خلال شهر يوليو ١٩١٣، حيث قال:- " يبدو أنه قد أعلن في استانبول في الثاني والعشرين من يونيو ١٩١٣ أن أراضي الدولة التي تبلغ مساحتها ٢٨ مليون دونم الواقعة في ولايات مختلفة، بضمنها ولايتا بغداد والموصل، معروضة للبيع. وفي هذه الولاية فأن الأراضي العائدة سابقا للخاصة السلطانية، ولكنها تصنف الآن باعتبارها أملاك دولة وتوصف رسميا بأنها أملاك مدورة، واسعة جدا. أن المشروع حين عرف وفهم هنا أثار بصورة نشطة خشية في أوساط كثيرة نشأت من جراء البيع المفاجئ لأراضي الولاية الفائضة من فوق رؤوس سكانها لغرباء أو ربما لرأسماليين أجانب. أرسلت برقيات احتجاج لاستانبول، وفهمت أن محمد فاضل باشا الداغستاني[1]، وحتى الوالي نفسه، أحتج لدى الحكومة علي عملها المتعجل.

ويعتقد بأن تأكيدات قد استلمت الآن مفادها أن أراضي الحكومة في هذه الولاية سوف لن تباع... يستحيل تصور سياسة أكثر بلاهة من بيع أراضي غير مأهولة ولا مروية فيما بين النهرين مقابل ما تجلبه من

---

(١) قائد عسكري عثماني، لعب دورا بارزا في تاريخ العراق العسكري والسياسي خلال الفترة التي سبقت الاحتلال البريطاني للعراق. كان يشغل خلال سنة ١٩١٣ منصب المفتش العام للقوات العثمانية في العراق، كما أنه تولي ولاية بغداد وكالة لفترة قصيرة بعد مغادرة واليها جلال بك في خريف تلك السنة.

سعر في الظروف الراهنة وهذا ما يبدو أنه كان مقصودا في الاصل. حين تهيئ هذه الأراضي للإرواء فأنها سوف تجلب سعرا أعلي بصورة ضخمة. وعلي أية حال فأنها يجب أن تباع هنا وليس في استانبول وعلي شكل قطع صغيرة من الأرض بشكل يكفي لأعطاء مواطني ما بين النهرين فرصة لشرائها "[١].

ولم يقتصر رد الفعل الشعبي المعارض لتلك الخطة علي بغداد وحدها، بل أمتد إلي البصرة أيضا. فقد نقل القنصل الأمريكي في بغداد عن الوكيل القنصلي الأمريكي في البصرة قوله:-" إن هياجا كبير أثار في هذه البلدة، سببه رواية تفيد أن أملاك السنية علي وشك أن تباع لأجانب، قيل أنهم يهود لندنيون. أحتج العرب البارزون وأعلنوا أن ذلك يستحيل السماح به..."[٢] ويدلل هذا علي مدى انتشار الوعي بين سكان العراق بأخطار المخططات الصهيونية خلال تلك الفترة المبكرة. كما يدلل علي قوة المعارضة السياسية التي استطاعت أن تعبئ السكان وتحشدهم للوقوف بوجه تلك المخططات. ويتعارض هذا معارضة صارخة مع ما ذكره أحد الكتاب الانكليز عند استعراضه للأوضاع في العراق بعد مفتتح هذا القرن، حيث قال: "أما الحركة الصهيونية، التي كانت حركة وليدة وغير منذرة بالخطر آنذاك، فإن أول إشارة إليها لم تخلق أية مخاوف..."[٣].

---

(1)I O R ,L/R + S/10/212, No,212, Confid. Summary of events in Turkish Iraq during July 1913,p 5

(2)N A.R S., RG84, File No 800,Am Con,Bag., toAm Vharge d'Affaires, Const , dated 28/7/1913

(٣) ستيفن همسلي لونغريك ، العراق الحديث في سنة ١٩٠٠-١٩٥٠، ترجمة سليم التكريتي، ج١، بغداد ١٩٨٨ ، ص ٩٦.

ويبدو أن التأكيدات الحكومية المشار إليها أعلاه لـم تكـن كافيـة لتطمين الرأي العام وإزالة مخاوفه. فقد عاد المقيم السياسي البريطـاني في بغداد للحديث عن المعارضة الشعبية في خلاصته لأحداث العـراق خلال شهر أغسطس ١٩١٣ فقال:-" أعدت ترتيبات لعقد اجتماع عـام في ساحة بغداد العامة خارج الباب الشمالي (المعظم) في الأول مـن أغسطس للاحتجاج ضد بيع مزمع في استانبول لأملاك الحكومة فـي ولاية بغداد خوفا من امكانية نقل ملكيتها إلي أجـانب أو صهاينـة. أن عبد القادر باشا الخضيرى، وهو عضو اسمي فـي جمعيـة الاتحـاد والترقي وربما السياسي المحلي الأكثر نشاطا وقوة في بغـداد، كـان منشغلا بتلك الترتيبات كانشغال رجال معروفين بأنهم قوميون عـرب مثل عبد اللطيف الثنيان وجار الله الدخيل... في الحادية عشرية[١] أعلن الوالي أن برقية استلمت من استانبول تفيد بأن الاراضي لن تباع فـي العاصمة آخر الأمر، وأنه بدلا من ذلك ستشكل لجنة توزيعـها بيـن سكان القطر. وترتب علي ذلك عدم عقد الاجتماع المقرر. وبقـي أن يري فيما إذا كان ذلك التعهد الذى قدم سـوف يحـترم. ولا شـك أن كثيرين من أعضاء الحكومة الحالية، اضافة ليهود أثرياء في اسـتانبول وأماكن أخري ورأسماليين أجانب، قد ركـزوا أنظـارهم علـي تلـك الأراضي التي ستساوي ملايين في المستقبل، وهم يرغبـون بشـرائها الآن بمبلغ ضئيل. أن الاغراء في هذه الحالة لتضحية المصالح العامـة

---

(١) أعتقد أن المقصود هو الحادية عشرة صباحا من صباح اليوم الأول من أغسطس، وأن الاجتماع كان مقررا عقده بعدها، وارجح أن يكون في عصر ذلك اليوم لما هو معروف من حرارة الطقس ببغداد في هذا الوقت من السنة.

في سبيل المصلحة الخاصة وللتضحية بالمستقبل من أجل الحاضر يبدو إلي حد ما قويا جدا بحيث لا يقاوم من قبل الحكومة التركية الحاليــــة، التي ربما كانت مرتشية، ولكنها قصيرة النظر ومفلسة بالتأكيد "(1)

ولكن ذلك التعهد الحكومي لم يكن نهائيا في نظر أوساط كثيرة علي ما يبدو، فقد كتب المقيم البريطاني في بغداد في خلاصته عن أحــــداث العراق خلال شهر سبتمبر ١٩١٣ قائلا : " إن التطوير الزراعي فيمـــا بين النهرين لا يزال يشغل كثيرا من الأذهان ومن الصعب القول فيمـــا إذا كان السكان هنا هم أكثر لهفة لخطوات يجب أن تتخذ للتخلص مـــن أملاك الدولة أو أنهم أكثر خوفا من أية خطوات كهذه تتخذها الحكومـــة الحالية وتكون ضارة بهذه الولاية. وقد أبرقت في العاشر من ســـبتمبر للقائم بأعمال جلالته البريطانية في استانبول بعض المعلومات الســـرية التي استلمتها ومفادها أن (نقابة امتيـــازات العــــراق Iraq Concessions Syndicate قد أسست بصورة مبدأية في لندن منذ سنتين. اثنان من أبرز المشاركين فيها هما السيد حسقيل Haskell، وهـــــو رأســـمالي يـــهودي وبريطاني الجنسية ظاهريا، والسيد غولبنكيان Gulbenkian الوكيل المالي للحكومة التركية في لندن. أن هدف النقابة هو بصورة رئيســـــة نيـــل سيطرة علي الري والسكك الحديدية والملاحة فيما بين النهرين حســـبما تسمح به الظروف. وقد حدد رأسمال المؤسسة بمليون باون اســـترليني يدفع نصفه علي الفور، وستطلب أرض مروية أو قابلة للري ضمانـــــا للاتفاق. يبدو أن المشاركين يعتقدون بأن المشروع كان سيتحقق قبـــل

---

(1) I.O.R., L/R + S/10/212, Confid. Summary of events in Turkish Iraq during August 1913,P.?

الآن لولا حدوث الحربين الايطالية والبلقانية [١] واستمرارهما بصورة دموية... زارني مؤخرا مناحيم صالح دانيال، مالك الأراضي اليهودية الرئيسي في بلاد العرب التركية، وفوجئت قليلا حينما وجدته يحبذ ادخال شركة أراضي أجنبية باعتبار ذلك الوسيلة الأفضل لإنهاض المنطقة علي قدميها. أنه يعرف ما بين النهرين جيدا لدرجة لا يتعلق معها بأية أوهام صهيونية متصلة بها، وأعتقد لذلك أن موقفه يجب أن يفسر بلا مبالاة كاملة بالنتائج السياسية... قلت له، كما أقول لأي شخص يتحدث معي حول الموضوع، أن الحكومة التركية سترتكب بنظري خطأ إذا باعت الأرض العائدة للدولة في حالتها الراهنة غير المطورة، حيث لا يمكنها أن تكسب إلا القليل، وأنها ستفعل أفضل لو أبقتها في يديها لبعض الوقت إلي أن تطور جزئيا علي الأقل بمساعدة خبراء أجانب في الري وشق القنوات. وفي الحالة الأخيرة فأن المصالح المحلية ستراعي بصورة أكثر كمالا، وستتعرض الحكومة التركية نفسها لنقد غير ملائم أقل مما لو دخلت الآن في صفقة مع الرأسماليين الأجانب"[٢].

ولعل القارئ الكريم يلاحظ معي فيما مر من نصوص مقدار الدهاء الدبلوماسي البريطاني المعهود. فالمقيم السياسي البريطاني في بغداد يصور معارضته لخطط بيع الأراضي الحكومية في العراق وكأنها

---

(١) نشبت الحرب الأولي بين إيطاليا والدولة العثمانية في سبتمبر ١٩١١ وانتهت في أكتوبر ١٩١٢. ونشبت الثانية بين التحالف البلقاني والدولة العثمانية في أكتوبر ١٩١٢ وانتهت في مايو ١٩١٣.

(٢) I.O R ,L/R + S/10/212, Confid. Summary of events in Turkish Iraq September 1913,P.5.

نابعة من حرصه علي مصالح الدولة العثمانية والسكان المحليين بينما كان دافعه الحقيقي الذى لم يفصح عنه هو الحرص علي مصالح دولته التي كانت تعتبر العراق منطقة نفوذ سياسي واقتصادي لها، وتريد المحافظة علي الوضع الراهن فيها إلي أن تحين فرصة فرض استعمارها المباشر هناك. وذلك بالطبع هو الوضع الأمثل من وجهة نظر بريطانية تتخوف من استيطان يهودي مكثف في العراق تحت رعاية دولة منافسة قد يشكل تهديدا لمصالحها الحالية أو المستقبلية. ويلاحظ أيضا أن السلطات الاتحادية الحاكمة في الدولة العثمانية حاولت أن تلتف حول ما ذكرناه سابقا من عوامل ثلاثة حالت دون قبولها الصريح بخطة الاستيطان الصهيوني في العراق بتصويرها الأمر وكأنه مجرد بيع لأراضي الدولة لمستثمرين قادرين علي تطويرها بغض النظر عن جنسيات أولئك المستثمرين. وأظهرت أن ذلك التطوير سينعش الوضع المالي المتردي للدولة بصورة مباشرة من خلال ثمن الأراضي الذى ستتقاضاه من أولئك المستثمرين، وبصورة غير مباشرة من خلال الانتعاش الذى سيرافق استثمار مبالغ كبيرة لاستصلاح تلك الأراضي. أي أن تلك السلطات أرادت أن تصور المشروع وكأنه مشروع اقتصادي بحت وتجرده من معانية السياسية الخطيرة .

الخاتمة

أظهر البحث أن حلم اليهود في استيطان العراق واستغلال خيراته الوفيرة قديم حتى أنه سبق ظهور المنظمة الصهيونية علي يدي هرتزل سنة ١٨٩٧. ورغم أن الصهاينة قاموا بعدة محاولات لتحقيق ذلك الحلم عمليا قبل سنة ١٩٠٨، إلا أن الانقلاب الذى تم في الدولة العثمانية تلك السنة، وما أعقبه من تزايد النفوذ الصهيوني في أوساط جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة، جعل الصهاينة يركزون جهودهم من أجل نيل الموافقة الرسمية العثمانية علي تنفيذ ذلك الهدف. ورغم تعاطف شخصيات اتحادية متنفذة مع المخططات الصهيونية إلا أنها لم تستطع تلبية الرغبات الصهيونية بصورة مكشوفة نتيجة لضغوط معاكسة وقفت بوجه المخططات الصهيونية حينئذ. وتمثلت تلك الضغوط بالمعارضة البريطانية، ومناوأة الفئات السياسية المعارضة للاتحاديين في عاصمة الدولة، وتألب الرأي العام في العراق ضد تلك المخططات.

وهكذا لم يكتب لذلك المشروع أن يتحقق خلال السنوات الواقعة بين ١٩٠٨و١٩١٣. ثم جاءت الحرب العالمية الأولي في السنة التالية، وما رافقها من مستجدات علي المسرح السياسي العالمي أدت إلي توثيق العلاقات الصهيونية - البريطانية مما أدي إلي صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧، فتم التركيز الصهيوني علي فلسطين منذ ذلك الحين.

ويلفت النظر هنا ذلك الحرص الصهيوني علي استيطان العراق رغم أن الهدف الرئيسي المعلن للصهيونية هو الحصول علي وطن يهودي في فلسطين. وقد قيل أن السعي الصهيوني لاستيطان العراق تم

علي أساس أنه مرحلة مؤقتة تمهد للانتقال عن قرب الي فلسطين، أو أن ذلك المشروع قدم للسلطات العثمانية باعتباره عاملا مساعدا يغريها بالموافقة علي الاستيطان الصهيوني في فلسطين، إذ أن استيطان العراق يعود علي خزينتها الخاوية ببعض الأموال العاجلة. وأميل للاعتقاد بأن هذين المبررين رغم مالهما من وجاهة ظاهرة لا يمثلان حقيقة الهدف الصهيوني الكامن وراء مشروع الاستيطان في العراق. فلم يكن ذلك المشروع مرحلة انتقالية ولا عاملا مساعدا، بل كان هدفا رئيسا للحركة الصهيونية باعتبارها حركة استعمارية توسعية تستهدف انشاء امبراطورية واسعة في الشرق العربي تستنزف خيراته الاقتصادية وتتحكم بمقدراته السياسية من مركزها في فلسطين. ولو تحقق للصهيونية تحقيق مشروعها في استيطان العراق لكان ذلك خطوة فائقة الأهمية في سبيل تحقيق ذلك الهدف الكبير.

الفصل الرابع

مشكلة بساتين آل الصباح في منطقة البصرة حتى سنة ١٩٢١

مشكلة بساتين آل الصباح في منطقة البصرة حتى سنة ١٩٢١

تعتبر هذه المشكلة ملمحاً مهماً في ملامح تاريخ الكويت، لما كان لتلك البساتين في أهمية اقتصادية كبيرة لكويت ما قبل النفط. وللمشكلة أيضاً جانب سياسي مصاحب لاندراج أحداثها في مسار العلاقات الكويتية- العثمانية- البريطانية في جهة- ثم العلاقات العراقية - الكويتية-البريطانية في المرحلة اللاحقة في جهة أخري. ولم تنل تلك المشكلة بشكلها الاقتصادي والسياسي عناية كافية من الباحثين المعاصرين. لذا فأن هذا البحث يمثل محاولة متواضعة لسد بعض ذلك النقص وتسليط الضوء علي بعض جوانب تلك المشكلة.

ولعل أول البساتين التي آلت ملكيتها إلي آل صباح في منطقة البصرة هي البساتين الواقعة في منطقة الفاو والتي أهداها راشد ابن تامر آل سعدون إلي جابر بن عبد الله الصباح حاكم الكويت بين سنتي ١٨١٤-١٨٥٩. وليس هنالك تحديد دقيق للزمن الذي تم فيه الإهداء.

إذ أورد مؤرخ الكويت عبد العزيز الرشيد أن راشداً لجأ للكويت أيام مشيخة جابر إثر خلافه بينه وبين السلطات العثمانية في العراق. وحيث إنه لقي حفاوة كبيرة في مضيفة قرر مكافأته بأن أهداه ثلاثة أمواز في النخيل في الفاو[١]ولكنه لم يورد تاريخاً محدداً لواقعة اللجوء والإهداء.

وأكد مرجع ثاني حدوث واقعة الاهداء دون أن يتطرق إلي تاريخها

(١) عبد العزيز الرشيد، تاريخ الكويت، بيروت ١٩٧٨، ص ص ١١٩-١٢٠.

أو يبين الظروف التي أحاطت بها(*).وذكر مرجع ثالث أن راشداً هرب إلي الكويت سنة ١٢٤٩هـ– ١٨٣٤م بعد خلاف نشب بينه وبين ابن أخيه عيسى بن محمد بن تامر السعدون أمير المنتفق(**)وليس في الواضح أن كان الاهداء قد تم خلال تلك السنة . إذ مع أن ذلك غير مستبعد إلا أنه يجب الأخذ بنظر الاعتبار أن راشداً كان كثير التمرد علي الامراء في أسرته، كثير الخلاف مع السلطات العثمانية التي كانت تؤيد اولئك الأمراء ضده. وكان يحتمي في كل مرة تطارده فيها السلطات القبلية أو الحكومية بالصحراء، فيتوغل في فيافيها جنوباً نحو الكويت مروراً نحو نجد للإقامة بين ظهراني اخواله آل زامل أمراء الخرج جنوب الرياض.

وكانت احدى هجراته الجنوبية تلك قد حدثت إثر مغاضبته لأخيه أمير المنتفق حمود بن تامر بعد معركة وقعت من قوات المنتفق والقوات العثمانية وقتل فيها والي بغداد وكبار مرافقيه في أوائل سنة ١٨١٣ [1]. ومهما يكن تاريخ ذلك الاهداء ، فأنه لم يكن اهداء شفهياً بل كان معززاً بحجة شرعية.

فقد أشار باحثان بريطانيان، طبقاً لمعلومات استمداها في تقرير اعده سنة ١٩١٥ السير هنري دوبس Sir H.Dobbs مفوض الواردات في إدارة الاحتلال البريطانية في البصرة، إلي أن بساتين الفاو حازها

(*) عبد الرازق عبد المحسن الصانع وعبد العزيز عمر العلي، أمارة الزبير بين هجرتين ٩٧٩-١٤٠٠ ج١، الكويت ١٩٨٥، ص ٩٦

** يوسف حمد البسام، الزبير قبل خمسين عاماً ، الكويت ، ١٩٧١ ، ص ١١١.

(١) لونغريك ، س .هـ.، أربعة قرون في تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، ط٦ ، بغداد ١٩٨٥،ص٢٧٥.

آل صباح بصك اهداء من راشد يغطي مساحة قدرها ستة عشر ألفـــا وثمانمائة ايكر [١] وقدر ذلك التقرير قيمتها ســنة ١٩١٥ بــأكثر مــن مليون جنيه استرليني[٢].

وثاني البساتين التي آلت ملكيتها في البصرة لآل صباح كانت فــي عهد جابر نفسه، وعن طريق الاهداء أيضاً علـــي الأرجــح. وســبب لجوئي للترجيح وليس للقطع هو تضارب الروايات حول الواقعـــة. إذ ذكر لوريمر أنه في سنة ١٨٣٦ قدم جابر الصباح العـــون للسـلطات العثمانية في البصرة حسب طلبها للقضاء علي تمرد حدث فـــي بلــدة الزبير. وبعد اخماد التمرد لجأ للكويت يعقوب ال زهير، وهناك بـــاع لجابر بساتين الصوفية الواقعة في منطقة المعامر علـــي ضفــة شــط العرب[٣]. ولكن مؤرخاً قريب العهد بالواقعة يذكر أنها حدثـــت ســنة ١٢٤٧هــ أي ١٨٣١م، وليس في سنة ١٨٣٦ كمـــا حــدد لوريمــر. ويجعل سبب اللجوء صراعاً بين آل زهير وآل ثاقب علـــي مشــيخة الزبير، وليس متمرداً من سكان الزبير علي الدولة العثمانية كما ذكـــر لوريمر. ويذكر أن اسم اللاجئ هو سليمان ابن عبد الرزاق آل زهــير، وليس يعقوب كما سماه لوريمر. ويضيف أن سليمان اهدى لجابر تلــك البساتين ولم يبعها بيعاً كما أورد لوريمر[٤]ويؤيد مؤرخ الكويت عبـــد

---

(١) الايكر يساوي حوالي أربعة آلاف متر مربع.

(2) Winston, H.V. and Freeth, Z., Kuwait, Prospect and Reality, London, 1972,p.113.

(٣) لوريمر، ج.ج، دليل الخليج ، القسم التاريخي، ترجمة ديوان أمير قطر، الدوحة، دون تاريخ، ج٣،ص١٥١٢.

(٤) القاضي أحمد نور الانصاري، النصرة في اخبار البصرة، تحقيق يوسف عز الدين، بغداد ، ١٩٧٦،ص٦٢.

العزيز الرشيد ما جاء في هذه الرواية من أن سبب الواقعة صراع بين آل زهير وآل ثاقب، وأن اللاجئ في آل زهير ، ولم يسمه ، قد اهدى لجابر بساتين الصوفية شكراً له علي اجارته إياه في اعدائه[1]. وهكذا يبدو لي أن رواية الاهداء هي الراجحة لكونها جاءت في مصدرين محليين قريبين في موقع الحدث، وأولهما شبه معاصر له لأنه دون روايته سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م.

ويبدو أن هذه الهبة الأخيرة قد أصبحت سبباً لدعاوى قانونية بين آل صباح وآل زهير فيما بعد .فقد إشتكى بعض آل زهير سنة ١٨٦٦ أمام المحاكم المختصة في البصرة، معترضين علي أهلية سليمان بن عبد الرزاق آل زهير للقيام بالتنازل عن كامل البساتين، لأنه لا يملك الا جزءاً صغيراً منها فقط، ولكونه ليس وكيلاً عنهم حين وهب الأرض، ولم يستأذنهم في شأن الهبه.وذكر لوريمر أن"القائمقام التركي"، دون تحديد لمكان مقاميته،تعاطف مع آل زهير، وبدأ يضغط علي صباح بن جابر، شيخ الكويت حينئذ، لحمله علي طرد بعض الفلاحين الذين استقدمهم في الضفة اليسرى لشط العرب واقامهم للعمل في بساتينه بالفاو.وقد أصدرت المحكمة المختصة في البصرة حكمها لصالح آل زهير،والزمت آل صباح بأن يعيدوا لهم ايرادات البساتين عن السنوات السبع الماضية.وكادت السلطات في البصرة، أن تلقى القبض على عبد الله ابن صباح الذى أوفده والده لمتابعة اجراءات الدعوى فى البصرة لاخفاقه في تقديم تعهد بدفع المبلغ الذى قررته المحكمة. وقد توجه عبد الله إلي بغداد حيث نجح في اقناع وإلي

(١) الرشيد ، المرجع نفسه ، ص ص ١٢١-١٢٢.

بغداد[١]بحسم القضية لصالح آل صباح وابقاء البساتين بحوزتهم[٢].

ويجدر أن نتوقف هنا للتعرف علي السبب الذى دفع والي بغداد لاتخاذ هذا الموقف والذى خرق به مبدأ استقلالية القضاء من الناحية الشكلية علي الأقل. علل عبد العزيز الرشيد ذلك الموقف بأنه محاولة من جانب الوالي لاستمالة عبد الله بن جابر واقناعه بتولي قائمقامية الكويت. ولكن عبد الله اعتذر عن تنفيذ طلب الوالي لأن أباه لازال علي قيد الحياة[٣].أما لوريمر فقد اعزا تصرف الوالي إلي استلامه تقارير تفيد أن شيخ الكويت سيقوم بالهجوم علي الزبير إذا لم تحسم القضية لصالحه، وأنه تلقي وعداً بالمعونة والسلاح في" أمير الوهابيين "[٤] وسواء كان السبب هو هذا وذاك، فهو يؤثر علي أن السلطات العثمانية بدأت تدرك أهمية البساتين باعتبارها ورقة ضغط يمكن استخدامها عند الحاجة للتأثير علي آل صباح وتوجيههم ضمن مخططاتها، وهو الأسلوب الذى توسعت في استخدام فيما بعد كما سيأتي. كما أن ما قيل في تفكير صباح بن جابر باللجوء لاستخدام القوة أو التهديد باستخدامها للضغط علي السلطات العثمانية يدل علي اهتدائه في وقت مبكر لأسلوب توسع في استخدامه فيما بعد ابنه مبارك بن صباح كما سنري.

جاء عهد مبارك في حكم الكويت (١٨٩٦-١٩١٥) بتطورات مهمة

---

(١) كان والي بغداد حينئذ هو نامق باشا (١٨٦٣-١٨٦٨).

(٢) لوريمر، المرجع نفسه ، ج٣ ، ص ١٥١٩.

(٣) الرشيد، المرجع نفسه ، ص ١٣٠.

(٤) لوريمر، المرجع نفسه ، ج٣ ، ص ص ١٥١٩-١٥٢٠. و" أمير الوهابيين " الذى يقصده هو عبد الله بن فيصل آل سعود الذى كان يقوم بغارات حربية في أطراف العراق حينئذ.

لمشكلة بساتين آل صباح في البصرة، سواء من حيث الدعاوى القانونية التي أثيرت حولها، أو من حيث تداخل تلك الدعاوى مع التوتر الـذى شاب علاقاته مع السلطات العثمانية نتيجة ميوله البريطانية. وكـان وصول مبارك للسلطة كما هو معروف بعد اغتيالـه لأخويـه محمـد وجراح سنة ١٨٩٦. وترتب علي ذلك أن هرب ابنـاء القتيلين إلـي البصرة، وفي جملة القضايا التي رفعوها للسلطات العثمانية هناك ضـد عمهم مبارك مطالبتهم بارثهم في حصة والديهم القتيلين في البسـاتين. ويثور لدينا هنا إشكال حول ماهية البساتين التي كـانت مملوكـة لآل صباح في البصرة ذلك الحين.

مر بنا أن تلك البساتين انحصرت فيما اهدى لآل صباح من راشـد آل سعدون في الغامر ومن سليمان آل زهير في الصوفية. ثم سـكتت المراجع التي بين يدي في الاشارة بعد ذلك إلي حيازتهم بساتين جديدة، عدا القول أ مباركا نفسه كان قد اشترى قبل توليه السلطة، وبـالتحديد سنة ١٨٧٠، بساتين الفرحاوية، ولكنه لم يسجلها بالطـابو لأن نظـام الطابو لم يكن قد طبق حينئذ[١].والاشكال هو أن لوريمر،حيـن حـدد البساتين التي كانت موضوعاً للدعوى المرفوعة في ابناء القتيلين ضـد عمهم، ذكر أنها بساتين الفاو والصوفية وكارديلان وجزيرة العجيراوية والزيني[٢].

وهذا يعني أن آل صباح حازوا بشكل ما خلال الفترة الواقعة بيـن سنة ١٨٦٦ وسـنة ١٨٩٦ بسـاتين كـارديلان والزينـي وجزيـرة

---

(1)Winston and Freeth, op Cit. P.112.

(٢) لوريمر ، المرجع نفسه ، ج٣ ، ص ١٥٥٧.

العجيراوية. وتثير بساتين العجيراوية اشكالاً جديداً، إذ يشير مرجع آخر إلي أن مباركاً نفسه هو الذى اشتري بساتين العجيراوية البالغة مساحتها مائة وعشرين ابكر سنة١٩١٢.(١)ولا يعقل أن تكون هذه الرواية الأخيرة دقيقة بدليل ما ذكره لوريمر سابقاً، إلا إذا كان ما اشتري سنة ١٩١٢ اضافة جديدة اضافها مبارك بشراء بساتين أخوي، وفي جزيرة العجيراوية ذاتها.ويبدو لي هذا الاحتمال مرجحاً كما سيمر

نعود إلي الدعاوى القانونية التي رفعها ابناء القتيلين ضد عمهم حول تلك البساتين فنقول يبدو أن مباركاً حاول الاستفادة من اتفاقية السرية التي وقعها مع بريطانيا في يناير ١٨٩٩ بتوسيع نطاقها حتى تشمل لا الاراضي الكويتية فقط ، بل والبساتين في منطقة البصرة أيضاً. ومن المعروف أن تلك الاتفاقية نصت علي الزام شيخ الكويت بالا يبيع أو يؤجر أو يرهن أو يهب او يتنازل عن أي جزء من "ارصفة" لدولة اجنبية أو رعايا دولة اجنبية دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية. وكان يهدف في محاولة التوسيع تلك ادخال السلطات البريطانية طرفاً في القضية لعلها تقف بوجه السلطات العثمانية وتنقذه في ضغوطها. وكانت تلك الضغوط من جانب السلطات العثمانية ليس حباً بابناء أخويه القتيلين، ولكن عقاباً له علي اتصالاته بالبريطانيين رغم ارادتها.

وعلي كل حال حسمت تلك الدعاوى بعد طول مماطلة وتسويف من جانب مبارك في تموز ١٩٠٤بحل رضائي أقرته لجنة مشكلة من ممثل

(1) Winston and Freeth, op. Cit. P.113.

لمبارك وممثل لأبناء أخويه والقنصل البريطاني في البصرة، ثم صادق عليه مجلس ولاية البصرة. ونص ذلك الحل علي احتفاظ مبارك بملكية بساتين الفاو فقط وانفراد ابنــاء أخويــة بملكيــة بســاتين كــارديلان والعجيراوية والزنى والصوفية، اضافة لتعويضهم بمبلغ نقدي مقــداره سبعة آلاف ومائتان وستة وتسعون ليرة عثمانية(١).

اندفع مبارك بعد ذلك نحو توسيع نطاق بساتينه في منطقة البصــرة عن طريق الشراء. ويلفت النظر اندفاعه في هذا الاتجاه رغم معرفتــه بالموقف غير الودى غالباً الذى تتخذه السلطات العثمانية تجاهه. ويبــدو أن ذلك كان نتيجة منطقية لموازنة دقيقة اقامها بيــن مخــاطر ذلــك الاستثمار وفوائده ترجح له علي اثرها تفوق كفة الفوائد بما كانت تغلــه عليه تلك البساتين في عوائد مالية شكلت بنداً مهماً في بنود ايــرادات خزانة امارته. لعله ادرك ذلك الواقع السائد منذ أيام جده جابر حين كان مورده المالي الأهم هو ما تغله عليه بساتينه في الفاو والصوفية(٢). ثــم احتك هو نفسه بهذا الواقع عملياً بعد توليه السلطة حين رأي الضائقــة المالية التي ألمت به نتيجة لحجز عائدات تلك البساتين بعد رفع ابنــاء اخويه لدعاواهم أمام المحاكم العثمانية(٣).

واضافة للعائدات المالية التي كانت تلك البساتين تدرها علي خزانته يبدو أن مباركاً كان يستفيد في الطاقة البشرية لفلاحي تلك البساتين عند الحاجة. ففي اطار مرضه علي مشد كافة امكاناته المتاحة للثــأر مــن

---

(١) لوريمر ، المرجع نفسه ، ج٣ ، ص ١٥٥٧.

(٢) الرشيد، المرجع نفسه ، ص ١٢٣.

(٣) لوريمر، المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٤٨.

الهزيمة القاسية التي الحقها به سعدون بن منصور آل سعدون في معركة هدية في اذار ١٩١٠ [١]، أمر مبارك باستقدام الرجال في الفاو والدورة من اجل ضمهم إلي حملته الانتقامية التي كان يزمع توجيهها نحو سعدون[٢].كما لجأ مبارك إلي توظيف تلك القوة البشرية ليس لاستخدامها داخل الاراضي الكويتية فقط، بل ولاستخدامها للضغط علي اعدائه المحليين في منطقة البصرة ذاتها. ففي اكتوبر ١٩١٠ وبتحريض من مبارك وصديقه فرغلي حاكم المحمرة تم نهب انتاج بساتين محمد المشرى شيخ الزبير المجاورة لبساتين مبارك في منطقة الفداغية. وبلغت كمية الانتاج المنهوب في التمور ستمائة كارة (١٢,٠٠٠) قدرت قيمتها بستين ألف روبية، ونقلت إلي الضفة اليسرى لشط العرب. وقد تم النهب بعد مقاومة عنيفة من رجال المشري قتل خلالها منهم أربعة أشخاص. والسبب الذى دفع مباركاً للتحريض علي ذلك العمل هو رغبته بمعاقبة محمد المشري علي مساعدته لسعدن في بعض غاراته التي يشنها مؤخراً ضد اراضي مبارك.[٣]

ولعل أول البساتين التي اشتراها مبارك في منطقة البصرة بعد الحل الرضائى الذى توصل إليه مع ابناء أخويه هو البستان الذى اشتراه في سعدون بني منصور آل سعدون في أم الغرب، وذلك بمبلغ ثمانية آلاف ليرة سنة ١٩٠٧. ولكن السلطات العثمانية في البصرة

---

(١) لمعرفة تفاصيل تلك المعركة ، راجع: خالد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، الرياض، ١٤٠٣، ص ص ١٢٥-١٣٤.

(2) IOR, R/15/5/25, Extract, From Diary No.13 of Koweit Political Agency for the week ending 30 th March 1910.

(3) IOR, R/15/5/25, Extract, From Kuwait news for the week ending 26th October 1910.

رفضت اجراء التسجيل بالطابو لعملية الشراء بحجة أن مباركاً لا يحمل أوراق الرعوية العثمانية. وحين كتب مبارك لوالـــي البصـــرة عبـــد الرحمن حسن بك حول الموضوع رد عليـــه بنصحـــه بحمـــل أوراق الرعوية المطلوبة.(١)والغريب أن أسم " أم الغرب" لا يرد ضمن أسـماء بساتين مبارك في منطقة البصرة في الكشـــف الـــذى اعـــده مفـــوض الاراضي في الإدارة البريطانية بالبصرة سنة ١٩١٥. ولكن يرد بـــدلاً من أسم بستان " المطوعة" مع الاشارة إلي أنه اشتراه مبارك في وقـــت غير محدد. وتبلغ مساحة هذا البستان حوالي الف ومائتي ايكر وقـــدرت قيمته تلك السنة بسبعة وثمانين ألف جنيه استرليني(٢). فلعل أم الغـــرب اسم مرادف للمطوعة أو الجزء منها، أو بالعكس.

وتثير واقعة رفض السلطات العثمانية تسجيل ذلك البســـتان باســـم مبارك بعض التساؤل. فقد اورد لوريمر أن العلاقات بين شيخ الكويـــت والسلطات العثمانية أصبحت أكثر وداً ابتداء من سنة ١٩٠٥. وقد عزز ذلك الود تبرعه خلال سنتي ١٩٠٥و ١٩٠٦ ببعض الأموال لمشروعي بناء ثكنات جديدة للقوات العثمانية في البصرة وسكة حديد الحجـــاز.(٣) فإذا كان الأمر كذلك فلابد من سبب دفع الســـلطات العثمانيـــة لذلـــك الموقف الذى يضر بحالة الود بين الجانبين ولا يمكن تفســـير موقـــف السلطات العثمانية بأنه مجرد تمسك بحرفية القوانين التي تنص علـــي ربط التسجيل بالرعوية، بدليل أن تلك السلطات عادت وسمحت بتسجيل

---

(١) الرشيد ، المرجع نفسه ، ص ١٨٤.

(2) Winston and Freeth , op.cit., p.112.

(٣) لوريمر ، المرجع نفسه ، ج٣ ، ص ص ١٥٥٩-١٥٦٠.

بعض البستين باسم مبارك في وقت لاحق كما سنرى رغم أن وضعه القانوني بالنسبة للرعوية لم يتغير. إذن لابد من الافتراض بأن علاقته مع السلطات العثمانية عادت للتوتر مرة أخرى بعد سنة ١٩٠٦. وليس ذلك بمستغرب إذ ان تلك العلاقة كانت سمتها منذ البداية التذبذب بين التوتر والانفراج من آن لآخر. ويعزز هذا الافتراض واقعة موافقة مبارك سنة ١٩٠٧ علي تأجير قطعة أرض للبريطانيين في الشويخ لاقامة محطة فحم عليها. تلك الموافقة التي أدت إلي استياء الحكومة العثمانية منه.(١)

ولم يؤثر ذلك الرفض من جانب السلطات العثمانية في التقليل من اتجاه مبارك إلي شراء المزيد في البساتين في منطقة البصرة. فقد أشتري سنة ١٩٠٨بستاناً في الفداغية من السيدة عائشة زوجة احمد بن قاسم الزهير تبلغ مساحته الفين ومائتي ابكر، وكانت قيمته سنة ١٩١٥ تقدر بمائة وخمسين ألف جنيه استرليني. وقد رفضت السلطات العثمانية أيضاً تسجيل عملية الشراء في دائرة الطابو متذرعة الحجة نفسها، أي عدم حمل المشتري لاثباتات الرعوية العثمانية. كما اتخذت السلطات الموقف نفسه حين اشتري مبارك في السنة نفسها بستاناً آخر في الباشية المجاورة للفداغية.(٢)

ولم يمر موقف السلطات العثمانية هذا دون تدخل من جانب السلطات البريطانية حامية مبارك . ففي الثالث من شهر مارس ١٩٠٩

---

(١) فتوح عبد المحسن الخترشي ، تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ١٨٩٠-١٩٢٠، ط١، الكويت ، ١٩٧٤، ص ص ٨١-٨٢.

(2) Winston and Freeth, op.cit.,pp.112-3

ابرق السير ادوارد غربي Sir Edward Grey وزير خارجية بريطانيا لسفيره في استانبول السير مبيرارد لوثر Sir G.Lowther يوجهه لمفاتحة السلطات العثمانية العليا حول طلب والي البصرة من مبارك الحصول علي الرعوية العثمانية باعتبار ذلك يمثل خرقاً لاتفاق "الحفاظ علي الوضع الراهن في الكويت".(١) والذى لازالت الحكومة البريطانية ملتزمة به رغم حدوث التغيرات الدستورية الأخيرة في الدولة العثمانية(٢) ولكن السفير تحفظ علي وجهة نظر وزير الخارجية لأن الحكومة العثمانية ربما سترد عليه بأن البريطانيين فرقوا الالتزام بذلك الاتفاق بالفعل حين حصلوا من شيخ الكويت علي ايجار قطعة ارض في الشويخ سنة ١٩٠٧. واضاف :-"من ناحية اخري ربما كانت الحكومة (العثمانية) مشغولة جداً في الوقت الحاضر بالمشاكل أو باعادة تنظيم الادارة، وسيكون من الأصوب ترك قضية وضع الكويت ناحية إلي أن يأتي وقت تجد تلك الحكومة فيه نفسها في وضع يمكنها من الدخول في مناقشة ذلك المبدأ المعقد، وحينها يحتمل ان وجهات نظرها ستعتمد بصورة كبيرة علي النجاح الذى ستحققه جهودها في تجديد حكومة البلاد". وختم السفير رده علي الوزير باعلامه بما وصله في القنصل البريطاني في البصرة في نجاح مبارك من تسوية مشكلة مشروعه الاروائي في الفاو.(٣)

---

(١) اتفق الجانبان البريطاني والعثماني علي اتباع مبدأ المحافظة علي الوضع الراهن Statwquo في الكويت، وذلك في شهر ايلول ١٩٠١ . راجع : الخترش ،المرجع نفسه ، ص ٤٦

(٢) يقصد انقلاب تموز ١٩٠٨ بقيادة جمعية الاتحاد والترقي.

(3)FO 424/219,No 396 Sir G Lowther to Sir Edward Grey,dated May 28,1909.

ولا يرد في المراجع التي بين يدي معلومات عن مشكلة المشروع الاروائي الذى أشار إليها السفير اعلاه. ولكن بحوزتي وثيقة اصلية هي عبارة عن رسالة وجهها مبارك الصباح إلي عبد العزيز المشاري السعدون بتاريخ الثالث في رجب ١٣٢٦هـ (أي آب ١٩٠٨)، ولعلها تلقي بعض الضوء علي تلك المشكلة. ويظهر في هذه الرسالة أن مباركاً بدأ منذ السنة السابقة مشروعاً لكراء الانهر الفرعية التي تروي بساتينه من الفاو والتي يزيد عددها علي عشرين نهراً. وقد أدي ذلك إلي خلاف بينه وبين فريد باشا ومزعل باشا ابني ناصر السعدون لتأثير عملية الكراء علي بساتينهم الواقعة في المعامر والمجاورة لاملاك مبارك في الفاو[١].

ونعود مرة أخري إلي المشكلة الأساسية التي واجهها مبارك وهي رفض السلطات العثمانية اجراء عملية التسجيل القانوني للبساتين التي اشتراها في البصرة. ويبدو أن حجة عدم حملة لأثبات الرعوية العثمانية كانت ذريعة مصطنعة تخفي رغبة السلطات العثمانية في الضغط علي مبارك من أجل دفعة للتجاوب مع سياستها في المنطقة. يدل علي ذلك أن تلك السلطات لم تتردد في تسجيل بستان صغير في العجيراوية مساحته مائة وعشرون ايكر اشتراه سنة ١٩١٢ وسجله بأسم ابنته شريفة.[٢]فلو كان الحائل الفعلي دون تسجيل البساتين السابقة مائلاً قانونياً فقط وهو عدم حمل أوراق الرعوية لانطبق الأمر علي ابنته شريفة كما انطبق عليه.

---

(١) راجع صورة الرسالة المرفقة.

(2)Winston and Freeth, op. Cit., p 113

ولكن هل بقي مبارك مكتوف اليدين تجاه ذلك الموقف في السلطات العثمانية؟ او هل اكتفي بمجرد رفع الشكاوي للجانب البريطاني؟ لا يبدو ذلك بل أن مباركاً المتصف بالذكاء والدهاء حاول أن يجد وسائله الخاصة للضغط علي السلطات العثمانية ودفعها لتليين موقفها تجاهه. فقد حلل القنصل البريطاني في البصرة أسباب تدهور الوضع الأمني في منطقة البصرة في مطلع سنة ١٩٠٩، وحاول تلمس العلاقة بين ما حدث في تدهور وما كان من سوء علاقات بين الوالي القائم في البصرة من جهة، وبين نقيب البصرة والشيخين مبارك الصباح وفزعل المرد او في جهة أخري . وفي معرض ذلك التحليل قال:-"في الملاحظ، علي الأقل، أنه في كل حالة تندلع فيها الاضطرابات بجوار البصرة، فأنها تكون مسبوقة بشكل ثابت بنزاع ما أو عدم اتفاق بين والي البصرة وجارية القويين حول أمور تؤثر بشكل وثيق علي مصالح الآخرين. وحين يصل النزاع إلي طريق مسدود فأن المناطق التركية تغزي بعصابات مسلحة تنهب وتغتال وترتكب كل التجاوزات دون عقوبة إلي أن يتحقق هدف الطرف المتظلم وتنهار الثقة بالوالي غير المرغوب فيه ويعزل. أن الموقف المتبع من قبل الوالي السابق[١] فيما يتعلق بتسجيل نقل الملكية قد أثر علي شيخين المحمرة والكويت بصورة شديدة. يملك الأول منهما مقداراً كبيراً في الارض والعقارات في البصرة ويحصل علي ايراد ضخم منها. أخبرت أن الوالي أظهر الاعتراض نفسه علي حيازته ملكية جديدة كما فعل بالنسبة للتسجيل الفداغية والأرض التي اشتريت من الشيخ سعدون، في المنتق، باسم

---

(١) يقصد الوالي محرم بك الذى وصل امر عزله للبصرة برقيا في ٣ اذار ١٩٠٩

شيخ الكويت ..."[1].

ويظهر أن مباركاً واصل الضغط علي السلطات العثمانية في هـذا السبيل،وهو مطمئن إلي عدم قدرة تلك السلطات علي توجيـه ضربـة مباشرة له خوفاً من أن يجرها ذلك للصدام مع البريطانيين الذين أسبغوا حمايتهم الفعلية عليه منذ سنة ١٨٩٩. ولذلك اكتفت السلطات العثمانيـة بالتهديدات اللفظية. فقد عزا والي البصرة احداث السلب والنهب والقتل التي جرت حول بلدة الزبير خلال النصف الأول من سنة ١٩١٠ إلـي انشطة شيخ الكويت. فأبرق له في الرابع من تموز ١٩١٠ عن طريـق الفاو يحذره من أنه إذا كان يحاول تأكيد نفوذه بهذه الطريقة في منطقـة البصرة فأن الحكومة العثمانية ستتخذ بلا شك اجراء لمنعه. وبعـد أن اورد القنصل البريطاني في البصرة ذلـك الخـبر مضـي للقـول أن المفترض أن مباركاً يسبب تلك المشاكل نكاية بالوالي الذى لم يوافـق علي تسجيل بساتينه في الفداغية.[2]

ولا يبدو أن محاولات مبارك تلك للضغط علي السلطات العثمانيـة قد عادت عليه بنتيجة عملية. فقد استمر الموقف العثمـاني الرافـض لاتمام عملية تسجيل البساتين بحجة عدم حمل الشاري ما يثبت رعوينـه العثمانية. ولكن ذلك الموقف العثماني تغير في شهر أذار سـنة ١٩١٣، حين ابرق وزير الداخلية العثماني لدائرة الطابو في البصرة بالموافقـة علي اتمام عملية التسجيل القانونية لملكية شيخي المحمـرة والكويـت

(1)FO 424/219,No.17, Consul Crow to Sir G.Lowther, dated March 10,1909.

(2)FO 424/219,No.43, Consul Crow to Sir G.Lowther, dated July 8,1910.

لبساتينهما في منطقة البصرة.[1] ويؤكد صدور هذا القرار ما ذكرته سابقاً في ان مطالبة السلطات العثمانية لمبارك بتقديم ما يثبت رعويته قبل التسجيل كانت حجة مصطنعة لايجاد مبرر للضغط السياسي عليه. إذ أن قرار الموافقة علي التسجيل تم دون أن يتغير شئ في موضوع رعوية مبارك للدولة.

ويحسن التوقف هنا للتعرف علي السبب الكافي خلف هذا الانقلاب في الموقف العثماني. وقد علل عبد العزيز الرشيد ذلك الانقلاب باقدام مبارك علي التبرع للمجهود الحربي العثماني في الحرب البلقانية بحوالي احد عشر الف ليرة [2].

ورغم وجاهة ذلك التعليل، إلا اني لا أميل لاعتباره السبب الوحيد لذلك الانقلاب من الموقف العثماني.وارجح ان السلطات العثمانية في سعيها لمواجهة النشاط القومي الفعال الذى كان يقوم به السيد طالب النقيب وانصاره ضدها في البصرة حينئذ[3]، ارادت أن تحيد مباركاً وخزعل وتحول دون ارتمائها إلي جانب السيد طالب بصورة تامة. ولذلك أمرت برفع الحظر المفروض علي تسجيل املاكهما في البصرة ثمناً لذلك الحياد المطلوب.

---

(1) IOR, L/P+S/10/1212, Confid., Summary of events in Turkish rag for the month of March 1913.

(٢) الرشيد ، المرجع نفسه، ص ١٨٤. والحرب البلقانية نشبت بين الدولة العثمانية من جهة ودول التحالف البلقاني من جهة اخري في شهر تشرين الأول ١٩١٢وانتهت في شهر ايار ١٩١٣.

(٣) لمعرفة تفاصيل أوفي عن ذلك النشاط ، راجع : خالد السعدون، الاوضاع القبلية في ولاية البصرة ، الكويت ، ١٩٨٨، ص ١٨١ وما بعدها.

ويلاحظ فيما يتصل بذلك القرار أخيراً أنه لم يترتب عليه تسجيل كافة بساتين الشيخ في منطقة البصرة علي ما يبدو. يدل علي ذلك أن تقرير هنري دوبس ،مفوض الواردات في ادارة الاحتلال في البصرة سنة ١٩١٥، اورد اسماء بعض بساتين مبارك التي اشتريت في ايام العثمانيين ولم تكن قد سجلت بعد سنة ١٩١٥. ولعل السلطات العثمانية ارادت إلا تحسم الأمر كله دفعة واحدة حتى لا تخسر في صفقة واحدة جميع اوراقها الرابحة التي كانت تستخدمها للضغط علي شيخ الكويت. فلعلها لذلك اوعزت في طرف خفي لدائرة الطابو بالتمهل في اجراءات التسجيل، خاصة وقد ثارت دعاوى قانونية حول ملكية بعض تلك البساتين. ولكن ذلك البطء في اتمام عملية التسجيل لم يحل دون حرص مبارك علي توسيع نطاق بساتينه في منطقة البصرة. إذ تردد في شهر تشرين الأول ١٩١٣ أنه اشترى بساتين جديدة في الفداغية.(١)

انقلب الوضع السياسي في المنطقة رأساً علي عقب حين نجحت القوات البريطانية في طرد قوات العثمانيين في البصرة في تشرين الثاني ١٩١٤. وكان البريطانيون قد أكدوا لمبارك انه مقابل وقوفه الي جانبهم في تلك الحرب فأن البساتين المملوكة له حينها في منطقة البصرة سوف تبقي في حوزته وحوزة ورثته دون ان تخضع لدفع ضريبة حكومية، إذا نجحوا في احتلال البصرة.(٢)وحين ثبت البريطانيون اقدامهم في البصرة التزموا بتنفيذ ذلك الوعد. وكانت اولي خطواتهم في هذا المجال هي تحديد تلك البساتين المشمولة بالوعد، ثم

---

(1)IOR, L/P+S/10/212, Confid., Summary of events in Turkish Irag during October 1913.

(2)Hurewitz, J.C.,Diplomacy in the Near and Middle East, Princeton, 1956.vol.2,p.4.

القيام باجراءات تسجيلها القانوني باسم مبارك. فكتب السير بريس كوكس Sir P,Cox كبير الضباط السياسيين المرافقين للحملة البريطانية علي العراق في اوائل ١٩١٥ لشيخ الكويت طالباً منه تقديم بيان مفصل بالبساتين المملوكة له في البصرة.(١) ولم تعول ادارة الاحتلال علي البيان الذى قدمه مبارك فقط، بل اعد السير هنري دوبس، مفوض الواردات في البصرة، تقريراً حدد فيه بشكل مفصل البساتين المملوكة لمبارك وكل المعلومات المتصلة بها. وتم علي ضوء ذلك تسجيل ملكية بعض تلك البساتين. بينما ثارت حول بعضها الآخر دعاوى قانونية من قبل البائعين مثل بستان واقع في الفداغية سبق لمبارك شراءه سنة ١٩٠٨ويسمي بستان الباشية.(٢)

وحرصت سلطات الاحتلال البريطاني في البصرة من جانب آخر علي تطبيق الشق الثاني من الوعد، وهو الإعفاء الضريبي الكامل لتلك البساتين، فالتزمت بذلك مثل قيام الحكم الملكي في العراق سنة١٩٢١.(٣)ولكن يبدو أن بعض الموظفين البريطانيين في ادارة الاحتلال اعتقدوا ان ذلك الالتزام ليس مطلقاً، فلا يشمل كل أنواع الضرائب، بما فيها الضريبة المفروضة علي التمور المصدرة للخارج.ولذلك قامت الجهات المختصة باستيفاء ضريبة الصادرات علي تمور آل صباح سنة ١٩١٨. وحين بلغ الخبر شيخ الكويت حينئذ سالم بن مبارك تدخل لدى الحاكم الملكي العام في بغداد ونائبه في البصرة.

---

(١) حسين خلف الشيخ خزعل ،تاريخ الكويت السياسي، بيروت ، ١٩٦٥، ج٤،ص٩١.

(2)Winston and Freeth, op.cit.,pp.112-3.

(٣) جمال زكريا قاسم ، الخليج العربي ١٩١٤-١٩٤٥، القاهرة ، ١٩٧٣، ص ١٤١.

وترتب علي ذلك التدخل صدور أمر يؤكد اعفاء تلك الصادرات في الرسوم المقررة وحق آل صباح باسترجاع الرسوم التي دفعت سابقا.(١) بقي أن نقف وقفة عجلي عند ناحية أخري تتعلق بموضوع بساتين آل صباح في منطقة البصرة، وهي كيفية ادارة تلك البساتين. كان الذى يشرف علي ادارة تلك البساتين وكيل لآل صباح، وقد كان ذلك الوكيل زمن مبارك وابنيه جابر وسالم ومفيدة أحمد الجابر هو عبد العزيز السالم البدر.(٢) ولكن شيوخ الكويت لم يكونوا يكتفون بادارة الوكيل فقط، بل درجت عادتهم عند اقتراب وقت نضج التمور كل سنة أن يسافر الشيخ نفسه أو من ينتدبه من بين افراد أسرته نائبا عنه للاشراف شخصيا علي عملية التضمين(٣) ولعل القارئ الكريم يلاحظ معي هنا الازدواجية في وضع شيخ الكويت حينئذ، فهو رئيسي لكيان سياسي قائم بذاته بشكل ما، وهو في الوقت نفسه مالك بساتين عليه ان يتصرف مثل بقية المالكين. وتبرز هذه الأزدواجية بشكل صارخ عند اضطرار شيخ الكويت باعتباره مالكا للتعامل مع صغار الموظفين المحليين من اجل تيسير سير العمل في بساتينه. ومن امثلة ذلك التعامل الرسالة التالية التي اوردها حسين خلف الشيخ خزعل والمرسلة من سالم بن مبارك الصباح إلي مدير ناحية الفاو سنة ١٩١٨:-

" جناب حضرة الاجل الأفخم محبنا العزيز مدير ناحية الفاو مستر تام المحترم دام محروسا.

---

(١) خزعل ، المرجع نفسه ، ج٤ ، ص ص ٤٨-٤٩ و ص ص ٥٦-٥٧.

(2)Winston and Freeth, op.cit.,p.115.

(٣) خزعل ،المرجع نفسه ، ج٤ ، ص ٤٩.

بعد السلام والسؤال عن خاطركم، لا يخفي علي جنابكم كنا عازمين هذه الايام نتوجه لطرفكم حسب العادة لأجل مباشرة تضمين املاكنا وبالفرصة نزوركم ولكني ما حصلت فرصة، كذلك بالوقت نفسه صار بعض اللازم وأوجب تأخيرنا وقد عمدنا اخينا سليمان بن حمود الصباح كي يقابل الفتح بخصوص الضمان واوصيناه يزور جنابكم بالنيابة عنا، نؤمل انشاء الله يشاهدكم في خير وسرور ويعود شاكر صنيعكم..."[1].

وبعد، فأني لا ازعم بأنني قد وفيت الموضوع حقه بالبحث في كافة جوانبه. وحسبي أن اثير اهتمام باحثينا بهذا الموضوع علهم يتناولون بتوسع اكثر مستقبلاً. وربما اقتنع امر معدي رسائل الماجستير بالموضوع واختاره ميداناً لرسالته فيلم اطرافه ويتابع تطوراته في العهد العثماني ثم زمن الاحتلال البريطاني وصولاً إلي العهد الملكي. وتسهيلاً علي مثل هذا الباحث، أن وجد، فأني انصحه بالرجوع إلي ملفات الوثائق التالية :

في India Office Records بلندن:

R/15/5/5, R/15/5/6 وتتناول التطورات حتى سنة ١٩٢٠.

R/15/5/135 حتى R/15/5/155 وتتناول التطورات حتى آخر سنة ١٩٤٩

---

(١)خزعل ،المرجع نفسه ، ج٤ ، ص ٥٠.

المصـــادر والمراجـــع

❑ الوثائق غير المنشورة:-

أ. باللغـــة العربيـــة:

- رسالة من مبارك الصباح لعبد العزيز المشاري مؤرخة في ٣رجب١٣٢٦.

ب. باللغة الانكليزيـــة:

1- IOR, R/15/5/25:

- Extracts from Diary No.13 of Koweit Political Agency for week ending 30 th March 1910.
- Extracts from Kuwait news for week ending 26th October 1910.

2- FO 424/219, No.396, sir G. Lowther to Sir Edward Grey,dated May 28,1909.

3- FO 424/219, No.17, Consul Crow to Sir G.Lowther, dated March 10, 1909.

4- FO 424/224,No.43, Consul Crow to Sir G. Lowther, dated July8,1910.

5- IOR. L/P+S/10/212, Confid., Summary of events in Turkish Irag during October 1913.

❑ المراجع العامة:-

أ. باللغة العربية:

١- أحمد نور الانصاري، النصرة في اخبار البصرة، تحقيق يوســف عز الدين ، بغداد ، ١٩٧٦.

٢- جمال زكريا قاسم، الخليج العربي ١٩١٤-١٩٤٥، القاهرة، ١٩٧٣

٣- حسين خلف الشيخ خزعل، تاريخ الكويت السياسي، ج٤، بيروت،١٩٦٥.

٤- خالد السعدون ،العلاقات بين نجد والكويت، الرياض، ١٤٠٣/١٩٨٣ الاوضاع القبلية في ولاية البصرة، الكويت، ١٩٨٨.

٥- عبد العزيز الرشيد، تاريخ الكويت، بيروت ، ١٩٧٨.

٦- فتوح عبد المحسن الختوش، تاريخ العلاقات السياسية البريطانية الكويتية ١٨٩٠-١٩٢١، الكويت ١٩٤.

٧- لوريمر ، ج.ج.، دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة ديوان حاكم قطر، الدوحة، دون تاريخ ، ج٣.

٨- لونغريك ، س.هـ.، اربعة قرون في تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط، ط٦ ، بغداد ١٩٨٥.

ب. باللغة الانكليزية:.

- Hurewitz J.C., Diplomacy in Near and Middle East, Prinectum,1956.
- Winston, H.V., and Freeth, Z., Kuwait Prospect and Reality, Landon , 1972.

الفصل الخامس

صفحـــات من صراع الرياض وحائــــل

صفحات من صراع الرياض وحائل
١٩٠٢ - ١٩٢١

قليلة هي الكتب التي أفردت لتناول تاريخ حائل. وأقل منها تلك التي تناولته من وجهة نظر رشيدية فالمغلوب لا نصير له. تلك عبرة من عبر التاريخ ودرس من دروسه. وكان من حسن الصدف أن عثرت ضمن بعض الوثائق البريطانية على كراسة ألفها كاتب يدعى سليمان البسام، وارسل نسخة منها إلى القنصل البريطاني في جدة في مايو ١٩٠٩. وقد عرف القنصل وهو يرفعها لمراجعة، شخصية كاتبها بأنه "التاجر الكبير المقيم في مكة، والمواطن في عنيزة في نجد، والنصير القوي لأبن رشيد، والمعارض للجماعة الوهابية أو جماعة ابن سعود". وقوم القنصل الكراسة بعد ذلك بقوله :- "يفترض المؤلف أن قراءه يعرفون السياق العام للأحداث في نجد، لذا فإن روايته غير كاملة وتعيينه التواريخ الدقيقة للأحداث وفق تسلسلها الزمنى غير واضح".(١)

ولكن الكراسة على الرغم من هذه الشوائب تعطي قدرا كبيرا من المعلومات من وجهة نظر رشيدية على حد قول السير جورج لوثر G-Lowther السفير البريطاني في اسطنبول حينئذ(٢) أما رأي الوكيل السياسي البريطاني في الكويت بعد اطلاعه على الكراسة فهو انها مهمة لأنها تعطي شرحا للأمور والسياسات في بلاد العرب الداخلية أكثر تفصيلا وصراحة مما يمكن الحصول عليه عموما من الاستفسارات المحلية(٣).

---

(1) IOR, R/15/5/25, No 23, H.B.M's. Consul. Jeddah, to Sir G. Lowther, dated 15 – 5 – 1909.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 609, Sir G. Lowther to Forign Office, dated 29 – 6 – 1909.

(3) IOR, R/15/5/25, No. C – 1, Captain W-H- Shakespear, Pol-Agent, Kuwait, to the First Assistant Resident. Bushire, dated 4 – 1 1910

لقد أعدت نقل تلك الكراسة إلى اللغة العربية من ترجمتها الإنكليزية التي قام بها القنصل. فجاءت في ثماني صفحات أعطيتها أرقاما متسلسلة . وغدا وجود هذه الكراسة محفزاً لي، إذ أخذت أدون أية معلومة عن تاريخ حائل ترد في الوثائق البريطانية الأخرى. فتراكم نتيجة لذلك كم لا بأس به من المعلومات ينتظر الاستفادة منه. وقد شاء الله أن أنشط لذلك مؤخرا مستعرضا ما جاء في كراسة البسام، معارضا معلوماتها بما جاء في الوثائق الأخرى وبعض المراجع، مستكملا تسلسل أحداثها التي تقف عند الشهور الأولى من سنة ١٩٠٩ بما جاء في الوثائق البريطانية أساسا حتى سقوط حائل بيد الأمير عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٢٠ ولا أزعم وأنا أخرج هذا البحث إنني أرخت إمارة حائل في فترة حاسمة من فترات حياتها، فذلك ما لم أطمح له منذ البدء. فغاية الطموح هي أن أضع أمام القارئ صفحات قد تساعده في الإطلاع على زوايا معتمة من ذلك التاريخ عله يجد فيها ما يصلح للدرس والتأمل.

تغفل كراسة البسام تقديم أية معلومات عن نشأة إمارة آل رشيد في حائل. لذا فأن من حق القارئ أن يلم إلمامة موجزة بتلك النشأة إذ كانت حائل خلال القرن الثاني عشر الهجري حاضرة لإمارة آل علي، وهم من آل جعفر من عبده من قبيلة شمر. وقد انضوت تلك الإمارة تحت لواء الدولة السعودية الأولى سنة ١٢٠١هـ (١٧٨٦-١٧٨٧م)(*)، وظلت على ولائها لها حتى سقوطها على أيدي قوات

(*) يذكر بعض المؤرخين ان خضوع حائل لحكم آل سعود سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م.
محمد الزعارير، امارة آل رشيد في حائل، بيان للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٧، ص ٥٢.

محمد علي باشا سنة ١٨١٨ ، وحين أعاد الإمام تركي بن عبد الله آل سعود تأسيس الدولة السعودية التي عرفت بالثانية انضمت حائل لتلك الدولة بمحض اختيارها[١]. وفي غضون هذا الوقت قاد عبد الله بن علي بن رشيد تمرداً في حائل بهدف انتزاع السلطة من آل علي، ولكنه فشل[٢] ولجأ بعد حين إلى الإمام تركي وابنه فيصل حيث توثقت علاقته بالأخير إلى درجة أنه بادر بعد توليه الإمامة إلى عزل صالح بن عبد المحس آل علي عن إمارة حائل وعين مكانه عبد الله بن علي بن رشيد سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٥م [٣] ومن هنا بدأت إمارة آل رشيد التي ظل مؤسسها بالمقابل مخلصا للإمام فيصل حتى نهاية أيامه [٤].

ولكن "الاخلاص" كلمة مطاطة لا تحدد بدقة طبيعة العلاقة بين الحاضرتين. وذلك ما تصدى سليمان البسام لمعالجته فكتب في كراسته قائلاً :- "كانت إمارة آل رشيد مستقلة ولا تملك أسرة آل سعود سلطة عليها، لكنها بالأحرى تحترمها وتتودد إليها وتمنحها سنويا هدايا من إيرادات نجد . وهكذا كانت العلاقات بين الأسرتين ودية زمن فيصل. وكانت الحدود بينهما في القصيم، حيث كان الشمال تحت سيطرة أسرة

(١) تفاصيل كل ذلك في دراسة وصفية أعدها د. عبد الله العثيمين، نشأة إمارة حائل، الرياض، ١٩٨١، ص ص٥ - ١٤.

(٢) لوريمر/ ج.ج.، دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة ونشر ديوان حاكم قطر، محمد الزعارير الدوحة، د. ت.، ج٣، ص ١٧٢٤. وعن تفاصيل ذلك التمرد راجع :- إمارة آل رشيد في حائل، عمان، ١٩٩٧، ص ص٥٣ - ٥٤.

(٣) العثيمين، المرجع نفسه، ص ص٣٤ - ٤٢.

(٤) لوريمر، المرجع نفسه، ج٣، ص ١٧٢٦.

آل رشيد والجنوب تحت سيطرة أسرة آل سعود"[1] ويؤكد البسام في موضع آخر على طابع التحالف بين الأسرتين فيقول :- "وشيوخ شمر حتى أربعين سنة مضت كانوا في مركز الحلفاء المستقلين والمعاونين لآل سعود، معترفين على الأخص بسلطتهم على الأجزاء الجنوبية والغربية والشرقية من نجد، ويحصلون من الرياض على إعانات مالية سنوية، ولهم سلطة كاملة على الشمال وعلى الغرب حتى المدينة وإلى الشرق حتى السماوة والحسين ومشهد" [2].

وتبدو كلمة "الاستقلال" التي أكد عليها البسام أعلاه مبالغا فيها بعض الشيء فطوال فترة حكم عبد الله بن رشيد ظل ولاء إقليم جبل شمر للرياض امرا غير قابل للمناقشة [3] إذ كان عبد الله يعترف رسمياً بالسيادة العليا للإمام فيصل، ولكنه مع ذلك كان يتمتع باستقلال ذاتي لم يكن غيره من أمراء المناطق التابعين للإمام يملكونه أو يحلمون بالوصول إليه، تدل على ذلك ندرة اشتراك بن رشيد في الغزوات التي تشنها الرياض، وحرية تحركه الحربي ضد خصومه الخاصين، وعدم ورود ما يدل على أن زكاة منطقة جبل شمر كانت ترسل إلى خزينة الدولة المركزية في الرياض[4] وبخصوص ما أورده البسام عن تلقي ابن رشيد هدايا أو إعانات مالية سنوية من الرياض، فلم يرد في المراجع المتاحة ما يدل عليه. ولكن ورد العكس، إذ تجمع تلك المراجع

---

(١) سليمان البسام، الكراسة المذكورة، ص ١.

(٢) البسام، المصدر نفسه، ج٣، ص ١٧٢٦

(٣) لوريمر، المرجع نفسه، ج٣، ص ١٦٥٤ ـ والزعارير، المرجع نفسه، ص ٦٣.

(٤) العثيمين، المرجع نفسه، ص ١٠٠ ـ ١٠٢

على أن أمير حائل كان يرسل للرياض سنويا هدية من الخيول الأصيلة[1] أما عن الحدود التي ذكر البسام أنها كانت تفصل بين نفوذ الحاضرتين فيبدو عدم الدقة متعمدا بقوله أنها كانت في القصيم تعميما دون ذكر مكان محدد في القصيم الذي هو إقليم واسع. وقد رجح أحد الباحثين أن تكون منطقة "الكهفة" الواقعة على بعد مائة وخمسة وسبعين كيلو مترا جنوب شرقا حائل هي الحد الفاصل بين نفوذ عبد الله بن رشيد وزعماء القصيم [2] على الرغم من أن "لوريمر" ذكر ما يشير إلى أن إقليم القصيم كله أصبح حوالي سنة ١٨٤٨ خاضعا لحماية أمير جبل شمر الذي غدا وسيطا بين سكانه والرياض[*][3] ولعل القول الفصل في هذا الأمر موكول للرحالة دواتي Doughty الذي تجول في أرجاء إمارة آل رشيد وكتب يقول أن حدودها الشمالية هي تخوم قبائل الرولة وشمر الشمالية والظفير، وحدودها في الشرق توابع بريدة، وفي الجنوب تمتد حتى حوالي مائة ميل من المدينة المنورة، وتمتد في الغرب إلى طريق الحج الكبير الواصل إلى سوريا [4] لذا فلا عبرة بمبالغة البسام حين مد حدود الإمارة الشمالية وجعلها بلدات السماوة والحسين (كربلاء) ومشهد (النجف) التي كانت خاضعة حينئذ للحكم العثماني المباشر في العراق.

---

(١) لوريمر، المرجع نفسه، ج٣، ص ١٦٥٤ والعثيمين، المرجع نفسه، ص ١٠٣ و doughty, C., Travel in Arabic Deserta, New York, 1979, Vol – 2,p – 46.

(٢) العثيمين، المرجع نفسه، ج٣، ص ١٦٥٤.

(*) روى أن علاقة أهل القصيم بحائل تحسنت بعد وفاة عبد الله آل رشيد سنة ١٢٦٣هـ / ١٨٤٧م حتى أنهم طلبوا مساعدة حائل ضد الحكومة المركزية في الرياض. الزعارير، المرجع نفسه، ص ١٢٣.,

(٣) لوريمر، المرجع نفسه، ج٣، ص ١٦٨٩

(٤) Doughty, op, cit, Vol,2p. 37.

وضرب البسام بعد ذلك صفحا عن ذكر الأحداث التي جرت في نجد عقب وفاة الإمام فيصل بن تركي آل سعود سنة ١٨٦٥ وتنازع ورثته فيما بينهم إذ جرأت تلك الأحداث آل رشيد على التطلع إلى منافسة آل سعود على السيادة على نجد. وقد جاءت أول الأعمال العدائية من حائل تجاه الرياض سنة ١٨٧١(*)(١) وتصاعدت بعد ذلك وتيرة العداء حتى بلغت ذروتها في وقعتي "المليداء" سنة ١٨٩٠ وحريملاء سنة ١٨٩١ اللتين حققتا للأمير محمد بن عبد الله آل رشيد السيدة على نجد كلها. واكتفى البسام بدلا من ذلك كله بالإشادة بصفات الأمير محمد وإطراء سياسته الداخلية والخارجية التي أدت إلى استقرار البلاد وتمتعها بالأمن والازدهار خلال المدة في ١٣٠١- ١٣١٥هـ (١٨٨٣- ١٨٩٧)(٢) ولم يكن البسام شاذا في ذلك الإطراء، فكل من كتب عن حكم الأمير محمد أثنى على حسن سياسته وحزم قيادته.

تولى الإمارة في حائل بعد وفاة محمد بن عبد الله الرشيد ابن أخيه عبد العزيز بن فيصل الرشيد. ويبدو أن البسام كان راضيا عن سياسته خلال السنوات الخمس الأولى من حكمه (١٣١٥-١٣١٩هـ) التي سار خلالها على هدي خطوات عمه، وكان الناس أثناءها في أعظم الراحة والأمان. ثم أضاف :- "ولكن عبد العزيز كان شخصاً عنيدا ذا رأي مستقل لا يقبل النصيحة فأضر ذلك بمركزه في

(*) يعتبر البعض أن مساعدة محمد آل رشيد لأهل المجمعة ذد الإمام عبد الله الفيصل سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨١ أول صدام بين حائل والرياض. الزعارير، المرجع نفسه، ص ٨٧.

(١) لوريمر، المرجع نفسه، ج٣، ص ١٦٨٩

(٢) البسام، المصدر نفسه، ص١.

الوطن وفي الأمور الخارجية وكان تصميمه وشجاعته دون جدوى. فتفرق عنه أنصاره لأنه لا يشاورهم ولا يعيرهم اهتماما"[1] ويلاحظ أن المؤلف ركز انتقاده لحكم عبد العزيز الرشيد خلال الفترة التي تلت سنة ١٣١٩هـ، وهي السنة التي أستعاد فيها الأمير عبد العزيز آل سعود الرياض، فكأنه أراد بذلك انتقاد معالجة حاكم حائل للأمر دون أن يفصح صراحة.

صور المؤلف استعادة عبد العزيز آل سعود للرياض وكأنها نتيجة مؤامرة مدبرة لعب الدور الرئيسي فيها الشيخ مبارك الصباح. فقد كتب يقول :- "قتل مبارك الصباح شيخ الكويت أخويه محمد وجراح في ٢٤ ذي القعدة ١٣١٣ هـ (١٨٩٥)، فلجأ أولاد القتيلين في الحال إلى خالهم يوسف الإبراهيم المشهور بثروته وتقديم حمايته الكريمة للمحتاجين. ثم لجأ أولئك الأولاد أيضا إلى الحكومة العثمانية في ولاية البصرة في زمن الوالي حمدي باشا. وأصبح مبارك خائفا لما يعرفه عن يوسف وعن حق الحكومة العثمانية في التدخل، ولا تحتاج تلك الأمور إلى تفصيل لأنها معروفة عموما. ومن أجل حماية نفسه، فكر مبارك في اتخاذ أمراء البيت السعودي وأهالي القصيم الذي كانوا يقيمون مؤقتا في جوار الكويت حجر عثرة في طريق ابن رشيد، لأنه عرف أن الأخير سيكون وكيلا للحكومة العثمانية، وخشى أن تحثه الحكومة على إخضاع الكويت من جهة البر. وفي الحقيقة فأن ابن رشيد عرض هذه الفكرة على قصر يلدز أكثر من مرة، ولكن الحكومة

---

(١) البسام، المصدر نفسه ص١-٢.

لم توافق عليها، إذ كانت الحكومة تحت تأثير المتآمرين الذين استخدمهم مبارك.

وقد كان مبارك يعارض لاعتبارات مالية حماية الحكومة لأبناء الأميرين القتيلين وخالهم يوسف بن إبراهيم الذي أعذر نفسه نتيجة لذلك وغادر إلى الهند وحين علمت الحكومة العثمانية بمغادرة يوسف بن إبراهيم اقترحت على ابن رشيد أن يدعوه إلى حائل. وبدأت الحكومة بترتيب السلام بين مبارك وأبناء أخويه. وانصاع ابن رشيد للأمر فأرسل إلى يوسف بن إبراهيم. وحين ذهب الأخير إلى حائل تنبه مبارك للخطر وحاول ان يرسل غارة في الصحراء ضد ابن رشيد تضم أمراء بيت آل سعود وأهل القصيم النازلين بجواره، فرفضوا لانهم يعرفون أنهم أضعف من ذلك ولكنه أكرههم، فلم يجدوا بدا من الخروج لإرضائه [1].

وطوال ست سنوات ظلوا يغيرون على إمارة ابن رشيد. كما انقلب رجال القصر ضد ابن رشيد نتيجة لـ (الحجج الذهبية)[2] التي استخدمها مبارك. ولم يبق إلا السلطان نفسه فقط مؤيدا لابن رشيد على الرغم من المفترين الذين حاولوا قلبه ضده لأنه عرف الحقيقة عن إمارتي ابن سعود وابن رشيد فالاول يطلب المملكة والخلافة والثاني

---

(١) تذكر المرجع الأخرى أولئك اللاجئين وعلى رأسهم الأمير عبد العزيز آل سعود وكانوا هم الذين يلحون على مبارك في امر تلك الغارات التي وصلت قمتها في معركة الصريف والتي تلتها في السنة التالية (١٣١٩ - ١٩٠٢م) استعادة عبد العزيز للرياض. راجع ذلك كله في : خالد السعدومة، العلاقات بين نجد والكويت، الرياض، ١٩٨٣، ص٤٥٢.

(٢) بقصد الليرات الذهبية.

مجرد أمير تحت ظل الهلال العثماني. ولكن الكائدين منعوا السلطان من مساعدة ابن رشيد ومن ملاحظة أعمال ابن سعود الشريرة وكان ذلك بسبب رجحان نفوذ جماعة ابي الهدى"(1).

ضرب البسام بعد ذلك صفحا عن ذكر الأحداث التي أعقبت استعادة الأمير عبد العزيز آل سعود للرياض، وتفاصيل الصراع الذي قام بعدها بين الحاضرتين والذي استغرق قرابة أربع سنين، وانتهى بمقتل الأمير عبد العزيز الرشيد في معركة روضة مهنا سنة ١٩٠٦. ولعل مرد ذلك نفور المؤلف من ذكر أحداث جرت على غير ما كان يشتهي آل رشيد الذين منحهم وده وتأييده.

◻ إمارة متعب بن عبد العزيز الرشيد:

رجح مقتل عبد العزيز المتعب كفة ابن سعود في الصراع، فوسع عملياته الحربية ضد حائل حتى أبواب المدينة ذاتها. ولم يفد ساعد الأمير الجديد الدعم العثماني له، حين أبلغه أمير سر السلطان أسف السلطان لمقتل والده وعزم الباب العالي على إيقاع العقاب بقتلته، وقرار التصديق على خلافته لأبيه بالراتب الذي كان مخصصا له وهو مائتا ليرة شهريا ومائتا كيس من الأرز سنويا(2) ولم يفد كل ذلك الدعم من تعديل موازين القوى بين الحاضرتين نتيجة الخلل في الوضع

---

(1) البسام، المصدر نفسه، ص ص ٢-٣ ويقصد المؤلف بالجملة الأخيرة أبا الهدى الصيادي الرفاعي، وهو أحد مشايخ المطوفة، وكان متنفذا لدى السلطان عبد الحميد الثاني. وقد استخدم مبارك الشيخ طالب (الرفاعي) وسيلة للوصول إلى أبي الهدى.

(2) لوريمر، المرجع نفسه، ج٣، ص ص ١٧١١ - ١٧١٣.

الداخلي للإمارة الذي تحدث عنه البسام بقوله أن مقتل عبد العزيز المتعب فتح باب التنافس والصراع على الحكم بين آل رشيد مرة أخرى، وهو الأمر الذي كانت عاقبته وخيمة عليهم جميعا. فبعد مقتله انيطت مقاليد الإمارة بإبنه متعب الذي كان شابا في الثامنة عشرة من عمره. ونتيجة لحداثة سنه وقلة تجربته فقد اعتمد في تصريف الأمور على اخواله أبناء حمود بن عبيد الرشيد وهم سلطان وسعود وفيصل الذين فرضوا سيطرتهم الكاملة على الأمور في الإمارة. ولكن تلك المكانة الكبيرة التي تبوأوها لم تقنعهم بترك الإمارة الاسمية لابن أختهم الشاب، بل وطمحوا بحمل لقب الإمارة ولو جاء على جثة ابن أختهم ومن يؤيده من عصبته. وبالفعل قام الأخوال الثلاثة بقتل متعب وأخويه وابن عم له[1]. وكان مقتل متعب في شهر يناير ١٩٠٧، وبذا دامت إمارته تسعة أشهر فقط[2].

▫ إمارة سلطان بن حمود الرشيد:

تولى إمارة حائل بعد مقتل متعب سلطان بن حمود يعاونه أخواه سعود وفيصل. وهو تطور لم يحظ بإقرار اسطنبول، فلم تعترف بالأمير الجديد وقطعت عنه الإعانة التي كانت تدفعها لاسلافه[3]. ولم يفت ذلك بقصد الأمير الجديد الذي اتخذ أخاه سعود وزيرا له وأرسل أخاه الثاني فيصل حاكما لمنطقة الجوف في الشمال. ولم يطل امد الوئام

---

(١) البسام، المصدر نفسه، ص ٣.

(٢) IOR R/15/5/25, No-23,H-B-M's-Consul, Jeddah, to Sir G-Lowther, Dated 15-5-1905

(٣) لوريمر، المرجع نفسه، ج٣، ص ١٧٤٣.

بين الامير الجديد وأخيه الوزير، فأخذا يتنافسان على السلطة. وحتى يدعم الأمير موقفه قرب آل سبهان، وهم أسرة شمرية ثرية ارتبطت مع آل رشيد برباط المصاهرة منذ القدم، وكانوا وزراء الإمارة في الفترة التي سبقت مقتل متعب. ولم تحل خطوة سلطان تلك دون تفاقم الصراع وبلوغه مرحلة حرجة جعلت آل سبهان يخشون معه على أنفسهم وعلى ابن اختهم الطفل سعود بن عبد العزيز الرشيد، وهو الوحيد من أخوة الأمير السابق القتيل الذي نجا من المذبحة بسبب حماية أخواله له. ولذلك تظاهر كبير آل سبهان "حمود" بالمرض، واتجه نحو المدينة المنورة مصطحبا مقتنياته الثمينة والصبي سعود. بينما استمر في الجانب الآخر صراع الأخوين سلطان وسعود إلى أن انتهى بمقتل سلطان [١]. وكان ذلك في أبريل ١٩٠٨م (ربيع الأول ١٣٢٦هـ)[٢].

وقد كان من الطبيعي أن يتابع ابن سعود باهتمام كبير ما يجري بين خصومة في عاصمة ملكهم، وأن يحاول استغلاله لتحقيق مكاسب لصالحه. ويؤكد البسام سلوك ابن سعود ذلك السبيل، فيقول :- "وحين رأى عبد العزيز بن عبد الرحمن كبير البيت السعودي الضغائن في بيت آل رشيد أراد الاستفادة منها، فبدأ مراسلة علنية مع الأمير سلطان. وبدا في الوقت ذاته مراسلة سرية مع أعداء الأمير. لقد تراسل مع البدو والحضر في نجد ومع الحكومة العثمانية ومع امراء الخليج العربي. واعتقد المراقبون الأوربيون أنه سيحقق السيطرة على نجد دون مقاومة. ولكنه كان يعلم بأن ذلك لا يمكن تحقيقه دون مساعدة

---

(١) البسام، المصدر نفسه، ص ص ٤ – ٥.

(2)IOR, R/15/5/25, No-23, —

الأمير... ولذلك فأن ابن سعود أخذ يتقرب لزعماء شمر ويهيج النزاع داخل عائلة الرشيد، ولكن دون جدوى لان أغلب زعماء شمر كانوا يتذكرون محمد بن رشيد المشهور بعدله وسياسته الحكيمة، ولأن كل الزعماء كانوا قد أقسموا على القرآن متعهدين بالإخلاص لبيت آل رشيد"[1].

◻ إمارة سعود بن حمود الرشيد

تولى الإمارة بعد مقتل اخيه سلطان. ولكن إمارته لم تستمر إلا قرابة ستة شهور[*]. فقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى إسقاطه. وكان منها أن حمود السبهان بعد استقراره في المدينة اخذ يؤلب السلطات العثمانية ضد مغتصبي الحكم في حائل. وروى البسام إنه صادف في ذلك نجاحا كبيرا، إذ نال شكر السلطان ووزرائه "العادلين" على حمايته للصبي سعود بن عبد العزيز آل رشيد الوريث الشرعي للأمارة. وقد منحته الحكومة مع مرافقيه مخصصات كافية خلال إقامتهم في المدينة. وروى البسام أيضا أن حمود السبهان تحرك في اتجاه آخر، فأخذ يتصل بزعماء قبيلة شمر حتى استطاع إقناعهم بفكرة إسناد

---

(١) البسام، المصدر نفسه،ص ٤.

(*) روى باحث أن مدة حكمه حوالي ١٤ شهرا وهو خطأ واضح لانه ذكر في الصفحة ذاتها أن سعود بن عبد العزيز تولى الحكم في أغسطس ١٩٠٨ - فتكون مدة حكم سعود بن حمود حسب روايته بين ابريل ١٩٠٨ وأغسطس ١٩٠٨. راجع : الزعارير. المرجع نفسه، ص ٦٩.

الإمارة للصبي سعود تحت وصاية أخواله السبهان*[1]. ومما زاد في نجاح حمود في تأليب زعماء شمر على أبناء حمود الرشيد كون الأخيرين قد وضعوا خطة لاقتسام بيت مال الإمارة فيما بينهم. وقد أدى افتضاح أمر الخطة إلى ازدياد الهياج بين زعماء شمر الذين أرسلوا رسالة عاجلة لحمود السبهان في المدينة ليقدم إلى حائل وينقذ شمر من الخائن"[2] وهكذا نجحت خطة المتآمرين ضد سعودَ بن حمود فعزل عن الإمارة في أغسطس ١٩٠٨، ثم قتل بعد ذلك بقليل [3].

ومن زيادة الفائدة هنا التعرف على موارد بيت المال في حائل كما حددها البسام إذ قال أن الأمير في حائل لم يكن يملك شيئا بصورة شخصية إلا ما كان يملكه قبل تسلمه منصبه. أما ما يجمعه من موارد حين يصبح أميرا فيؤول إلى بيت المال، ولا يستطيع أحد إنفاقه حتى الأمير نفسه، إذ أن السلطة الكاملة على بيت المال للمجلس[4] ولكن البسام لم يبين ماهية ذلك المجلس. ولعله قصد به هيئة من رجال العائلة الحاكمة وكبار مستشاريهم. كما أن المراجع الأخرى المتاحة لم تذكر شيئا عن وجود مثل ذلك المجلس وإن ذكرت وجود "بيت المال"

(*) يروى أن أهالي حائل هم الذين رفضوا إمارة سعود بن حمود وكتبوا إلى سعود عبد العزيز يدعونه للعودة إلى حائل ويعدونه بفتح أبواب المدينة أمامه. راجع : الزعارير، المرجع نفسه، ص ص ٦٨-٦٩.

(١) المصدر نفسه، ص ٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥.

(٣) IOR, R/15/5/25, No-23, —

(٤) البسام، المصدر نفسه، ص ٥.

وتحدثت عن الفرق بينه وبين أملاك الامير الحاكم الخاصة[1]. وحدد البسام بعد ذلك موارد بيت مال الإمارة كما يلي :-

١- ضريبة على الإبل مقدارها ربع دولار ماريا تريزا على كل جمل إذ تجاوز عدد الإبل لدى المالك عشرة. أما إذا كان عددها أقل من ذلك فهي معفاة من الضريبة.

٢- ضريبة على الأغنام مقدارها ربع ليرة عثمانية على كل أربعين رأساً. ويعفى المالك من الضريبة إذا كان عدد قطيعه أقل من أربعين رأساً.

٣- ضريبة على الغلال والتمور بنسبة خمسة بالمائة من المحصول[2]. وقد أوردت مراجع أخرى تفصيلات أوفى عن تلك الموارد، فذكرت أن أبرزها هي الزكاة وضريبة قوافل الحج والتجارة التي كانت تشكل أكثر من ربع الدخل أيام إمارة محمد بن عبد الله الرشيد، علاوة على خمس غنائم الغزوات التي كان الحاكم يقوم بها ضد أعدائه[3].

وكانت تلك الموارد جميعها تغل على الأمير محمد حوالي أربعين ألف جنيه سنويا، تسهم باديته بخمسها. بينما كانت انفاقاته السنوية المختلفة تقدر بثلاثة عشر ألف جنيه[4].

---

(١) Doughty, op-cit, Vol – 1, p – 664.

(٢) البسام، المصدر نفسه، ص ٥.

(٣) العثيمين، المرجع نفسه، ص ٥.

(٤) Doughty, op-cit, Vol – 2, p – 35. قارن هذه الموارد بما جاء في ك الزعارير، المرجع نفسه، ص ص ٩٩ ـ ١٠٥.

□ **إمارة سعود بن عبد العزيز الرشيد:**

نودي به أمير على حائل بعد عزل سميه سعود بن حمود في رجب ١٣٢٦هـ / أغسطس ١٩٠٨م. وكان عمره حينئذ قرابه عشر سنين فكان من الطبيعي لذلك أن غدا الحاكم الحقيقي لإمارة حائل خاله والوصي عليه حمود السبهان ويبدوا أن الأخير كان ذا شخصية قوية وإدارة حازمة، فاستطاع خلال مدة قصيرة لا تتجاوز ثلاثة شهور أن يوطد الاستقرار الداخلي في الإمارة حسبما روى البسام. وانصرف بعد ذلك نحو اكتساب القبائل المحيطة بحائل إلى صفة. وكانت وسيلته لذلك مزيجا من الترغيب والترهيب. ويظهر أنه حقق نجاحا ملحوظا في مسعاه هذا، ساعده على تحقيقه ما كان يتمتع به من سمعة طيبة في أوساط شيوخ القبائل[١].

وقد رحبت الحكومة العثمانية بتولي سعود لإمارة حائل. إذ قبلت الحكومة العثمانية توليه وأقرته، وعينت له ولأخواله السبهان مخصصات كافية ومنحتهم أوسمة ونياشين، وأعطت سعود بن عبد العزيز لقب "أمير نجد" وأصدرت بذلك التعليمات لكل ولاة الولايات العربية في بغداد والبصرة وحلب ودمشق والحجاز وللمتصرفين في ألوية المدينة والأحساء ونجد. أن ميل الحكومة العثمانية نحو بيت آل رشيد معروف جيدا لكل العرب. وكان ابن رشيد سعيدا لاستلام فرمانات التقليد من الحكومة العثمانية التي وضع تحت قدميها وجنتيه

(١) البسام، المصدر نفسه، ص٥.

كما فعل آل رشيد كلهم منذ قدوم المصريين اول مرة إلى نجد"[١].

ولم يطل العمر بحمود السبهان كي يواصل توطيد أركان الإمارة في حائل، إذا توفى في أوائل سنة ١٩٠٩. ولكن وفاته لم تهز الإمارة على حد قول البسام حيث كان هناك خمسة وعشرون رجلا من آل سبهان كل منهم قادرا على الحلول محله. وقد سد الفراغ الذى نتج عن رحيله بالفعل، حين تولى الوصاية على الأمير الصبي زامل السبهان، وهو رجل في الخامسة والثلاثين من عمره. وكان إلى جانبه شخص قوي آخر من آل سبهان هو ناصر السبهان الذي تولى مسؤولية خزانة بيت مال الإمارة[٢].

◻ الصراع بين حائل والرياض منذ تولى سعود وحتى قيام الحرب العالمية الأولى.

كان لاستقرار الأوضاع في حائل على الصورة أعلاه انعكاس على الصراع التقليدي بينها وبين الرياض دون ريب. ويظهر من الروايات المختلفة أن ذلك تزامن مع تطورات غير مواتية بعض الشيء للأمير عبد العزيز آل سعود. ويحسن استعراض تلك الروايات للتعرف على حقيقة ما حدث، بدءا برواية البسام على طولها، وهي تقول:- "لم يبق عربي في نجد إلى جانب ابن سعود إلا بعض قبيلة مطير وبعض رجال القصيم والوشم والمحمل وسدير. والمجاعة

(١) المصدر نفسه، ص٦. ويقصد بالمصريين قوات محمد على باشا التي اكتسحت الدولة السعودية الاولى سنة ١٨١٨.

(2) IOR, R/15/5/25, Letter From Mr. G. E. Leachman to Mr. J.G. Lorime, dated 22 – 2-1910.

مزمنة بين كل أولئك، فهم أناس يائسون لأن الأرض مقحلة والمؤن نادرة، بينما أراضي ابن رشيد مخصبة تماما. لذا فأن أغلب أهل نجد ميالون لابن رشيد نتيجة عدائهم لابن سعود وإيمانهم بان الحظوظ تسير ضده"[١].

وانتقل البسام بعد ذلك إلى إيراد احصائية عن أفراد القبائل وسكان نجد في مناطقهم المختلفة على الوجه التالي[٢].

شمر ٤٠٠٠٠ نسمة [٣]

حرب ٢٠٠٠٠ نسمة [٤]

مطير ٢٠٠٠٠ نسمة [٥]

الصغير، Sagayr ١٠٠٠٠ نسمة (ليست هناك قبيلة بهذا الاسم، ولعله مصحف)

---

(١) البسام، المصدر نفسه، ص٥.

(٢) وصف القنصل البريطاني في جدة الذي قام بترجمة كراسة البسام إلى الإنكليزية هذه الفقرة الإحصائية في الكراسة بأنها مضطربة - وهي كذلك بالفعل كما يلاحظ القارئ.

(٣) ذكر العثمينين، المرجع نفسه، ص ٨٠ أن تقديرات سكان منطقة جبل شمر حاضرة وبادية تتراوح بين عشرين وخمسة وسبعين ألف نسمة - بينما قدر داوتي حاضرة جبل شمر بحوالي عشرين ألف نسمة وباديته بقرابة أربعة عشر ألف نسمة ويضمهم شمر الجنوبية التي قدر تعدادها بألفي نسمة فقط. راجع .Doughty, op-cit-, Vol-2,p - 34 وذكرت احصائية تقديرية اخرى أن تعداد شمريا بادية وحاضرة في عهد سعود بن عبد العزيز آل رشيد بلغ ثلاثمائة ألف نسمة. راجع : الزعارير، المرجع نفسه، ص٣٥. وتدل عبارة القنصل الأخيرة على أنه لم يكن عارفا بحقيقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أو أنه متحامل عليها، أوأنه ينقل فحسب وجهة نظر الحكومة العثمانية المعادية.

(٤) قدر داوتي حرب الشمالية التابعة لابن رشيد بألف نسمة فقط. .Ibid., Vol – 2, p-34

(٥) قدرها داوتي بخمسة آلاف نسمة فقط. .Ibid., Vol – 2, p-394

عنزة	٩٠٠٠٠ نسمة
عريبدار	٥٠٠٠ نسمة
عنيبة	٤٠٠٠٠ نسمة [١]
قحطان	٢٠٠٠٠ نسمة
هيثم	٢٥٠٠٠ نسمة [٢]
العجمان	١٠٠٠٠ نسمة
المرة	١٠٠٠٠ نسمة
الرولا	٥٠٠٠ نسمة

مناجير، ?Managir ٥٠٠٠ نسمة (وليست هناك قبيلة بهذا الاسم بحدود علمي)

القصيم	٤٠٠٠٠ نسمة
الوشم	٢٠٠٠٠ نسمة
سدير	٤٠٠٠٠ نسمة

العافية ?Alavia ٢٠٠٠٠ نسمة (ولعله قصد "العوجة" وكتبها باللهجة الدارجة التي تقلب الجيم ياء "العوية"، فحين نقلها المترجم

---

(١) قدرها داوتي بستة آلاف نسمة فقط. Ibid., Vol – 2, p-34.

(٢) قدر داوتي هثيم التابعين لابن رشيد بألف وخمسمائة نسمة فقط. Ibid., Vol – 2, p-34.

للإنكليزية وضع مقابل الياء حرف V بدل W وهو امر مألوف في الإنكليزية فحدث التصحيف نتيجة لذلك).

متفرقات	٤٠٠٠٠ نسمة
المجموع	٤٦٤٠٠٠ نسمة

ومضى البسام بان ٣٠٤٠٠٠ نسمة من أولئك السكان بادية ١٦٠٠٠٠ نسمة حاضرة. وخص بعد ذلك قبيلة شمر بالقول أنها أكبر قبيلة في نجد. تتحالف معها وتنتسب لها قبائل تعد أكثر من مائة ألف نسمة تعيش في الطرق وتدفع الضريبة للحكومة العثمانية. وبدوها في نجد أقوى البدو لكون أمير حائل منهم منذ عدة أجيال، وحيث يحرص أمراء حائل على تسليحهم بأحدث البنادق. علاوة على ذلك فهم يمتطون صهوات اجود الخيول، لانهم يملكون أفضل سلالات الخيول في بلاد العرب[١] ولا تخفى على القارئ محاولة المؤلف تضخيم قوة شمر على غيرها من القبائل.

وانتقل البسام بعد ذلك للمقارنة بين الوضع الداخلي في إمارتي حائل والرياض. فقال :- "ليس هناك الآن إلى جانب ابن سعود أي من القبائل المذكورة أعلاه. فقبائله هي بقايا قبائل متفرقة، وهو يعتمد كليا على عرب الرياض المتوطنين والقرى المجاورة. وحيث أن الإمارة انتزعت من آل سعود قبل خمس وأربعين سنة، ولانهم أخذوا يتعرضون لغارات مستمرة منذئذ، فقد تدهور وضع أولئك السكان فيما

(١) البسام، المصدر نفسه، ص ص ٧-٨.

يتعلق بما يملكون من خيل وسلاح، وفقدوا جزءا كبيرا من تجارتـــهم، فغادر عدد كبير منهم إلى الاحساء والبحرين ولم يعودوا قط. أما فـــي الجانب المقابل فأن ابن رشيد يملك موارد كافية لاغراضـــه الحربيـــة، وحكومته معتدلة وضرائبه بسيطة. ويتقبل ابن رشيد، كما هي عـادة آل رشيد دائما، اللاجئ المستغيث مهما كان ذنبه، ويسوى له قضيتـــه إذا كان ذلك ممكنا، وإذا تعذر ذلك فأنه يدعه يذهب بسلام. وحين يتعلـــق الأمر بالأمير شخصيا فأنه يعفو عن المذنب في العـــادة، وهـــذا أمـــر يجتذب ولاء الناس لابن رشيد. في حين أن عادة آل سعود مناقضـــة تماما، وخاصة على أيام الإمارة الأخيرة. ويحوز ابن رشـــيد مســـاندة حكومات الولايات العثمانية المجاورة كلها، وهو مقدر تقديـــرا كبـــيرا من البرلمان العثماني وجمعية الاتحاد والترقي. أن برقية التهنئة التـــي بعثها عند افتتاح البرلمان قوبلت برضا كبير. والنقيب هو استثناء لذلـك لأنه عدو شخصي لابن رشيد واحد اتباع ابو الـــهدى صديـــق شـــيخ الكويت وابن سعود"[1].

وإذا كانت قوة ابن رشيد كما وصف البسام، فلم لم يحقق نصـــرا ساحقا على خصمه ابن سعود؟ رد البسام على ذلك التساؤل بقولـــه :- "ان السقوط الكامل لابن سعود لا يبدو قريبا، فقط لأن مبارك الصبـــاح شيخ الكويت جدد مساندته له، لذلك فأن استمرار الصراع ربما سـيؤدي إلى بقاء حكم ابن سعود لسنة أو اثنين. إذ يبـــدو الآن وكـــأن مباركـــا يتراجع ولا يبالي بفوز أي من الجماعتين، لأنه يتمسح باعتاب الحكومة

(١) المصدر نفسه، ص ٨. وليس من المعروف أن هناك عداء شخصيا بين ابن رشيد والنقيـب، ولا حتى بين أسرتيهما.

العثمانية علنا وبأعتاب الحكومة الإنكليزية سرا. وربما كانت الحكومة العثمانية قد وضعت خططا لإعانة ابن سعود ماليا واسترضائه ظانة أنه يستطيع تثبيت الأوضاع في نجد، في حين أنه فعليا ليست لديه قوة للسيطرة على أي شيء. ولكن الحكومة مخدوعة نتيجة لجهلها ومكائد الكائدين، على الرغم من أنها سوف تكتشف سريعا مرة أخرى السبيل القويم وهو الصداقة مع آل رشيد. فكما قلنا ان ابن رشيد على عكس ابن سعود مخلص للسلطان الذي يدعى له في صلوات الجمع في أراضيه"[1].

ويتسم كلام البسام عن موقف الحكومة العثمانية من الصراع بين الأميرين بسمة الارتباك الواضح. إذ أنه يناقض ما سبق أن قاله عن تأييد تلك الحكومة لحكم سعود ابن عبد العزيز تحت وصاية آل سبهان. كما أنه يتعارض كلية مع الآمال الواسعة التي عقدها على تعاون تلك الحكومة مع إمارته حائل والذي سطره على الشكل التالي : "والحكومة العثمانية تعاونهم بدستورها الجديد، وسيدخل في نجد برنامج دستوري بلا ريب تحت رعاية الحكومة العثمانية"[2]. وبصرف النظر عن حلمه الدستوري هذا المغرق في خياليته، فان كلامه السالف يناقض أيضا الحقائق التي أوردتها المصادر المستقلة عن تأييد الحكومة العثمانية لابن رشيد. فالسفير البريطاني في اسطنبول يفيد بأن الترك يمنحون مساندتهم لابن رشيد ويدفعون له راتبا شهريا مقداره مائة وخمسون جنيها

---

(١) المصدر نفسه، ص ص ٥-٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦.

استرلينيا[١]. وفي حين يذكر القنصل البريطاني في دمشق أن ذلك الراتب يبلغ نصف الراتب الذي كان يدفع لوالد ابن رشيد، وأن الحكومة العثمانية لم تشارك فعليا منذ عهد قريب في النزاع بين الرياض وحائل، إلا أنها تؤيد ابن رشيد "وتأمل فى أنه سيكون قادرا يوما ما على سحق الوهابيين الذين يتهمون بقية المسلمين بالكفر"[٢].

ومن المفيد أيضا تبين حقيقة ما ذكره البسام عن مساندة مبارك الصباح لابن سعود في هذه الفترة. فالسفير البريطاني في اسطنبول يرى أن ابن سعود يعتمد بصورة كبيرة على شيخ الكويت، وحيث أن ذلك الشيخ يعتبر تحت الحماية البريطانية فان هناك نوعا من الاعتقاد بأن ابن سعود يتمتع بنوع من التشجيع البريطاني [٣]. ويزيد الوكيل السياسي البريطاني في الكويت سياسة مبارك توضيحا وبما يرجح رواية البسام عن تراجع مبارك عن تأييده المطلق لابن سعود، فيقول:- "أن سياسة الشيخ مبارك هي بلا ريب الحفاظ على هذا التوازن بين الخصمين. ولقد اخبرت أكثر من مرة بأن تعاملات الشيخ مبارك مع القبائل البدوية تهدف أساسا إلى تحقيق هذا التوازن، وإلى نيل التبجيل لشخصه بحيث تصبح مساعدته هي الهدف المرغوب فيه جدا من لدن الزعيمين المتخاصمين معا"[٤].

أما عن حقيقة قوة موقف ابن رشيد تجاه ابن سعود على الصورة

---

(1) IOR,R/15/5/25, No. 609, Sir G. Lowther to Foreign Office, dated 29-7-1909.

(2) IOR,R/15/5/25, H.B.M's. Consul, Damascuss, to Sir G-Lowther, dated 7-7-1909.

(3) IOR, R/15/5/25, No. 609, - - -

(4) IOR, R/15/5/25, No. c-1, - - -

التي رسمها البسام، فيظهر من الوثائق البريطانية التي كانت تتابع الوضع أولا باول أن إمارة حائل تمتعت ببعض الحيوية والنشاط بعد أن تولى مقاليدها الأمير الصبي سعود فالسفير البريطاني في اسطنبول يقول :- "منذ مقتل سعود بن رشيد [يقصد سعود ابن حمود] وحلول الصبي عبد العزيز [كذا في الأصل، وهو يقصد سعود بن عبد العزيز] محله حاكما تحت وصاية زامل بن سبهان ابتسم الحظ للعائلة الشمالية. وأصبح ابن سعود في (رأى قنصل جلالته في دمشق في خطر من التحول إلى مجرد وجيه ذي مكانة باعتباره أميرا للوهابيين بالوراثة. بينما يصور قنصل جلالته في جدة هذه الطائفة [الوهابيين] على أنها محتضرة. انها ذات معتقدات خاصة، على أية حال، تبدو مختلفة عن معتقدات السنوسية فقط فيما يتعلق بالطقوس الدينية التي يمارسونها. أن هدف العودة إلى صفاء الإيمان في أيامه الأولى أمر مشترك بينهما معا"[1]، اما تقرير القنصل البريطاني في دمشق الذي أشار إليه السفير فقد جاء فيه :- "أن الصبي ابن رشيد تحت وصاية خاله زامل السبهان وأصل القتال... لدمج أكثر ما يستطيع من القبائل ضمن قواته وجماعات الجند العاملة تحت رايته. وطبقا للتقارير التي وصلت دمشق فأنه نجح في هدفه هذا إلى حد بعيد. علم توا أن قبيلة مطير القوية التي اعتادت أن تكون الذراع الأيمن لابن سعود قد نبذت ولائها للأخير وانضمت إلى ابن رشيد الذي أبرق قبل ثلاثة أيام لصديق في هذه المدينة مبينا أن أغلب أهل القصيم مع مطير هم الآن انصاره وأنه يامل في القدرة على سحق خصمه ابن سعود والسيادة على نجد كلها خلال وقت قصير...

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 609, - - -

لازالت مدينة بريده مخلصة لابن سعود الذي يعتمد وبصورة كبيرة جدا على صداقة ابن صباح شيخ الكويت. .. أن ابن سعود فقد بصورة ثابتة التأثير والمكانة في نجد اللتين تراكمتا لخصمه منذ عهد قريب. أن أهل القصيم الذين يعول ابن سعود عليهم دائما غدوا في الحقيقة نافذي الصبر من تلك الغزوات المتواصلة ومتشوقين للهدوء. الترك والسوريون ميالون بقوة إلى ابن رشيد عموما. وعلى الرغم من ان قبيلة عنزة، وهي القبيلة الرئيسية الأكبر في الصحراء السورية، ميالة لابن سعود إلا أنها غير متورطة [في الصراع] إلا قليلا، وهي بعيدة عن إظهار حماسها لجانبه ولدى ابن رشيد قبيلة شمر القوية تستمد منها قوتها، بينما ليس لخصمه مصادر مشابهة، وربما لن ينال [ابن سعود] قريبا سوى احترام وتكريم تقليديين باعتباره أمير الوهابيين بالوراثة"(١).

وعلق الوكيل السياسي البريطاني في الكويت على ما رواه البسام في كراسته بقوله:- "..لأن تلك الرواية كانت من وجهة نظر متحيزة بصورة جلية لحزب ابن رشيد فأنني بذلت بعض الجهد لتقصي المعلومات من المصادر المتيسرة في الكويت والتي يمكن الإفتراض بأنها متحيزة بقدر مساو إلى الزعيم الوهابي. وفي مناقشته مع الشيخ مبارك حول الوضع الراهن ونفوذ الزعيمين كليهما ظهر لي ان مكانة ابن سعود قد تضررت بلا شك نتيجة الفصول السيئة التي مرت على أراضيه وما سببته من هزال بأبله وخيوله وارتفاع لأسعار المؤن الغذائية. بينما يملك زعيم شمر بالمقارنة خزينة مملوءة ويمتلك أتباعه محاصيل جيدة، وركائبهم في حالة طيبة، و"قوة العربي هي أبله وخيله"

---

(1) IOR, R/15/5/25, H- B. M's – Consul, Damascus, to Sir G- Lowther, dated 7-7-1909.

كما قال الشيخ. ولم يسلم الشيخ مبارك بوجود ارتدادات عن ابن سعود من قبل أي عدد كبير من القبائل التي كانت تعتبر سابقا من مؤيديه. وأكد إنه طبقا لأكثر ما تيسر جمعه من أموال الرجال فإن ابن سعود كان الأكثر قوة رغم أنه لا يملك مصادر الحرب من مال وعدد ودواب. ولم يؤكد وجهة النظر هذه. على أية حال. تاجر عربي مطلع، اعترف بأن هناك بالفعل ارتدادات كبيرة عن ابن سعود. فالبدوي، كما قال ببساطة، يتعلق بمن يبدو قويا في اللحظة الراهنة. ومما هو جدير بالذكر أن كلا من القائد الوهابي وابن رشيد لم ينغمسا في أية حملات جدية منذ عدة أشهر، فكل منهما باق في عاصمته. وتعزى هذه الهدنة لأسباب ضعف الأول وتوقع الأخير مقاومة كبيرة ستواجهه بالتأكيد إذا ما قام بأية محاولة ضد قرى ابن سعود وبقاعه المأهولة. يمكن لذلك اعتبار الأمر حقيقة عند القول بأن هاتين القوتين كلتيهما في بلاد العرب الداخلية في حالة توازن تقريبا. وان سياسة الشيخ مبارك هي بلا ريب الحفاظ على هذا التوازن. .."[1].

ويتعارض ما ذكره الوكيل السياسي البريطاني في الكويت عن هدوء الحاكمين لكليهما خلال الشهور الماضية مع ما رواه البسام الذي كان يوالي ارسال معلوماته إلى القنصل البريطاني في جدة. وقبل التعرف على ماهية معلوماته الجديدة، يجدر التساؤل عن هدفه من ايصال تلك المعلومات إلى القنصل. فهل كان يبرز قوة ابن رشيد أمام القنصل لإغراء البريطانيين بإسناد ابن رشيد مثلما اسندوا شيخ الكويت؟ ولو كان ذلك صحيحا، فهل كان يقوم بتلك المحاولة من تلقاء نفسه

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. c-1, - - -

تطوعا، أو بتنسيق مع حكام حائل؟ الأفضل تأجيل الإجابة على ذلك التساؤل قليلا، والعودة للتعرف على مضامين معلوماته الجديدة التي تقول :- "كان ابن رشيد خلال الشهور الأربعة الماضية يؤدب بدو نجد الذين ثاروا ضده، فحدثت ثلاثة أو أربعة صدامات، فأمتلأ البدو والحضر بعدها بالرعب. ولكن ابن سعود لا يمكن أن يظهر فاعلية مماثلة لأن اراضيه ممحلة وتموينه سيئ من الركائب والأغنام والمواشي. وقد وصل إلى مكة في الحادي والعشرين من مايو رجال من قبيلتي عتيبة وحرب واتفقوا في رواياتهم على أن ابن سعود كان خارج أراضيه في حملة حربية ضد بعض أقسام من قبيلتي حرب وشمر التابعتين لابن رشيد، فغنم بعض مخيماتهم ولكنه لم يستطع أخذ انعامهم. وعندما علم ابن رشيد بذلك سار فى أثر ابن سعود، وبعد ثلاثة أيام أصبحا معا في مكان يدعى العروق Uruk، وهي تلال تبعد مسافة ثلاثة أيام عن القصيم. وقبيل الفجر بقليل شن ابن رشيد الهجوم، واستمر القتال إلى ما قبل حوالي ساعتين من الظهيرة، فهزم ابن سعود وطورد حتى الليل. اسفرت الوقعة عن مقتل مائتي رجل من جانب ابن سعود وأربعين من جانب ابن رشيد الذي غنم عددا كبيرا من الأبل والخيل. وبينما لجأ ابن سعود مع من بقي من رجاله إلى عنيزة عاد ابن رشيد إلى اراضيه. إن قضية ابن سعود تنحدر باستمرار في نجد، والناس يميلون نحو ابن رشيد الذي من المتوقع أنه سيصبح سيدا لكل نجد بنهاية هذه السنة..."(١).

ولم يرد في أخبار الكويت ما يدل على هزيمة لحقت بابن سعود

(1) IOR, R/15/5/25, H.B.M's. Consul, Jeddah, to Sir G-Lowther, dated 30-5-1909.

على يد خصمه في هذه الفترة، وأن كانت تؤكد نشاط ابن رشيد في تأديب بعض القبائل. فقد وصل إلى الكويت في الثاني والعشرين من يناير ١٩١٠ رسول من ابن رشيد يحمل تقريرا للشيخ مبارك عن غزوة قام بها ابن رشيد على فخذ بني عبد الله من قبيلة حرب، وعما غنمه منهم من غنائم كثيرة[١] ولا ريب أن اهتمام ابن رشيد باطلاع مبارك على تلك الأخبار كان يخدم غرضا خفيا وهو إظهار قوة حائل أمامه في محاولة لإقناعه عن طريق غير مباشر بعدم جدوى التزامه لحليفه ابن سعود إلى ما لانهاية، وأن من الخير له ان يلتزم موقفا محايدا على الأقل في الصراع الدائر بين الخصمين.

وفي أثناء ذلك دخل ابن رشيد في صراع مع قبيلة عنزة الكبيرة الميالة لابن سعود وتتفق المصادر على أن السبب المباشر لذلك الصراع هو السيطرة على منطقة الجوف وسكاكا التي كان عبد الله بن على ابن رشيد قد ضمها لأملاكه سنة ١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م[٢] ولكنها تختلف بعد ذلك في التفاصيل. إذ ذكر القنصل البريطاني في جدة أن بداية الصراع كانت غزوة شنها أمير حائل على قبيلة الرولة في عنزة شمال الجوف حيث الحق بها هزيمة كبيرة. وعلى اثر ذلك غزت الرولا الجوف انتقاما ونجحت في أسر حاكمه، وهو على السبهان خال الأمير، مع أشخاص آخرين. وطلبت مقابل إطلاقهم فدية مقدارها عشرون ألف ليرة[٣]. ولكن المقيم السياسي البريطاني في بغداد

---

(1) IOR, R/15/5/25, Extracts From Diary No. 4 of the Kowiet Political Ag- ency for the week ending 26th Jaunary 1910.

(٢) العثيمين، المرجع نفسه، ص ص١١٨ – ١١٩.

(3) IOR, R/15/5/25, No. 30, Consul Monahan to Sir G Lowther, dated 11-6-1910.

"لوريمر" صور الأمر وكأن أحد أفخاذ قبيلة عنزة بادر قبل عدة أشهر ماضية للاستيلاء على بلدة الجوف التابعة لابن رشيد حيث ذبح حاكمها ونهبت البلدة ذاتها[1]. (*) وترجع رواية شاهد عيان ما ذكره المقيم السياسي. فقد كان الضابط البريطاني ليتشمان Leachman يجوب تلك المنطقة حينئذ. وقد ضمن مشاهداته في رسالة بعثها للمقيم البريطاني في بغداد. ومما جاء في تلك الرسالة :- "أنني أكتب لك من معسكر الأمير ابن رشيد قرب بركة الشاهية على درب زبيدة الممتد إلى بغداد على بعد ثلاثة أيام من حائل. بعد مغادرتي كربلاء، التي تمت بصعوبة كبيرة، سافرت مع بدو من شمر يقودهم ماجد بن عجل باتجاه جنوبي غربي. غادرت كربلاء في السادس والعشرين من يناير وظللت مع شمر لغاية الثاني عشر من فبراير. وفي ذلك التقينا بغتة بغزو كبير من عنزة في طريق للقتال مع ابن رشيد. لقد هاجم العنزيون شمر ولكن قبل ان يتم التطويق فعلا انسللت مع رفاقي وعبرنا إلى خيم شيخ عنزة فهديك [الهذال] الذي قبل دخالتنا. استولت عنزة على كل الدواب والممتلكات. وكانت التحركات السابقة على ذلك هي أنه في وقت العيد [عيد الأضحى ١٣٢٧هـ / قرابة العشرين من ديسمبر ١٩٠٩] أخذت الرولة تحت قيادة النوري بن شعلان الجوف من ابن رشيد، بعد ان قتلت حاكمها ونهبت البلدة ثم عبرت النفوذ تاركة حامية في الجوف. وعلى آبار حايل Hayil (موجودة على الخريطة) أوقفها غزو لابن

(1) IOR, R/15/5/25, Loimer, Baghdad, to Shakespeare, Kawiet, dated 11-4-1910.

(*) روى أن الجوف عادت طواعية لحكم ابن شعلان أمير الدولة. الزعارير، المرجع نفسه، ص ٢٠٢.

رشيد، ولكنها انجدت بالعمارات تحت قيادة فهديك والدهامشة، وحين قابلت جمعهم كان كتلة كبيرة من الرجال. تحركت معهم إلى بركة الجميمة على درب زبيدة وتوقفنا هناك لإتاحة الفرصة لتكامل التعزيزات. والتحق بالجمع هناك عدد من عرب المعدان في الفرات وكذلك رجال من عنزة أيضا. علم في ذلك الوقت أن ابن رشيد على مبعدة يومين مع عدد قليل فقط من شمر. وفي السابع عشر من فبراير، وفي حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، هاجمت جماهير من شمر مخيم عنزة الممتد عدة أميال. وبعد قتال جيد أندفع الشمريون داخل المخيم في الميمنة. أخذت ملجأ مع بعض الأسرى الشمريين [لدى عنزة] وانقذت أغلب أدواتي الشخصية عدا أشياء قليلة. هربت عنزة بأقصى سرعة وشمر في أثرها إلى أن حال الليل بينهم وبين شمر التي عادت ونهبت المعسكر. في صباح اليوم التالي لم يبق عدد من آلاف الخيم تلك. لقد كسرت عنزة تماما، فأرسل فهديك عرضا للسلام. الظاهر أن هذه الحركة من عنزة متفق عليها بينها وبين ابن سعود حاكم الرياض بهدف القضاء تماما على قوة ابن رشيد... ليست قوة ابن رشيد كبيرة جدا في الوقت الحاضر، ولكن هناك قليلا من الشك في أن هذا النصر على عنزة سوف يجلب عدة قبائل إلى صفه...".

وانتقل ليتشمان بعد ذلك إلى وصف لقاءاته بحكام حائل، فقال :- "استقبلت مقابلة رسمية في اليوم التالي. سعود بن رشيد صبي في الثانية عشرة من عمره. .. الوصي عليه يدعى زامل بن سبهان وهو

رجل في الخامسة والثلاثين. .. قوبلت مقابلة كريمة جدا وسألني زامل شخصيا بعد ذلك عن هدفي في القدوم إلى شمر. فقلت بأنني قدمت من أجل السياحة، فقال :- "نحن نعلم أن مملكة انكلترة مملكة طيبة وقوية وأحسن من كل الممالك ونرغب في صداقتها، ونأسف لأن ديننا غير دينكم". لقد عبر عن هذا الرأي كل الرسميين الآخرين. .. لقد رجوني أن اكتب لك وصفا لنصرهم على عنزة وكذلك الكتابة للكويت..."[1] ولعل في هذه الفقرة ما يرد على التساؤل الذي طرح سابقا عن أسباب حرص سليمان البسام على ابلاغ السلطات البريطانية بانتصارات حائل. فقد كان ذلك انعكاسا لتوجه لدى حكام حائل في هذه الفترة لكسب ود بريطانيا وإن كانت مشاعرهم الدينية وحرصهم على علاقتهم بالعثمانيين تعرقل تطوير هذا التوجه ووصوله إلى نتائج عملية محددة.

ويبدو أن نشاط ابن رشيد هذا كان يقابل بارتياح من قبل السلطات العثمانية. إذ روى القنصل البريطاني في جدة أن جريدة "الحجاز" نشرت في الحادي العشرين من أبريل ١٩١٠ نص رسالة وجهها وكيل الوالى المشير عبد الله باشا إلى ابن رشيد. ومما جاء فيها :- "استلمنا رسالتكم وتحدثنا مع رسولكم، وشممنا مسرورين شذى شجاعة ليوث الصحراء العربية... عارفين بإخلاصكم للخلافة والحكومة العثمانية. وسررنا سرورا كبيرا لما انزلته بالعصاه البدو من تأديب وعقاب حسبما أفدت، وهو واجب كل المسلمين والرعايا المخلصين طبقا لنص القرآن، أن هدف سلطاننا وحكومته هو القضاء على الظلم ونشر العدل والمساواة وضمان رخاء الرعايا. ولقد أرسلت لأداء واجب الحكم

(1) IOR, R/15/5/25, Mr.G.E. Leachman to Mr.J.G. Lorimer, dated 22-2-1910.

وتقديم الخدمة الضرورية لك ولكل مسلم. ولتعلم أن دار الحكومة مشرعة الأبواب دائما وأن إذن الشفقة هنا مستعدة باستمرار للإصغاء لندائك، وأن يد العدالة ستحرس حقوقك، وإنك وديعة من الله تحت رعايتي. لذا عليك أن تخبرني عن حاجات سعادتك اللازمة لضمان أمنك، وسنقوم حالا بما هو مطلوب بإذن الله. انقل سلامي لأفراد قبيلتكم اخواننا في الدين". وعلق القنصل على الرسالة بالقول أن الجريدة لم تشر إلى ظروف أو مناسبة إرسالها، ولكنه علم من مصادر معلوماته أن رسول ابن رشيد الذي جاء إلى مكة قدم طلبا للسلطات العثمانية للمساعدة أو التوسط في قضية الجوف الذي سيطر عليه الرولة القاطنون في الأراضي السورية تحت حكم الحكومة العثمانية. وقد عاد الرسول إلى حائل حاملا الرسالة أعلاه دون ان تتضح نتيجة مباحثاته مع السلطات العثمانية في مكة[١] ولعل ذلك هو ما جعل السلطات العثمانية تعمل على إرضاء ابن رشيد في هذا الوقت حيث زادت مخصصاته الشهرية من مائة وخمسين إلى مائتي ليرة شهريا، كما منحته وساما ولقب "أمير الأمراء"[٢].

وإزاء ذلك النشاط الواضح الذي كان ابن رشيد يبديه، فلابد أن خصمه ابن سعود كان يتحرك بشكل معاكس، إلا إذا كان شيء ما قد شغله. وهو ما كان بالفعل. إذ روى ليتشمان أن أخبارا وصلت إلى مخيم ابن رشيد في الحادي والعشرين من فبراير تفيد بوجود حالة حرب بين "الأخوة" المتنافسين داخل البيت السعودي. وان تلك الحالة

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 30, - - -

(2) IOR, R/15/5/25, Lorime, Baghdad, to Shakespear, Kowite, dated 22-2-1910.

هي التي ربما منعت ابن سعود من مضايقة ابن رشيد منـــذ زمــن [١] وصحح المقيم السياسي البريطاني في بغداد تلك المعلومـــة بـــالقول إن الخلافات لم تكن بين ابن سعود وأخوته، وانما بينه وبين بعض أفـــراد الأسرة الحاكمة في نجد. وذكر أن تلك الخلافات تساعد أمير جبل شمر في نضاله ضد العائلة السعودية[٢]. وتصحيح المقيم كان دقيقا بـــالفعل، إذا كانت الخلافات بين الأمير عبد العزيز آل سعود ومجموعـــة مـــن أقربائه أحفاد سعود بن فيصل، وهم الذين دعوا بـــ "العرائف"[٣].

ولا يجوز هنا التوهم بأن نشاط ابن رشيد ذاك قد أعطـــاه هيمنـــة كاملة على قبائل نجد، فأصبح في موقع الرجل الذي لا يقهر. إذ تظـــهر الأحداث أنه تعرض لانكسارات على أيدي بعض القبائل حتى وهو فـــي أوج نشاطه هذا. فقد أعد ابن رشيد قواته واستعد لشن غارة على قبيلـــة مطير القوية. وكان في أواخر مارس ١٩١٠ على آبار الهليبـــة علـــى مسافة يوم واحد غرب حفر الباطن في طريقه نحـــو هدفـــه[٤] ولكـــن الاشتباك بين الطرفين الذي جرى حوالي الأول من أبريل في الصحـــان أسفر عن هزيمة ابن رشيد وخسارته لتسعين من خيله غنمتـــها قبيلـــة مطير[٥] وفي غزوة أخرى شنها ابن رشيد على قبيلة عتيبة في الشـــهر

---

(1) IOR, R/15/5/25, Mr. G.E Leachman 22-2-1910

(2) IOR, R/15/5/25/ Lorimer 11-4-1910.

(٣) للتعرف على حركتهم يراجع أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ط٦، بـــيروت، ١٩٨٨، ص ١٨١.

(4) IOR, R/15/5/25 Extracts Form Diary No. 13 of the Kowite Political Agency for week ending 30th March 1910.

(5) IOR, R/15/5/25 Extracts Form Diary No. 15 of the Kowite Political Agency for week ending 13th April 1910

التالي كان الاخفاق حليفه ايضا، حيث غنمت منه عتيبة حوالي مـــائتين من الخيل علاوة على ممتلكات أخرى[1].

ويؤكد عدم هيمنة ابن رشيد الكلية على الموقف عجزه عن استعادة الجوف من الرولة فعلى الرغم من انتصاره الكبير على عنزة في شهر فبراير ١٩١٠ ظل الجوف باقيا بيدي النوري بن شعلان شيخ الرولة[2]. وهذا ما جعل ابن رشيد يجدد أنشطته الحربية ضد قبيلة عنزة، حيـــث شن عليها حملة جديدة بالاشتراك مع قبيلة مطير قرب حوران وتيمـــاء وغنم منها غنائم ضخمة، وكان ذلك في غضون شهر يونيـو ١٩١٠[3] وقد ارسل ابن رشيد أخبار غارتة تلك إلى وكيله في بغـــداد جـــاد الله الدخيل معلما أياه أن شمر أدبت قبيلة عنزة مرة ثانية بجوار سكة حديد الحجاز. وعلق المقيم السياسي البريطاني في بغداد على تلك المعلومـــة بقوله :- "ما يزال الجوف على أية حال تحت سيطرة الشيخين النـوري ونواف من قبيلة الرولة من عنزة، اللذين استوليا عليه منذ بضعة شهور مضت. إن موقف ابن رشيد تحسن كثيرا من جراء انتصاراتـــه علـــى عنزة، وفي الموثوق به الآن توقع استعادته للجوف قريبا، وبعد ذلـــك يجدد صراعه القديم مع ابن سعود، الأمير الوهابي للريـــاض، حـــول السيادة على نجد. أن محك السيادة تلك هو الســـيطرة علـــى القصيـــم المثيرة للجدل والتي تقع بين حائل والرياض، وهي الآن ومنـــذ عـــدة

---

(1) IOR, R/15/5/25 Extracts Form Diary No. 20 of the Kowite Political Agency for week ending 18th May 1910.

(2) IOR, R/15/5/25 Extracts Form Diary No. 16 of the Kowite Political Agency for week ending 20th April 1910.

(3) IOR, R/15/5/25 Extracts Form Diary No. 26 of the Kowite Political Agency for week ending 29th Jun 1910.

سنوات بأيدي آل سعود. ويقال أن عددا من قبائل البدو تأتي في أصقاع نائية لابن رشيد الذي تعتبر إمكاناته أكثر اشراقا من تلك التي كانت لوالده (عبد العزيز) في كل مكان" [1].

ولم يصدق توقع المقيم بان الصراع المباشر بين حائل والرياض سوف يتأجل ريثما يستعيد ابن رشيد الجوف، إذ أن ذلك الصراع قد تجدد بالفعل قبل استعادته. ولكن توقعه الآخر بأن يكون محور الصراع في القصيم ثبتت صحته. إذ قام ابن رشيد بشن غارة على أراضي ابن سعود في غضون شهر مايو ١٩١٠. وقد وصل في غارته تلك إلى "الشبرمة" على مسيرة ثلاثة او اربعة أيام جنوب بريدة عاصمة القصيم، واستطاع الاستيلاء على بيت مال ابن سعود هناك ثم قفل راجعا إلى حائل. ولكنه كتب قبل عودته رسائل إلى أهالي القصيم يعلمهم بأنه غدا سيدهم الأعلى لان ابن سعود تخلى عن أمورهم وما فيه صلاحهم لمبارك الصباح. وقد قام اهل القصيم بإنقاذ تلك الرسائل إلى ابن سعود مع التماساتهم بأن يعود إلى القصيم[2]. ويستشف من العبارة الأخيرة التي أوردتها يومية وكالة الكويت البريطانية أن ابن سعود ربما كان في غضون هذا الوقت مغاضبا لزعماء القصيم فتركهم وشانهم ليذوقوا نار خصمه ويعودا له مستغيثين.

ويلاحظ هنا أن رد فعل ابن سعود كان سريعا وقويا، وبشكل مختلف عن ردود أفعاله تجاه غزوات ابن رشيد السابقة. وذلك شيء

---

(1) IOR, R/15/5/25 No. 572 of 1910, Political Resident in Turkish Arabia, Baghded, to the Political Agent, Kowite, dated 9-7-1910.

(2) 'OR, R/15/5/25 Extracts Form Diary No. 20 - - - 18th May 1910.

طبيعي لأن تلك الغزوات على الرغم من أن محصلتها النهائية كـــانت تضر بمصالح ابن سعود بيد أنها لم تكن موجهة ضده مباشـــرة، بـل طالت قبائل يمكن عدها متعاطفة معه. أما حين أصبح الهجوم مباشـــرا ضد أراضيه فلم تمنعه كل مشاغله عن الرد السريع. إذ وصل رســول من ابن سعود إلى مبارك في الأسبوع الثاني من شـــهر يوليـــو ١٩١٠ يفيد بأن ابن سعود غزا عشيرتي الحميدان وبنى درويـــش مــن قبيلـــة مطير وعشائر أخرى من قبيلة شمر، وغنم منها حوالي أربعـــة آلاف جمل وممتلكات أخرى. وقد وقعت الغزوة قرب آبـــار "أذيـــن المخـــل Athain ul Makhal الواقعة في أراضي ابن رشيد في منتصف الطريق بين بريدة وحائل[١] وقد تأكدت تلك الأنباء لدى الوكالة السياسية البريطانيـــة في الكويت، حيث عرف أن هجوم ابن سعود كان مؤلفا من شـــعبتين، قاد هو أحدهما بنجاح وتوغل إلى مسافة يومين شرق حائل. بينما قـــاد أخوه محمد بن عبد الرحمن الثانية التي تكونت فعالياتها من غزوتيـــن ناجحتين ضد قبيلتي حرب وعتيبة إلى الجنوب الغربي من حائل علـــى الطريق الذي تسلكه القوافل بين تلك البلدة والمدينة المنورة[٢].

وقد أدى تجدد الصـــــدام المباشـــر بيـــن الطرفيـــن إلـــى نشـــاط الوساطات بينهما من قبل الأطراف الإقليميـــة المجـــاورة. وكـــان أول المتوسطين هو الشيخ مبارك الصباح الذي مر سابقا أن سياسته كـــانت الإبقاء على التوازن بين الجانبين، فلما رأى أن ذلـــك التـــوازن أخـــذ يضطرب نشط للتدخل. وقد علل المقيم السياسي البريطاني في بغـــداد

(1)IOR, R/15/5/25 Extracts Form Kowite news for the week ending 13th July 1910.

(2) IOR, R/15/5/25 Extracts Form Kowite news for the week ending 27th July 1910.

سلوك الشيخ مبارك بكونه أصبح متعبا من تحالفه مع ابن سعود ممـــا جعله يميل إلى صداقة ابن رشيد. وأضاف أن سياســته الحاليــة هــي السعي إلى التوفيق بينهما[١] هذا من جانب ومن جانب آخر فقـــد بــذل شريف مكة مساعيه الحميدة لإعادة العلاقات الودية بين الحاضرتين[٢]. ونتيجة لذلك المسعى المزدوج فقد أقيم السلام بين ابن سعود وابن رشيد في أواخر شهر أغسطس ١٩١٠[٣] ولم تذكر المصادر المتاحة شــروط صفقة السلم تلك.

ويجدر التعرف هنا على موقف السلطات العثمانيــة تجــاه مســار الأحداث في نجد خلال تلك الشهور الحافلة بالتطورات. وكان المقيــم السياسي البريطاني في بغداد معنيا بمتابعة ذلك الموقف ، فكتــب فــي التاسع من يوليو ١٩١٠ :- "اقترح ناظم باشا، والي بغداد الجديد، على جار الله الدخيل مؤخرا ضرورة زيارة ابن رشيد له في بغــداد. فــرد الوكيل بأنه يخشى أن يكون من المستحيل على الأمير ترك إقليمه مـــا دامت اموره باقية في وضعها الحالي غير المستقر، ولكنه يظن بأنـــه سيكون بمقدور الامير ارسال مبعوث مناسب بدلا عنه. قبــل الوالــي الاقتراح، وعلم بأنه قد تم الترتيب لأن يوفد ابن رشيد في القريب شيخا اسمه ابراهيم بن سبهان ليزور الباشا في بغداد زيارة رسمية. علاقــات الترك مع ابن رشيد أو "سعود باشا" كما يسمونه تبــدو وديــة وعلــى الأخص في الوقت الحاضر. قيل بأنهم يدفعون الآن مائتين وخمســين

---

(1) IOR, R/15/5/25 No. 572 of 1910, - - - 9-7-1910.

(2) IOR, R/15/5/25 Extracts Form Kowite news for week ending 31st August 1910.

(3) IOR, R/15/5/25 No. 823 of 1910, the Political Resident in Turkish Arabia, Baghded, to the Political Agent, Kuwait, date 19-9-1910.

ليرة تركية شهريا له ولاخته جوزه، وإن الهدايا تتبادل بين الطرفين احيانا. ومن ناحية أخرى قيل أن المخصصات التي كانت تدفع سابقا لعائلة ابن سعود زعيم الرياض قد قطعت"[١] وليس من الواضح ما إذا كانت رغبة الوالي الجديد بمقابلة ابن رشيد جاءت وليدة حرصه على تزويده بتعليمات محددة أو لمعالجة قضية معينة، أو أنها كانت فقط من أجل توثيق العلاقة معه، سيما وأن الوالي الجديد دأب منذ وصوله لبغداد على مقابلة شيوخ القبائل فى المناطق الخاضعة لإشرافه[٢]. لقد مال المقيم البريطاني في بغداد الترجيح الاحتمال الأول حين كتب :- "يفترض أن والي بغداد كتب إلى ابن رشيد حوالي بداية يوليو طالبا منه سرعة ارسال اثنين من أفراد عائلته إلى بغداد. إن كان ذلك صحيحا فربما كان الأمير لا يساير طلبات الوالي، وإن الشك بداية أوقض في ذهن الأمير، وان هناك بعض الأساسي لروايات عن المفاوضات بين حائل والرياض والكويت. اخبرني الوكيل السياسي البريطاني في الكويت بان والي البصرة يبدو شاغلا نفسه بوضع الكويت"[٣] وعلى الرغم من تلميح المقيم هذا بان رغبة الوالي مرتبطة بالوضع بين تلك الحواضر الثلاث إلا أن ابن رشيد استجاب لرغبة والي بغداد فأوفد رسولا له يدعى ناصر باشا الخشمان حيث قام بتهنئة الوالي بمنصبه الجديد ثم عاد إلى حائل[٤]. مما يدل على أن الأمر لا يعدو أن يكون مجاملة بين الطرفين.

---

(1) IOR, R/15/5/25 No. 572 of 1910, - - - 9-7-1910.

(٢) خالد السعدون، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة العثمانية، الكويت، ١٩٨٨، ص ٩٣.

(3) IOR, R/15/5/25 No. 716 of 1910, The Political in turkish Arabia, Baghadad, to the Political Agent, Kowite, dated 18-8-1910.

(4) IOR, R/15/5/25 No. 823 of 1910, The Political in turkish Arabia, Baghadad, to the Political Agent, Kowite, dated 19-9-1910.

ويبدو ان اتفاقية السلام بين الرياض وحائل قد مكنت ابن رشيد من التفرغ لمباشرة بعض المهام التي كانت الدولة العثمانية تنيطها بأسلافه. إذ كانت الحكومة توكل إمارة الحج العراقى لابن رشيد كي تسافر قوافل الحج السنوية تحت حمايته. وقد أوفد ابن رشيد أحد أقاربه ليمهد لاستئناف سير تلك القوافل، حيث وصل بغداد في بداية اكتوبر ١٩١٠[١]. وقد وصف المقيم السياسي البريطاني في بغداد جهود ذلك الموفد وهو إبراهيم السبهان، فقال :- "إنه قدم نيابة عن أمير حائل تعهدات مكتوبة بسلامة وحسن معاملة الحجاج الذين سيرافقونه إلى القائمقام التركي [لبلدة النجف] والي المجتهدين سيد كاظم يزدي وملا كاظم خراسانى. دخل الحملدارية[٢]، أو وكلاء نقل الحجيج في النجف، بناء على ذلك، باتفاقية معه، وسلموه ثلاثمائة حاج نصفهم من الفرس والبقية من العرب المحليين. بينما أحجم حملدارية الكاظمين عن الاتفاق معه متذرعين بنقص الثقة. غادرت القافلة النجف نحو مكة في الثالث عشر من نوفمبر بقيادة "أمير الحج" إبراهيم. إنها المرة الأولى منذ سنوات، كما اعتقد، التي تنظم فيها ترتيبات مرافقة الحجاج في ما بين النهرين إلى الحجاز من قبل ابن رشيد. لقد كانت هناك سابقا قافلة سنوية محمية من قبله، ولكنها توقفت خلال الحرب الطويلة الأخيرة بين عائلته وعائلة ابن سعود. الوضع العام في نجد طبقا للمعلومات التي يمكن الحصول عليها هنا هو ان هناك حلفا بين أمير حائل وشيخ الكويت موجها جزئيا ضد أمير الرياض ابن سعود الذي يفقد مواقعه

---

(1) IOR, R/15/5/25 No. 1000 of 1910, The Political in turkish Arabia, Baghadad, to the Political Agent, Kowite, dated 15-11-1910.

(٢) جمع "حمله دار" وهي كلمة فارسية تعني قائد الحملة أو المسؤول عنها.

من جراء هذا الاتحاد ونتيجة للنزاع الذي نشب في عائلته. مازال ابـــن رشيد يكسب مواقعا، ولكن الجوف وسكاكا التي انتزعتها عـــنزة منـــه لازالت تحت سيطرة تلك القبيلة"[١].

كما مكن الصلح المشار إليه أعلاه ابن رشيد من التفرغ لمواصلـــة صراعه المسلح مع قبيلة عنزة من أجل استعادة الجوف. ففي غضـــون شهر أبريل سنة ١٩١١ شن ابن رشيد غزوة ناجحة على تلك القبيلة في صحراء الحماد في جنوب غرب بغداد، فانتصر عليها وكبدها خســـائر فادحة حسبما جاء في رسالة بعثها زامل السبهان إلى الكويت[٢] وشـــن خلال الشهر التالي هجوما آخر على الرولة وهتيم إلى الغـــرب مـــن حائل، في حين عبأ عددا كبيرا من رجال قبيلة شمر النـــازلين علـــى الآبار الواقعة إلى الشرق من درب السماوة. وقد علل الوكيل السياســـي البريطاني في الكويت سبب تلك التعبئة بأنه تمهيد لغزوة أخرى يشـــنها على قبيلة عنزة في الشمال[٣].

وإذا كانت الظاهرة البارزة في تاريخ إمارة حـــائل فـــي الفـــترات السابقة هي ظاهرة احتدام الصراع داخل البيت الحاكم، فان فترة حكـــم سعود بن عبد العزيز الرشيد لم تخل من هذه الظاهرة أيضا. فقد قـــاد المعارضة الداخلية لحكم الأمير الصبي وأخواله من آل ســـبهان كـــل من فيصل بن حمود العبيد الرشيد، أخي الأميرين القتيليـــن الســـابقين

---

(1) IOR, R/15/5/25 No. 1100 of 1910, The Political in turkish Arabia, Baghadad, to the Political Agent, Kowite, dated 15-12-1910.

(2) IOR, R/15/5/25 Extracts From Kuwait news For Week ending 10th May 1911.

(3) IOR, R/15/5/25 Extracts From Kuwait news For Week ending 25th May 1911.

سلطان وسعود، وابن عمه ضاري العبيد الرشيد. ويبدو أن سيطرة آل سبهان على مقاليد الامور في حائل كانت محكمة لدرجة لم تتح لهما فرصة التحرك داخل الإمارة، ولذلك اتجها للعمل المعارض من خارجها. ففي غضون شهر نوفمبر ١٩١٠ وصل فيصل إلى الكويت بصحبة خمسة وعشرين مرافقا جالبين معهم هدية لمبارك الصباح أربعة خيول. وكان فيصل قبلها مع ابن عمه ضاري يتجولان في إمارات الخليج العربي، فزارا الشيخ جاسم بن ثاني شيخ قطر الذي أهداهما ألفي روبية وأربعة ركائب. ثم انتقلا من قطر إلى العجير، ومن هناك أرسلا كل ممتلكاتهما إلى الإحساء واتجها إلى البحرين حيث نزلا ضيفين على الشيخ عيسى بن خليفة الذي قدم لهما بعض الهدايا ايضا. ثم افترقا في البحرين حيث ذهب ضاري إلى مسقط لمقابلة سلطانها، بينما اتجه فيصل إلى الإحساء ومنها إلى الكويت. وإذا كان هدفهما المرجح من تلك الجولات هو حشد التأييد لهما ضد أمير حائل، فأن من الأولى أن ينشدا ذلك التأييد من ابن سعود خصم حائل التقليدي قبل غيره. وذلك هو ما حدث بالفعل على حد ما ذكره الوكيل السياسي البريطاني في الكويت حين كتب :- "ذكر أن ابن سعود كان يريد من فيصل وضاري أن يستقرا في حائل ويتوليا حكمها ولكن في هذا الوقت سوى ابن رشيد وابن سعود خلافاتهما، ولم يدع ذلك فرصة لتعزيز أهداف فيصل وضاري في حائل. ولذلك اقترح ابن سعود عليهما البقاء في حائل أو الذهاب إلى أي مكان آخر يرغبان فيه لانه غير مستعد لإيوائهما في أراضيه". وأضاف الوكيل قائلا أن الرأي السائد هو أن ضاري سيعود من عمان بحرا إلى الكويت، ثم يتجه هو وفيصل إلى

الجوف لرؤية ابن شعلان شيخ الرولة الذي مازال مسيطرا على تلــك البلدة[١].

ولم يغادر الشيخان المذكوران الكويت إلا بعد قرابة ســنة، حيـث اتجها في سبتمبر ١٩١١ نحو الشـــمال. ورجـح الوكيـل السياسـي البريطاني في الكويت أن تكون وجهتهما هي قبيلة الظفـــير للتنسـيق معها، ثم يتجهان بعدها إلى قبيلة الرولة لممارسة الكيد لأمير حــائل[٢]. ولكن ثبت فيما بعد أن وجهتهما الحقيقية كانت الاستقرار لــدى قبيلــة عبدة في شمر. ذكر الوكيل السياسي البريطاني في الكويت الذي نقــل ذلك الخبر أن عبدة لا تميل إلى آل سبهان على الرغم من اســتعدادها للاعتراف بإمارة الصبي سعود على حائل. وأضاف أن عبدة في الوقت نفسه على علاقة جيدة مع قبيلة الظفير التي تناصب حائل ا لعــداء[٣]. وعلى الرغم من نشاط الشيخين المعارضين ذاك فيبدو أن ســيطرة آل سبهان على الأمور في حائل جعلت تلك المعارضة غير ذات جــدوى. حيث لم يرد في المصادر المتاحة ما يشير إلى أن الشيخين المعارضين حققا لقضيتهما أي تقدم او أنهما شكلا تهديدا جديا لاستقرار الحكم فـــي حائل، مع أنه قد أشيع فى هذه الآونة أن خلافات نشبت داخل عائلة آل سبهان فقد ذكر أن زامل السبهان، الوصي على الأمير سعود، ظل على إخلاصه للأمير الصبي، في حين أن خازن بيت مال الإمــارة نــاصر

---

(1) IOR, R/15/5/25 Extracts From Kuwait news For Week ending 9th November 1910.

(2) IOR, R/15/5/25 Extracts From Kuwait news For Week ending 20th Septmber 1911.

(3) IOR, R/15/5/25 Extracts From Kuwait news For Week ending 26th Septmber 1911.

السبهان يتطلع إلى طرد ابن رشيد ونقل السلطة إلى عائلة آل سبهان[1]. ولعل تلك الشائعات مجرد جزء من الحملة التي كان يشنها المعارضون وفي مقدمتهم فيصل وضاري من أجل تجريد آل سبهان من تأييد قبيلة شمر وإظهارهم أمامها بمظهر المتآمرين الذين يسعون لاغتصاب السلطة.

ولم تشغل تلك المعارضة غير الفعالة ابن رشيد عن الانصراف لأمور أخرى تعلي من شأن إمارته في محيطها الإقليمي وتقوى ساعدها بحلفاء خارجيين. ومن ذلك تعزيزه لتحالفه مع عجمي السعدون، شيخ المنتفق في العراق، وهو ما دفعه للسير نحو العراق لنجدة حليفه ضد قبائل الظفير في مارس ١٩١٢. وفي أبريل ١٩١٤ كان ابن رشيد زائرا لحليفه عجمي في مضاربه قرب بلدة سوق الشيوخ، وقد التقى أثناء تلك الزيارة بوالي البصرة الجديد سليمان شفيق باشا[٢]. وروى المقيم السياسي البريطاني في بغداد أن الوالي استفسر عن ابن رشيد خلال لقائهما عما إذا كان قادرا. عند الضرورة. على استرجاع الاحساء للحكم العثماني. فرد ابن رشيد على الاستفسار بالإيجاب إذا أمدته الحكومة بمائتي جندي نظامي. وذكر المقيم أن فحوى ذلك الحوار تسربت لابن سعود الذي أعلم على أثرها ابن رشيد وعجمي بأنهما لم يعودا صديقين له وعليهما أن يتوقعا المتاعب من جانبه[٣]. ولا ريب أن ذلك الموقف الذي اتخذه ابن سعود تجاه ابن

---

(1) IOR, R/15/5/25 Extracts From Kuwait news For Week ending 20th Septmber 1911.

(٢) السعدون، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة العثمانية، ص ١٥٤ وص ٢٠٥.

(3) IOR, R/15/5/25 Summary of events in Turkish Trap during May 1914.

رشيد لم يكن نتيجة لذلك الحوار فقط، بل ونتيجة لما نقلته الأخبار قبلا عن إمداد الحكومة العثمانية لابن رشيد في أوائل فبراير ١٩١٤ بعشرين الف بندقية ماوزر وعدد من المدافع المتنوعة ثم إيفادها له بعد ذلك وفدا من عدة ضباط لمناقشة أمور تتعلق بنجد والعراق. وقد كان الوفد يحمل معه بنادق جديدة علاوة على سيارة مهداه للأمير من الحكومة. وقد علق المقيم السياسي البريطاني في بغداد، وهو ينقل تلك المعلومات، قائلا أن الحكومة العثمانية ربما تأمل في إشراك ابن رشيد في حملة تستعيد لها الاحساء من ابن سعود. وفي غضون هذا الوقت كان ابن سعود يحشد تأييد شيوخ القبائل المهمة في نجد خلفه ويتيقن من استمرار ولائهم له(١). وربما جاء ذلك إدراكا منه للأخطار التي غدت محيطة به بعد تلك التحركات كلها.

□ الصراع بين الرياض وحائل أثناء الحرب العالمية الأولى:

وهكذا كانت العلاقات بين الحاضرتين قد عادت إلى التوتر خلال الشهور التي سبقت نشوب الحرب العالمية الأولى في أوربا. وكان الاشتراك المحتمل للدولة العثمانية في تلك الحرب قد جعل كلا من العثمانين والبريطانيين حريصين على كسب ولاء القوى المحلية وضمان وقوفها إلى جانبهم. ولقد بذل الجانبان جهودا حثيثة لإقناع ابن رشيد وابن سعود بالتعاون معهما. أما بالنسبة للأول فيبدو أنه قد حدد منذ البداية موقفه صريحا وواضحا من الحرب المتوقعة وهو الوقوف خلف الدولة العثمانية دون تحفظ. ولعل ذلك يفسر خلو الوثائق

(1) IOR, R/15/5/25 Summary of events in Turkish Trap during February and March 1914.

البريطانية المتاحة من ذكر أية محاولة قام بها الجانب البريطاني لكسب ود ابن رشيد، خاصة في الفترة التي سبقت دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا[1].

. أما فيما يتعلق بابن سعود فقد تسابقت الدولتان على إقناعه بالتعاون. إذا استلم في أواخر أكتوبر ١٩١٤ برقية من أنور باشا، وزير الحربية العثماني، تحثه على التخلي عن استعداداته لشن حملة ضد ابن رشيد، وأن يجمع كل القوات الموجودة تحت قيادته ويقدم بها لمساعدة الحكومة العثمانية في الدفاع عن البصرة. وقد رفض ابن سعود الاستجابة لذلك الطلب، وعلل رفضه بالأمرين التاليين :-

١- أنه يرفض التخلي عن العمليات الحربية ضد ابن رشيد إلى أن يقبل الأخير النزول إلى مرتبة التابع له.

٢- أنه لا يستطيع التوجه نحو البصرة لكونه شخصيا مشغولا مع قواته بتلك العمليات.

وعلق الوكيل السياسي البريطاني في الكويت على ذلك الرد بقوله أن حملة ابن سعود الحالية ضد ابن رشيد توفر له عذرا ملائما لرفض معاونة الترك في الحرب الحالية[2]. ولم ييأس ذلك الرد الحكومة العثمانية، بل والت إيفاد الرسل لابن سعود لإقناعه بإتمام الصلح مع

---

(١) خالد السعدون، توقف إمارة حائل في الحرب العالمية الأولى، مجلة الدارة، السنة التاسعة، العدد الثاني، محرم ١٤٠٤هـ / أكتوبر ١٩٨٣، ص ص ٢٩-٣٩.

(2) IOR, R/15/5/25 No. c. 48/49 of 1914, Political Agent, Kuwait, to the Political Resident in the Ppersian Gulf, Bushire, dated 1-11-1914.

خصمه. ولكنه أصم أذنيه عن سماع تلك النداءات[1].

ومن جانب آخر استقر رأى الحكومة البريطانية على إيفاد الكابتن وليم شكسبير Shakespear مبعوثا منها إلى ابن سعود لإقناعه بالتزام الجانب البريطاني. وكانت قبل ذلك قد قامت بمحاولة أخرى تهدف للنتيجة ذاتها عن طريق مبارك الصباح شيخ الكويت[2]. وقد اتجه شكسبير بالفعل إلى نجد للقاء ابن سعود، حيث وجده في معسكره في "الخفس" يستعد لمهاجمة ابن رشيد. وبعد اجتماعه بابن سعود ودراسته للموقف عن قرب، كتب شكسبير إلى مراجعه تقريره الأول الذي جاء فيه :- "قبل الإقدام على معالجة علاقات ابن سعود مع الحكومة البريطانية سيكون من المفيد إعطاء خلفية تشرح علاقاته الحالية مع جيرانه.

إن ابن سعود مع كل الزعماء العرب الآخرين تسلم التماسات متكررة من الباب العالي لإعلان الجهاد ضد البريطانيين. وكان الدور المخصص له هو حماية البصرة وبغداد والدفاع عنهما ضد أي تقدم بريطاني في جنوب ما بين النهرين. وكان على ابن رشيد أن يضم قواته إلى الرولة (عنزة) والحويطات وبني صخر والشرارات والقبائل الغربية الأخرى المجاورة لسكة حديد الحجاز، ويتحرك معها نحو شبه جزيرة سيناء ومصر. بينما كان على شريف مكة والإمام يحيى والسيد الإدريسي تأمين ساحل البحر الأحمر والدفاع عن الأماكن المقدسة

---

(١) مكي شبيكة، العرب والسياسة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، بيروت، ١٩٧٠، ١، ص ٤١.

(٢) خالد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، الرياض، ١٩٨٣، ص ص ١٥٠ - ١٥١.

والموانئ الأخرى في الحجاز واليمن. اخفقت الخطة للأسباب نفسها التي أخفقت فيها محاولة التحريض على الجهاد... فالحكومة العثمانية فشلت في أن تأخذ في الحسبان السخط الذي سببته سياستها خلال السنوات الخمس الأخيرة في بلاد العرب. وفشلت في إدراك عدم إمكانية قيام عمل موحد بين القبائل دون تسوية ثابتة كثيرا او قليلا لنزاعاتها وعداوتها وغيرتها من بعضها البعض.

وفشلت في إدراك أن الحماس الديني لا يمكن خلقه بالحجج الواهية التي قدمتها. كانت النتيجة أن الزعماء تشاوروا فيما بينهم قبل التحرك وتوصلوا بصورة جلية إلى استنتاج مفاده أنه سيكون مفيدا لهم انتظار تطورات الاحداث أكثر من التزام القضية التركية. قرر ابن سعود وشريف مكة وشيوخ قبيلة عنزة الكبيرة في بلاد العرب الشمالية الاتحاد فيما بينهم والبقاء على اتصال مستمر.

ابن سعود وابن رشيد كان على علاقة سيئة منذ الصيف، ولأن الأول كان قد صمم على بدء الاعمال العدائية حالما يسمح الطقس، فأنه أخبر شيوخ عنزة في الشمال عن نواياه وحصل على وعد منهم بمساندته ضد ابن رشيد.

ومضى شكسبير في تقريره قائلا :- "أخبر ابن سعود في الوقت نفسه الحكومة التركية بأنه نتيجة كونه في نزاع مع ابن رشيد يستحيل عليه التحرك شمالا لحماية ما بين النهرين تاركا نجدا عرضة للهجوم، إلا إذا تحرك ابن رشيد نحو مصر. ولكونه وجد بهذه الطريقة عذرا شرعيا لعدم اتخاذ عمل يرجح تعارضه مع الأهداف البريطانية في

العراق، فقد شرع في استعداداته لحملة ضد ابن رشيد ذات هدف مزدوج هو منعة من أي تقدم نحو مصر وتنفيذ خطته الأصلية الرامية لسحقه.

أن ابن رشيد الآن ذو شأن قليل جدا، فهناك نزاعات متكررة بين قبائله وليست لديه القوة للسيطرة عليها، بينما نقل بعضها ولاءه بالفعل إلى ابن سعود. جمع ابن سعود في معسكره حوالي ثلاثة إلى أربعة آلاف رجل من الحضر ولديه كل بدو قبيلتي مطير والعجمان رهن إشارته. وأصدر الأوامر بالتحاق أربعة آلاف من الحضر الآخرين بقواته خلال الأيام القليلة القادمة. أن استعداداته تجرى على نطاق لم تتم تجربته منذ ١٩١١ [الأصح ١٩١٠] حين قام شريف مكة بتحريض من الترك بغزوته في الوشم. سيتحرك ابن سعود خلال الأسبوع وهو يامل أن يجد ابن رشيد ويسحقه قبل نهاية يناير ما لم يكن الأخير قد تحرك غربا، وفي هذه الحالة فأن خططا اخرى ستوضع"(١).

ويتضح من الحماس الذي تحدث به شكسبير عن حملة ابن سعود ضد ابن رشيد مدى تحامل البريطانيين ضد الأخير، وهو يعكس بلا ريب بأسهم في هذه الفترة من كسب ابن رشيد إلى جانبهم. ولم يلبث شكسبير طويلا قبل أن يلحق تقريره السالف بتقرير آخر قارن فيه ميزان القوى بين الخصمين قبيل صدامهما الوشيك. فقال في تقريره المؤرخ في السادس عشر من يناير ١٩١٥ ان قوات ابن سعود تكاملت بشكلها الأخير فبلغت ستة آلاف رجل من الحضر إضافة إلى قبائل

(1) IOR, R/15/5/25 No. S. 13 of 1915, Captain W.H.I. Shakespear to the Political Resident in the Persian Gulf, Bushire, dated 4/1/1915.

العجمان ومطير وحرب. في حين كان مع خصمه سبعمائه رجل فقط من الحضر وقوة كبيرة من أفراد قبيلة شمر. وكان ابن رشيد معسكر على بعض الآبار التي تبعد خمسة وعشرين ميلا عن مخيم ابن سعود الذي كان يوشك على تحريك مخيمه خمسة عشر ميلا للأمام وعندها يهاجم خصمه. ونقل شكسبير الاعتقاد العام السائد بحتمية انتصار ابن سعود في المعركة القادمة(١).

ولكن ذلك الاعتقاد العام ثبت فساده، فقد جرت بين الطرفين في "جراب" معركة عنيفة غير حاسمة، كان من جملة ضحاياها الكابتن شكسبير نفسه. وقد لخص السير برسي كوكس cox، رئيس الضباط السياسيين المرافقين للحملة البريطانية في العراق نتائج تلك المعركة في برقية أرسلها إلى حكومة الهند، جاء فيها :- "الموقف في بلاد العرب المركزية كالآتي :- يدعى ابن سعود أنه هزم ابن رشيد هزيمة تامة. ولكن الروايات المستقلة تفيد بأن الجانبين كليهما تحملا خسائر كبيرة وأن كلا منهما تراجع لمواقعه، الأول إلى بريده والثاني إلى حائل. لا يحتمل انخراطهما في الأعمال الحربية ثانية إلا بعد مضي بعض الوقت"(٢). وقد صدق حدس كوكس إلى حد ما، إذ ترتب على ما جرى من معركة "جراب" ميل الجانبين إلى الصلح، فعقدت بينهما اتفاقية في يونيو ١٩١٥(٣). وكان نص تلك الاتفاقية كما نقله ابن سعود للجانب البريطاني يتضمن اعتراف ابن سعود لابن رشيد بحكم حائل وقراها

---

(1) IOR, R/15/5/25 No. 167. B, Sir P. Cox, Basrah, to Foreign, Delhi, dated 29-1-1915.

(2) IOR, R/15/5/25 No. 336. B, Sir P. Cox, Basrah, to Foreign, Delhi, dated 24-2-1915

(3) Troeller, G., The Birth of Saudi Arablaj Britain and the rise of the House of sa'ud, London, 1967, p. 93.

وقبيلة شمر، واعتراف ابن رشيد لابن سعود بالسيادة على بقية مناطق نجد وقبائلها. كما اتفق الرجلان على عدم تدخل أحدهما في شؤون الآخر. وتعهد ابن رشيد بعدم التآمر مع الحكومة العثمانية ضد ابن سعود وبأن يميل معه إلى الحكومة التي يؤيدها، وهي إشارة ضمنية للحكومة البريطانية[١]. ويظهر سياق الأحداث اللاحقة أن من المستبعد التزام ابن رشيد بالتعهد الأخير في الاتفاقية، او أنه كان مصمما سلفا على عدم التقيد به.

ويبدو أن عجز ابن سعود عن تحقيق ما كان يؤمله البريطانيون من سحق لابن رشيد قد أدى إلى فتور حماستهم نحوه. لاسيما وأنه تعرض لمحنة أخرى هي تمرد قبيلة العجمان وأبناء عمومته "العرائف" ضده خلال صيف سنة ١٩١٥[٢]. وقد لاحظ الوكيل السياسي البريطاني في الكويت ذلك الفتور فكتب في يونيو ١٩١٥ إلى مراجعه منبها إلى عداء ابن رشيد المستمر للبريطانيين. ودلل على ذلك برد ابن رشيد الجاف على رسالة بعثها له مبارك الصباح شيخ الكويت ملتمسا منه فيها إعادة أبل نهبت على أيدى أفراد من قبيلة شمر في أراضيه، حيث ورد في ذلك الرد تأكيد على ولاء ابن رشيد للعثمانيين. وأضاف الوكيل يقول:- "ليس هناك شك مهما كان فى أن شمر كانت ستنضم للترك لو لم تكن قد أشغلت. ونحن مدينون بالشكر لغيابها لحد الآن عن صفوف أعدائنا إلى السير مبارك الذي اقترح السياسة التي أبقتهم مشغولين وإلى ابن سعود الذي قام بتنفيذها". وأضاف الوكيل قائلا أنه نظرا لمقتل شكسبير

---

(١) شبيكة، المرجع نفسه، ج٢، ص ٥٢.

(٢) السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص ص ١٧ - ١٧٨.

على أيدي الشمريين وغارتهم الواسعة في أراضي الشيخ مبارك، تابع الإنكليز وحليفهم، فأن من الصواب في رأيه مساعدة ابن سعود على إعادة تأكيد سلطته القانونية على حائل والإقليم المحيط بها، وأن لدى البريطانيين الآن بشكل جلي سببا كافيا لدعم قضية ابن سعود بطريقة عملية(١).

وكان ابن سعود من جانبه يستثير تعاطف البريطانيين معه بالربط بين قبيلة العجمان المتمردة ضده وبين ابن رشيد. فقد كتب إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين قائلا أن سبب قتاله السابق مع ابن رشيد هو اتصال الأخير بالعجمان. إذ أرسل لهم مقدارا كبيرا من المال رشوة من الترك، وذلك هو ما شجعهم على ممارسة نشاط واسع على حدود الكويت. وأضاف ابن سعود أنه حين تفرغ في القتال مع ابن رشيد طلب من العجمان إعادة الأموال التي نهبوها من الكويت. ولكنهم رفضوا متقوين بمساعدة العرائف وأهل عمان لهم وبالأموال التي ارسلها ابن رشيد لهم(٢). ولكن الشيخ مبارك الصباح في محادثة له مع الوكيل السياسي البريطاني في الكويت وصف رواية ارسال ابن رشيد أموالا تركية للعجمان بأنها رواية غير صحيحة. وعقب الوكيل على ذلك بالقول أنه هو أيضا ليس لديه دليل مهما كان يؤيد تلك الرواية(٣). ومع ذلك كله استجاب البريطانيون لطلب ابن سعود فأمدوه بثلاثمائة

---

(1) IOR, R/15/5/25 No. C. 19 of 1915, Political Agent, Kuwait, to the Political Resident in the Persian Gulf, Bushijre, dated 29 – 6 – 1915.

(2) IOR, R/15/5/25 , Keyes, Bahrain, to Sir P-Cox, Basrah, dated 8-7-1915.

(3) IOR, R/15/5/25 No. C. 26 of 1915, Pol. Ag., Kuwait., to the Pol. Res. In the P. G., Bushire, Dated 23 – 7 – 1915.

بندقية وعشرة آلاف روبية[1].

لقد كان من المنطقي أن يستغل ابن رشيد انشغال خصمه في قمع تمرد العجمان ليحاول تحسين مركزه على حسابه. لاسيما وأن الحكومة العثمانية قد أوفدت له ضابطا يغريه بنقض اتفاقيته مع الرياض وتجديد حربه معها على حد ما رواه ابن سعود للبريطانيين[2]. وسواء أكان تحرك ابن رشيد بمبادرة منه أو بتحريض من العثمانيين فأنه نقض بالفعل صلحه مع ابن سعود وتحرك نحو القصيم. وقد وصف ابن سعود ما حدث في رسالة وجهها في أكتوبر ١٩١٥ للوكيل السياسي البريطاني في البحرين، وجاء فيها :- "فيما يتعلق بالأخبار الواردة من القصيم فأن ابن رشيد أراد القيام بأمور غير شرعية ضد بعض القرويين في الأجزاء القصية من القصيم من أجل النهب مستغلا إنشغالنا في هذه الأجزاء. ولذلك فأنه توجه نحوهم بقواته وقبائله، ولكن حامياتنا واهل بريدة خرجوا للقائه، وهاجموا مخيمه ليلا فقتلوا خمسين وجرحوا ثلاثة وعشرين من رجاله ونهبوا بعض خيامه، فهرب بعيدا إلى أراضيه نتيجة للمذبحة التى أنزلها به خيالتنا الشجعان"[3]. ويبدو غريبا ما روى عن تقدم الشريف عبد الله بن الحسين على رأس قواته وأعاقته لتحرك ابن رشيد نحو القصيم مما اضطره للتراجع عنها[4].

---

(1)Troeller, op. Cit., p. 93.

(٢) شبيكة الموقف نفسه، ج ٢، ص ٥٠.

(3) IOR, R/15/5/25 No. 60. C, Pol. Ag., Bahrain, to Sir P. Cox, Basrah, dated 11-10-1915.

(٤) طالب محمد وهيم، مملكة الحجاز ١٩١٦ – ١٩٢٥، البصرة، ١٩٨٢، ص ٢٦٥.

وإذا كان وضع ابن سعود قد اعتراه بعض الضعف نتيجة ما حدث في معركة "جراب" وما تبعها من تمرد العجمان والعرائف، فإن وضع ابن رشيد بالمقابل لم يسلم من ظهور عامل ضعف تمثل في النزاعات داخل بيت الإمارة. فقد استمر فيصل بن حمود العبيد وضاري العبيد في معارضتهما لحكم الأمير سعود، وانضما لخصمه ابن سعود مع معارض ثالث هو عبد الرزاق بن حمود العبيد. وقد استقبلهم ابن سعود بحفاوة، حتى أنه جعل من فيصل أحد قواد حملاته الحربية[١]. وفي حين كانت تلك المعارضة تتطلب من القائمين على الحكم في حائل رص صفوفهم، إلا أن الخلاف شجر بينهم. ففي غضون شهر يناير ١٩١٦ وصلت أخبار إلى البحرين تفيد بان أمير حائل قتل سعود الصالح السبهان[*][٢] ولكن تلك الأخبار صححت بعد ذلك، فقد ظهر أن الأمير وسعود السبهان قد تشاجرا فحسب، ولم يصل الأمر حد القتل[٣]. وقد غادر سعود حائل إثر ذلك الشجار وانضم إلى ضاري بن طواله واضعا نفسه مثله تحت تصرف البريطانيين. إذ كانت السلطات البريطانية تعمل على كسب ولاء بعض الزعماء الشمريين لوضعهم

---

(1) IOR, R/15/5/25 No. No. 28. C, Pol. Ag., Barhrain, to the Pol. Res. In the P. G., Basrah, dated 29 – 2- 1916.

(*) حدث قبلها نزاع على السلطة بين سعود السبهان وزامل السبهان. وقد نجح الأول بإيغار صدر الأمير ابن رشيد على خصمه فأمر بقتله مع اخيه وعمه في رجب ١٣٣٢ هـ / يونيو ١٩١٤.

الزعارير ، المرجع نفسه، ص ٢١٢.

(2) IOR, R/15/5/25 No. No. 13. C, Pol. Ag., Barhrain, to the Pol. Res. In the P. G., Basrah, dated 27 – 1 - 1916.

(3) IOR, R/15/5/25 No. No. 19. C, Pol. Ag., Barhrain, to the Pol. Res. In the P. G., Basrah, dated 12 - 2 - 1916.

بوجه ابن رشيد. وكان أول الزعماء الذين كسبتهم ضري بن طوالـــه، أحد مشايخ الاسلم من شمر. لذا فقد رحب البريطانيون بانضمام سـعود السبهان له، وعقدوا الآمال على إبرازه منافسا لابن رشيد لعله يستقطب ولاء أقسام مهمة من شمر. ولكن ثبت لهم في النهاية بأن طموحات ذلك الرجل أقل من آمالهم(١). ولعل انشقاق سعود السبهان هو الذي دفع ابن رشيد لإطلاق سراح بعض أقاربه آل رشيد الذي كانوا مسجونين منــذ مدة طويلة في حائل(٢) ولكن تلك الخطوة لم تعد عليه بفائدة إذ تســلل أولئك المطلقون من حائل والتحقوا بابن سعود(٣). ولقــد كــان أولئــك المعارضون مثل البريطانيين يعلقون أملا كبيرا على تطور الخلاف بين أمير حائل وسعود السبهان، لعله يتحول إلى مذبحة يروح ضحيتها أحـد الجانبين وتكون محصلتها النهائية لصالحهم(٤).

ولم تؤثر تلك الصراعات الداخلية على مركز ابن رشيد. إذ اسـتمر البريطانيون يعتبرونه قوة مؤثرة في حسابات ميزان القوى بينهم وبيـن العثمانيين في المنطقة. لا سيما وأنه جعل حائل مركز إمـــداد خلفـي للقوات العثمانية. فقد كتب السير هنري مكماهون إلى الشريف حسـين في مارس ١٩١٦ يخبره بأن ابن رشيد يبيع أعداد كبيرة مـــن الإبــل للعثمانيين الذين يرسلونها لقواتهم في دمشق. وطلـــب مـــن الشــريف استخدام نفوذه لدى ابن رشيد للكف عن ذلك، أو التنسيق مـــع القبـــائل

---

(1)Troeller, op. Cit. Pp. 103 – 4.

(2)IOR, R/15/5/25 No. No. 11. C, Pol. Ag., Barhrain, to the Pol. Res. In the P. G., Basrah, dated 23 – 1 - 1916.

(3) IOR, R/15/5/25 No. 19. C, - - - 12 – 2 – 1916.

(4) IOR, R/15/5/25 No. 28. C, - - - 29 – 2 – 1916.

الساكنة شمال حائل لنهب تلك الإبل عند مرورها بديارها[1] كما كان مهما للبريطانيين منع ابن رشيد من مغادرة أراضيه للانضمام إلى القوات العثمانية التي تحاربهم في العراق. ولقد كانت هذه القضية محور البحث في لقاء السير برسي كوكس وابن سعود في السادس والعشرون من ديسمبر ١٩١٥ حسبما يظهر من المذكرة التي كتبها كوكس. وجاء فيها :- "يبدو انه [ابن سعود] كان يبالغ بعض الشيء في محاوراته مع الوكيل السياسي في البحرين قبل وصولي. وقد اعترف بأنه لم تكن لديه بعد اخبار دقيقة تتعلق بمكان وجود ابن رشيد. قال أن من المؤكد أن ابن رشيد قد تحرك خارج حائل، ولكن إلى حد وإلى أي اتجاه غربا أو شرقا فذلك ما لا يعلمه بعد. وحيث انه سيكون مسلكا طبيعيا من أن ابن رشيد يحاول مضايقته في القصيم فقد ارسل اخاه [محمد بن عبد الرحمن] قدما لمواصلة الحيطة في ذلك الجزء. بينما سيتوجه هو نفسه إلى عاصمته الرياض للتأكد من عدم انتشار القلق الذي بثه مبعوثو الترك بين رجال قبائله.

ومضى كوكس يقول :- "أن الرسائل التي اعترضت أثناء نقلها من ابن رشيد وعجمي [السعدون] لبعض اقاربه المتمردين وشيوخ العجمان ليست لها قيمة كبيرة ولا يعتبرها خطيرة حقا. اعتقاده هو أن ابن رشيد لا يجرؤ على التقدم بعيدا سواء نحو الكويت أو الناصرية خوفا من أن يتجه ابن سعود إلى حائل في غيابه. إنه يعتقد أن تلك الاحاديث الطنانة

(١) شبيكة، المرجع نفسه، ج ٢، ص ٧٤.

ستخمد حين تتقدم ثانية(١). ويقول إنه على أية حال سيكون مسير أية قوات كبيرة في الوقت الحالي امرا غير وارد نظرا لنقص الأمطار والمراعي. يعتقد أن الأمر الأكثر احتمالا هو ان ابن رشيد سيبدأ بتقديم عروض له، وإذا ما فعل ذلك فإن ابن سعود، سيعرض عليه الصلح بشرط أن يشايعنا، وإذا لم يرض بذلك فعليه الموافقة على البقاء محايدا بصورة قاطعة. وإذا لم يقبل ابن رشيد أيا من ذلك الشرطين فأنه، ابن سعود، سوف يهاجمه ويحث عنزة على مهاجمته أيضا"(٢).

ولم يكن ابن سعود منفردا في توقعه الصلح مع ابن رشيد، فأحد آل رشيد المعارضين اكد للوكيل السياسي البريطاني في البحرين أن عقد الصلح بين الخصمين اللدودين كان وشيكا في أواخر يناير ١٩١٦. ووثق هذه المعلومة كذلك وجيه نجدي وصفه الوكيل نفسه بأنه جيد الإطلاع، فقد ذكر أن مفاوضات السلام كانت تجري دون شك بين الطرفين بوساطة الشريف حسين(٣). وكان وكيل ابن سعود في البحرين عبد الله القصيبي ايضا يتوقع إتمام الصلح بين الجانبين(٤). أما عبد الرزاق بن حمود العبيد الرشيد فقد زاد على تلك التوقعات بالقول للوكيل السياسي البريطاني في البحرين عند وصوله إليها أواسط فبراير ١٩١٦أن السلام قد أقيم عمليا بين حائل والرياض(٥). وعلى الرغم من

---

(١) كان الجيش البريطاني محاصرا في الكويت على دجلة أثناء وقت هذا اللقاء بين كوكس وابن سعود.

(2) IOR, R/15/5/25 No. 9-2, Note regarding interview with BinSaud on 26 th Dec. 1915.

(3) IOR, R/15/5/25 No. 11. C, - - - 23 - 1 – 1916.

(4) IOR, R/15/5/25 No. 1٣. C, - - - 27 – 1 – 1916.

(5) IOR, R/15/5/25 No. 19. C, - - - 12 – 2 – 1916.

كل تلك التوقعات، فلم يرد في الوثائق البريطانية المتاحة ذكر صريح لخبر مؤكد عن عقد الصلح بين الطرفين في هذه الفترة. كما أن رسائل ابن سعود للسلطات البريطانية تظهر ما يناقض تلك التوقعات. ففي رسالة منه للوكيل السياسي البريطاني في البحرين وصلت في آخر يناير ١٩١٦ قال ابن سعود :- "تأكدت أن وفدا يضم ضابطين حربيين أرسلته الحكومة التركية إلى ابن رشيد لحثه على التحرك نحو العراق. ولكن لعلمه بتحرك أخي محمد بن عبد الرحمن فأنه اجل مغادرته. إنني أراقب الآن تحركات المذكور أعلاه"[١]. ولم يلبث ابن سعود إلا قليلا حتى كتب رسالة أخرى إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين أخبره فيها أن ابن رشيد بمجرد علمه بمغادرة محمد بن عبد الرحمن للقصيم راجعا إلى الرياض زحف خارجا من حائل. وكان معه عدد من اتباعه لا يتجاوزن مائتي رجل إضافة إلى وفد الحكومة التركية الذي يضم ضابطين ألمانيين. ولكن نظراً لندرة الأمطار فأن ركائبه وحتى رجاله كانوا في حالة خطر. وأضاف ابن سعود انه بمجرد سماعه بمغادرة ابن رشيد حائل فقد أنفذ ابنه تركي وبمعيته فيصل آل رشيد مع قوة كافية للقيام بعمليات حربية مخطط لها قرب مدينة حائل[٢].

ويبدو أن البريطانيين خامرهم بعض الشك في مدى جدية ابن سعود في العمل ضد خصمه. يستدل على ذلك من رسالة بعثها ابن سعود في العشرين من يوليو ١٩١٦ إلى السربرسي كوكس. وجاء فيها:-

---

(1) IOR, R/15/5/25 No. No. 14. C, Pol. Ag., Barhrain, to the Pol. Res. In the P. G., Basrah, dated 31 – 1 - 1916.

(2) IOR, R/15/5/25 No. No. 11. C, Pol. Ag., Barhrain, to the Pol. Res. In the P. G., Basrah, dated 24 – 2 - 1916.

"...وحول كون ابن رشيد قادرا على الحفاظ على مركزه في حائل آمنا، فليس هنالك شك في أن الشخص الذي زودكم بتلك المعلومات كان عدوا. ويحتمل أنه واحد من اتباع ابن رشيد الذين ارسلهم لكم مؤملا أنه بسبب نشاطاتهم حولكم وقربهم منكم فيمكن أن يوجدوا لديكم بعض الخشية منه، وهكذا ربما تلبون طلباته. ولكن الحمد لله لأن ما حدث هو عكس ذلك، وأصبح ابن رشيد غير ذي أهمية في نظركم مثلما قلت لكم سابقا. ومن الواضح أن سعادتكم شخصيا أدركتم قلة اتباعه وتفاهة شخصيته لإنكم سجلتم ذلك في رسالتكم. وبالإشارة إلى العبد [٥] وحائل فقد أرسلت ضدهم ولدى تركي وفيصل بن رشيد مع قوة كافية. ومنذ افتراقنا أنا وأنت في القطيف ولحد الآن فأنهم يحاصرون حائل ويقطعون "مسابلتها" تموينها. هنالك عدد قليل فقط من غرب الصحراء في حائل، ولكن حقيقة أننا كنا غير قادرين على دخول البلدة عنوة عائدة الى أولا أن الأرض بين القصيم وحائل أرض جرداء لا نبت فيها لمرعى الأبل (وأنت تعلم بان لا شيء يمكن عمله عن طريق العرب بدون ابلهم). وثانيا لأن البلدة محصنة وليس من الممكن شن هجوم ناجح عليها بدون سلاح فعال. أن لدينا مدافعنا الأصلية فقط والتي هي كما قلت لك، مدافع طفيفة، وعلاوة على ذلك ليس لدينا ذخيرة كافية تمكننا من الدخول في قتال طويل مع ابن رشيد ومن الحرب مع الترك عموما.

وانتقل ابن سعود للقول :- "فيما يتعلق بمراسلة ابن رشيد مع الشيخ إبراهيم[1] وعلاقاتكم به فإنني أقر بما قلته سعادتك في أن الجميع

(١) هو الشيخ إبراهيم بن عبد الله آل إبراهيم شيخ الزبير حينئذ.

متفقون على أنه فتى جاهل طائش وكما لاحظتم فأن اتباعـــه يقـــدرون بمائتين أو ثلاثمائة رجل فقط. ومع ذلك فإن بقاءه في الشـــامية غـــير ملائم. أن سياستكم تجاهه ومراسلتكم معه تبدو لـــي ملائمـــة تمامـــا، ولكن ليس هناك شك في أن ابن رشيد غـــير قـــادر علـــى إدراكـــها وتمييزها. أنه غير قادر إطلاقا على توجيه خطواته وأقل قدرة علـــى قيادة عرب الصحراء والناس الذين يماثلونهم. إنه يعتقد، ببقائه بجواركم وبإظهاره قدرا كبيرا من النشاط، بأنه سيحصل على واحد من أمريـــن فإما إنكم تستجيبون لطلباته (وذلك مستحيل لأنكم. نظرا لدبلوماســـيتكم وبراعتكم- تدركون مركزه كما أدركتم مراكـــز الآخريـــن)، أو انـــه سيحصل على بعض المنافع من الترك. أن كل ترتيبات الـــترك معـــه أعدت بصورة سيئة. لقد استجابوا لرغباته إلى حد ما ولكن يبدو أنـــهم تخلوا عنه باعتباره مثلا سيئا، نظرا لسلوكه السابق معـــهم وطريقتـــه العابثة.

وبعد أن شرح ابن سعود بتلك الصورة أسباب وجود ابـــن رشـــيد حينئذ في أطراف العراق انتقل للقول :- "اســـتلمت بـــالفعل الأخبـــار البرقية التي بعثتها سعادتك إلى عبد اللطيف المنديل في البحرين التـــي تفيد بأن خيالتكم مع الظفير وابن طوالـــه قـــد هـــاجموا ابـــن رشـــيد وهزموه. إنني سعيد جدا باستلام تلك الأخبار وأود الحصول على تأكيد لها. وادعوا الله أن يتحقق كل ما فيه الخير لمصالح الحكومـــة. وقـــد ذكرتم ايضا أن ابن طواله زاركم قبل يومين وأن مـــن المؤمـــل أنـــه سيعمل بالتعاون مع الظفير. ولاحظتم أيضا أن أخبركم عن عمليات ابن تركي وفيصل العبيد ضد حائل وما جاورها. وتقولون أيضـــا أن ابـــن

طواله يؤمل الاتحاد مع القبائل التي تنضم إليه، وإنكم تتوقعـــون منـــي إخباره بأنه يمكنه الاعتماد على مساعدتي. فيما يتعلق بتركي أخـــبرتكم عنه وارجو الله أن ينهض بواجباته كاملة. وفيما يتعلق بـــابن طوالـــه ومساعدتي له فقد كتبت له في الحال رسالة ارفقـــها طيـــا لســعادتكم لتطلعوا عليها فإن نالت موافقتكم ارجوا ارسالها له. ليس هناك شك في أن ابن طواله إذا عارض ابن رشيد فسوف تتوثق علاقتنا به ونســاعده في كل الظروف. إن ابن طواله ومعه قبيلة الاسلم معتاد على أن يكون تحت حمايتنا منذ القديم، وحتى ابن رشيد نفسه كان كذلـــك. وســوف تستعاد الأوضاع القديمة إن شاء الله. وبخصوص ابني تركي وتحركاته فلم يحدث شيء مؤخرا، ولكننا قررنا. إذا سار كل شيء علـــى مـــا يرام. أن نلحق به بعد رمضان لتعزيز العمليات. سنعمل إما في جوار حائل أو في الموقع الذي سيكون فيه ابن رشيد، ولكن لا شيء يمكـــن قوله بصورة نهائية في هذه اللحظة لعدم التأكد من تحركات العرب"[1].

ولم تكن السلطات البريطانية غافلة عن تردد ابن سعود رغـــم مـــا كان يبديه له من حماس لفظي، في الضغط على ابن رشـــيد. وكـــانت تعزو ذلك التردد إلى عدم رغبته بمحاربة الدولة العثمانية تارة، وإلـــى نقص الأسلحة والأموال لديه تارة أخرى. ولإدراكها لأهميـــة تنشـــيط عملياته من أجل تقييد ابن رشيد ومنعه من التحرك ضد الشريف حسين أو الوجود البريطاني في البصرة فانها كانت مستعدة لتزويده بما يتطلبه ذلك الهدف من أسلحة وذخائر. وكان ذلك الاستعداد موضوع مراسلات عديدة بين الجهات البريطانية المعنية في خريف ١٩١٦ وشتائها. وقـــد

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 7997, C.P.O., Bashire, dated 4 – 9 – 1916.

أسفرت زيارة ابن سعود للسلطات البريطانية في البصرة خلال شهر نوفمبر ١٩١٦ عن اتفاق محدد بين الجانبين حول هذه القضية. إذ تعهد ابن سعود للبريطانيين بحشد قوة لا تقل عن أربعة آلاف مقاتل في القصيم بصورة دائمة لمراقبة تحركات ابن رشيد. فإذا تحرك نحو العراق يسير ابن سعود بموازاته على رأس تلك القوة إلى الزبير، وهناك ينضم إلى القبائل الموالية لبريطانيا وقوة قادمة من الكويت، ويقف الجميع بوجه ابن رشيد. اما إذا بقي الأخير قابعا في حائل فسيبقى ابن سعود على رأس قوته في القصيم مزعجا إياه بين آونة وأخرى أو هاجما عليه في حائل إذا ما سنحت له فرصة. ومقابل ذلك تعهدت الحكومة البريطانية بمنح ابن سعود إعانة مالية شهرية مقدارها خمسة آلاف جنيه علاوة على أربعة رشاشات وألف بندقية تسلم له فورا وألفي بندقية تسلم له فيما بعد[1].

ولقد لوحظ أن ابن رشيد ظل هادئا خلال النصف الأول من سنة ١٩١٧، إما بسبب تسرب أنباء ذلك الاتفاق إليه، او نتيجة لضعف موقف حلفائه العثمانيين بعد سقوط بغداد بأيدى البريطانيين في مارس ١٩١٧. ثم لم يلبث ابن رشيد طويلا حتى فاتح ابن سعود برغبته بإقامة السلام بين الجانبين. واشترط ابن سعود لتلبية هذا الطلب إعلان ابن رشيد ولاءه لبريطانيا. وقد رفض ابن رشيد هذا الشرط مما أبقى الوضع بين الجانبين على حاله أي بقاء حالة الحرب معلنة ولكن دون عمليات حربية ذات شأن. وفي غضون ذلك كانت بعض الجهات البريطانية الرسمية تلح على ضرورة تحرك ابن سعود ضد ابن رشيد

(١) شبيكة، المرجع نفسه، ج٢، ص ص ٢٦٨ - ٢٧٦.

تحركا أكثر فاعلية. ومن أجل هذه الغاية تقرر في مايو ١٩١٧ إيفـــاد مبعوث بريطاني إلى ابن سعود. وقد وصل فلبي Philby إلى الريـــاض في أواخر نوفمبر ١٩١٧ للقيام بمهمة حث ابن سعود على التحـــرك. وأسفرت محادثاته مع ابن سعود عن استعداد الأخير لحشد خمسة عشر ألف مقاتل لمهاجمة حائل إذا زودته بريطانيا بمدفعي حصار ومدفعـــي ميدان وعشرة آلاف بندقية وخمسين ألف جنيه شـــهريا طـــوال فـــترة العمليات. وقد اعترضت بعض المراجع البريطانية علـــى تلبيـــة تلـــك المطالب لأن تقوية ابن سعود بذلك الشكل قد تغريه بمهاجمة الحجاز لا حائل. وأثار بعضها إلى أن احتلال حائل لم يكن هدفا حربيا ذا أهميـــة كافية لتبرير إعطاء ابن سعود كل تلـــك المســـاعدات. واســـتقر رأي السلطات البريطانية في النهاية على إمداد ابن سعود ببعـــض الأمـــوال والتقتير بإمداده بالسلاح[1].

وخلال ذلك كله استمر ابن رشيد على ولائه للعثمـــانيين جـــاعلا حائل مركزا لتهريب الأبل والمؤن إلى المناطق الواقعة تحت ســـيطرة القوات العثمانية[*] لذا كانت التعليمات التي حملها فلبي عند عودته مـــن الحجاز إلى الرياض في أبريل ١٩١٨ هي حث ابن سعود على إحكـــام سيطرته على القصيم وإيقاف التهريب هناك وممارسة ضغط حقيقـــي على حائل. ولم يستجب ابن سعود لفكرة الهجوم على حائل، فقد أخـــبر

---

(1) Troeller, op. Cit., pp. 104 – 116.

(*) أوكل العثمانيون لابن رشيد أيضا مهمة حماية خط سكة حديد الحجاز شمال المدينة المنـــورة من هجمات قوات ثورة الشريف حسين بعد قيامها في يونيو ١٩١٦. وقد حصلت صدامـــات عديدة بين تلك القوات واتباع ابن رشيد قرب السكة. سليمان الموشـــي، الثـــورة العربيـــة الكبرى: الحرب في الحجاز ١٩١٦ – ١٩١٨، عمان، ص ٩٠ و ١٩٠و ٢٢٧و ٢٣٠.

فلبي أنه لا يستطيع التعهد بالقيام بعمليات ضد حائل نظرا لتكلفه إبقاء قواته في الميدان وعدم توفر الأموال لديه. وحين عرض عليه فلبي تقديم قرض له شريطة العمل ضد حائل، قبل ابن سعود العرض وأخذ يحضر للهجوم الذي تقرر أن يبدأ في مطلع رمضان. ووصف فلبي الاستعدادات للهجوم بأنها كانت جارية بشكل يدعو للأمل في نجاحها إذا لم يحدث ما يعاكسها. وحذر فلبي من تأثير المشاكل التي كانت قائمة حينئذ بين ابن سعود وشريف مكة والعجمان وشيخ الكويت على سرعة العمليات ضد حائل التي أصبحت تحتل المرتبة الرابعة من سلم اهتمامات ابن سعود بعد تلك المشاكل(1).

ولم يلبث ابن سعود إلا أياما قلائل حتى تراجع عن تعهده ذاك. فقد قدم في الرابع والعشرين من يوليو ١٩١٨ وثيقة مكتوبة طويلة إلى فلبي أوضح فيها أن تعهده بالعمل لصالح البريطانيين ضد ابن رشيد تم على ضوء الفهم بأن البريطانيين سيحمون مصالحه في مواجهة الشريف والعجمان والكويت. ولكن الأحداث الأخيرة قد غيرت الوضع عمليا، إذا ظهر بأنه غير محمي بصورة كافية من قبل البريطانيين ضد أعداء محدقين به من كل صوب، ولذلك فهو لا يستطيع شن هجوم على ابن رشيد. وحين اخبره فلبي أثناء حوار جرى بينهما بعد تقديم تلك الوثيقة أنه لم يقم بدوره حسب صفقة القرض الذي استلمه، رد ابن سعود بأنه مستعد لإرجاع القرض مفضلا ذلك على أن يغامر بوقوع كارثة من جراء ترك جناحيه غير محميين تجاه العجمان والشريف. وطالب ابن سعود بإعطائه ضمانات صريحة بأن الحكومة البريطانية

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. M 111, Philby, Rigad, to Political, Baghdad, dated 19/7/1918.

سوف تلتزم بمعالجة تلك المشاكل قبل تحركه ضد ابن رشيد. وكان أحد الضمانات التي طلبها أيضا هو أنه إذا ابتدأ أعماله الحربية ضد ابن رشيد فيجب على البريطانيين عدم تركها تتوقف نتيجة لحجب مصادر الحرب الضرورية عنه. وعلق فلبي على تلك المطالب بقوله :- "أن من لضروري بصورة عاملة توريط بن سعود في أعمال عدائية ضد ابن رشيد بدون تأخير. جزئيا لابعاد ذهنه عن التحديق بإمعان في الشكاوى الأخرى، ورئيسيا لتفادي انضمامه إلى رشيد في مهاجمة الشريف. ولن يكون الاحتمال الأخير مستحيلا إطلاقا إذا تركت ابن سعود في مركز حرج بعدم أنصاف شكواه، كما أنه سيكون حركة مرغوبا بها من قبل الناس هنا إلى حد بعيد " وأضاف فلبي أنه نتيجة لذلك ولأسباب أخرى تتعلق بهياج الرأي العام في نجد ضد بريطانيا نتيجة لتلك الأحداث فقد تصرف بدون استئذان مراجعه وأعطى ابن سعود تعهدات مكتوبة. وقد نصت تلك التعهدات على ضمانات لابن سعود ضد أية أعمال عدائية أخرى من قبل الشريف والعجمي والقبائل الموضوعة تحت الحماية البريطانية، ووعد بتصحيح تنظيمات الحصار الاقتصادي البريطاني في الكويت[1]. ونصت أيضا على التعهد بأن موارد ابن سعود المالية سوف لن تتضرر من جراء أية أعمال حربية يقوم بها لصالح بريطانيا. ومضى فلبي قائلا :- ولكن أوضحت له بصراحة أن التعهدات أعلاه مشروطة بوفائه بوعوده بالقيام بالأعمال الحربية على الفور وشروعه بالتحرك من الرياض خلال عشرة أيام

(١) عن موضوع ذلك الحصار راجع: خالد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص ص ٢٠٧ - ٢١١.

من هذا التاريخ. وقد تعهد من جانبه بتنفيذ ذلك. ولقد أضفت أنه إذا لـم تكن الحكومة راضية او قادرة على المصادقة على ضماناتي أو علـى العمل بموجبها فليس من المتوقع منه الوفاء بنصيبيه مـن الصفقـة... وفيما يتصف بالنقود فبالنظر لما روى من معاملة الترك السخية لابـن رشيد وإمكانية تزايد نشاطه فأن قضية وضع موارد مالية وافرة تحـت تصرفي تبدو ملحة إذا كان من المرغـوب منـه حقـا شـن حملـة قوية..."[1].

وأثناء ما كان فلبي يحث بذلك الشكل ابن سـعود علـى التحـرك العاجل ضد ابن رشيد حدث تطور هام يؤثر على علاقة حاكم حـائل بالجانب البريطاني. فقد هزمت قوات تابعة للملك حسين بن على يقودها شاكر بن زيد قوات ابن رشيد قرب تيماء في مايو ١٩١٨. وقـد أدى ذلك إلى انسحاب ابن رشيد من ميدان القتال وعودته إلى حائل بعـد أن كانت الخطة الحربية العثمانية قد اوكلت له حماية خـط سـكة حديـد الحجاز وإعاقة العمليات الحربية التي تقوم بها قوات الملـك. بيـد أن القيادة العثمانية أخذت تتهم ابن رشيد بـالتراخي فـي تنفيـذ المهمـة الموكولة له على الرغم من الأموال التي أغدقت عليه حتى أنه لم يجلب إلى ميدان القتال إلا ألف مقاتل فقط في حين أنه كان قد وعـد بجلـب أربعين ألف مقاتل. وانتقد قائد القوات العثمانية في المدينـة المنـورة فخري باشا ابن رشيد قائلا أنه كان يسعى من أجل المال فقط.

---

(1)IOR, R/15/5/103, No. M 123, Philpy, Riyad, to Political, Baghdad, dated 24 – 7 – 1918.

وقام القائد المذكور بوضع يده على المساعدات التي أرسلتها الدولة إلى ابن رشيد الأمر الذي حدا بالأخير إلى ترك ميدان القتال والعودة إلى حائل(*). وقد دفع ذلك الموقف ابن رشيد لإبداء تذمره من الترك، إذ حدث أن استولى اتباع عبد الله بن الملك حسين على رسائل كتبها ابن رشيد تعرب عن ذلك التذمر. واستغل عبد الله الفرصة فأوفد رسلا إلى حائل يحملون عروض سلام لابن رشيد. وقد علق فلبي على محاولة عبد الله هذه حين وصلته أخبارها بالقول :- "لا يعتقد ابن سعود أن ابن رشيد سيصغي لأية عروض، وهو يعتبر عمل عبد الله عملا عدائيا موجها ضده. إنه استنتاج صحيح على الأرجح. أن عدة مؤشرات أخيرة تجعلني ميالا للظن بأن ما يروى عن احتمال قوي لعروض ستأتى من ابن رشيد غير ذى أساس وفى هذه الحالة يمكن توقع قيامه بأعمال عدائية بصورة نشطة حين تنتهي استعداداته"[1] ويبدو أن ظن فلبي لم يكن في محله ففي الثالث عشر من يوليو ١٩١٨ كتب عبد الله بن الحسين رسائل إلى عدد من شيوخ قبيلة عتيبة يعلن فيها أن الصلح قد عقد بين والده وابن رشيد(**).

وقد أيد فلبي رأي ابن سعود القائل بأن محاولة الشريف الاتفاق مع ابن رشيد لم تكن تهدف إلى مجرد التوصل إلى السلم بين الطرفين فقط، بل وإلى تشكيل حلف بينهما معاد له أيضا. وقد جاء ذلك التأييد في رسالة كتبها بعد عدة أيام وقال فيها :- " فيما يتعلق بابن رشيد

(*) الموسى، المرجع نفسه، ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧ وص ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

(1) IOR, R/15/5/103, No. M 137, Philpy, Riyad, to Political, Baghdad, dated 1-8-1918.

(**) الموسى، المرجع نفسه، ص ٢٧٦.

التمس تزويدي بمعلومات حول المفاوضات معه والمدى الذي ستؤيدها فيه الحكومة. إذا كان مرجحا _ كما يبدو _ أن الشريف يعطيه أموالا ووعودا بالعون ضد ابن سعود فأن موقف البعثة [بعثة فلبي للرياض] يغدو حرجا إلى حد ما"(١).

وعلى الرغم من أن تلك الأخبار كانت تتطلب من فلبي التريث في أمر الحملة المزمعة ضد ابن رشيد لحين يتبين رد فعله تجاه عروض السلام، فأنه كان متحمسا لمواصلة الحملة ضد حائل. إذ كتب إلى مراجعه في بغداد :– إن خططنا ستنفذ لحين استلام أوامر نهائية تفيد بان السلام قد عقد. أشك باحتمال عقد ابن رشيد للسلم، وربما كان غرضه كسب الوقت. أثق خلال ذلك في أن الشريف لا يزوده بالمال والسلاح"(٢). وخلال ذلك كان ابن سعود قد أكمل استعداداته وغادر الرياض بصحبة فلبي في الخامس من أغسطس متجها نحو شقراء في إقليم الوشم التي كان يتوقع وصوله إليها في الحادي عشر من الشهر نفسه. وكان مقررا أن يمضي حوالي عشرة أيام هناك لتعبئة قواته قبل التوجه نحو القصيم(٣).

وكانت المراجع البريطانية المختلفة في المنطقة تدرس، في هذه الأثناء، الضمانات المكتوبة التي قدمها فلبي إلى ابن سعود بالصورة التي مر ذكرها. وقد اتفقت كلها على تصويب فكرة فلبي حول توجيه نشاط ابن سعود الحربي نحو حائل. فقد كتب وكيل المندوب السامي

---

(1) IOR, R/15/5/103, No. M 143, Philpy, Sadus, to Political, Baghdad, dated 6 – 8 – 1918.

(2) IOR, R/15/5/103, No. M 152, Philpy, Tharmide, to Political, Baghdad, dated 9 – 8 – 1918.

(3) IOR, R/15/5/103, No. M 156, Philpy, Tharmide, to Political, Baghdad, dated 9 – 8 – 1918.

البريطاني في بغداد إلى مراجعه العليا مقترحا إقرار تعهد فلبي لابـــن سعود بتزويده بالموارد المالية اللازمة لحربه مع ابن رشيد، وأضاف:- "ان العمليات ضد ابن رشيد تبدو القناة الوحيدة التي يمكن تحويل انتبـاه ابن سعود ومطامحه إليها الآن، والتي لا تؤدي إلى وضعه في نزاع مع الملك حسين. إنني اتوقع نتيجة ضئيلة من تلك العمليات، وربما تكــون حصيلة النجاح فيها مربكة للملك حسين، ولكن للسبب المبيـــن أعــلاه فأنني أوصي بتخويلي وضع اعتمادات مالية سخية تحت تصرف فلبــي لمواصلة الحملة ضد ابن رشيد، علاوة على تزويده بألف بندقية ومائــة وخمسين ألف طلقة ذخيرة "[١] أما المندوب الســامي البريطـــاني فــي القاهرة فأتفق مع وجهة النظر هذه ولكن بتحفظ ظاهر، حين كتــب :- "أنني أوافق على أن يعامل ابن سعود بسخاء فيمــــا يخــص الاعتمـــادات المالية التي يمكن أن يكون لها أيضا تأثير مهدأ على الرأي العام المعــادي الذي أشار له السير فلبي. ولكنى أحث على وجوب عـــدم تزويدنـــا لـــه بمصادر القوة الحربية الأخرى إلا إذا كانت ضرورية بصــورة جازمـــة، وأن يكون تزويدها بعد هذا بالكميات الدنيا اللازمة للإبقاء على شــــعوره الودي وسلطته... إنني أوافق على أن عمل ابن سعود ضد ابن رشيد ربما يقدم إلهاءً ومنفذا أكثر أمنا لطاقات الأول. وطبقا لآخر المعلومـــات فـــأن وضع ابن رشيد أكثر ضعفا، ويرجح أن يصل لاتفاق مع الملـــك حســين آخر الأمر"[٢] وقد أقرت الحكومة البريطانية وجهة نظر ونغيــث Wingate

(1) IOR, R/15/5/103, No. 6491, Political, Baghdad, to Foreign, Simla, dated 7 – 8 –1918.

(2)IOR, R/15/5/103, No. 1200, Wingate Bacos, Ramleh, to Foreign Office, London, dated 13 – 8 – 1918.

هذه وخولت فلبي العمل وفق ما جاء فيها[١].

وفيما كانت المراجع البريطانية المختلفة تتداول فيما بينها عادِ فلبي لتأكيد موقفه الداعي إلى ضرورة تنشيط عمليات ابن سعود ضد حـائل. فكتب في الثاني عشر من أغسطس :- "في رأيي أن النشاط الفعلي هو الدواء العام للأدواء الناشئة عن الحياة الكسولة التي يحياهـــا العــرب بطبعهم. وقد أبقيت هذا الاستنتاج قيد الاعتبـــار دائمـــا فيمـــا يخــص العمليات المزمعة ضد حائل. لم أكن قادرا على فعل الكثير بـــالموارد المحدودة الموجودة تحت تصرفي ولكنني كنت أشعر بنفـــور طبيعـــي من التراجع عن موضوع الهجوم على حائل. مع ذلك لو لم يكن هنـــاك ترتيب كهذا استطعت وضعه لما كانت هناك قناة جاهزة يحـــول إليـــها الشعور الحربي الناشئ عن الهجوم الاول على الخرمة[٢]. أن الـــهجوم الوشيك كان لقية سعيدة بأعتباره في أسوا الأحوال تعبئة تمكـــن ابـــن سعود من جمع قواته وإبقائها تحت السيطرة المباشرة راضية بإطعامـها المنتظم. أن النقود المنفقة في هذه المغامرة لن تستمر للأبد لسوء الحظ، ولا أستطيع في هذا الوقت القول كم مـــن الوقـــت سيســـري مفعـــول التعبئة... أشعر بثقة تامة بإمكان إبقاء قوة كبيرة تستخدم بفاعلية فـــي عمليات ضد حائل وما جاورها إذا كانت الحكومة تستطيع وضع أسلحة ونقود اكثر تحت تصرفي. أن مقترحاتي هي كما يلي :-

١- فيما يتعلق بالمدفعية أرى أنه لضياع الوقت في التدريـــب

---

(1) IOR, R/15/5/103, No. 207, Sec – of State for India to Viceroy, dated 15 – 8 – 1918.

(٢) شنت قوات الملك الحسين هجوما على قرية "الخرمة" الحدودية المتنازع عليها مع ابن سعود في يونيو ١٩١٨.

فلا مدافع يمكن استخدامها بشكل نافع.

٢- فيما يتعلق بالأسلحة الصغيرة التمس ارسال خمسة آلاف بندقية من نوع جيد مع ذخيرة كافية إلى الكويت ليتم صرفها بتقتير من جانب الوكيل السياسي بناء على طلبي. من الجوهري أن لا يعلم ابن سعود ووكيله في الكويت شيئا عن ذلك. أفضل أن ينال ألف بندقية في الحال وأن يصرف الباقي بتقتير في حالة حدوث أزمة شريفية، باعتبار ذلك عمليا رشاوى مقابل عدم اتخاذه عملا في ذلك الاتجاه.

٣- أن للنقود أهمية بالغة، فأبن سعود لا يمكنه إبقاء قواته في الميدان دون إطعامها لذا اقترح إما إعطائي حصة شهرية مقدارها عشرة آلاف جنيه، والسماح لي بأن اسحب من الكويت دون قيد أو شرط مبلغا إجماليا حده الأعلى خمسون الف جنيه حتى نهاية ديسمبر. إنني واثق أخيرا من أن تلك الاقتراحات ستنال اعتبارا مواتيا. وتوقعا لقبولها من حيث المبدأ فأنني طالب من الوكيل السياسي في الكويت تزويد وكيل ابن سعود بثلاثة آلاف كيس من الرز ومائتي كيس قهوة ومائتي كيس سكر من المخزون الموجود لديه وقيدها على حساب البعثة. أخبرت ابن سعود ان يرسل لجلب ما ورد أعلاه بعد التفاهم على أنه سيدفع ثمنه في الوقت المناسب"[1]. وقد أحال المندوب السامي البريطاني في بغداد مقترحات فلبي تلك إلى السلطات العليا، ولكنه خوله سحب مبلغ

(1) IOR, R/15/5/103, No. M 169, Philpy, Wushaiqir, to Political, Baghdad, dated 18 – 8 – 1918.

شهري لا يتجاوز عشرة آلاف جنيه من الوكيل السياسي في الكويت. كما أمر الوكيل المذكور بتسليم المؤن التي طلبها[1].

ويحسن هنا التوقف عن متابعة صيرورة صراع الخصمين لإلقاء نظرة على مآل المعارضة التي واجهت أمير حائل قبل حين. فقد انضم إلى ضاري بن طواله وسعود الصالح السبهان اللائذين بالحماية البريطانية كما مر معارض آخر هو ماجد بن عجل أحد شيوخ عبده. ولم ينضم أولئك المعارضون الثلاثة آليا إلى جانب ابن سعود كما فعل فيصل العبيد وضاري العبيد من قبل، لا بل استمر اتباعهم يقومون بانشطة معادية ضد ابن سعود ويشنون الغارات داخل أراضيه[2]. لذا فأن ابن سعود حرص على أن تضمن السلطات البريطانية في العراق عدم انضمامهم ثانية لابن رشيد حين تحين لحظة الصدام معه بأن تلزمهم بالبقاء تحت سيطرتها في الأراضي العراقية المحتلة، أو ان ترحلهم لأراضي ابن سعود كي يقوم بتوطينهم في مناطق آمنة بعيدة عن ميدان صراعه من ابن رشيد[3]. وإذا كان أولئك الشيوخ الثلاثة قد عز عليهم الانضمام لخصمهم التقليدي على الرغم من خلافاتهم مع ابن رشيد، فان تسعة شيوخ شمريين آخرين أقل أهمية لم يترددوا فى الالتحاق بابن سعود في أغسطس ١٩١٨[4]. وتؤثر ظاهرة انشقاق شيوخ شمر عن ابن رشيد وجود خلل ما في إدارة سعود بن

---

(1) IOR, R/15/5/103, No. 5750, Political, Baghdad, to Political Kuwait dated 11 – 9 – 1918.

(2) IOR, R/15/5/103, No. M 111, - - - 19 – 7 – 1918.

(3) IOR, R/15/5/103, No. M 150, Philpy, Tharmide, to Political, Baghdad, dated 9 – 8 – 1918.

(4) IOR, R/15/5/103, No. M 172, Philpy, Buradia, to Political, Baghdad, dated 27– 8 – 1918.

عبد العزيز الرشيد. ولعل ذلك الخلل ناشئ عن فتوته وقلة خبرته ورغبته بتصريف شؤون الإمارة على هواه وارثا العناد والتفرد بالرأي عن أبيه.

اما عن مآل حملة ابن سعود التي اتجهت إلى القصيم كما مر، فقد حدث أن قررت الحكومة البريطانية في غضون الوقت نفسه وجوب كف يد ابن سعود عن مهاجمة حائل، وأن تكون السياسة البريطانية بشأن الصراع بين الخصمين هي سياسة "مراوحة الخطى". ولكن أوامر الحكومة البريطانية الجديدة لم تصل فلبي في الوقت المناسب، بل وصلته بعد تحرك القوات نحو بلدة حائل حيث أنها شنت هجوما عليها لم يسفر عن شيء ذي بال. وحين أخبر فلبى ابن سعود بقرار حكومته أظهر غضبه، مما جعل السلطات البريطانية تسعى لامتصاص ذلك الغضب عن طريق تزويده بألف بندقية جديدة. ولكنها اخبرته في الوقت نفسه بعدم ضرورة تحمل عناء أية عمليات حربية أخرى في أي اتجاه[1]. وقد اعقب ذلك وترتب عليه عقد الصلح مجددا بين حائل والرياض[2].

□ تطورات الصراع بين حائل والرياض بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى:

انتهت الحرب العالمية وصمت هدير المدافع في الجزيرة العربية وما حولها. وتكاثفت بعدها سحب الخلاف بين الشريف حسين وابن

(1) Troeller, op. Cit., pp. 136 – 8.

(٢) الريحاني، المرجع نفسه، ص ٢٦٧.

سعود حول الزعامة والحدود الفاصلة بين أراضيهما. وكان من الطبيعي أن تميل حائل نحو تأييد مملكة الحجاز في صراعها مع عدوهما المشترك ابن سعود. وقد تنامى هذا الميل خاصة بعد معركة نزية في مايو ١٩١٩ حين أخذ الملك حسين يحرض حائل ويعدها بالمال والسلاح إن أعانته على حرب العدو المشترك وقد استجاب ابن رشيد للإغراء الحجازي وأعلن عن عزمه على قتال ابن سعود. ولكنه تراجع عن عزمه حين عارض بعض اتباعه هذا الاتجاه ونصحوه بالتروي، سيما وأن الأخبار كانت ترد بنجاح خصمه في استمالة بعض عشائر شمر إلى جانبه[١]. ولذلك كله اضطر ابن رشيد إلى مصانعة خصمه فاعتذر له عما بدر منه، وطلب تجديد الصلح بينهما ثانية فأجيب إلى طلبه[٢].

ولم تكن اهتمامات أمير حائل في هذه الفترة قاصرة على إدارة صراعه مع الرياض، بل وكان يتطلع إلى تحقيق المهمة التي طالما حلم بإنجازها منذ سنين، وهى استعادة الجوف من أيدى الرولة. وجاءته الفرصة التى كان ينتظرها حين صار أهالى تلك البلدة واستنجدوا به فأنجدهم بقوات استطاعت هزيمة الرولة ودخول البلدة قرابة شهر مارس ١٩٢٠[٣]. وكان هذا الإنجاز يدل على أن إمارة حائل كانت تملك بقية قوة تمكنها من إظهار بعض النشاط على المسرح الإقليمي. ولعل هذا الواقع هو الذي جعل السلطات البريطانية تفكر في الحيز

---

(١) وهيم، المرجع نفسه، ص ص ٢٦٨ – ٢٦٩.

(٢) صلاح الدين المختار، تاريخ المملكة العربية السعودية، بيروت، د.ت.، ج٢، ص ٢٢١.

(٣) صلاح الدين المختار، المرجع نفسه.

الذي يمكن إفراده لحائل في مجمل خططها للمنطقة بعد الحرب. والواقع أن ذلك التفكير قد ابتدأ قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى ولكنه لم يتمخض عن قرار محدد حتى نهاية الحرب حيث أملت الأهمية الاستراتيجية لحائل على وزارة الخارجية البريطانية اقتراح تقديم إعانة مالية سنوية لابن رشيد. وجاءت استعادته للجوف لتعطي دفعة لذلك الاقتراح حتى أوشك على التنفيذ حين أخذت الوزارات البريطانية المعنية تتداول فيما بينها حول أي منها سوف يدفع تلك الإعانة. ولكن حدث ما غير الموقف برمته، إذ أغتيل أمير حائل سعود بن عبد العزيز الرشيد في أبريل ١٩٢٠ على يد أحد أقاربه. وبعد أن قتل الجاني، أسند عرش الإمارة إلى عبد الله بن متعب الرشيد. وكان صبيا في الثالثة عشرة من عمره، فعين له أحد أقاربه وصيا ومديرا[1].

كان الوكيل السياسي البريطاني في البحرين يرصد تلك التطورات داخل الجزيرة العربية وأعد عنها مذكرة طويلة تحت عنوان "مذكرة عن الوضع السياسي في نجد عند نهاية يوليو ١٩٢٠". وقد بدأ الوكيل مذكرته بالقول :- "لا أود لحظة واحدة أن افترض أن استقرائي للأحداث صحيح. إنني فقط أعطيكم الاستنتاجات التي توصلت إليها من الاتصال الوثيق مع عرب من شتى الأصناف في البحرين. أستطيع ذكر حقيقة واحدة وهي أن الحصول هنا على أخبار نجد وشؤون بلاد العرب الداخلية أشبه ما يكون باستنباط الماء من الصخر. إن كل شخص يبدو مهتما بمنع المرء من الحصول على الأخبار الاعتيادية، فابن سعود مثلا لا يرغب أن تصلني أية أخبار إلا عن طريقه مباشرة. واعتقد بأنه

(١) الريحاني، المرجع نفسه، ص ٢٦٨.

متيقن بصورة جازمة بأننا، نحن الأنكليز، نصوغ سياستنا بناء على أول مقدار من الأموال نحصل عليه". وتطرق الوكيل بعد ذلك لتحديد المصادر التي اعتمد عليها للحصول على معلوماته، فذكر أنه استمدها من عبد العزيز القصيبي وكيل ابن سعود فى البحرين، وفهد البسام وهو تاجر غير ميال لابن سعود يمارس التجارة في القصيم والاحساء، ومحمد الحواس وهو أيضا يزاول التجارة في الرياض والاحساء، علاوة على البدو الذين يزورون البحرين وهم من قبائل بني هاجر وبني خالد والدواسر وقبائل أخرى.

وانتقل الوكيل بعد ذلك للحديث عن الوضع السياسي في نجد فقال:- "أن التغير في الجو السياسي لنجد ليس بعيدا عن الحسبان، وربما تعتبر بدايته في المقام الأول مع اغتيال سعود الرشيد منذ بعض الوقت ومحاولات ابن سعود وضع حائل وشمر تحت سيادته وما نتج عن ذلك من أحداث جرت مؤخرا على وجه الخصوص. سأحاول أدناه إعادة بناء ووصف ما حدث بالضبط في القصص والروايات المتناقضة، معطيا تعليقا نهائيا حول السبل المتاحة أمام ابن سعود وإمكانية حدوث انفجار كبير مفاجئ في بلاد العرب في المستقبل القريب. حين أغتيل أمير حائل الراحل في أبريل الماضي أخبر ابن سعود حكومة جلالته بأنه عقد اتفاقية مع شمر مفادها السماح لهم بإدارة شؤونهم الداخلية بينما يتولى ابن سعود إدارة علاقاتهم الخارجية، علاوة على أن بدو شمر سوف يكونون تحت سيطرته الشخصية. وكان ذلك صحيحا بقدر ما، ولكن حقائق معينة جرى كتمانها. فبقدر ما يستطيع المرء أن يتثبت كانت الوقائع الصحيحة للمفاوضات شيئا كالآتي :-

عندما تولى الأمير الجديد عبد الله بن متعب الرشيد السلطة وعرف ابن سعود أنه مجرد صبي فقد صمم على الاستفادة من ذلك الواقع لفرض إرادته على حائل وجبل شمر. وقد عاونه في خططه قاضي حائل والسكان الخمسة الرئيسيون لتلك المدينة، إذ كتبوا له رسالة عاجلة يدعونه فيها للسيطرة على حائل وتولى حكمها.

فارتكب ابن سعود هنا غلطتين كما يبدو حين اعتقد أن مناصريه في حائل أقوى مما هم في الواقع، وحين لم يتوقع أن يسند عقاب بن عجل من قبيلة عبده الأمير الفتى بإخلاص كامل كما ظهر فيما بعد سيما وأن الأخير كان ابنا لزوجة زنجية وليس سليلا نقيا لعائلة آل رشيد. ولكن ما انتهت إليه الأمور هو أن الأمير الجديد أسند في الحال من قبل الشيخ عقاب والمدعو ابن زويمل سنجار[١] المواطن الرئيسي في مدينة حائل. كانت حركة عقاب الأولى هي الزحف نحو حائل واتخاذ مواقعه هناك مع ابن زويمل. تبرأت جماعة عقاب في الحال من أعمال أولئك السكان الذين والوا ابن سعود وأرسلوا مندوبين للرياض ووقعوا المعاهدة التي نقل ابن سعود خبرها للحكومة..."[٢].

يحسن التوقف هنا عن مواصلة قراءة ما كتبه الوكيل للتعرف على ما أوردته المصادر الأخرى عن تلك الاتفاقية. وأول تلك المصادر هو ابن سعود نفسه الذي كتب للوكيل السياسي البريطاني في البحرين رسالة مؤرخة في السادس والعشرين من شوال ١٣٣٨هـ / السادس عشر من مايو ١٩٢٠م، وجاء فيها :- "فيما يخص ابن رشيد اخبرتك

(١) وردت هكذا في الأصل، ولعل المقصود هو أنه ابن زويمل من "سنجارة" في شمر.

(2) IOR, R/15/5/25, " Note on the Political Situation Nejed at end of July 1920."

سابقا عن الشروط التي فرضتها عليهم، وحتى تاريخه لم تقبل تلك الشروط بصورة إجماعية من أهل حائل وجبل شمر. انقسم أهالي حائل ثلاثة أثلاث، فالثلثان الأولان موافقان تماما على شروطي التي ارسلتها لك سابقا، والثلث الباقي معارض، ولكن ليست له أهمية كبيرة.

أما شمر (البدو) فأنهم مؤيدون لي تماما"[١] ويقر ابن سعود هنا بأن الأمر بينه وبين ابن رشيد لم يتعد طور المفاوضات وحسب، فليست هناك اتفاقية موقعة بصورة نهائية، إلا إذا كانت قد وقعت بعد تاريخ هذه الرسالة، أو أن إقرار أكثرية سكان حائل لها يجعلها بحكم الاتفاقية. ويلزم التحفظ هنا عند الحديث عن تلك "الأكثرية" لأن من الطبيعي أن يميل ابن سعود إلى تضخيم عدد مناصريه من حائل أمام البريطانيين.

أما الشروط الواردة في الاتفاقية التي انصب عليها رفض الرافضين في حائل فلم يحددها ابن سعود في رسالته أعلاه. ولكن الوكيل السياسي البريطاني في البحرين ذكر في أواسط يونيو ١٩٢٠ أن ابن سعود طلب من آل رشيد التخلي عن حق "الوجه" أو "التسيار" الذي يتمتعون به بين قبائل نجد. وقد أدى هذا الطلب إلى استياء عائلة آل رشيد فقررت إلغاء الاتفاقية التي عقدت بينها وبين ابن سعود[٢]. ويلاحظ هنا إصرار الوكيل على تسمية ما جرى في مفاوضات بين الجانبين "اتفاقية" ولم يكن الخلاف على إبطال حق "الوجه" هو السبب الوحيد للرفض، بل كانت هناك أسباب أخرى كشفتها رسالة بعثها أمير

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 17329/912 of 10 – 6 – 1920, Translation of a letter dated 26th Shaban 1338 (16th May 1920) from Bin Saud to the Pol. Ag., Bahrain.

(2) IOR, L/P+S/10/925, No. 163. C, Pol. Ag. Bahrain, to Civel Com., Baghdad, dated, 14 – 6 – 1920

حائل عبد الله المتعب الرشيد الى شيخ الكويت في رمضان ١٣٣٨/أبريل ١٩٢٠، وجاء فيها :- "اشترط علينا مع جملة مواد الصلح عداوتكم تحت مادة أن العدو واحد والصديق واحد، قصده قطع العلايق مع سمو الشريف حسين ومع جنابكم وباقي الأصدقاء والأحباب، فلما فهمنا قصده ودفعناه تهدد أطرافنا ورعايانا بالغارات..."[١] وقد لا يكون طلب ابن سعود من حائل هو النص على عداوة الكويت بالذات على الرغم مما كان بينه وبين شيخها سالم بن مبارك من خلاف شديد حينئذ. ولكنه قصد أن تلتزم إمارة حائل في مواقفها تجاه الأطراف المحلية الأخرى بمواقف الرياض. وهذا يعني أن الخلاف، حسب رواية أميز حائل، قد انصب على كيفية تسيير السياسة الخارجية للإمارة.

وبالتدقيق في الرواية التي أوردها الوكيل السياسي في البحرين يمكن الوصول إلى النتيجة ذاتها. إذ أن حق "الوجه" هو مظهر من مظاهر السياسة الخارجية يكون لآل رشيد بمقتضاه حق فرض حمايتهم على أشخاص آخرين يمرون في اراضي القبائل الأخرى. ويستنتج من كل هذا أن الأمر لم يتعد طور المفاوضات التي رفض فيها آل رشيد ومن شايعهم البند المتعلق بالسياسة الخارجية من الاتفاقية المقترحة. وكان ذلك البند أساسيا، إذا لا خلاف بين الجانبين على البند الآخر للاتفاقية وهو تولي آل رشيد لشؤونهم الداخلية.

وتجدر العودة الآن لمتابعة معلومات مذكرة الوكيل السياسي في

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 49. C, Political, Kuwaite, to Civcom, Baghdad, dated 5 – 7 – 1920.

البحرين عما جرى في حائل بعد تولي عقاب بن عجل وابن زويمل قيادة التيار المعارض للاتفاقية. إذ تقول المذكرة :- "عندما سمع ابن سعود بحدوث ذلك أرسل شخصا ثقة ذا أهمية إلى حائل مباشرة ليزيل ما اعتقده سوء تفاهم وليشرح الأمور بالتفصيل للشيخ عقاب وجماعة آل رشيد. ودعم ابن سعود رسوله بعرض للقوة على شكل جيش صغير من الأخوان تعداده عشرة آلاف رجل تحت قيادة ولده سعود.

تحرك ذلك الجيش الذي كان في القصيم سلفا بالتزامن تقريبا مع وصول رسول ابن سعود إلى حائل، متقدما بشكل مكثف إلى بلدة الطرفية الحدودية. ويبدو أن الأوامر التي كانت لدى سعود هي أن يبادر للهجوم إذا شعر أن الوضع في حائل غدا غير ملائم. ولكن أخبار تحركات هذه القوة كانت قد نقلت بدقة للشيخ عقاب بن عجل. ونظرا لشك الأخير في أن مكيدة ما كانت تدبر فقد قرر أن الموقف الأصوب هو العداء مع ابن سعود على الفور. لذلك أمر في الحال بأن يحضر أمامه القاضي والسكان الخمسة البارزون في حائل، الذين كان تعاطفهم مع ابن سعود معروفا، ونفذ فيهم حكم الإعدام وسطالسوق بحضور رسول ابن سعود، ثم سمح للرسول نفسه بالعودة سالما. وبمجرد عودة الرسول إلى الطرفية وروايته ما حدث في حائل للشاب سعود شن الاخير ثلاث هجمات في أراضي ابن رشيد.

ومضى الوكيل في مذكرته يقول :- "وصلت الهجمة الأولى بقيادة الشاب سعود إلى البقعة على بعد ثلاثين ميلا شمال شرق حائل. فغنمت عددا كبيرا من الأبل والضأن وعادت إلى الطرفية دون أية خسارة.

وأغارت الهجمة الثانية بقيادة ابن ربيعان من عتيبة وفيصل الدويش من مطير حول حائل ذاتها ثم هاجمت سدر شمال البلدة. وقد وجد القائدان أن قواتهما مرصودة ومعرضة للتطويق فتراجعا دون خسارة أيضا، ولكن دون أن ينجزا شيئا أكثر من الاستيلاء على عدد قليل من الإبل والضأن.

أما الهجمة الثالثة فتحركت تحت قيادة ابن حميد من قحطان عتيبة[1] إلى الشعبية على بعد حوالي خمسة وسبعين ميلا شمال بريدة . كان الأخوان هم الفائزين في البداية، إذ خاضوا معركة قصيرة عنيفة، واستولوا على غنائم كثيرة. وحين انقلبت القوة راجعة هوجمت من كل جوانبها من قبل الخيالة والهجانة الشمريين بجوار قصيبة. كانت قوة الشمريين متفوقة جدا، وخلال وقت قصير فقد انسحاب ابن حميد طبيعته المنظمة وانقلب إلى هزيمة منكرة. ثم التخلي عن كل الغنائم المستولى عليها وأصبح هدف كل شخص أن ينجو بنفسه. استمرت المطاردة حتى الطرفية تقريبا حيث عادت قوات ابن رشيد أدراجها. روى أن قوات ابن حميد خسرت الفين وخمسمائة رجل خلال الانسحاب، ويحتمل أن ذلك مبالغ فيه، والرقم الأكثر ترجيحا هو خمسمائة. قوبلت القوة المهزومة في الطرفية من قبل سعود أولا ثم من قبل ابن ربيعان وفيصل الدويش تاليا. وانسحب الجميع بعدها نحو الجنوب تاركين بريدة على يمينهم، لأنهم خذروا من قبل ابن معمر حاكم ابن سعود هناك بأن ظهورهم في المدينة يعد تصرفا غير حكيم حيث ستتهمك القوة المهزومة بالقيل والقال بالتأكيد. بقي الأمير ابن

(١) كذا في الأصل. ومن المعروف ان ابن حميد شيخ قبيلة عتيبة وهي غير قبيلة قحطان.

رشيد وعقاب بن عجل وابن زويمل كلهم في حائل خلال الهجمات الثلاث، ومن الخطأ القول بأنهم شاركوا في الهجوم على جماعة ابن حميد"[١].

ومن المفيد التوقف مرة أخرى عن متابعة سرد الوكيل السياسي في البحرين للأحداث من أجل التعرف على أصداء تلك الهزيمة كما تردد في المنطقة. فقد جاءت تلك الأصداء مشوشة بروايات مختلفة يستشف القارئ منها كيفية تناقل الأخبار في المنطقة خلال تلك الفترة التي انعدمت فيها وسائل الاتصال الحديثة. وقد كانت الكويت حينئذ مركزا نشطا لتداول أخبار بلاد العرب الداخلية. فكتب الوكيل السياسي البريطاني فيها عن تلك الحادثة قائلا :- "رواية جلبها رجال ابن طواله، ووثقت هنا، تفيد بأن في حوالي الثامن عشر من يونيو هاجمت قوة كبيرة من رجال ابن سعود منطلقة من قصيبة جماعة من شمر في الشعيبة على بعد خمسة وسبعين ميلا شمال غرب قصيبة. تلقى ابن رشيد الذي كان حينذاك في عدوة على بعد حوالي عشرين ميلا من حائل معلومات مسبقة فأمر شمر في الشعيبة بإبعاد خيامهم وانتظار الهجوم. حرك هو نفسه كل قوته لمساعدتهم ووصل الشعيبة في الوقت المناسب لشن هجوم معاكس على قوة ابن سعود التي هزمت وطوردت تسع ساعات وأنزلت بها خسائر فادحة جدا. روى أيضا أن أهل بريدة رفضوا السماح للقوة المهزومة بدخول بلدتهم. ولكن هذه المعلومة الأخيرة لم توثق"[٢].

---

(1) IOR, R/15/5/25. "Note - - - July 1920.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 46 - C, Political, Kuwaite, to Civcom, Baghdad, dated 27 – 6 – 1920.

أما في بلدة سوق الشيوخ الوثيقة الصلة بالبادية فقد دون معاون الضابط السياسي البريطاني الأخبار التي سمعها عما حدث كما يلي :- "ثقة مطلع على أمور الشامية يقول إنه منذ حوالي خمسة عشر يوما أثار الأخوان نزاعا حول الاستقاء من بعض الآبار مع هجانة لابن رشيد كانوا متجهين إلى الكويت. قتل ثلاثمائة من الأخوان وثمانون من اتباع ابن رشيد. يروى الآن ان ابن سعود وابن رشيد كليهما أقسما بالوصول إلى حائل والرياض على التوالي بعد أن فشلت المفاوضات التي جرت بينهما عقب الحادث ..."(١) وعاد معاون الضابط السياسي في سوق الشيوخ بعد أيام ليقول أنه زار الخميسية والتقى هناك بابن خميس وضاري بن طواله اللذين أكدا له أخبار الصدام، وأوضحا له أن ابن سعود قد قاصى بالفعل من نكسة في عملية صغيرة في الشعيبة قرب حائل. وأعرب الرجلان عن اعتقادهما بأن الصراع بين حائل والرياض قد أصبح وشيكا"(٢).

وكانت المعلومات المتداولة في البحرين حول الحادثة كما سجلها في حينه الوكيل السياسي البريطاني هناك تقول :- "رسالة لشيخ البحرين من مصدر نجدي وصف بأنه موثوق اعطت الرواية التالية عن الإشاعات الأخيرة حول حادثة شمر والأخوان. تبدأ الرواية بالقول بأنه في حوالي العاشر من يونيو هاجم ابن ربيعان شيخ عتيبة مع الأخوان فرعين من قبيلتي حرب وهتين(٣) في بيضاء نثل Baidha Nathil على بعد ستين ميلا غرب حائل فاستولوا على إبلهم كلها وكانت

(1) IOR, R/15/5/25, No. 1364. A.P.O., Suk, to P.o., Nasirigah, dated 23 – 6 – 1920.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 1391, C, A.P.O., Suk, to C.C., Baghdad, dated 26 – 6 – 1920.

(٣) كذا في الأصل، والأرجح أن المقصود هو "هتيم" لا "هتين".

الخسائر من الجانبين كليهما حوالي خمسمائة قتيل. شنت قبيلة حرب كلها فيما بعد هجوما معاكسا على مخيم لشمر انضموا مؤخرا إلى الأخوان في القرعة على بعد عشرين ميلا غرب قصيبية. كانت غارة حرب ناجحة. وابيد الأخوان الشمريون عمليا. ما جاء أعلاه أكدته مصادر بدوية في اليابسة، [يقصد من داخل بلاد العرب باعتبار البحرين جزيرة]. كتب لي ابن سعود من الرياض في الرابع والعشرين من يونيو حول قضية الكويت دون أن يذكر أي شيء غير عادي. الوقت الحاضر هو الفصل المألوف للغزوات البدوية وأرى أن يعار اهتمام قليل لقصص القتال الذى هو فحسب غارات مألوفة بصورة واضحة. طبقا للقصيبي فأن العلاقات بين ابن سعود وابن رشيد ودية"[1].

أن استعراض الروايات المارة أعلاه ومقارنتها بالرواية الأولى التي أوردتها مذكرة الوكيل السياسي في البحرين يظهر أن تلك الروايات حوت الكثير من المعلومات المشوهة عما حدث، فرواية الكويت تجعل ابن رشيد نفسه قائدا للهجوم المعاكس. أما الروايتان الواردتان من سوق الشيوخ والبحرين فكانتا أكثر تشويقا، إذ اعتبرت رواية سوق الشيوخ أن ما حدث نزاع عرضي بين سريتين من الأخوان وشمر من جراء الخلاف على السقاية من بعض الآبار في حين اعتبرت رواية البحرين النزاع صداما وقع بين الأخوان وقبيلة حرب لا بينهم وبين اتباع ابن رشيد، وان رد فعل قبيلة حرب كان مهاجمة بدو من قبيلة شمر انشقوا على ابن رشيد وانضموا للأخوان. ويجدر التنبيه هنا إلى أن الوكيل السياسي في الكويت أكد صحة هذه الرواية الأخيرة طبقا لما أخبره به

(1) IOR, R/15/5/25, No. 173 - C, Political, Bahrain, to Civil Com., Baghdad, dated 1 – 7 – 1920.

النفيس وكيل ابن سعود في الكويت ولكنه اعتبر وقوعه سابقا للأحداث التي جرت في الشعيبة وأسفرت عن هزيمة قوات ابن سعود[1]. ويلفت النظر هنا أن ابن سعود في رسالته التي ذكرها أعلاه الوكيل السياسي في البحرين لم يشر لتلك الأحداث من قريب أو بعيد مع أن ارسال تلك الرسالة جاء بعد وقوعها. ويعكس هذا رغبته بعدم اطلاع الجانب البريطاني على أخباره غير الملائمة. ويلاحظ أيضا أن القصيبي، وكيل ابن سعود في البحرين، ذكر أن علاقات ابن سعود وابن رشيد كانت ودية حينئذ. ويظهر ذلك إما جهله بالأمور، وهو مستبعد، او رغبته في نفي هزيمة قوات سيده بالرغم أن علاقات الطرفين ودية مما ينفي ضمنا أية إمكانية لوقوع صدام. ولكن ابن سعود نفسه لم يلبث أن أقر للبريطانيين بوقوع هجوم من جانب قبيلة شمر على اتباعه دون أن يتطرق لابعاد ذلك الهجوم أو نتائجه. فقد كتب إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين رسالة مؤرخة في الثامن والعشرين من يونيو بين فيها طيش ابن رشيد وعدم قدرته على كبح بعض أفخاذ قبيلة شمر عن مهاجمة رعاياه. وقال أنه اضطر لارسال ابنه سعود على رأس قوة كبيرة لمعاقبة المهاجمين، فطاردهم واشتبك معهم على بعد ست ساعات من حائل حيث سحقهم بشدة واستعاد منهم كل الغنائم المنهوبة[2].

ولعل من المجدي هنا الرجوع إلى مذكرة الوكيل السياسي البريطاني في البحرين لرؤية ما ترتب على تلك الأحداث الدامية من تحركات على الصعيد السياسي. فقد جاء في تلك المذكرة ما يلي :-

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 47 - C, Political, Kuwaite, to Civcom, Baghdad, dated 4 – 7– 1920.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 187 - C, Political, Bahrain, to Political, Kuwait, dated 8 – 7– 1920.

"بعد الأحداث أعلاه مباشرة أرسل ابن رشيد ومستشاروه رسائل لشمر كلها يحذرونها من عدوان متوقع من قبل ابن سعود ويدعونها للتجمع في مراكز معينة. أحد أوائل الناس الذين أرسلوا يهنئون ابن رشيد بانتصاره على ابن حميد كان سالم شيخ الكويت لأنه لازال متألما من هزيمته على أيدي مطير في جريه (قرية) في مايو[1]، وكان يبحث حوله بصورة مسبقة عن خلفاء يلجأ إليهم وقت الحاجة. لقد وعد بالمساعدة سلفا من الجهات التالية ضد ابن سعود و "اخوانه" إذا ما هجموا عليه :-

١- الظفير تحت قيادة ابن سويط.

٢- الشيخ إبراهيم بن زبير[2].

٣- خزعل شيخ المحمرة.

٤- سد طالب باشا في البصرة.

وانضم ابن رشيد الآن لهذه المجموعة عاقدا اتفاقية دفاعية هجومية مع الشيخ سالم. ويروى أيضا أن الشيخ سالم وابن رشيد كليهما قد كتبا رسائل للملك حسين يخبرانه فيها بالأحداث ويطلبان منه الانضمام للجامعة المضادة للأخوان. تظهر الأنباء الأكثر حداثة ايضا أن العيدة Al-Aide والفقير Faqir في مجموعة مدائن صالح (عنزة) زاروا حائل وعرضوا الانضمام للاتحاد ضد ابن سعود. أخبرت عرضا، على الرغم من أنني غير ميال لتصديق الرواية، بأن ابن سعود استولى على

(١) حول تلك الحادثة انظر د. خالد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص ص ٢١٨ ــ ٢١٩.

(٢) كذا في الأصل، وهو خطأ واضح فالمقصود هو إبراهيم بن عبد الله آل ابراهيم شيخ الزبير.

رسالة أخرى مرسلة من الشيخ سالم إلى الملك حسين تفضح كل المؤامرة المضادة لابن سعود الذي لا يقول شيئا عن تلك الرسالة حاليا خدمة لأهدافه الخاصة كما يقال. أن الروايات اعلاه على الرغم من أنها استمدت من شاهد موثوق تماما إلا أنها ربما كانت صحيحة أو صحيحة جزئيا فقط. إذ تعلم المرء بالتجربة أن يعامل كل أخبار عربية كهذه بأكبر الحذر. أن مخبري الرئيسي هو فهد البسام، وهو قصيمي وأظن انه لحد ما ضد ابن سعود أكثر مما هو لجانبه"[١].

ولقد كان تشكك الوكيل هذا مبررا حول حقيقة الاتحاد أو الجامعة الموجهة ضد ابن سعود على الرغم من تواتر الروايات عنها في أنحاء المنطقة حينئذ. فمعاون الضابط السياسي في سوق الشيوخ نقل عن مصادره القول بأن الكويت وقبيلة الظفير وشيخ الزبير كانوا يساعدون ابن رشيد[٢]. والوكيل السياسي في البحرين كتب :- "اعطاني الشيخ عبد الله، الابن الأكبر للشيخ عيسى شيخ البحرين، المعلومات التالية التي أرسلها لكم لأهميتها. وقد أكدت الرواية نفسها من قبل ثلاثة مسافرين موسرين من الكويت، ومفادها أن الشيخ سالم شيخ الكويت قدم عروضا سرية إلى شيخ المحمرة والسيد طالب من البصرة وابن رشيد بهدف الحصول على تأييدهم ضد ابن سعود. فوعده السيد طالب وشيخ المحمرة بالتأييد، وعربا لذلك التأييد ارسل الأول عشرة من الخيل وأرسل الثاني سبعين منها هدية للشيخ سالم. ولم تعرف طبيعة التأييد الموعود. دعا الشيخ سالم ايضا ضاري بن طواله للقدوم إلى أراضي

(1) IOR, R/15/5/25, "Note - - - July 1920.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 1364, - - - 23 – 6 – 1920.

الكويت والعسكرة بصحبة علي ابن خليفة ابن اخ الشيخ سالم في الجهرة كإجراء احتياطى وقد وافق ضارى بن طوالة على ذلك. وأضاف الشيخ عبد الله مبينا أن هناك دلائل على أن شريف مكة وابن رشيد وسالما شيخ الكويت يتراسلون مع بعضهم، والهدف العام هو كبح قوة ابن سعود المتزايدة، أما الهدف المباشر فهو منعه من الذهاب إلى مكة عن طريق التهديدات بالحرب والغزو..."[1].

ويبدو ما ورد اعلاه عن "العروض السرية" التي قدمها سالم الصباح للسيد طالب والشيخ خزعل وابن رشيد غامضا. إذ لم يرد في المصادر المتاحة أي شيء محدد عن ماهية تلك العروض، وأن يكن الأمر بالنسبة إلى طالب وخزعل ليس بحاجة إلى عروض سرية حيث أن صلة هذين الرجلين بآل صباح وارتباطهم الوثيق بهم منذ أيام الشيخ مبارك معروفة للملأ. أما عن ابن رشيد فهناك ما يثبت أنه هو الذي بادر إلى الاتصال بشيخ الكويت من أجل تنسيق مواقفهما وليس العكس. فقد كتب إليه الرسالة التالية التي يفضل إيراد نصها على فيه من أخطاء لغوية وإملائية لتعريف القارئ بأسلوب التراسل بين حكام المنطقة حينئذ. وجاء في تلك الرسالة :- "بعد مزيد السلام واوجب الاحترام اولا سؤال الخاطر العاطر لازال مسرورا وعنا من فضل الله تعالى على ما تحب ويحب كل صديق لاسيما الثبات على محبتكم وصداقتكم المتأكدات [كذا] بالروابط الصادقة يشهد بها الخص والعام العدو والصديق حتى حسدنا الناس نحن وانتم عليها وبثو [كذا] شراك أسباب الامناوات [كذا] وقطع العلايق ومن أشد الناس في ذلك رهين معروفكم

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 213 - C, Pol, Ag., Bahrain, to Civil Com., Baghdad, dated 25-7-1920

الذي لم يراعي [كذا] حق النعمة ولم يقيم بشكرها بـــا، بـــدل شـــكرها بالكفران نعوذ بالله من الخزي والخذلان وما كفاه ذلـــك بقلبـــه حتـــى أخرجه على لسان قلمه بأن اشترط علينا مع جملة مواد الصلح عداوتكم تحت مادة أن العدو واحد والصديق واحد قصده قطع العلايق مع ســمو الشريف حسين ومع جنابكم وباقي الأصدقاء والأحباب فلما فهمنا قصده ودفعناه تهدد أطرافنا ورعايانا بالغارات والإيحاشات [كذا] التـــي فـــي جملتها بتاريخه أغار ولده وأخوانه على الشعيبة وبيـــن فيـــها العـــداوة ليدرك بها مرامه الفاسد فينا وفيكم لا سمح الله ولهذا طرشنا [ارســـلنا] لكم رجاجيلنا بها لمكتوب [بهذا المكتوب] لتعلموا ما عندنا مـــن تـــأكد المحبة وبيان العداوة لهذا الطاغي الباغي ورجا التساعد علـــى عكـــس مرامه وهدم سلطانه قبل اتساع الخرق علينا وعليكم فـــأن رأيتـــم رأي [كذا] فعليا عاجلا فهذا وقت الفرصة اشعرونا سريعا حيث أننا سعينا في تدبير عرباننا وتنظيم أحوالنا ولا تعدوننا إلا قاضبناه [اشـــتبكنا معـــه] وهذولا [هؤلاء] عرباننا ابن طواله وعربانه قدامكم بينا لهم يتوجـــهون إلينا ونسئل [كذا] الله أن يعيننا واياكم وأن يمدنا بعنايته الربانية أنه على كل شيء قدير وصلى الله علي محمد وآله وصحبه وســـلم ... ومـــن طرف عرباننا إلي [الذين] بطرفكم تروا [ترى] كل شيء منكم ينشـــطهم من قول وفعل وبالله ثم بكم الكفاية والإشارة كفاية"[1].

ويظهر التدقيق في هذه الرسالة حرص ابن رشيد الواضـــح علـــى إيغار صدر الشيخ سالم ضد ابن سعود وحثه له علـــى القيـــام بعمـــل مشترك ضده قبل فوات الأوان. ورد سالم على ابـــن رشـــيد برســـالة

---

(1) IOR, R/15/5/25, Enclosed in No. 49. C, - - - 5 – 7 – 1920.

جوابية نقلت الوثائق البريطانية نص ترجمتها الانكليزية وجاء فيها :-

"استلمت رسالتك بأيدي رجاجيلك عبد الله ورفاقه وسعدت كثيرا بقراءتي ما قلته عن مودتك وصداقتك التي أنا ممتن لها جدا ومقدر للغاية صداقتك الحقة والمخلصة. تقول أن بعض الناس حسدونا على الصداقة القائمة بيننا وحاولوا أن يثيروا الضغينة ويدمروا العلاقات وأن ابن سعود كان هو الأكثر عنفا بين هؤلاء وانه جعل شرطا من شروط السلام الذي عرضه عليك أن تقطع علاقاتك مع الشريف حسين ومعي. وتقول انك حين فهمت قصده فرفضته بدأ بمهاجمة رعاياك، وأنك طبقا لذلك ارسلت رجاجليك لتجعلني اعرف صداقتك الحقة. إنني اشكرك جدا وستزداد ان شاء الله روابط صداقتنا وتستمر وادعوا الله أن لا تتحقق رغبة الحاسدين. أخي إذا كان تصرف ابن سعود بذلك الشكل فأن الله سيحمي من هو على حق. إنني بخير والحمد الله وادعوا الله أن يمنحنا التوفيق والأمان وأن تكون عاقبتنا معا جيدة. ان الله بعنايته الربانية سيحبط كل خصم. إنني مرسل لك رجالي ورجالك عبد الله الذي سيخبرك عن كل شيء دون ريب...(١).

وبقدر ما كان الحماس للتعاون ظاهرا بقوة في رسالة ابن رشيد السالفة الذكر كان الطابع المميز لرسالة سالم الجوابية هو التحفظ الواضح. إذ لم يرد فيها رفض أو قبول صريح لفكرة الامير عبد الله المتعب عن العمل المشترك ضد ابن سعود. بل ولم ترد في رسالته أية عبارة حادة تجاه الأخير. والشيء الوحيد الملفت للنظر في الرسالة

---

(1) IOR, L/P+S/10/925, Translation of a letter date the 17th July 1920 From the Shaikh of Kuwait to the Amir Abdullah al Mut'eb or Rashid.

العبارة التي جاءت في ختامها وتقول :- "انني مرسل لك رجالي ورجالك عبد الله الذي سيخبرك عن كل شيء دون ريب". فهل كان ذلك الرسول يحمل استجابة سالم لفكرة العمل المشترك، وهي الاستجابة التي لم يرد تدوينها على الورق ابتغاء السرية وخوفا من وصول الرسالة بشكل ما إلى ابن سعود؟ يبدو ذلك أمرا محتملا وإن كانت الشواهد العملية التي تلت ذلك تدل على أن الطرفين حتى لو اتفقا على فكرة العمل المشترك من حيث المبدأ فأنهما لم يضعا خططا عملية لتنفيذ ذلك. فلقد هاجم فيصل الرويشي والأخوان الكويت في اكتوبر ١٩٢٠ وحصروا الشيخ سالم واتباعه في القصر الأحمر في الجهراء ولم ينقذه من ذلك الحصار إلا التدخل البريطاني الفعال[١]، بينما لم يحرك أحد من "حلفائه" الذين كثرت الروايات عن "حلف" أو "جامعة" بينه وبينهم ساكنا لمساعدته. وكانت المساعدة العملية الوحيدة التي تلقاها هي اشتراك ضاري بن طواله في الدفاع عن الجهراء بعد أن كان المذكور قد وصل للكويت منذ اواخر يوليوا ١٩٢٠[٢]. وقيل كذلك أن شيخ المحمرة أرسل ايضا بعض الاسلحة إلى الكويت. أما بقية "الحلفاء" مثل شيخ الزبير وقبيلة الظفير وشريف مكة والسيد طالب فلم يرد لهم ذكر ابدا. ويدعو كل ذلك للتشكك في حقيقة وجود "حلف" فعلي بالمعنى المفهوم للحلف بين تلك الأطراف ضد ابن سعود. وربما كان كل ما بينها يقتصر على حقدها المشترك على ابن سعود وخوفها، او خوف بعضها على الأقل، منه. فالأحقاد الموروثة والصراع الدموي

---

(١) عن تلك المعركة راجع : السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، ص ٢٤٧ وما بعدها.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 68 - C, Pol, Kuwait, to Civil Com., Baghdad, dated 28-7-1920.

بين حائل والرياض معروف، والخلاف بين شيخ الكويت وابن سعود كان على أشده حول مشاكل السيادة على القبائل والحدود بين الطرفين، والصراع بين الملك حسين وبين ابن سعود كان عنيفا على النفوذ والحدود وقضية الحج، والظفير وشيخ الزبير كانوا متخوفين من تحركات الأخوان قريبا منهم. أما الشيخ خزعل والسيد طالب فلم تكن لهما قضية مباشرة مع ابن سعود، ولكن تأييدهما القديم لآل صباح يجعلهما أقرب إلى تأييد الشيخ سالم عن تأييد ابن سعود. ولكن ذلك الحقد المشترك ضد ابن سعود والتخوف من قوته لم يدفعا تلك الأطراف نحو تشكيل "حلف" ذي صبغة عملية يحدد خطواتها عند مهاجمة ابن سعود لأي منها. إذ كل ما كان بينها هو تبادل رسائل الشكوى من تحركات ابن سعود تفيد في التنفيس عن مشاعر الحقد ولكنها لا تنفع عمليا حين تحين ساعة الجد وينفرد ابن سعود بكاتبيها واحدا إثر الآخر.

ولا تتفق مذكرة الوكيل السياسي البريطاني في البحرين المذكورة سابقا مع هذه النتيجة التي يرجحها التحليل حين تتحدث عن ظهور مجموعتين على الساحة العربية، فتقول :- "ان الاتجاه العام للأخبار العربية اليوم، مع ذلك، ينمو نحو إظهار أن مجموعتين اثنتين تتشكلان بالتدريج. المجموعة الشمالية وتضم حرب وهثيم ومدائن صالح وشمر والظفير والزبير والكويت، وهي ملتفة حول لواء ابن رشيد الخصم القديم لابن سعود. والمجموعة الجنوبية تضم نجدا بالمعنى الضيق

للكلمة ويضمنها الاحساء، والادريسي، وساحل عمان[1].

ويساند الملك حسين المجموعـــة الشـمالية بـالطبع. مــن بيــن المجموعتين توجد القوة المقاتلة الأكبر مع ابن سعود دون شك، بينمـــا يحتمل أن تكون الموارد الأكبر (من الأموال) موجودة لدى المجموعـة الشمالية. وإذا تحولت المنافسة العنيفة إلى حرب غــير حاسـمة فـأن المجموعة الشمالية بأموال من الزبير والكويت والحجــاز يحتمــل أن تفوز. في حين إن فرصة ابن سعود الوحيدة للفوز هي حصوله علـــى نصر عاجل وساحق على ابن رشيد. ولاشك أن الخوف مــن حركـة الأخوان هو الذي قرب المجموعة الشمالية لبعضها.

واستطردت المذكرة تقول :- "هناك من جانب آخر قليل شك فـــي أن هزيمة كبيرة لابن سعود سيكون لها تأثير مشؤوم على حظوظه. إن العرب وخاصة البدو منهم ماهرون في مغادرة السفينة التـــي تغـرق. ولذلك فإن الفوز هو الشيء الوحيد لصالح ابن ســـعود، إذ أن نظامــه العسكري الصارم ليس محبوبا كلية لدى بدو نجد. أن الهزيمة القريبـــة لقائد ابن سعود، ابن حميد، على الرغم من أنها ليست خطيرة بالدرجــة التي أعلنت في الكويت، إلا أنها كانت كافية لإثارة رعب ابن سعود. أن الروايات الاكثر مبالغة عن المعركة نشرت من قبل شمر وشيخ الكويت الذين يعرفون قيمة طرح الأخبار في السوق قبل غيرهم. ولكن الرواية

---

(١) ليس واضحا مبرر إدراج الادريس وساحل عمان ضمن القـــوى المتصارعـة. فالشـريف الإدريسي في مركزه المستقل في جنوب غرب الجزيرة العربية بعيد تمامـــا عــن ســاحة الصراع ولم يرد من الاخبار ما يدل على اشتراكه فيها قولا او عملا. وكذلك الحال إلى حد بعيد بالنسبة لإمارات ساحل عمان.

التي وصلت الكويت مؤخرا حول اضطراب الاحساء واستعدادها للثورة ضد ابن سعود غير صحيحة كليا... إنه يخشى شمر بدون شك ولكنه يستخف بالزبير والكويت والحجاز على الرغم من أنه يعرف كم هي خطيرة مكائدها. وعن حديثه الأخير كله عن مهاجمة الكويت فربما اعتبر من المؤكد إنه لن يفعل شيئا كهذا لأنه يعرف مبدئيا بأنه سيقف ضدنا ويدرك أن حكومة جلالته لا يمكن أن تبقى ساكنة وهي ترى الكويت تصبح مقاطعة لابن سعود.

ليس لدي يقين شخصيا ولكن سوف لن يكون السماح لابن سعود باجتياحها وفتحها مثلما فعل بالاحساء واحدا واحدا من الأدوار الأكثر حكمة للسياسة التي يمكن أن نتبعها. أن ضم الكويت سيحسم للابد قضية ابن رشيد ويجعل ابن سعود العامل المسيطر في بلاد العرب. ولكون ذلك غير مرجح الحدوث فينبغي علينا أن نراقب ونرى أي سبيل يحتمل أن يسلكه ابن سعود. انه سيعمل ويعمل خلال الشهرين او الثلاثة القادمة بالتأكيد.

أن أمام ابن سعود سبيلين متاحين :-

١- حرب معلنة مع ابن رشيد وأصدقائه.

٢- الحصول على بغيته من ابن رشيد بالعمل الدبلوماسي.

ولست أظن أنه سيتبع السبيل الأول لأن الأخطار التي ستهدد سيطرته في حالة هزيمته كبيرة جدا. وهو يعلم كم هي صعبه العمليات الناجحة ضد ابن رشيد في الصيف إذ ليس هناك بئرا وثقب ماء في أي

مكان عبر أراضي ابن رشيد دون أن تكون جماعة من كشافة آل رشيد نازلة عليه. ويترتب على ذلك أن عنصر المفاجأة سيكون غير متاح لابن سعود منذ البدء. ولن تحقق الغارات الاعتيادية له الكثير على الرغم من انها ممكنة دائما، وربما كان ابن رشيد في الحقيقة سيصيب نجاحا أكثر في هذه اللعبة إذ ان شمر كلها متحدة باستثناء أولئك البدو الذين تحولوا إلى "أخوان" وهاجروا جنوبا نحو نجد.

كما ان القصيم من ناحية أخرى ميدان مناسب لمكائد شمر، إذ ليس من لضروري أن يستقبل فيها المغيرون من الشمال باعتبارهم أعداء. والدبلوماسية، أو السبيل الثاني هو ما اعتقد أن ابن سعود سيتبعه. ويجب أن يلاحظ هنا أن ابن سعود يعتبر في قضايا الدبلوماسية لا منافس له في بلاد العرب. فهو قادر في هذا المجال على وضع حلقات حول ابن رشيد. أن اسلوبه الصريح والنزيه والمخلص يستخدم غطاء لواحد من أدهي العقول التي يمكن أن توجد His bluff, candid and open-hearted manner serve to act as cover for one of the astutest brains that can be found.

وأظن أن عنزة هي الوسيلة التي يرجح جدا أن يحاول ابن سعود تحقيق أهدافه بها. والطعم الذي سيعرضه عليها هو "جوف الأمير". فمنذ زمن سحيق في القدم كانت عنزة تطالب بهذه الواحة. وقد جعلتهم سيطرتهم الأخيرة عليها وطردهم على يدي ابن رشيد ناقمين جدا ضد شمر. ان ابن سعود نفسه ينتسب لعنزة، ونداء منه لها لن يذهب أدراج الرياح، فمن الاسهل إذن عرض أراضي الجوف الغنية على عنزة ومساعدتها في الحصول عليها. وسيطلب ابن سعود بالمقابل مجرد الاعتراف به من قبل عنزة باعتباره السيد الأعلى لابن رشيد مع

وجدود حاكم سعودي في حائل. وبمهاجمة شمر من الشمال والجنوب في الوقت نفسه فلن تكون الكويت أو الحجاز ذات عون كبير لحائل. في الحقيقة أنه في حرب كهذه يمكن ايقاف تجارة الكويت مع حائل على الفور بمجرد قطع الطرق التجارية بينهما حيث ستكون مطير والعجمان ذات فائدة لهذا الغرض.

"تثور هنا قضية هل من مصلحة حكومة جلالته رؤية ابن رشيد تابعا لنجد إلى الأبد؟ أظن ان الأمر سيكون كذلك. فبلاد العرب المركزية إذا كانت قوية تحت سيطرة ابن سعود، وعلى علاقات ودية بشكل جازم، فأنها، كما أتجرأ على الظن، ستكون ملائمة للسياسة البريطانية. انها ستحل الكثير من الصعاب وستجعل، بصورة عرضية، اعتماد كل دول الساحل الصغيرة علينا أكثر بكثير جدا مما هو عليه الآن، إذ أن الكويت والبحرين والساحل المتهادن وعمان واليمن والحجاز وحتى سوريا ستعيش كلها في خوف من جارها القوى وستصبح أكثر انقيادا لرغبات حكومة جلالته مما هي اليوم. أن كل تلك الدول في الوقت الراهن لديها - إن جاز التعبير - غرور نتيجة للحرب العظمى والحديث الكثير عن حقوق الأمم الصغيرة. فهي بدون انضباط وتريد دائما أن تضل عن سواء السبيل، ولكنها ستكون الأولى في الصراخ إذا كان لها جار قوي يهددها. تدرك تلك الدول جيدا في الوقت الحاضر أنه بوجود ابن رشيد القوي فأن ابن سعود سيفكر مرتين قبل ارسال قوة كبيرة لأية مسافة خارج نجد. . . . .

لذا فهي كالثعلب تشعر بأنها في أمان باقتضاء آثار الأسد، فتشعر

بأنها آمنة من الانتقام بصورة ملائمة. أن الدول الساحلية لذلك سترحب دائما أكثر من أي شيء آخر بحرب مدمرة غير حاسمة بين ابن سعود وابن رشيد، فطريقة العربي للبقاء هي وضع جيرانه الأقوياء ضد بعضهم البعض، أما إذا لم يستطع فعل ذلك فيجب أن يحصل على قوة حامية قوية يستند عليها. وإذا ما اصبح ابن سعود قويا بمعنى الكلمة في بلاد العرب فأن النفوذ البريطاني سيزداد بصورة هائلة بين الدول الساحلية. أما إذا كان على ابن سعود وابن رشيد مواصلة حرب مستمرة دون نهاية يضعف من جرائها الاثنان معا بصورة كبيرة فإن النتيجة الأولى ستتمثل في نزعة للتخلص من النفوذ والتدخل البريطاني بين الدول الساحلية.

ولا يجب تناسي ان كل تلك الدول الساحلية الصغيرة تواقة لزيادة أراضيها الداخلية، فالشيخ عبد الله ابن حاكم البحرين الشيخ عيسى أفصح مؤخرا عما يكنه فؤاده بصورة دقيقة فيما يتعلق بالبحرين، ففي مناقشة خاصة تفجع على حقيقة ان الترك لم يكونوا يملكون الاحساء كما كانوا يملكون الحجاز في بداية الحرب العظمى. لأن البحرين عندها، حسب قوله، كانت ستحصل على المساعدة الانكليزية وتجتاح الاحساء كلها وتصبح سيدة الساحل الغربي من الكويت إلى عمان المتصالحة (ابو ظبي). وعندما حدث أن لاحظت (ماذا عن ابن سعود وحاكم قطر؟) قال أنهما لن يحسب لهما حساب بوجود قواتكم خلفنا، إذ كانت قطر ستصبح لنا على الفور، بينما كنا سنضطركم لحرب معلنة مع ابن سعود. واستمر يقول أن أهل الاحساء كانوا سينادون بالشيخ عيسى ملكا وكان سيصبح أفضل كثيرا لهم من ابن سعود على أية حال".

ومضى الوكيل فى مذكرته قائلا :- "إذا كانت حكومة جلالته تريد حقا مساعدة ابن سعود كي يصبح قويا بمعنى الكلمة وترغب بشكل نهائي باسناده لوضع ابن رشيد تحت سلطته فمن الطبيعي أن تكون الوسيلة الأسرع والاسهل لتحقيق تلك الغاية هي إعلان الحصار ضد ابن رشيد من النجف في العراق نزولا إلى الكويت شاملا المدينتين كليهما. أن هذا الحصار مصحوبا بتهديد بالحرب من جانب ابن سعود سوف يجبر ابن رشيد خلال ثلاثة شهور على قبول أية شروط تفرض عليه.

ولكن الكويت يجب أن يسيطر عليها البريطانيون مؤقتا لأغراض الحصار، لأن أي حصار محلي يديره الشيخ سالم سيكون مهزلة. ومن جانب آخر إذا كان وجود ابن رشيد قوى ضروريا لسياسة حكومة جلالته فأن الشيء الوحيد الذي يجب عمله عندها هو اسناد ابن سعود بثبات بالطريقة نفسها التي كان بها الترك يسندون ابن رشيد باستمرار[1]. ومهما يكن الحال فيجب جعل دول الساحل تعيش دائما في حالة خوف من جارها النجدي الكبير، لأنها بهذه الطريقة فقط ستكون راغبة في الابقاء على علاقات جيدة مع البريطانيين. يجب أن تشعر بضرورة حمايتنا لها، وإلا فأنها ستخرج عن السيطرة.

ثم انتقل الوكيل للقول :- "باستعراض الوضع أعلاه ومحاولة التنبؤ بالسبيل الذي يحتمل أن يسلكه ابن سعود في التعامل مع شمر، لا يجب

---

(١) يعني إمداده بأسلحة وأموال ودعم سياسي يبقيه واقفا بثبات أمام خصمه دون تمكينه من سحق ذلك الخصم نهائيا.

على المرء نسيان سوريا. إذ هل تتبنى قبائل عنزة موقف فيصل [ابن الحسين] الساعي إلى التدخل في شؤون الجوف؟ أن ذلك واحد من الشكوك التي على ابن سعود أن يواجهها. أن ابن سعود في الوقت نفسه يجب أن يوكل له استنباط وسيلة خلاصة، ولكن شيئا واحدا سيكون مدمرا لكل خططه كليا بصورة جازمة، واعتقد شخصيا ان ذلك الشيء سينجح حقا نجاحا كبيرا في تدميره، [قصده هنا قطع الإعانة المالية البريطانية عن ابن سعود]... أن الخمسة آلاف جنيه استرليني التي يحصل عليها ابن سعود الآن شهريا عبر البحرين تنفق على شكل إعانات مالية فرعية لشيوخه النجديين الأقوياء. فالبدو والحضر [في نجد] مثل كل العرب يمكنك أن تفعل بهم أي شيء إذا أعطيت أعطاءهم إعانات مالية مناسبة مهما كانت صغيرة ويدرك ابن سعود ذلك جيدا، ويفهمه بشكل خاص على أنه حقيقة في نجد التي تفتقد إلى حد التلاحم فيما بينها أكثر من شمر ابن رشيد على سبيل المثال.

وما يحتاجه ابن سعود اليوم منا هو عون خارجي أكثر، وإذا كنا لا نستطيع اعطاءه مالا فيجب أن نجعله، بقدر ما نستطيع، يرى عزمنا على الوقوف بجانبه وعدم نيتنا السماح لدول صغيرة مثل الكويت والبحرين بمضايقته بحماية من بريطانيا العظمى إذا جاز التعبير. أن قرار الجمارك الذى اتخذ مؤخرا لصالح ابن سعود فى البحرين مثل جيد عن كيفية استطاعتنا اسناد ابن سعود. وكان للقرار تأثير ممتاز على الشيخ عيسى بشكل مؤكد، إذ تحسن سلوكه كثيرا تجاه الوكيل السياسي. ويمكن أن نقوم بعمل كبير ايضا لو أقدمنا مثلا على منح ابن سعود وسام G.C.S.I. أو وساما آخر مساويا له. وسيكون عملا ممتازا

من أعمال السياسة ايضا لو قامت خلال الصيف القادم بزيارة الرياض بعثة صغيرة، لنقل أنها مؤلفة من الوكيل السياسي في البحرين مصحوبا بموظف صحي وشخصي آخر، فابن سعود يريد تكريما مبالغا فيه.

أنه مخلص لبريطانيا ويكن الاحترام الأكبر للسير برسي كوكس شخصيا، وهو لحد الآن لا يربطه بالعالم بريدا أو برق، ويحصل، كما هو حادث الآن، من كل صوب على قصص يومية مبالغ فيها وكاذبة فلا يمكن لومه إذا أصبح شكوكا حيال أعمالنا. فهو في اللحظة الراهنة مثلا مقتنع بقوة بأن الحكومة البريطانية تحث سالما شيخ الكويت على حربه، وهو يستمد أفكارا كهذه من بعض مستشاريه المناوئين للانكليز. وأجدرهم بالذكر كما أظن، احمد بن ثنيان الذي تربى في اسطنبول وهو دائم الاستعداد ليعزو للبريطانيين الغادرين كل حركة شريرة. أن أسم "انكلترا الغادرة" كان قد بدأ باستخدامه عموما في اسطنبول قبل الحرب كما كان يستخدم في باريس دائما. وكما قلت آنفا فأن ضابطا بريطانيا يزور الرياض في الخريف القادم، ولنقل في نوفمبر القادم، سيوفر لابن سعود فرصة تنفيس الكثير مما فى صدره ، إنني مقتنع أن زيارتي إلى الهفوف في فبراير الماضي خلقت اطمئنانا كبيرا في نفس ابن سعود، فقد تعهدت أن ازرع في ذهن ابن سعود الانطباع بأن لديه في البحرين شخصا يناصره على اية حال، وكانت الزيارة ثمينة بصورة موازية من وجهة نظر حكومة جلالته. وكما بينت في حينه فأن ابن سعود يريد شخصا ما ليتحدث معه، شخصا يعرف أنه سينقل إلى السلطات العليا كل ما يقوله. أن ضابطا بريطانيا، ربما مع شخصين أخريين، يجب أن يرسل لدى كل طقس بارد إذا أمكن... وكلما كبر الرجل الموفد كلما

شعر ابن سعود بمزيد من التكريم. كما أن مجرد حضور بعثة كهذه إلى الرياض سيعمل أكثر من أي شيء آخر على الإعلان لسكان بلاد العرب أن حكومة جلالته على أحسن العلاقات مع حاكم نجد وأنها تنوي مساعدته. أن هذا هو ما يريده ابن سعود الذي صاغ الأمر بعبارة "أريد الحكومة تكبرني جدام العرب". [أورد الوكيل العبارة حرفيا باللغة العربية].

ومضى الوكيل يقول :- "طبقا لعبد العزيز القصيبي فأن ابن سعود غير خائف اطلاقا من أي عمل مباشر من جانب اتحاد الكويت وابن رشيد والحجاز. أن ما يخشاه هو حملة الافتراء التي يعلم أن أناسا مثل شيخي المحمرة والزبير وسيد طالب ايضا سيبدءونها الآن، فهو يعلم كم هم عرب العراق ماهرون في لعبة كهذه، كما أنه يعتقد أن نصيحة الناس المذكورين أعلاه مصغي لها من قبل سلطات بغداد، في حين يعتقد أنه لا نصير له في مراكز الحكومة. ولذلك فهو يخشى أن يفقد ثقة الحكومة، وربما يخشى أن تخفض إعانته المالية نتيجة لحملة كهذه. أنني اتذكر قول ابن سعود لي" انتم يالانكليز تأخذون حجي الناس" [أوردها الوكيل حرفيا].

وتلخص هذه الجملة مشاعر ابن سعود اليوم... وفي الختام فأن ديون ابن سعود تسبب له القلق مرة أخرى. علمت بأنه مدين لتجار القصيم بما يقارب سنة الكاك[1] من الروبيات، بينما هو في البحرين وحدها مدين لعبد العزيز القصيبي بحدود لك واحد، والأخير قلق على

---

(١) أكاك جمع كك، وهو رقم هندي يساوي مائة ألف.

نفوذه كما أعرف. إنني اتوقع تماما أن يطلب ابن سعود قريبا من حكومة جلالته زيادة إعانته المالية مرة ثانية ... واعتقد أن إعانتنا المالية لابن سعود ذات عائد جيد وأن النتائج التي تم الحصول عليها أكبر بكل المقاييس من المال المنفق، وأود شخصيا أن أرى الإعانة تزداد إلى ستة آلاف جنيه استرليني كل شهر"(١).

وبعد استعراض أغلب ما جاء في مذكرة الوكيل السياسي في البحرين تسهل ملاحظة ميله الواضح إلى جانب ابن سعود وتحبيذه الصريح لمساعدته ضد حائل. ولم يكن الوكيل بالطبع يستهدف من وراء ذلك كله مصلحة ابن سعود، بل مصلحة بريطانيا. والمصلحة هي التي توجه سياسات الدول لا العواطف. ويستشف من دفاع الوكيل الحار عن فكرته تلك وجود وجهات نظر بريطانية أخرى تظن أن ابقاء ابن رشيد معادلا في ميزان القوة لابن سعود مفيد لمصلحة بريطانيا. إذ أن ذلك سيشغل ابن سعود ويمنعه من تهديد حلفاء بريطانيا في الخليج والحجاز. ويظهر أن ابن سعود كان يحس بوجود فكرة مثل هذه لدى بعض المسؤولين البريطانيين، فكان يحرص نتيجة لذلك على تأليب السلطات البريطانية ضد خصومه وتصويرهم بصورة المعادين لها وليس له فقط. فقد كتب في الثاني من اغسطس ١٩٢٠ رسالة إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين كان مضمونها كما يلي :-

"١- أن كل عدم الاستقرار في بلاد العرب وسوريا والعراق اليوم ناتج عن سعي وكلاء الترك من خلال

(1) IOR, R/15/5/25, "Note.... July 1920", by Ag., Bahrain, dated 12-8-1920.

صنيعتيهم الشريف وفيصل.

٢- أن كل جهودي للوصول إلى تسويه ودية مع ابن رشيد عديمة الجدوى، والعلاقات بيننا مقطوعة الآن، ولدي معلومات جديرة بالثقة كليا تفيد بأن الشريف أرسل مؤخرا أسلحة وأموالا إلى حائل، ويوشك المزيد منها أن يصل عبر المدينة [المنورة].

٣- يتفاوض شيخ الكويت معي ظاهرا، ولكنه يخطط لتدميري سرا.

٤- أن حسين وفيصل وابن رشيد وشيخ الكويت يتظاهران كلهم بالصداقة مع انكلترا ولكنهم يعملون بجد لتقويض مصالحها. ادعموني وأنا أضمن لكم إنهاء المكائد المضادة للانكليزيين العرب. ومن ناحية أخرى إذا استمررتم على وضعي بالتساوي مع أولئك الذين يخدعونكم فأعلموني حتى أكف عن إزعاجكم بالمزيد من المراسلات.

٥- لقد اعطيتم أصدقاءكم الخوانين ألقابا وأراضي غنية وبقيت أنا صديقكم الحق أفقر من المعتاد. أن أوضاعي المالية بائسة فكل ايرادتي مرهونة كما قلت لكم ذلك كله قبلا. إنني التمس من حكومة جلالته زيادة إعانتي المالية ومساعدتي اكثر من هذه الناحية فأنا لا أستطيع تدبير الأمر...[1].

ويلاحظ على رسالة ابن سعود هذه أنها لم تنظر إلى ابن رشيد

(1) IOR, R/15/5/25, No. 247 - C, Pol, Bahrain, to Civil Com., Baghdad, dated 16-8-1920.

وشيخ الكويت والملك حسين باعتبارهم متحدين على شكل "حلف" أو "جامعة" بالصورة التي راجت في المنطقة حينئذ. مما يدعم ما سبق قوله عن أن الحديث عن حلف أو جامعة بين أولئك كان مبالغة في الأخبار والروايات ليس إلا. فلو كانت العلاقات بين تلك الأطراف قد وصلت مرحلة التحالف الفعلي لكان ابن سعود بالطبع أول الشاكين من ذلك التحالف المصرحين بوجوده. يرجح ذلك أنه كان يتابع ما تتبادله تلك الأطراف من مساعدات وينقل أخبارها للجانب البريطاني كما ورد في رسالته أعلاه. ولا يستبعد هنا أن تكون إشارته إلى مساعدة الشريف حسين لابن رشيد وليدة رغبته في إبراز الأعباء المالية التي يتحملها من جراء دعم الشريف حليف بريطانيا لخصمه تمهيدا للطلب الذي ورد في ختام رسالته حول زيادة إعانته المالية الشهرية. ويبدو أن حراجة موقفه المالي حينئذ كانت تحتم عليه التقرب للبريطانيين العرب على ما فيه مبالغة كبيرة واضحة.

□ المرحلة الأخيرة من الصراع بين حائل والرياض

لم يرد في المصادر المتاحة ما يدل على حدوث صدامات كبيرة بين حائل والرياض عقب صدامات شهر يونيو ١٩٢٠. فكان الأمر أشبه بهدنة غير معلنة حتى جاء شهر مارس ١٩٢١ حيث راجت شائعات عن تجدد الأعمال الحربية بين الحاضرتين. وكانت الكويت والبحرين كالعادة مصدر تلك الشائعات. ففي الكويت سجل الوكيل السياسي البريطاني رواية تفيد بأن سعود كان يجمع حينئذ قوة كبيرة ليتوجه على رأسها نحو الارطاوية. وذكر أن البعض يعتقد بأن هدفه

هو معاقبة فيصل الدويش شيخ قبيلة مطير لخروجه عن طاعته، ولكن الاعتقاد الأكثر شيوعا هو أن هدفه الحقيقي حائل[١] أما الوكيل السياسي البريطاني في البحرين فقد نقل إشاعة متداولة تفيد بأن أعمالا عدائية مفاجئة حصلت أو توشك أن تحصل بين ابن سعود وابن رشيد في جوار حائل[٢] ثم ابرق بعد أسبوعين مسجلا وجود شائعة بعد أسبوعين مسجلا وجود شائعة أخرى غير مؤكدة تفيد بان قوة ابن سعود قد هزمت ابن رشيد قرب حائل وحازت غنائم من بينها خمسون امرأة [٣]

ولابد هنا من استبعاد حكاية الغنائم من النساء فهو أمر غير مألوف إطلاقا. وقد أكد القصيبي وكيل ابن سعود في البحرين بعد حين أخبار تحركات ابن سعود ضد حائل فذكر أن محمد بن عبد الرحمن، أخا ابن سعود، هزم قوة من شمر قرب ميانه Miyanah وتقدم بعدها إلى تيم Taim حيث هزم قوة ابن رشيد الرئيسية على بعد ثلاث ساعات من حائل، وبقي هناك يومين ثم تراجع إلى ياطب لعدم خروج قوة لمواجهته. كما قيل أيضا أن سعود، ولد ابن سعود، خرج مع قوة أخرى محاولا قطع خط الرجعة على قوات حائل. ولكن الوكيل السياسي في البحرين نقل عن مصدر نجدي رواية مختلفة تفيد بأن الدويش دمر أولا قرية شمرية صغيرة على الرغم من أن سكانها كانوا قد تحولوا إلى "أخوان" مؤخرا. ونتيجة لذلك شن الشمريون كلهم هجوما على قوة الدويش فدمروها. وكان ابن سعود في ذلك الحين محاصرا بشكل عملي في بريدة وخائفا

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 51 - C, Pol, Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 11-3-1921.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 28 - C, Pol, Bahrain, to Hicom., Baghdad, dated 19-3-1921.

(3) IOR, R/15/5/25, No. 32 - C, Pol, Bahrain, to Hicom., Baghdad, dated 5-4-1921.

من الانسحاب منها لئلا تثور مقاطعة القصيم ضده وتنضم لابن رشـيد. وقيل أن ذلك هو سبب عدم استلام أخبار من ابن سعود. وختم الوكيـل برقيته بالقول أنه ليس لديه حتى تاريخه تـأكيد لأي مـن الروايتيـن السالفتين(١).

ولكن التأكيد وصل للكويت على شكل رسالة من ابن سعود إلـى شيخ الكويت احمد الجابر مؤرخه في الخامس من شعبان ١٣٣٩هـ، وهذا نصها :- "بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر لازلتم بكمـال الصحـة ووافر السرور وعنا نشكر الله تعالى على نعمه بخير، وأحوالنا من كرم الله جميلة. بعده نعرف جنابكم منطرف [من طرف] الابن سعود عـدا من لينه قاصد بن [ابن] طلال وشمر ألي [الذين] معه على القيصومـة ووافقهم [صادفهم] قضوب [كلمة غير واضحة المعنى ولعلـها تعنـي رجالا قبضت عليهم قوات سعود ثم اطلقتهم] وخبروهم وهجو [هربـوا] وقفوهم [تبعوهم] وعيونهم [وجدوهم] واطين [مارين] الخزول ومتفرقين عنها. بن [ابن] طلال وألي [الذين] معه نحرو [اتجهوا] الجـوف وبـن [ابن] عجل وبن علي وألي [الذين] معهم انحرو [اتجهوا] البريت وصدر [رجع] سعود من الخزول على ساقتهم وعين [وجد] بن عـايش وبـن جيرين والوجعان والمطيري والعضاري والويبار وبن ضليعان ومعـهم الصقور من عنزة في مند البريث وأكانو [أغاروا] عليهم وأخذهم الله ثم خذوهم وقطعوا [غنموا] حلالهم وذبح منهم ناس واجد [كثير] والمسلمين

(1) IOR, R/15/5/25, No. 35 - C, Pol, , Bahrain, to Political, Kuwait, Baghdad, dated 18-4-1921.

[كذا] من فضل الله سالمين [كذا] ما انتقصوا إلا بثلاثة رجاجيل فلما رأينا ما من الله به أحببنا بشارتكم بذلك.. اخي سلمك الله من طرف الأخبار مثلما عرفنا جنابكم سابقا ولاحقا كفاية وجميع الأمور على المطلوب الحمد لله رب العالمين. منطرف [من طرف] باقي شمر بعد كون [اغارة] سعود كلهم طاحو علينا [سلموا لنا] إلي غير [عدا] بن عجل حروه [الأرجح] أنه نحر [اتجه] الجزيرة وعاهدونا أنهم رعية لنا ودربهم دربنا على بن رشيد وغيره وأمرناهم ينزلون من أنصاب إلى طوال الظفير القصد نبي [نريد] ابعادهم عن الجبل وأطرافه ومروة [الأرجح] يجيكم لهم مدايد [ممتارون] وهم اليوم محسوبين [محسوبون] طوارف [اتباع] لنا ولابد بعد [ايضا] يروح معهم [طوارف] [اتباع] منا وأحببنا تعريفكم من طرفهم. منطرف [من طرف] عربانا إلي [الذين] عمدناهم ينزلون من لينه إلى الخاصرة بطرف الجبل القصد يحاصرونه وهذا اليوم أطيب ما في نجد الربيع نرجو من الله التوفيق"[1].

تشيع في ثنايا هذه الرسالة لهجة القائد الواثق من امتلاكه ناصية الأمور في ميدان القتال بعد أن انقلبت موازيين القوى لصالحه بصورة واضحة. ولم ترد في المصادر المتاحة أية معلومات محددة تفسر أسباب ذلك الانقلاب المفاجئ. ولعل ما ذكرته هذه الرسالة نفسها عن الربيع في نجد يقدم تعليلا جزئيا، حيث أن وفرة المراعي تمكن ابن سعود من تحريك قوات كبيرة. ويتضح من الرسالة أن خطة عمليات ابن سعود كانت تنصب على مهاجمة بادية قبيلة شمر وعزلهم عن تقديم

---

(1) IOR, R/15/5/25, Letter From Ibn Soud to Shaikh Ahmed Al Jabir Al Sabah.

أية مساعدة لابن رشيد في حائل. وعلى الرغم من أن بادية شمر كانوا تحت قيادة أبرز شيوخهم مثل ابن طلال وابن عجل وابن علي إلا أنهم لم يصمدوا أمام الهجمات التي يشنها عليهم قوات سعود بن عبد العزيز. ومن الغريب هنا أن بعضا من قبيلة عنزة وقفوا إلى جانب شمر ضد قوات ابن سعود على الرغم مما هو معروف من ميل عنزة إلى الأخير وعدائها الطويل مع ابن رشيد. ويتضح من الرسالة ايضا أن حملة سعود قد حققت أهدافها جزئيا حين مال قسم من بادية شمر إلى السلم مع ابن سعود الذي أمرهم بالنزول على آبار معينة واقعة على أطراف أراضي الكويت بقصد ابعادهم عن ميدان صراعه مع ابن رشيد.

ولكن أقساما أخرى من بادية شمر أفلتت من مطاردة سعود لها واتجه قسم منها تحت قيادة ابن طلال إلى الجوف واتجه قسم آخر تحت قيادة ابن عجل نحو الجزيرة في العراق.

وقد استمر ابن سعود في تطبيق خطته الرامية إلى عزل حائل عما جاورها تمهيدا لمهاجمتها هي ذاتها. وقد ورد ما يدل على ذلك في رسالة كتبها إلى عبد الله السالم الصباح بعد حوالي شهرين من رسالته الأولى، وجاء فيها :- ".. نعرف جنابكم أن حنا [نحن] بعد ما وردنا جواب تحققنا أن شمر كلهم هجو [هربوا] ورئينا [كذا] أن العيال [الأبناء] يعدون [يهجمون] عليهم وعمدنا [أمرنا] الأخ محمد مع بيرق والابن سعود مع بيرق والابن فيصل مع بيرق أما عن محمد وسعود يخلون [يتركون] الجبل على يسارهم ويقفون [يتبعون] شمر الذين اشملوا وفيصل يخلي الجبل على يمينه وينأحر [يتجه] لقراياه الذي

[التي] من فوق وأنا براسي [بشخصين] انقلب على القصيم لأنه بدمد الله كل عدو ضعيف والمسلمين [كذا] بهم بركة انشاء [كذا] الله من طرف محمد ورد خضرا وكان [أغار] على أهل الحبانية الصليط والشلقان وأخذهم الله وانقلب يسار ضل الحيانية ووافق [صادف] طروش [رسل] لبن رشيد وحمله له معها سلاح وفشك [ذخيرة] وأخذهم الله ثم خذوهم [هزموهم] وذبحوهم ووردوا التيم وحاولوا [كذا] منه وأكانوا [أغاروا] على سرية لبنى رشيد مع جيشه [ايله] ومخلط [خليط] عريان ومخلفة [بقايا] أهل حايل يم [قرب] القاعد وأخذهم الله ثم أخذوهم ووخذ [هزم] جيش ابن رشيد بالصخريات وذبح منهم ثلاثمائة رجال والمقبرة ما روت إلا من طرف حايل والمسلمين [كذا] من فضل الله ما انتقصوا إلا برجال وخمس [كذا] من الخيل وحالا وهم نازلين [كذا] ياطب ومن طرف فيصل ورد الشعيبة وعدا قاصد سرية لبن رشيد بطرف سما مع ولد ابن صبهان وستنذرو [انذروا] ونارو [هربوا] ونزل فيصل على السبعان وسلمو [كذا] أهله وجميع قرايا الجبل سلمت ولعاد [ولم يعد] يبقى إلا نفس حايل محصورين لا يحبهم أحد ولا يظهر [يخرج] منهم أحد وهم إنشاء [كذا] الله معتورين [خاسرين] يحول الله وقوته. وسعود بمعداه [لازال بغارته] ونتحرا [ننتظر] الخبر المبارك عنه إنشاء [كذا] الله ... [1].

يتضح من الرسالة أن قوات ابن سعود المشاركة في العمليات كانت عبارة عن ثلاثة ارتال، وقد اوكل للمرتلين الأولين اللذين كان يقودانهما

(1) IOR, R/15/5/25, Letter From Ibn Soud to Shikh Abdallah As – Salim As – Sabah.

محمد بن عبد الرحمن وسعود بن عبد العزيز تطويق حائل من الشرق، بينما كانت مهمة الرتل الثالث الذي يقوده فيصل بن عبد العزيز تطويق حائل من الغرب والشمال. أما في الجنوب من حائل فقد تحرك ابن سعود نفسه على رأس بقية قواته إلى القصيم لمحاصرة حائل من الجنوب وكما يؤسس هناك مركز القيادة العامة والإمداد للارتال الثلاثة التى تقدمت شمالا. ونستدل من الرسالة أيضا أن الأوامر التى أعطيت للأرتال الثلاثة كانت تنص على مطاردة بادية شمر وابعادهم عن حائل لعزلها كليا. ولذلك اقتصرت العمليات على غارات متفرقة دون أن يرد في الرسالة ذكر لأي هجوم على مدينة حائل نفسها أو لأى صدام مع قوة ابن رشيد الرئيسية. وقد نجحت تلك الخطة في إحكام الحصار حول مدينة حائل، إذ استلم شيخ الكويت معلومات من نجد تفيد بأن الحصار كان مفروضا على حائل فى بداية يونيو ١٩٢١[١].

كما أكد هذه المعلومات رجل كويتي غادر حائل في الحادي والعشرين من مايو وأفاد أن المدينة كانت عند مغادرته محاصرة بأحكام من قبل قوات ابن سعود على الرغم من عدم وجود قتال فعلي بين الطرفين [٢]. وقد أدى ذلك الحصار إلى ندرة المواد الغذائية في المدينة فقد ذكر رجل غادر حائل في حوالي السادس من يونيو أن القوات السعودية كانت تبعد أكثر من خمسة وعشرين ميلا عن المدينة وتكتفي بحصارها عن بعد. وعلى الرغم من وصول كمية قليلة من المؤن للمدينة من الحجاز إلا أنها كانت تعاني من نقص في المواد

(1) IOR, R/15/5/25, No. 90 - C, Pol, , Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 6-6-1921.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 105 - C, Pol, , Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 18-6-1921.

الغذائية جعل كيس الرز يرتفع سعره إلى ثماني ليرات[1].

وقد أدرك ابن رشيد على ما يبدو عدم قدرته على فك ذلك الحصار، بل وأيقن حتى قبل أن يحكم الحصار عليه أن ميزان القوى يميل لصالح خصمه. ولم يجد نتيجة كذلك غير محاولة الوصول للسلام باعتباره خير وسيلة لمنع المزيد من التدهور في موقفه. وقد اتجه بنظره إلى السلطات البريطانية في بغداد للتوسط بينه وبين خصمه. ولم تبق محاولة ابن رشيد هذه طي الكتمان، بل تسربت حتى وصلت إلى صفحات الجرائد إذ نشرت جريدة "لسان العرب" الدمشقية خبرا يفيد أن ابن رشيد جنح للسلم ونزل على شروط ابن سعود. وقد نفى حمزة الغوث مندوب ابن رشيد صحة تلك الأنباء في مقابلات صحفية أجراها في القاهرة وبيروت، وذكر أن موقف ابن سعود حينئذ لا يمكنه من الصدام مع ابن رشيد من جراء سوء العلاقات بينه وبين كل من الحجاز واليمن. والغريب أن جريدة "الأوقات" العراقية الناطقة باسم سلطات الاحتلال البريطاني نشرت تلك التصريحات في عددها الصادر في الخامس عشر من مايو ١٩٢١[2]. ولكن ذلك النفي لم يكن إلا دعابة صحفية هدفها تضخيم قوة ابن رشيد وإخفاء المأزق الذي كان فيه والذي اضطره إلى طلب الوساطة البريطانية. وكانت بداية الاستجابة البريطانية لطلب ابن رشيد برقية وجهها المندوب السامي البريطاني في بغداد إلى السلطات التابعة له في كل من الناصرية والبصرة والكويت يأمر فيها بموافاته بآخر الأخبار المستمدة من الصحراء حول ماهية

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 113 - C, Pol, , Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 28-6-1921.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 82 - C, Pol, , Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 21-5-1921.

الموقف السائد في حائل[1]. ويظهر أن هدف المندوب السامي البريطاني كان هو الحصول على معلومات كافية تمكنه من تقويم الموقف قبل الإقدام على التدخل الذي لم يتأخر كثيرا. إذ أبرق المندوب السامي في بغداد بتاريخ الخامس عشر من يوليو ١٩٢١ إلى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين يأمره أن يوفد رسولا خاصا لابن سعود كي يخبره بأن ابن رشيد طلب منه التوسط لايقاف الأعمال الحربية بين الطرفين. وطلب أن يتحقق الرسول من استعداد ابن سعود للتراضي وماهية شروطه لذلك[2]. ومن الغريب أن الوثائق البريطانية المتاحة لم تذكر بعد ذلك أي شيء عن ذلك الرسول والرد الذي عاد به من ابن سعود أن كان قد سافر فعلا.

أن عدة عوامل تضافرت فيما بينها واضطرت ابن رشيد لطلب الوساطة البريطانية، منها ما وضح أعلاه من نجاح قوات ابن سعود من عزل حائل عن بادية قبيلة شمر وهم يمثلون احتياطيها الحربي الدائم. سيما وأن ذلك قد توافق مع خسارة قبيلة شمر لبعض فرسانها المشهورين الذين يقول عليهم في ساحات النزال مثل ضاري بن طواله الذي قتل أثناء المعارك الأخيرة[3]. ومنها أن أحكام قوات ابن سعود الحصار حول مدينة حائل قد أدى إلى ندرة المواد الغذائية وارتفاع اثمانها مما أثر على الروح المعنوية لسكانها دون ريب. ومما زاد في سوء موقف ابن رشيد حدوث خلاف بين الأوساط المتنفذة في حائل

(1) IOR, R/15/5/25, No. A1749, Hicom, Baghdad, to Political, Kuwait, dated 27-6-1921.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 856 . S, Hicom, Baghdad, to Political, bahrain, dated 15/7/1921.

(3) IOR, R/15/5/25, No. 90 . C, Political , Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 6-6-1921.

حيث انقسمت إلى فئتين أولاهما تريد القبول بكل شروط ابن سعود للخروج من ذلك المأزق، والأخرى تريد الصمود بوجهه حتى النهاية(١). وكان يقود الفئة الأولى أمير حائل الفتى عبد الله بن متعب الرشيد، بينما كان يقود الثانية ابن عمه محمد بن طلال الرشيد. وقد انتهى الصراع بين الفئتين باستلام ابن طلال العرش الإمارة واستسلام الأمير السابق عبد الله بن متعب لابن سعود. ولكن استسلامه لم ينه المقاومة حيث استمر خلفه في قيادة المقاومين للحصار(٢).

وليست هناك معلومات كافية تمكن من الحكم على ما حدث في حائل بدقة. فليس من الواضح ما إذا كان استسلام عبد الله بن متعب لابن سعود أعقب عزله وطرده من الإمارة، أو أنه هرب من تحمل مسؤوليات الحرب مما جعل ابن طلال يتحرك ويتولى الإمارة كي يسد الفراغ الذي أوجده هرب سلفه.

وإذا كانت الجبهة الداخلية في حائل تعرضت لذلك الشرخ الخطير الذي أوهن تماسكها خلال ذلك الوقت الحرج، فأن جبهة ابن سعود الداخلية لم تخل هي الأخرى من ظهور اختلاف في وجهات النظر وإن كان أقل خطورة. ففي أثناء الحصار المفروض على حائل والذي كان "الأخوات" يقومون بعبئه الأساسي، يبدو أن بعضهم أعترض على مواصلة الحملة ضد ابن رشيد باعتبارها ذات هدف دنيوي وليست

(1) IOR, R/15/5/25, No. 113 . C. Political , Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 28-6-1921.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 122 . C. Political , Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 17-8-1921.

دينية خالصة[١].

وقد زادت الأخبار التي وصلت الكويت ما حدث تفصيلا فذكرت أنه في السادس من مايو ١٩٢١ قابل ابن حميد وابن ربيعان، وهما من مشايخ عتيبة وزعماء الأخوان، اثنين من علماء حائل خارج المدينة، فتحاورا معهما واعترفا للعالمين بأنهما مسلمان صالحان وعقدا معهما الصلح. وترتب على ذلك انسحاب ابن حميد وابن ربيعان مع اتباعهما إلى ديارهما، اما عالما حائل فقد توجها إلى ابن سعود للحصول على تصديقه على الصلح المعقود. ولكن ابن سعود رفض إقرار الصلح وتصديقه قائلا أنه لم يكن يقاتل في هذه الحالة من أجل هدف ديني ولكن من أجل الثأر[٢]. ويرجح أن ابن سعود بعدها قد احتوى هذا التخلخل في صفوف اتباعه، إذ لم يرد ذكر بعد ذاك لاختلاف بينه وبين قادته حول مسارات الصراع مع حائل.

كان تسليم أمير حائل عبد الله المتعب وما يؤثره من وهن لحق بقمة القيادة الشمرية فرصة سانحة دون شك لابن سعود لتشديد ضغطه على خصومه قبل أن يعود وضعهم للتماسك تحت قيادة الأمير الجديد. ويبدو أنه اغتنم تلك الفرصة، ففي رسالة وجهها لشيخ الكويت مؤرخة في السادس من أغسطس ١٩٢١ ذكر ابن سعود أنه متوجه شخصيا إلى الشعيبة الواقعة شمال شرق حائل تصحبه قوة كبيرة من الأخوان ليباشر بنفسه تشديد الحصار على مدينة حائل التي يتوقع استسلامها

---

(1)IOR,R/15/5/25, No. 114. C, Political, Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 4-7-1921.

(2)IOR,R/15/5/25, No. 116. C, Political, Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 16-7-1921.

قريبا. وقد صحب ابن سعود معه في تحركه هذا أمير حائل السابق عبد الله بن متعب الرشيد(١). وتلقى شيخ الكويت في التاسع والعشرين من الشهر نفسه رسالة أخرى من ابن سعود تفيد بأن قوات الأخوان لازالت مستمرة في حصار حائل، وأنه شخصيا متوجه من الأرطاوية إلى القصيم(٢). وزاد ابن سعود تفاصيل ما يجري حول حائل وضوحا في رسالته المؤرخة في الأول من محرم ١٣٤٠هـ/ الرابع من سبتمبر ١٩٢١ التي وجهها إلى الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، وجاء فيها :- "علمت للتو أن عدة من بادية شمر قد نكثوا بتعهدهم وذهبوا إلى حائل. ولكن الدويش مع جماعتين من الأخوان استولى على كل ممتلكاتهم وقتل أغلبهم، وهو مخيم الآن قرب حائل في مكان يسمى الجثامية على بعد حوالي ثلاث ساعات من البلدة. والغارات متبادلة بينه وبين ابن طلال الذي هو في مكان يسمى النحصية على بعد حوالي ميل ونصف من الجثامية(٣). ولا يعلم ابن طلال بأنني قد غادرت عاصمتي وأنني في طريقي إليهم، ولكن أهل حائل يعلمون(٤). كما أخبرت سعادته سابقا [يقصد المندوب السامي البريطاني في بغداد]، لذلك فأنني ساع لاغتنام هذه الفرصة املا في

---

(1)IOR,R/15/5/25, No. 125. C, Political, Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 19-8-1921.

(2)IOR,R/15/5/25, No. 143. C, Political, Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 5-9-1921.

(٣) ورد في وثيقة أخرى أنها تبعد "ساعة ونصف" بدلا من "ميل ونصف" ويظهر أن العبارة الأولى أكثر منطقية. فلا يعقل أن تكون المسافة الفاصلة بين معسكري الخصمين ميلا ونصف الميل فقط.

(٤) يبدو الأمر غير معقول، إذ لا يمكن أن يعرف أهل حائل كلهم بتحركه ويخفى الأمر على قائدهم. ولعل في الأمر سهوا ارتكبه من ترجم تلك الرسالة إلى الإنكليزية في الوكالة البريطانية في الكويت.

أخذه بينما هو خارج البلدة بــأذن الله. وســأغادر الآن قبــه[1] نحــو حائل..."[2].

تكشف هذه الرسالة أن العمليات الحربية كانت تقتصـر لحينـذاك على أحكام الحصار على حائل عن بعد دون القيام بهجوم مباشر علـى البلدة ذاتها. كما يظهر منها أن ذلك الحصار لم يكن يحول كليـة دون تسرب بعض المدد إلى البلدة المحاصرة بدليل نجاح بعض بادية شـمر بالانضمام إلى ابن رشيد بعد نقضهم لتعهداتهم لابـن سـعود. ولعـل وصول ذلك المدد على قلته هو الذي يفسر استمرار حصار حائل كـل تلك المدة الطويلة على الرغم من ضغط القوات السعودية المتواصـل عليها. بيد أن ذلك لم يغير شيئا من حقيقة الوضع اليائس الذي أصبـح عليه ابن رشيد مما دفعه للتفكير بمخرج من ذلك المأزق. ولـم يجـد أمامه، مثل سابقه، سوى السعي لدى السلطات البريطانية لعلها تتوسـط بينه وبين خصمه. يتضح ذلك من رسالة مؤرخة في السابع عشر مـن سبتمبر ١٩٢١ وجهها الوكيل السياسي البريطاني في الكويـت لابـن سعود، وهذا نصها :- "بعد السلام وتقديم مزيد الاحترام والسؤال عـن شريف خاطركم اتشرف لأخبر سموكم بأنني أخذت تلغرافـا مـؤرخ [كذا] ١٣ محرم سنة ١٣٤٠ من صاحب الفخامة السربرسي كوكـس المندوب السامي في العراق وبه أمرني لابلغ سموكم ما يأتي أدناه:-

(١) علق الوكيل البريطاني في الكويت بقوله لعلها "جبة" الواقعة على بعد خمسة وسـتين ميـلا شمال شرق بريدة.

(2)IOR,R/15/5/25, No. 149. C. Pol. Ag., Kuwait, to the Sec. To the High Com., Baghdad, dated 10-9-1921.

أولا : كلا الملك فيصل وفخامته أخذ كل واحد منهما مكتوبا على حدة من محمد بن طلال الرشيد يستغيث بالتوسط لخلاص [لإنهاء] العداوة التي بين سمكم وبينه وما رد له جوابا إذ ينتظرون جوابكم الأعلا [الأعلى] إذا كان توافق يتوسط الملك فيصل أو فخامته بصفته مندوبا للحكومة البريطانية الفخيمة.

ثانيا: أن الحكومة العراقية في غاية الإزعاج عند دخول الذين يهربون من شمر إلى العراق. ويصعب جدا منعهم من الدخول والحكومة لا تريدهم وعاملة جهدها لتجعلهم يلتحقون مع شمر جريه في شمال الجزيرة. وحدث مرتين أو ثلاث حاولوا أن يجعلون [كذا] العراق ملجاء [كذا] لغاراتهم في الصحراء الجنوبية وربما كانوا [اغاروا] ضد عشائر سموكم أو أصدقائكم. ويرجو فخامته أن تكن [كذا] مطمئن الخاطر بأن الحكومة العراقية عاملة كلما يمكن لمنع هذا ولكن يصعب منعهم تماما حتى أنها تخرجهم لشمالي الفرات..."[1].

وتظهر الرسالة أعلاه ان الغارات التي كانت قوات ابن سعود تشنها ضد بادية شمر قد ضيقت عليهم الخناق حتى اضطرت بعضهم للنزوح من أراضي إمارة حائل إلى جنوب العراق ويبدو أن هدف أولئك النازحين لم يكن الفرار من ميدان النزال فقط، بل كان توفير ملجأ آمن لعوائلهم ليعودوا بعد لشن الغارات على أراضي ابن سعود فيما يشبه ما يسمى الآن بـ :حرب العصابات" وقد سبب ذلك الوضع

---

(1)IOR,R/15/5/25, No. 574, Pol. Ag., Kuwait, to Ibu Saud, dated 17-9-1921.

قلق الحكومة العراقية الوليدة والسلطات البريطانية الواقعة وراءها. ورأت أن الحل هو نقل أولئك النازحين إلى شمال العراق ليعشوا مع أبناء عمومتهم من قبيلة شمر جربه من ناحية، ولكي يكونوا بعيدين عن ميدان الصراع في حائل من ناحية أخرى. ولكن ذلك الحل لم يثبت نجاحه الكامل باعتراف الرسالة نفسها أما مصير طلب الوساطة الذي حوته الرسالة فيبدو أنه كان مثل مصير سابقه، إذ لا تورد الوثائق البريطانية المتاحة وصول أي جواب له سلبا أو إيجابا. ومن المرجح أن ابن سعود تعهد تجاهل الرد على ذلك الطلب لأنه كان متفوقا على خصمه بشكل حاسم ولم يرد إضعاف قوة اندفاع قواته بالحديث عن وساطات وحلول توفيقية(*).

وكانت العمليات الحربية بين الجانبين، خلال ذلك، متواصلة وعلى أشدها حسبما ورد في رسالة بعثها إلى الوكيل السياسي البريطاني في الكويت بتاريخ الرابع عشر من سبتمبر ١٩٢١. وجاء في الرسالة:- "السلام والتحية والاحترام بعد ذلك نعرف حضرتكم بما أجراه الله بيننا وبين ابن طلال ونرجو من حضرتكم أن ترفعون [كذا] ذلك برقيا لفخامة المندوب السامي السربرسي كوكس كما ترون (قد عرفنا فخامتكم في معدانا [زحفنا] على ابن طلال ولما وصلنا إلى قرية من قرايا الجبل تسما [تسمى] بقعا وصلنا خبر من الدويش أنه تضاهر [تصادم] هو وابن رشيد وأن الله أعانه عليه وكسروه وذبحو [كذا] عليه قدر مايتين [كذا] قتيل وذلك نهار الأربعاء موافق ٤ محرم سنة ١٣٤٠

(*) روى أن ابن سعود اعتذر عن قبول الوساطة البريطانية وأصر على حسم الصراع مع حائل بشكل نهائي الزعارير، المرجع نفسه، ص ١٧٨

وفي ٥ منه وصلنا إلى المحل الذي فيـــه الدويـش قريــة الجثاميــة وبوصولنا جمعنا كبار المسلمين واستشرناهم وصار القــرار الممشــا على العدو واستعنا بالله وليلة الجمعة ٦ منه مشينا وخفينا جموعنا عن العدو وواعدنا المسلمين إذا أثار الطوب [المدفع] يمشون كلا من قبلــه [جانبه] وبعد أن صلينا الفجر وثار الطوب سمع العدو الطوب وحـــس بالمسلمين انكسر من قلبه وغدو [كذا] قسمين قسم نحر [اتجه] حـــايل وقسم تحصن في قصور النيصية أما القسم الذي نحر حــايل تبعوهــم المسلمين [كذا] يقتلون فيهم إلى أن وصلوا البلد والذي اوجب أن يكون لهم شريدة [بقية] الأول أمرا [كذا] من الله وثانيا صار المحل الذي هـم فيه ضلعان [جمع ضلع، وهي مرتفعات رمال] ما تاطاه [تطأه] الخيـل والرجل ما تناوشوهم [نالوهم] إلا من بعد وأما القسم الــذي تحصنــوا بالقصور ضربناهم بالأطواب وذبحهم الله وصار الذي تحقق عندنا من قتلاهم بالوقعة الأولى والتالية خمسماية قتيل وقد استولينا على جميع ما معهم من أسلحة وجنجان [كلمة تركية تعني السلاح أيضــا] منــها ثلاثة أطواب وثلاث مكاين [جمع مكينة وهي تقريــب Machine Gun أي الرشاس] وقد أرسل لنا ابن طلال أحمد الشويعر يطلب الأمان وأبينــا ذلك عليه إلا أن يسلم نفسه ويخلي حايل وإلى الآن ماجا منه جــواب وبعد تاريخه بيوم يجتمع علينا المتوفر من جندنا ونرحل إلى حـايل إن استطاعوا [اطاعوا] وسلمو [كذا] فبها وإلا استعنا الله ومشينا عليــهم).
فلما رأينا ما من الله به على محبكم اجينا بشارة حضرتكم مع بشــارة فخامة المندوب السامي بذلك هذا مالزم رفعه لمعاليكم ودمتم فوق مــا

رمتم محروسين"[١].

وقد مال الوكيل السياسي البريطاني في الكويت إلى الظـــن بـــأن رسالة ابن سعود هذه تعهدت تضخيم أخبار انتصاراته بعض الشـــيء. وذكر وجود شائعة تفيد بأن القتال الذي جرى خـــارج حـــايل يومـــي السابع والتاسع من سبتمبر (الرابع والسادس من محرم) لم ينته بالنصر الذي ادعاه ابن سعود، بل أنه انتهى بهزيمةِ الأخير وانســـحابه إلـــى القصيم. وأضاف الوكيل أن شيخ الكويت لا يصدق تلـــك الشـــائعة ، ولكنها تزداد توثيقا لدى الأوساط الأخرى كلما مـــر يـــوم دون أنبـــاء أخرى من ابن سعود [٢].

ولم يلبث الوكيل طويلا حتى أورد معلومات أكثر تفصيـــلا عمـــا حدث حين كتب :- "أخبرني سرا هلال المطيري بأنه رأى واحدا مـــن فخذة من القبيلة كان حاضرا القتال خارج حائل حيث قاسى ابن ســـعود من هزيمة منكرة جدا. كان القتال في السابع [من ســـبتمبر] هزيمـــة وكذلك كان أيضا في التاسع [منه]، عدا نصر محلي صغير في قـــلاع النيصية في التاريخ الأخير استمر القتال طوال اليوم. كـــانت خســـائر الأخوان ضخمة وقيل أن ثلث قوتهم قتل وجرح الثلث الآخـــر. فخـــذ هلال، بين واصل من عشيرة بريهة من مطير، خســـر وحـــده مائـــة وخمسين قتيلا، وعدد القتلى الكلي يجب أن يكون أكثر من الف..."[٣]. أما الوكيل البريطاني في البحرين فكان متيقنا من هزيمة قـــوات ابـــن

(1) IOR,R/15/5/25, Reg. No. 135. Ibn Soud to Pol. Ag., Kuwait, Recorded 23-9-1921

(2) IOR,R/15/5/25, No 164. C, Political, Kuwait, to Highcom, Baghdad, dated 3-10-1921

(3) IOR,R/15/5/25, No 178. C, Political, Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 20-10-1921

سعود في تلك المعركتين حين كتب :- "لا يبدو أن هناك شكا في أن ابن سعود قاسىَ من هزيمة منكرة في القتال الأخير. يقال أيضا أنه في حاجة ماسة للمال وأنه يجمع الإيرادات مقدما. نتيجة للقتال المتواصل وفقر المراعي فأن الأخوان يفقدون حماستهم وكثير منهم يبيعون بنادقهم"(١).

ليس من المستبعد أن تكون قوات ابن رشيد قد حققت نصرا تكتيكيا على قوات ابن سعود. فهي مستميتة في الدفاع عن معقلها الأخير ولا تعوزها الشجاعة إطلاقا ولكن ذلك النصر كان اشبه شيء بذبالة السراج التي تتوهج قبل أن تنطفئ. ولم يفت ذلك النصر الجزئي غير الحاسم من عضد ابن سعود الذي واصل الضغط الشديد على حائل على الرغم مما قيل عن ضائقته المالية.

وقد أوصله تصميمه إلى هدفه الذي انتظره طويلا، إذا ما كاد شهران يمران على ورود تلك الأخبار حتى كانت حائل تستسلم لابن سعود تسليما نهائيا نقلت أخباره رسالة مؤرخة في الثالث من ربيع الأول ١٣٤٠ بعثها ابن سعود للوكيل السياسي في الكويت وجاء فيها:- "... نعرض لحضرتكم أننا قد أخبرنا سعادتكم سابقا عن محاصرة حايل فشددنا محاصرتها واستولينا على جميع القلاع والاستحكاماة [كذا] المحاطة على البلد فطاحوا إلى مراحمنا [طلبوا الرحمة منا] وصبروا [وافقوا] على جميع شرائطنا ومطالبنا فالآن استولينا عليها وعلى كافة حصونها ودخلت بقبضتنا جميع قواتها من المعداة [كذا] الحربية وقبضنا

(1) IOR,R/15/5/25, No. 90. C, Political, Kuwait, to Hicom, Baghdad, dated 15-10-1921.

على محمد ابن طلال وعائلة الرشيد فالآن الحمد لله صارت من جملة ولاياتنا ورعايانا وبطل كل الحذر وعفونا عنهم عما سلف حينا بشارة سعادتكم بذلك فنرجو أن تبلغون [كذا] سمو فخامة المندوب السامي في العراق مع قبول احتراماتي..."(١).

وقد سعى ابن سعود بعد الاستيلاء على حائل لتألف قلوب سكانها، فلم يمارس ضدهم العنف أو الانتقام واكتفى بتعيين أحد أبناء أسرة آل سبهان المعروفة حاكما من قبله على المدينة وهو إبراهيم بن سالم السبهان، ثم عاد هو شخصيا إلى الرياض(٢). وكان من جملة شروط تسليم حائل نقل عائلة آل رشيد وبعض من سكان المدينة الآخرين إلى الرياض، وأن يقدم ابن سعود المساعدة لفقراء حائل الذين قاسوا كثيرا خلال الحصار. ومن أجل الإبقاء بالشرط الأخير اضطر ابن سعود لاقتراض حوالي عشرة آلاف جنيه إسترليني قابلة للدفع في الكويت.

وعند عودته للرياض اصطحب ابن سعود معه محمد بن طلال الرشيد وأربعة آخرين من آل رشيد، كما نقل معه كل الذخائر الحربية والأسلحة الموجودة في حائل ويضمنها سبعة مدافع وأربعة عشر رشاشا، واشترى إضافة لذلك كل مخزون الأسلحة والذخائر من تجار المدينة(٣).

وهكذا طويت للأبد صفحة الصراع المرير والطويل بين حائل والرياض. والملك لله سبحانه يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء وهو على كل شيء قدير.

---

(1) IOR,R/15/5/25, Reg. No. 180, Ibn Soud, to Pol. Ag., Kuwait, Recorded 19-11-1921

(2)IOR,R/15/5/25, No. 193. C, Political, Kuwait, to Highcom, Baghdad, dated 20-11-1921

(3)IOR,R/15/5/25, No. 207 C, Political, Kuwait, to Highcom, Baghdad, dated 5-12-1921

الفصل السادس

مشكلة قبيلة العجمان بين سنتى ١٩١٠ - ١٩١٩

مشكلة قبيلة العجمان بين سنتي ١٩١٠ - ١٩١٩

العجمان قبيلة عربية قحطانية تقع ديرتها في شرق شبه الجزيرة العربية ممتدة من صحراء الصمان في الشمال وحتى ميناء العقير (مدينة الدمام الحالية) على ساحل الخليج العربي. وقد قدر لوريمر تعداد هذه القبيلة في السنوات الأولى من هذا القرن بحوالي خمسة وثلاثين ألف نسمة، وقوتها المقاتلة بعشرة آلاف رجل، بينهم ألف خيال[١]. ولكن سليمان البسام كتب سنة ١٩٠٩ مقدرا تعداد هذه القبيلة بعشرة آلاف نسمة فقط[٢]. والأرجح أنه قصد مقاتلي تلك القبيلة بتقديره ذلك، بدليل أن الريحاني الذي زار المنطقة سنة ١٩١٥ قدر مقاتليها بخمسة آلاف رجل[٣]. ومهما يكن تعداد تلك القبيلة وعدد مقاتليها فقد اتصفت بقوة الشكيمة وشدة المراس، مما جعلها صعبة القياد لمن قدر لهم حكم منطقة الإحساء. فقد ناصبت القبيلة العثمانيين العداء وتكررت انتفاضاتها ضدهم منذ فرضوا حكمهم على الإحساء مجددا سنة ١٨٧١ وحتى زال ذلك الحكم سنة ١٩١٣[٤].

ويلاحظ أن علاقة هذه القبيلة مع الأمير عبد العزيز آل سعود، حاكم الرياض، بدأت منذ سنة ١٩١٠ بالتوتر، على الرغم من أنها لم

---

(١) لوريمر، ج.ج. ، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ترجمة ونشر ديوان حاكم قطر، الدوحة، د.ت، ج١، ص ٧٧.

(2) IOR,R/15/5/25, Enclosure in No. 23, H.B.M's Consul, Jeddah, to Sir G.Lowther, dated 15-5-1909.

(٣) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ط٦، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٢٣.

(٤) محمد عرابي نخله، تاريخ الإحساء السياسي، ١٨١٨ – ١٩١٣، الكويت، ١٩٨٠، ص ١٨٥ وما بعدها.

تكن خاضعة لحكمه المباشر، وعلى الرغم من أنها وقفت الى جانبه فى كثير من المعارك التى خاضها ضد خصومه بعد استرداده الرياض سنة ١٩٠٢ كما كانت تقف الى جانب أسلافه من قبل. ويدل على ذلك التوتر كثرة الحملات الحربية التى قادها الأمير ابن سعود ضد تلك القبيلة خلال السنة المذكورة. فقد وصلت الكويت فى السابع والعشرين من يناير ١٩١٠ أخبار تفيد بأن ابن سعود أغار على العجمان وغنم منهم عدداً كبيراً من الإبل دون ذكر لأسباب تلك الغارة. وأدت الحادثة الى خلاف داخل الأسرة السعودية. إذ أن أحفاد سعود بن فيصل آل سعود تدخلوا لدى ابن سعود راجين إعادة الإبل المسلوبة الى أصحابها لأنهم أخوالهم[1]. فانزعج ابن سعود من ذلك التدخل وأخبر ملتمسيه أنه حاكم يتصرف حسبما تمليه عليه ضرورات الحكم، ولذلك فلا سبيل لتلبية التماسهم. وأغضب رده هذا أحفاد سعود الذين كانوا يسمون بـ "العرائف"، فغادروا الرياض الى قرية "الرقيقة" الواقعة على مسافة نصف ساعة تقريباً من الإحساء مزمعين الإقامة هناك بين ظهرانى أخوالهم العجمان، وكتبوا لوالى البصرة العثمانى طالبين الإذن لهم بالإقامة هناك. وكان عدد العرائف الغاضبين تسعة أشخاص. وفى غضون ذلك الوقت كان الشيخ مبارك الصباح، حاكم الكويت، ناقماً على العجمان من جراء بعض الغارات التى شنوها على إبل عائدة للكويت، وكان يلح على ابن سعود كى يقوم بقسر العجمان على اعادة إبله المنهوبة[2].

---

(١) العجمان أخوال سعود بن فيصل آل سعود ثم تسلسلت الخؤولة فى ذريته من بعده.

(2) IOR,R/15/5/25, Extracts from Diary No. of the Koweit Political Agency for the week ending 2nd February1910.

وهكذا تهيأت أسباب صدام أوسع بين ابن سعود والعجمان فهو حريص على ضرب أية امكانية للتحالف ضده بينهم وبين أقربائه الغاضبين فى العرائف من ناحية. وهو مضطر للاستجابة لضغوط مبارك عليه لأنه حليفه الرئيسى فى هذه الفترة وواسطة اتصاله الوحيدة مع العالم الخارجى من ناحية أخرى.

ويبدو أن مباركاً أراد أن يسهل على حليفه ابن سعود سعيه للحيلولة دون تحالف العرائف مع العجمان لأن له موجدة على الأخيرين من ناحية، ولأنه محتاج فى هذه الفترة لتفرغ ابن سعود لمساعدته فى حملته المزمعة ضد سعدون بن منصور السعدون شيخ المنتفق من ناحية أخرى[1]. لذا أوفد مبارك رسولاً للعرائف عاد للكويت فى الحادى والعشرين من فبراير ومعه ثلاثة منهم هم سعود بن عبد العزيز بن سعود بن فيصل وسعود بن عبد الله بن سعود بن فيصل وفهد بن سعد بن سعود بن فيصل، بينما ظل الستة الباقون فى الرقيقة[2]. وأولئك الستة هم فيصل بن عبد العزيز بن سعود وتركى بن عبد الله بن سعود وعبد الله بن عبد العزيز بن سعود ومحمد بن عبد العزيز بن سعود وتركى بن عبد العزيز بن سعود وسلمان بن محمد بن سعود[3].

ولم يطل المقام فى الكويت باثنين من العرائف الثلاثة الذى

---

(١) خالد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت ١٩٠٢ – ١٩٢٢، الرياض ١٩٨٣، ص ص ١٢٥ – ١٢٧.

(2) IOR,R/15/5/25, Extracts from Diary No 8. of the Koweit Political Agency for the week ending 23rd February1910.

(3) IOR,R/15/5/25, Extracts from Diary No 9. of the Koweit Political Agency for the week ending 2nd March 1910.

وصلوا بدعوة من مبارك الصباح كما مر. فقد فر سعود بن عبد العزيز وسعود بن عبد الله من الكويت عائدين الى الرقيقة لأنهما أوجسا خيفة من أن يكون مبارك يدبر لهما شراً[1]. وما كاد هذان الهاربان يصلان الى الرقيقة وينضمان الى بقية العرائف هناك حتى تحالف الجميع مع فخذ السفران من قبيلة العجمان وهاجموا قبيلتي سبيع والسهول[2]. اللتين كانتا في طريقهما للانضمام الى ابن سعود والذى كان حينئذ في الكويت[3]. وقد جرح أثناء القتال بين الفريقين أحد العرائف وقتل عشرون من اتباعهم، وغنمت قبيلتا سبيع والسهول منهم حوالى ثلاثمائة بعير[4]. ولكن تلك الهزيمة لم تفت من عضد العرائف، إذ أنهم استمروا فى حشد الأنصار حولهم ونجحوا فى تجنيد عدد كبير من البدو[5].

وقد أغاروا بجموعهم تلك على قبيلة بنى خالد وغنموا منها غنائم كثيرة، ثم أغاروا بعدها على قبيلة المرة وفخذ السليمان من العجمان، ولكنهم دحروا وغنم المرة والسليمان منهم ستين بعيراً وستين بندقية وكبدوهم عشرة قتلى. وأفادت الأخبار أن شيوخ العجمان البارزين مثل ابن حثلين ومانع بن جمعة وغيرهما ارتحلوا شمالاً تجاه الكويت نائين بأنفسهم عن المشاكل[6]. ويدل هذا الخبر على أن العرائف لم يحوزوا

---

(1) IOR,R/15/5/25, Extracts from Diary No 11. of the Koweit Political Agency for the week ending 16th March 1910.

(٢) وردت فى الأصل الإنكليزى Usfool، ولعل صوابها كما أثبت فى المتن.

(3) IOR,R/15/5/25, Extracts from Diary No 13. of the Koweit Political Agency for the week ending 30th March 1910.

(4) IOR,R/15/5/25, Extracts from Diary No 14. of the Koweit Political Agency for the week ending 6th April 1910.

(5) IOR,R/15/5/25, Extracts from Koweit Diary No 26. For week ending 29th June 1910.

(6) IOR,R/15/5/25, Extracts from Koweit News for the week ending 6th June 1910.

تأييد قبيلة العجمان بأكملها حيث أيدتهم بعض أفخاذ منـــها وحاربتـــهم أفخاذ أخرى، بينما اعتزل شيوخ القبيلة الكبار الأمر كله.

ويظهر أن فشل العرائف فى الحصول على تأييد إجماعى من قبيلة العجمان جعلهم يبحثون عن سبيل آخر لصراعهم من ابن سعود. وتوفر لهم ذلك السبيل حين تمردت بلدتا الحوطة والحريق الواقعتان فى جنوب نجد ضد ابن سعود، فانضموا لذلك التمرد[1]. ولكن ابن سعود اســتطاع إخماده مما اضطر الطرائف للهروب نحو الجنوب ملتجئين الى حمـــى قبيلة الدواسر[2].

وليس مهماً هنا التعرف على تفاصيل ذلك التمرد وكيفية اخمــاده، ولكن المهم هو تقصى صلته بالعرائف وصلة هؤلاء بقبيلة العجمان. إذ يبدو أن العرائف استعانوا خلال ذلك التمرد بتأييد بعض أفخـــاذ تلــك القبيلة، يدل على ذلك أن ابن سعود أغار حوالى أوائل فـــبراير ١٩١١ على فخذى السفران والسليمان من قبيلة العجمان وبعضاً مـــن قبيلـــة الدواسر، وذلك فى موقع يسمى "الحمارة Al Hamarah" علـــى مســيرة حوالى يومين من الإحساء. وقد كللت غارته تلك بالنجاح وغنم بنتيجتها مائتين وخمسين بعيراً وأموالاً أخرى[3].

ويظهر أن شيوخ العجمان أرادوا تدارك الأمر قبل اتساعه فـأخذوا هدايا من الإبل لتقديمها الى ابن سعود وتسوية الخلاف معه. وقد قبـــل

---

(1) IOR,R/15/5/25, Extracts from Koweit news for the week ending 21st September 1910.

(2) IOR,R/15/5/25, Extracts from Koweit news for the week ending 16th November 1910.

(3) IOR,R/15/5/25, Extracts from Koweit news for the week ending 1st March1911.

ابن سعود الهدايا ولكنه سجن الشيوخ مخبراً إياهم أنه لا يكتفى بهداياهم فقط، ولكنه يريد منهم أيضاً أن يعوضوه عما نهبوه منه قبل أكثر من سنه. وأعلمهم أنهم سيظلون رهائن لديه حتى تتم الاستجابة لمطلبه. ويبدو أنهم لم يجدوا بداً من الإذعان حيث تفيد الأخبار التى وردت الكويت فى الأسبوع الأول من مارس ١٩١١ بأن قبيلة العجمان وأغلب شيوخها كانوا بمعية ابن سعود أثناء وجوده فى الأجزاء الشمالية من أراضيه المتاخمة للكويت والعراق(١).

ولكن ذلك الصفاء لم يدم طويلاً، فقد وصلت الكويت أخبار أخرى خلال الأسبوع المنتهى فى الخامس والعشرين من مايو ١٩١١ تفيد بأن ابن مسعود هاجم فخذ الظعن من قبيلة العجمان لسبب غير معلوم وغنم أموالهم، على الرغم من أن علاقة مانع بن جمعة شيخ ذلك الفخذ كانت طيبة دوماً مع بن سعود فى السابق. ووردت أخبار أخرى فى الأسبوع الأخير من الشهر نفسه تفيد بأن ابن سعود هاجم أيضاً افخاذ الدبلان والظامر والمحفوظ من العجمان فى منطقة الجوف قرب الإحساء وغنم حلالهم. وزحف ابن سعود بعدها على قرية الرقيقة الملاصقة لبلدة الهفوف وحاصر أهلها فى قلعة القرية التى تحتلها مفرزة عسكرية عثمانية. وقد طلب أهالى القرية المحاصرون تدخل متصرف الإحساء وتعهدوا بدفع كل ما يترتب عليهم من أموال من جراء أى اتفاق يتم بينه وبين ابن سعود. وكانت مطالب الأخير من المتصرف هى أن تعاد إليه كل ممتلكات أتباعه التى نهبت سابقاً وأن يغادر الإحساء وما جاورها كل من هو ليس عجمياً وأن يسمح له ببناء قلعة فى الرقيقة.

---

(1) IOR,R/15/5/25, Extracts from Koweit news for the week ending 8th March 1911.

وقيل أن المتصرف خلال لقائه بابن سعود عامله باحترام كبير ووعده بتلبية كافة مطالبه(١). ويمكن استنتاج سر تحرك ابن سعود هذا ضد العجمان عموماً ومن كان مقيماً منهم فى الرقيقة خصوصاً إذا تم التذكر بأن الرقيقة كانت مستقر العرائف بعد انشقاقهم عنه ومركزاً لعملياتهم ضده قبل سنة. ويرجح هذا الاستنتاج شرطه القاضى بوجوب مغادرة كل من هو غير عجمى للإحساء وما جاورها. إذ من المعتقد أن المقصودين بهذا الشرط هم بعض أتباع العرائف الذين تشتتوا بعد اخفاق تمرد الحوطة والحريق فذهب أحدهم الى البحرين حيث توفى هناك، وذهب ثان الى الشيخ جاسم آل ثانى حاكم قطر فأقام عنده، ولجأ خمسة آخرون الى كنف شريف مكة، بينما فضل اثنان منهم العودة الى ابن سعود والتراضى معه(٢).

وقد شعر العجمان فى الرقيقة أن من العسير عليهم تلبية مطالب ابن سعود لا سيما أنها تضمنت أيضاً أن يدفعوا له ثلاثة آلاف جمل وأن يستسلم له ثلاثون رجلاً منهم حتى يوقع بهم العقاب أو أن يدفع كل واحد من أولئك الرجال ثمانمائة روبيه فداء لنفسه من العقاب. ولذلك قرروا رفض الانصياع لتلك المطالب منكرين أنهم نهبوا سابقاً أية أموال عائدة لأتباع ابن سعود. واستطاعوا اقناع المفرزة العثمانية المتمركزة فى قلعة الرقيقة بالوقوف الى جانبهم، ثم أطلقوا واياها النار على قوات ابن سعود التى كانت تحاصرهم. ولم يرد ابن سعود على اطلاق النار بالمثل، بل فضل الانسحاب بعد أن شكى للمتصرف عمل

---

(1) IOR,R/15/5/25, Nos. C-30+C-31 of 1911, Political Agent, Kuwait to the Political Resident, Baghdad, dated 6-6-1911.

(2) IOR,R/15/5/25, Extracts from Koweit news for the week ending 5th April 1911.

مفرزة الرقيقة. وأعرب المتصرف له عن أسفه لذلك وأبدى استعداده لطرد أو سجن أفراد المفرزة الذين ارتكبوا ذلك العمل إذا ما رغب ابن سعود بذلك. ولكن ابن سعود فضل العفو عنهم ولكنه اشترط على المتصرف احتجاز فهد بن حثلين شيخ قبيلة العجمان العام وخميس بن منيحز شيخ فخذ السفران وإبقائهم رهن الاحتجاز الى أن تتم الاستجابة لمطالبه، فلبى المتصرف طلبه. وبعدها أمر ابن سعود رجاله باحراق كل خيام العجمان ومنازلهم المحيطة بقلعة الرقيقة[1].

ويلفت النظر هنا تهافت متصرف الإحساء على إرضاء ابن سعود، وهو تهافت لا يمكن تفسيره إلا بضعف قوة السلطات العثمانية حينئذ وقلة ما لدى المتصرف من قوات مما جعله يخشى قوة ابن سعود الذى كان يقوم بكل تلك العمليات فى أراضى يفترض أنها خاضعة للإدارة المباشرة للحكومة العثمانية ولا يحق له القيام بأى إجراء فيها دون موافقة تلك الإدارة.

ولم يمر وقت طويل حتى تجدد الصدام بين ابن سعود وقبيلة العجمان. فقد وردت للمقيم السياسى البريطانى فى بغداد أخبار تفيد بنشوب قتال عنيف بين الجانبين قرب نهاية شهر أغسطس ١٩١١، ألحقت خلاله قوات ابن سعود الهزيمة بالعجمان[2].

وهكذا ظل التوتر مخيماً على علاقة ابن سعود بالعجمان تتخلله صدامات دموية أحياناً الى أن قرر ابن سعود لدوافع كثيرة انتزاع

---

(1) IOR,R/15/5/25, Nes. C-44+C-45 of 1911, Political Agent, Kuwait, to the Political Resident, Baghdad, dated 4-7-1911.

(2) IOR, L/P+S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq during September 1911.

مقاطعة الإحساء من السلطات العثمانية. ومن أجل تنفيذ قراره تحرك ابن سعود على رأس قوة صغيرة من أتباعه نحو الهفوف عاصمة الإحساء. ولكنه خشى أن يصدر من العجمان ما يعرقل تنفيذ خطته فلجأ الى تدبير أبعدهم من خلاله عن الساحة مؤقتا حين أغراهم بغزو قبيلة مطير فى الشمال(١). حيث كانت مطير حينئذ قد انشقت عليه سنة ١٩١٢ وانضمت الى خصومه بإيحاء من السلطات العثمانية وبتدبير من عجمى السعدون شيخ المنتفق(٢). وهكذا تفرغ ابن سعود للمهمة التى قصد الإحساء من أجلها وتمكن من مباغتة الحامية العثمانية الصغيرة، فاستولى على الهفوف فى الخامس من مايو ١٩١٣ وعلى القطيف فى الخامس عشر منه(٣).

وقد فتح استيلاء ابن سعود على الإحساء وضمها الى ملكه باب الصدام على مصراعيه بينه وبين قبيلة العجمان. إذ أنه حاكم قوى يريد إحكام قبضته على مقادير الأمور فى مقاطعته الجديدة، بينما تريد قبيلة العجمان الاستمرار بالتمتع بالامتيازات التى حازتها نتيجة لضعف الحكم العثمانى السابق وعدم قدرته على فرض ارادته على قبائل الصحراء. فبعد أن كان شيوخ العجمان يأخذون من السلطات العثمانية أعطيات ومرتبات أكثر مما يدفعه أفراد قبيلتهم لها(٤).فرض عليهم حاكمهم الجديد ضريبة الرأس Poll tax ومنعهم من استيفاء الاتاوات

---

(١) الريحانى، المرجع نفسه، ص ٢٠٦.

(٢) صلاح الدين المختار، تاريخ المملكة العربية ا لسعودية، بيروت، د.ت.، ج٢، ص ١٣٧.

(3) FO 424/238, No. 33, Consul Crow to Sir G. Lowther, dated 32-5-1913.

(٤) لوريمر، المرجع نفسه، ج١، ص ٧٨.

التى كانوا معتادين على فرضها على من كان يمر بديرتهم من الغرباء[1].

وهكذا تقبلت قبيلة العجمان امتداد حكم ابن سعود الى الإحساء على مضض ولم تجابهه على الفور بالعداء، بل أظهرت استعدادها للتعاون معه من خلال اشتراكها فى حملاته الحربية وكان من ذلك اشتراك مقاتلتها معه فى المعركة التى نشبت بينه وبين خصمه ابن رشيد حاكم حائل فى يناير ١٩١٥. ولم تنته تلك المعركة بنصر ظاهر لأى من الخصمين، ولكن قبائل كل منهما قامت مدفوعة بغريزة النهب المتأصلة فى نفوس البدو بحمل ما وقع فى يدها من معسكرى الطرفين. وقد أسهمت قبيلة العجمان فى عملية النهب تلك فاحتازت مخيم حاكمها ابن سعود بعد أن كانت قد خذله ساعة اشتداد المعركة[2].

ولا شك أن هذا الموقف قد أثار سخط ابن سعود على القبيلة وهيج حفيظة ضغائنه القديمة ضدها، ولكنه لم يحاول معاقبتها على الفور من جراء الضعف الذى لحق به بعد تلك المعركة الى درجة جعلت الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين يقول ان ابن سعود فقد هيبته الى حد كبير جدا[3]. ولعل ابن سعود أراد التريث فى ايقاع العقاب بالعجمان الى أن يتوفر له المبرر الكافى لذلك.

وسرعان ما توفر ذلك المبرر، ولكن الروايات اختلفت فى تحديد

---

(1) IOR,R/15/5/25, No. 6553, "Relations between Ibn Saud and The Ajman and the recent history of the latter, "by Deputy Political officer, Basrah, dated 26-7-1961.

(٢) سعود بن هذلول، تاريخ ملوك آل سعود، الرياض، ١٩٦١، ص ١٠٥.

(3) IOR,R/15/5/25, keys, Bahrain, to Sir P.Cox, Basrah., dated 13-3-1915.

طبيعته. ويستحسن البدء برواية ابن سعود نفسه عن ذلك المبرر. فقد كتب رسالة استلمها منه الوكيل السياسي البريطاني في الثامن من يوليو ١٩١٥ وجاء فيها أن العجمان حلفاء للترك وأنهم استلموا منهم رشوة مبلغاً كبيراً من المال عن طريق ابن رشيد ولذلك كانوا هم أنفسهم سبب قتاله مع ابن رشيد. ومضى ابن سعود في رسالته قائلاً أن العجمان قاموا بعد ذلك بأنشطة واسعة على حدود الكويت ونهبوا أموالاً عائدة لها، لذا فإنه ما أن فرغ من ابن رشيد حتى طلب من العجمان اعادة أموال الكويت والرضوخ للعقوبة التي سيفرضها عليهم جزاءً لهم على ما ارتكبوه بحقه سابقاً، ولكنهم أبوا ذلك مما اضطره للصدام معهم[1]. ولابد من القول هنا أن اتهام ابن سعود للعجمان بموالاة الترك وابن رشيد وقبض الأموال منهم مما دفعة للتحرك ضد ابن رشيد لا يبدو منسقاً مع حقيقة اصطحابه للعجمان للاشتراك في معركته ضد الأخير، إلا إذا كان هدفه هو تحطيم ذلك الولاء السري من خلال دفع طرفيه للتقاتل فيما بينهما. أو لعل مرد ذلك الاتهام هو رغبته في إيغار صدور البريطانيين ضد العجمان، خاصة وأنه كان بأمس الحاجة الى الدعم البريطاني أثناء قتاله مع العجمان، كما سيمر.

أما سبب الخلاف مع ابن سعود من وجهة نظر عجمية فقد رواه حمد بن مقراد شيخ فخذ المحفوظ من قبيلة العجمان للوكيل السياسي البريطاني في البحرين حيث قال له أن رجالاً تابعين لضيدان بن حثلين الشيخ العام لقبيلة العجمان غنموا بعض الإبل والأغنام من قبائل كويتية في أوائل سنة ١٩١٥. وقد طلب ابن سعود من ضيدان إعادتها

(1) IOR,R/15/5/25, keys, Bahrain, to Sir P.Cox, Basrah., dated 8-7-1915.

لأصحابها، فأبدى الأخير استعداده لإعادة إبل عائدة لشخص اسمه ابن غنوان من أهالي الزبير، كانت ضمن الغنائم. أما ما يعود من تلك الغنائم لأهل الكويت فلا يسوغ إرجاعها لأنها معاملة بالمثل لهم على نهبهم لإبل عائدة للعجمان، علاوة على أن شيخ الكويت سجن أحد أفراد قبيلة العجمان. ومع كله ذلك فإن ضيدان قال لابن سعود أنه مستعد لإعادة الإبل للكويت إذا أصر عليه لفعل ذلك.

ولكن ابن سعود رد عليه بعدم الإصرار على إعادة إبل الكويت والاكتفاء بإعادة ما يخص أهل الزبير منها. وأضاف حمد أنه عند هذا الحد أوفد أخاه لابن سعود لإزالة أية آثار قد تكون عالقة في نفس ابن سعود من جراء هذا الأمر، فرحب ابن سعود بالوفد وطلب منه قدوم ضيدان نفسه إليه. و قد استجاب ضيدان للأمر وأخذ يهيئ عدداً من الخيل لأخذها معه هدية لابن سعود. وكان عبد الله بن جلوى يشجعه على ذلك حتى أنه أعطاه جواداً كي يضمه الى الخيل التي سيقدمها هدية لابن سعود. وفي هذه اللحظة التي كانت الأمور فيها تتجه نحو نهاية سعيدة للقضية ظهر العرائف من جديد على الساحة في الإحساء، فدمر ظهورهم أية فرصة للتفاهم(١).

ومن الغريب أن الوكيل السياسي البريطاني في البحرين كتب في الثالث من مارس ١٩١٥، أي قبل وقوع الصدام بين ابن سعود والعجمان بعدة أشهر، يقول أنه علم أن ابن سعود قد كتب رسائل الى ضيدان بن حثلين لمح له فيها بضرورة الهجوم على بعض أتباع مبارك

---

(1) IOR,R/15/5/25, No. 6-C, Keys, Bahrain, to the Political Resident in the Persian Gulf, Bassah.

الصباح شيخ الكويت. وذكر أن الانطباع السائد هو أن ابن سعود محتد جداً على مبارك، وأضاف أنه يحاول الحصول على تلك الرسائل[1].

ومهما يكن السبب فقد وصل ابن سعود من الرياض الى الإحساء فى أواخر شهر يونيو ١٩١٥ وأخذ يجمع الرجال استعداداً للقتال ضد العجمان. و كان ابن سعود حينها يعانى من ضائقة مالية اضطرته لأن يطلب من الشيخ عيسى آل خليفة، حاكم البحرين، أن يقرضه مبلغ عشرين ألف دولار. فاستجاب الشيخ لطلبه وأرسل له ثلاثة آلاف دولار نقداً وحوالة على الإحساء بمبلغ مماثل. ورتب أيضاً أن يدفع له مبلغ أحد عشر ألف روبية فى القطيف مقابل عشرة آلاف من[2] من التمور تسلم فى القطيف[3]. وطلب ابن سعود فى الوقت نفسه من شيخ الكويت موافاته بتعزيزات من الجند تعينه فى عملياته الحربية ا لمزمعة ضد العجمان[4].

وهكذا تهيأ المسرح للصدام بين الجانبين، وكانت بدايته اشتباكاً وقع بين قوات الجانبين فى أخر شهر يونيو ١٩١٥ حين وقعت طليعة قوات ابن سعود فى كمين نصبه لها العجمان قرب إحدى واحات القطيف وقتلوا خمسة رجال منها وحصلوا على الغنائم. ويبدو أن تلك المعركة تلتها أعمال انتقام عنيفة لأن شاهد عيان وجد فى اليوم التالى لوقوعها

---

(1) IOR,R/15/5/25, keyes, Bahrain, to Sir P.Cox, Basrah, dated 13-3-1915.

(٢) "من" وحدة وزن كانت تساوى فى البحرين ستة وعشرين كيلو غراماً. راجع حسين محمد القهوانى، دور البصرة التجارى فى الخليج العربى، البصرة، ١٩٨٠، ص ٤٩١.

(3) IOR,R/15/5/25, No. 29-c, Keyes, Bahrain, to Grey, Kuwait, dated 27-6-1915.

(4) IOR,R/15/5/25, No. 6553, Keyes, Bahrain, to Grey, Kuwait, dated 26-7-1916.

جثث بعض النساء والأطفال وبعض الإبل والخيول النافقة. يظهر أن هدف تلك المعركة هو السيطرة على الطرق الممتدة من الساحل الى الداخل. فعلى أثرها كان ألفان من رجال ابن سعود يسيطرون على بلدة القطيف الساحلية في حين كان العجمان يسيطرون على ما حول تلك البلدة حتى أنهم نهبوا بعض الأغنام بجوارها مباشرة. وقد أدت سيطرتهم تلك الى انقطاع الطريق بين الساحل ومدينة الهفوف في الداخل حيث كان ابن سعود بأمس الحاجة إلى المؤن. وكان ابن سعود حريصاً في الوقت نفسه على الحيلولة دون حصول أعدائه على التموين فكتب الى شيخي قطر والبحرين يلتمس منهما عدم السماح بتموين العرائف والعجمان في بلدتهما. وتلقى ذانك الشيخان في الوقت نفسه طلباً مماثلاً من العرائف. وقد رد الشيخ عبد الله آل ثان على العرائف بقوله أنه لا يستطيع عمل شئ لهم نظراً لصداقته لابن سعود، في حين رد الشيخ عيسى آل خليفة عليهم ناصحا إياهم بالتوصل الى السلام مع ابن سعود[1]. ومن الجدير بالذكر أن الشيخ عيسى كان قد حاول سنة ١٩١٤ اصلاح ذات البين بين العرائف وابن سعود، ولكن سعيه باء بالفشل لاتهام العرائف له بالميل الى خصمهم[2].

ولم يكن الصدام الذى وقع قرب القطيف هو الصدام الرئيسى، ولكن هذا وقع في موضع يسمى "كنزان" على بعد عشرين ميلاً غرب الهفوف. إذا حشد ابن سعود قوته المؤلفة من حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل من أهالى الإحساء وخمسمائة رجل من نجد، ثم شن

(1) IOR,R/15/5/25, No. 31-c, Keyes, Bahrain, to Sir P.Cox, Basrah, dated 4-7-1915.

(2) IOR,R/15/5/25, No. 6553, Keyes, Bahrain, to Sir P.Cox, Basrah, dated 26-7-1916.

هجوماً ليلياً على العجمان في الموضع المشار إليه، وكان عددهم قرابة ثلاثة آلاف مقاتل. وكان ابن سعود يظن أنه باغتهم بذلك الهجوم، في حين كانت عيونهم ترصد تحركه وتخبرهم بما تراه، ولذلك ما أن اقترب منهم حتى أصلوه بنار حامية وكبدوا قواته عدداً من القتلى بينهم أخوه سعد بن عبد الرحمن(١).

ومن الأفضل ترك ابن سعود نفسه يصف ما حدث. فقد كتب رسالة الى الشيخ عيسى آل خليفة حاكم البحرين جاء فيها: "أخبرك بأنني قمت في هذه الأيام بهجوم ليلي ضد العجمان. حيث أن معي قوة كبيرة وليست هناك استعدادات لنقل الماء ففكرت بأن الزحف ليلاً سوف يكون أبرد لقواتي بقدر تعلق الأمر بالماء لأن هذه الأيام حارة في هذه المنطقة كما تعلم، وحين وصلنا قربهم وجدناهم يقظين ومستعدين. فقد وضعوا مفرزة مراقبة متقدمة أطلقت النار حين كان العرب [يقصد العجمان] مازالوا بعيدين عنها. وربما أن بعضاً من قواتي كانوا جاهلين بطرق القتال فقد ظلوا حيث هم وبدأوا بإطلاق النار من بعيد حيث لا أحد كان قريباً منهم. وحين رأيت أن النهار أخذ بالطلوع وثبت أن الهجوم عديم الجدوى انسحبت الى بلدتي العزيزة [يقصد الهفوف] سالماً بحمد الله. لقد منوا بخسارة كبيرة حيث قتلنا عدداً كثيراً منهم، بينما لم يقتلوا بحمد الله إلا عشرين رجلاً من رجالي ليس بينهم أحد من البارزين سوى أخي سعد بن عبد الرحمن الذي سقط بعيداً. وستكون عاقبتهم الخسارة إن شاء الله حيث أنني أنتظر الآن وصول العرب

---

(1) IOR,R/15/5/25, No. c-26, Grey, Kuwait, to the Pol-Res- in the P.G., Bushire, dated 23-7-1915.

ورجال القبائل من نجد. لم تكن لدى قبل انحدارى للإحساء معلومات جيدة عنهم [يقصد العجمان]. وسألقاهم إن شاء الله عاجلاً أو آجلاً وستسمع حينها أخباراً طيبة بإذن الله". وقد أضاف الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين وهو ينقل نص تلك الرسالة قوله أن معلومات وردته تفيد بأن ابن سعود خسر أثناء تلك المعركة سبعين قتيلاً من الحاضرة وستين قتيلاً من البادية علاوة على مائة أسير. وقد أطلق العجمان سراح الأسرى من البدو، كما أطلقوا سراح قلة من الحضر مقابل فدية(١).

وكتب ابن سعودٍ رسالة أيضاً الى الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين استلمها فى السابع من يوليو ١٩١٥، وجاء فيها: "... أود اخبارك عن العرائف الذين لمحت لك سابقاً أنهم كانوا فى عمان وأن أهل عمان خاصة ابن زايد(٢) وأتباعه يساعدونهم. وسبب عملهم هذا هو صداقتى مع الحكومة البريطانية. وهم يهدفون الى التحاق العرائف بالعجمان فى القتال ضدى لأن الأخيرين أصدقاء للترك ومنضمون للحزب الذى يناصرهم... أن معاونة العرائف وأهل عمان والأموال التى أرسلها لهم ابن رشيد قد عززت من اتجاهم لارتكاب أعمال الشر ولهذا السبب حصل قتال بينى وبينهم. لم أكن قد أمرت قواتى بالقدوم للإحساء فى حينها، ولكنى الآن أمرت اتباعى وأهل نجد بالقدوم خلال عشرة أيام إن شاء الله وسيتحقق هدفى بمعاقبتهم ونبحهم بعون الله...".

---

(1) IOR,R/15/5/25, No. 36-c, keyes, Bahrain, to Sir P.Cox, Basrah, dated 12-7-1915.

(٢) قصد بـ "عمان" ساحل الإمارات العربية. أما ابن زايد فهو الشيخ حمدان بن زايد حاكم ابو ظبى.

وقد علق الوكيل السياسى على هذه الرسالة بقوله أن ما جاء فيها ربما كان محاولة لتبديد آثار الإشاعات التى راجت فى البحرين منذ يومين عن اندحار ابن سعود[١].

وحين اطلع الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت الشيخ مبارك الصباح على مضامين رسالة ابن سعود هذه نفى مبارك أن تكون صداقة ابن سعود مع البريطانيين هى سبب مساعدة أبو ظبى للعرائف، أو أن تكون هناك صداقة بين العجمان وابن رشيد، أو أن يكون الأخير قد أرسل لهم أية أموال تركية. وأضاف مبارك أن تلقى رسائل تطلب عونه فى كل من العرائف وابن سعود. وقد رد على طلب العرائف بنصحه إياهم بالصلح مع ابن سعود، بينما لام فى رده على ابن سعود هجومه على عدوه ليلا وتعجله فى ذلك الهجوم بدلا من انتظار وصول قواته من نجد أو وصول القوة الكويتية التى سيرها مبارك لنجدته بقيادة ابنه سالم. واشترط مبارك على ابن سعود مقابل تلك النجدة قبوله للخطة الحربية التى اقترحها عليه وهى إخلاء بلدة الهفوف من أغلب قوات ابن سعود التى يجب أن تتمركز فى بساتين النخيل المجاورة للبلدة. ثم يشن بعدها هجوم على العجمان فى ثلاث جهات فى وقت واحد[٢].

ويتضح من معلومات أدلى بها أمير ميناء العقير أن النجدة الكويتية كان ينتظر وصولها للإحساء فى الثامن من يوليو، أما التعزيزات القادمة من نجد تحت قيادة محمد بن عبد الرحمن، أخى ابن سعود،

(1) IOR, R/15/5/25, keyes, Bahrain, to Sir P. Cox, Basrah, dated 8-7-1915.

(2) IOR, R/15/5/25, No. c-26, Grey, Kuwait, to the Pol-Res- in the P.G., Burrah, dated 23-7-1915.

والبالغ عددها ألفى رجل فكان يتوقع وصولها قبل ذلك التاريخ(١).

ولكن ثبت فيما بعد أن تلك التوقعات كانت متفائلة بعض الشئ، إذ لم تصل النجدة الكويتية فى ذلك الموعد. كما خاب أمل ابن سعود فى التعزيزات التى وصلته من نجد نظراً لقلة عددها وأخذ يشكو فى الوقت نفسه من قلة مقاتليه الإحسائيين الذين عزا بعض من حضر القتال فى كنزان سبب اندحار بن سعود الى جبن الحضر منهم. ولعل هذه العوامل جميعها علاوة على نقص الذخيرة لدى ابن سعود هى التى جعلته يلتزم خطة النفس الطويل فى قتاله مع العجمان. فقد بعث رسالة الى شيخ البحرين يقول فيها أنه يقضم بتأن العجمان الذين يضعف مركزهم بينما يقوى مركزه هو باستمرار. وطلب من الشيخ امداده بذخيرة بنادق. وكان شيخ قطر أيضاً قد أمده ببعض الذخيرة ولكنها وقعت بأيدى العجمان. وقد سلم الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين الشيخ عيسى آل خليفة خمسة آلاف وخمسمائة طلقة ليرسلها الى ابن سعود(٢). وفى غضون ذلك كانت الاشتباكات الحربية مستمرة، ففى أوائل شهر أغسطس ١٩١٥ استلم الشيخ عبد الله بن عيسى، ابن حاكم البحرين، رسالة من أحد العرائف تفيد بأنهم خاضوا وقعات عديدة مع ابن سعود بعد معركة كنزان، قتلوا خلالها كثيراً من رجاله ومن بينهم شيخ قبيلة بنى هاجر، وغنموا بعض خيول ابن سعود الأصيلة. وأضافت الرسالة ان أتباع العرائف والعجمان أحرار فى الذهاب الى القصيم والكويت والقطيف، بينما ابن سعود محاصر عملياً فى الهفوف

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 36-c, Grey, Kuwait, to the Pol-Res- in the P.G. Burrah, dated 12-7-1915

(2) IOR, R/15/5/25, No. 37-c, keyes, Bahrain, to Sir P-cox, Basrah, dated 22-7-1915

التى لا يمنعهم من اقتحامها سوى ما يمتلكه ابن سعود من مدفعية. وقد عقب الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين على ما جاء أعلاه بقوله أن ابن سعود ليس محاصراً فى الهفوف لأن رسله يأتون الى ميناء العقير كثيراً. ولكنه قانط جداً حسبما يعتقد شيوخ البحرين بناء على معلومات الرسائل التى يستلمونها من البر[1].

وحدث فى أواخر شهر أغسطس ١٩١٥ اشتباكان صغيران آخران فى موقع أقرب بشكل جلى الى قلعة الهفوف من الاشتباكات السابقة. وكانت الروايات بشان الاشتباكين متضاربة، ولكن يظهر أن عجمان حققوا فيهما فوزاً طفيفاً حسب قول الوكيل البريطانى فى البحرين الذى ذكر أيضاً أن ابن سعود أصيب أثناء القتال بجرح فى رجله، ولكنه لم يكن بليغاً الى درجة تسقطه عن ظهر جواده[2].

بيد أن طبيب ابن سعود الخاص أفاد فيما بعد أن ابن سعود جرح فى معركة كنزان جرحاً خطيراً، ثم أصيب فى معركة تالية بجرح أخف من سابقه[3]. ومهما يكن حال ذلك الجرح فإن ابن سعود ذكر فى رسالة وصلت منه للوكيل السياسى البريطانى فى البحرين فى منتصف سبتمبر ١٩١٥ أن اعداءه اصبحوا مطوقين تماماً وأنه سيوافيه بأخبار طيبة قريباً. وأشار الوكيل الى عدم تطرق ابن سعود فى رسالته الى حدوث أى اشتباك مع خصومه. وأضاف أنه سمع من مصادر أخرى

(1) IOR, R/15/5/25, No. 49-c, keyes, Bahrain, to Sir P-cox, Basrah, dated 5-8-1915.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 66-c, keyes, Bahrain, to Sir P-cox, Basrah, dated 9-9-1915.

(3) IOR, R/15/5/25, No. 66-c, keyes, Bahrain, to Sir P-cox, Basrah, dated 4-12-1915.

عن حدوث اشتباك صغير آخر كان الفوز فيه حليف ابن سعود[1] وكتب لعامله فى القطيف رسالة تفيد بأنه دحر العجمان فى حوالى الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩١٥ بعد أن خسروا خمسين قتيلاً وثلاثين من الخيل. وقال أنه لاحقهم فى اليوم التالى الى قرية الصويدرة حيث قصف ظاهرها بمائتين وخمسين قذيفة مدفع وعندها هرب العجمان بعيداً بحيث لم يتمكن من الاطباق عليهم بسبب نقص تعاون خيالته. وأضاف أن مجموع قتلى العجمان من جراء هذه المعركة بلغ ثلاثمائة قتيل من الرجال والنساء والأطفال. ولكن الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين نقل عن مصادر عجمية اعترافها بأنهم انسحبوا فعلاً من جراء النيران الكثيفة التى انصبت عليهم، وكانت أغلبية خسائرهم من النساء والأطفال[2].

وقد كتب ابن سعود رسالة للوكيل السياسى البريطانى فى البحرين واصفاً ما جرى فى تلك المعركة بقوله: "... أن تصميمنا وغاراتنا المتكررة قد أرهقتهم فهربوا خلال الليل من المكان الذى تم فيه عقابهم تاركين الكثير من القتلى والجرحى والدبش. وأرسلنا على أثرهم مفرزة من خيالتنا لذبحهم فألحقت بهم خسارة فادحة، ولكنهم تمكنوا من التمركز فى موقعهم الدفاعى المخندق الذى أعدوه فى مكان يدعى الصويدرة شرق الإحساء. وبعدها أرسلنا جزءاً من قواتنا تسنده المدفعية الخفيفة تمركز فى موضع مقابل الموقع المذكور، وشننا ضدهم عند شروق الشمس هجمة مخططة باسناد من المدفعية. ولقد تراجعوا

(1) IOR, R/15/5/25, No. 58-c, keyes, Bahrain, to Sir P-cox, Basrah, dated 4-10-1915.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 58-c, keyes, Bahrain, to Sir P-cox, Basrah, dated 4-10-1915.

لعدم قدرتهم على الصمود لهجماتنا بعد أن تكبدوا خسارة فادحة في الأرواح وفي المواشي التي تركوها. وسنجلب الآن جيشنا(١) الذي كنا قد أرسلناه الى نجد نتيجة لندرة المراعي بجوار الإحساء وسنطارد عند وصوله بقية أولئك الناس الهاربين، وسنرسل لك الأخبار الطيبة عن محقهم ومعاقبتهم إن شاء الله"(٢).

وكتب ابن سعود في العاشر من أكتوبر ١٩١٥ رسالة الى السير برسي كوكس جاء فيها أن العجمان بعد هزيمتهم في الصويدرة انقسموا قسمين اتجه أحدهما إلى الشمال طلباً لملجأ لدى ابن رشيد حاكم حائل واتجه الثاني جنوباً نحو قبيلة المرة. وأضاف أنه حين سمع بذلك أعد قوتين من الفرسان والمشاة لمطاردتهما. وقد استطاعت القوة التي اتجهت جنوباً اللحاق بالمتمردين فاشتبكت معهم وكبدتهم خسائر جسيمة تفرقوا على أثرها في الصحراء، بينما ذهب كبيرهم سليمان بن محمد آل سعود مع ستة من أتباعه الى أبو ظبي للحصول على ملجأ لدى الشيخ حمدان بن زايد. أما القوة التي اتجهت شمالاً فلا زالت تطارد المتمردين ويؤمل أن تفلح في إيقاع العقاب بهم(٣).

ويظهر أن كوكس أراد أن يتيقن من دقة المعلومات التي وردته من رسالة ابن سعود هذه فأبرق لكل من الوكيلين السياسيين البريطانيين في الكويت والبحرين طالباً إفادته عما إذا كان ابن سعود قد دمر العجمان

---

(١) المقصود بـ "الجيش" هنا هو أبل الركوب، ولكن مترجم الوكالة البريطانية توهم أن المقصود هو المعنى الحرفي لكلمة "جيش" باللغة العربية ولذلك ترجمها بكلمة Army.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 60-c, keyes, Bahrain, to Sir P-cox, Basrah, dated 11-10-1915.

(3) IOR, R/15/5/25, Letter date 30th, Dil Qadah 1333/10th October 1915 from Shaikh Abdul Aziz bin Abdw Rahman Al Faisal to the Hon'ble Sir Percy Cox.

حقا[1]. وقد رد الوكيل السياسى فى البحرين على الاستفسار بقولـــه أن الروايات الواردة من العقير والإحساء تقلل دائماً مـــن منجـــزات ابـــن سعود، ولكن يعتقد أنها أقرب الى واقع الحال من رواية ابـــن ســـعود نفسه. وأضاف أن آخر معلوماته تفيد بأن العجمان تراجعوا وهم بحالـة حسنة على الرغم من أنهم عوملوا بعنف من قبل مدافع ابن سعود، وهم الآن على مسيرة أيام من العقير. وعلى العموم فإن الهزيمة التى لحقت بهم هزتهم بعنف لدرجة أنهم لم ينجحوا فى اعـــتراض قافلـــة كبـــيرة غادرت العقير الى الإحساء حوالى العاشر من أكتوبر ١٩١٥.

وذكر الوكيل أن سلمان بن محمد آل سعود انفصل عن العجمـــــان وهو موجود فى مكان ما داخل قطر. ولكن فهد بن ســـــعد آل ســـعود لازال موجوداً مع العجمان[2].

أما الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت فقد رد علـــى استفســـار كوكس بالقول أن قوة العجمان موجودة آنئذ قرب شاطئ الخليج علـــى مسافة قصيرة شمال القطيف وهى مطوقة من جهاتها البريـــة الثـــلاث بقوات نجد وقوة الكويت وقبيلة بنى خالد وقبائل أخرى.

وقد حاول العجمان اختراق ذلك الحصار ولكن قبيلة بنـــى خـــالد ردتهم على أعقابهم بعد أن كبدتهم ستة وثلاثين قتيلاً وثلاثمائة أســـير. وتوقع الوكيل أن يتم استسلام العجمان المحاصرين جماعةً قريباً. ولكن ذلك الاستسلام لم يحدث سريعاً كما توقع الوكيل فقد أبرق هو نفسه بعد

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 2619B, Holland, Basrah to Grey, Kuwait, and Keyes, Bahrain, dated 28-10-1515

(2) IOR, R/15/5/25, keyes, Bahrain, to Holland, Basrah, dated 28-10-1915.

ستة عشر يوما مبينا أن وضع العجمان لازال على حاله وأضاف أن العرائف خسروا فهد بن سعد الذى قتل أثناء الصدام السابق بين العجمان وبنى خالد.

ولكن العجمان وان لم يستسلموا على الوفر لمحاصريهم جعلهم الوضع اليائس الذى أصبحوا فيه يتلمسون وسيلة تنجيهم من دمار رهيب. لذلك توجه ضيدان بن حثلين شيخ القبيلة العام وخميس بن منيحز فخذ السفران، وهما قائدا العمليات الحربية ضد ابن سعود الى سالم بن مبارك قائد القوة الكويتية المشاركة فى حصار العجمان وعرضا عليه التوصل الى سلم بين الجانبين. وقد رد سالم عليهما بأنه لا يملك صلاحية البت بالأمر، وأن عليهما تقديم عرضهما إما لوالده الشيخ مبارك أو لابن سعود نفسه ولكنه ضمن لهما الحماية الكاملة عند ذهابهما لأى واحد من الاثنين يفضلونه. وتقرر بعد المداولة أن يتجه ضيدان مع قلة من أتباعه الى الكويت حيث يقوم بإعلان تسليمه غير المشروط لمبارك، بينما يبقى خميس بن منيحز بمعية سالم بن مبارك. وقد وصل ضيدان بالفعل للكويت فى العشرين من شهر نوفمبر ١٩١٥ واستقبله مبارك الصباح استقبالا حسنا وقبل منه خضوع العجمان بشرط التزام القبيلة بسلوك حسن فى المستقبل.

وتصادف أن وصل فى الثانى والعشرين من الشهر نفسه الى الكويت رسول من ابن سعود لمبارك يحمل رجاءه بعدم التعامل مع شيوخ العجمان. ولكن الوقت كان قد فات على تلبية ذلك الرجاء، هذا إن كانت هناك امكانية لتلبيته من حيث المبدأ. وقد علق الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت بعد أن نقل كل الذى حدث أعلاه، فقال: "ربما ظهر من النظرة

الأولى أن نهاية الحملة، مهما كانت مرضية من وجهة نظر انسانية، قاسية قليلاً لابن سعود لأنه، بصرف النظر عن خسارته لأخيه سعد، قد قاسى على أيدى العجمان أكثر كثيراً مما قاسوه هم على يديه. ولكن ربما جودل رداً على ذلك بالقول أن ابن سعود، بدون عون الكويت له، كان سيغدو عديم القوة على مواصلة عملياته بعد هزيمته فى الهجوم الليلى الذى خسر فيه سعد حياته. وأن وعود العجمان لمبارك تتضمن تعهداً بالخضوع لسلطة أمير نجد والإحساء الذى يقيم فى أراضيه عدد كبير جداً منهم. ويعتقد بأن ابن سعود، بعد أن يتبدد شعوره الأولى بالضيق، يمكنه أن يدرك أن إمكانية التعاون المستقبلى مع العجمان ترجح على الرضا مهما كان الذى ربما سيشعر به لو استأصل شأفة الفخذين اللذين وقفا ضده فى الميدان[1]. ولذلك ليس من الواجب علينا [يقصد البريطانيين] أن نفعل شيئاً غير المصادقة على السلم الذى عقد، ولكنى اعتقد أننا يمكن أن نظهر بجلاء عطفنا على متاعب ابن سعود ورغبتنا بمساعدته فى حفظ النظام فى المستقبل من خلال إيلاء بعض الاهتمام بالدور الذى لعبه حمدان بن زايد الخليفة شيخ أبو ظبى فيما يتصل بهذا الأمر..."[2].

وقد حالت وسائل الاتصال البدائية المتاحة حينئذ لأبن سعود بينه وبين العلم السريع بما تم فى الكويت، وعلية فقد كتب للوكيل السياسى البريطانى فى البحرين يخبره بأن العجمان تراجعوا فى بداية شهر نوفمبر ١٩١٥ من قرب العقير الى الجبيل حيث دحرهم رجال قبيلة

---

(١) لعله يقصد فخذى الحتلين والسفران اللذان صمدا دون بقية الأفخاذ للنهاية.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 64-c, keyes, Bahrain, to Sir P-cox, Basrah, dated 27-11-1915.

بنى خالد هناك. ولذلك فإنه يطلب من الشيخ عيسى آل خليفة أن يقرضه زورقه البخارى كى يستقله الى ميدان المعركة فى الجبيل[١].

ولكنه علم بعد حين بما جرى فى الكويت فكتب فى السابع والعشرين من نوفمبر ١٩١٥ للوكيل السياسى فى البحرين قائلاً: "... فيما يتعلق بسؤالكم عن توجهى للجبيل وزيارتى للبحرين لقد أخبرتكم فى رسائلى الماضية التى أرسلتها بعد هرب القبيلة المذكورة من جوار الإحساء بأننى قد صممت على مطاردة بقية الهاربين. وحيث أنكم تعرفون من رواياتى السابقة لسعادتكم أننى أرسلت جيش لعالية نجد نتيجة لنقص المراعى، لذا فقد قررت متابعة العدو عن طريق البحر، ولكنى حين استلمت الأخبار السارة المنبأة بهربهم اعتقدت أنه يكفى إرسال أخى محمد بن عبد الرحمن مع قوة كافية لحراسة الطريق براً... انهم [يقصد العجمان] قد اتجهوا نحو الشمال وسمعت أنهم طلبوا من ابن صباح أن يتوسط لهم عندى من أجل الصفح عما فعلوه، ولا يخفى عليكم أننى ما قاتلتهم إلا لاعتدائهم على رعايا كويتيين مارين عبر أراضيهم والآن يرجونى ابن صباح أن أعقد الصلح معهم، وهذا مخالف للحكمة ومناقض للقوانين المرعية بين الدول[٢]. ولم يقر ابن سعود الاتفاق الذى تم بين مبارك الصباح والعجمان. فقد كتب للوكيل السياسى البريطانى فى البحرين مفيداً بأن مباركاً يضغط عليه من أجل قبول عروض سلام قدمها العجمان الموجودون على حدود الكويت، ولكنه يرفض ذلك[٣].

(1) IOR, R/15/5/25, No. 64-c, keyes, Bahrain, to Sir P-cox, Basrah, dated 27-11-1915.

(2) IOR, R/15/5/25, Letter dated 19th, of Muharram 1334 (27th November 1915) from Abdul Aziz bin Abdur Rahman to Major T.H. keyes.

(3) IOR, R/15/5/25, No. 65-c, keyes, Bahrain, to Sir P-cox, Basrah, dated 4-12-1915.

أما وقد وصلت متابعة الأحداث التي جرت في ميدان القتال الـــى هذه المرحلة فيحسن التعرف على دور الأطراف الخارجية التي أسهمت في تلك الأحداث بشكل أو آخر، ومحاولة تعليل اسهامها ذلك. وأهم تلك الأطراف بالتأكيد كان هو الطرف البريطاني الذي كان ذا نفوذ مــهيمن على منطقة الخليج العربي حينئـــذ. ويلاحــظ أن موقــف الســلطات البريطانية كان داعماً لابن سعود منذ بداية المشكلة. فقد مر آنفاً إرسال الوكيل السياسي البريطاني في البحرين أكثر من خمسة آلاف طلقة لابن سعود عند بدء المعارك. وما لبثت السلطات البريطانية طويـــلاً حتـــى أمدته مرة أخرى بعدد لم تحدده الوثائق البريطانية من البنادق والذخيرة التي سبق للقوات البريطانية أن غنمتها من حروبها في العـــراق مـــع القوات العثمانية[1].

وبعد فترة وجيزة من ذلك طلب ابن سعود من السلطات البريطانيـة قرضاً مالياً، فأحال السير برسي كوكس الطلب الى مراجعه العليا للبت فيه. ولكنه لم ينتظر حتى يصله قرار تلك المراجع بل أمر في الخامس عشر من سبتمبر ١٩١٥ بمنح ابن سعود عشرة آلاف روبيـــــة فـــوراً ومثلها بعض مضى شهر من ذلك التاريخ[2]. وقد درست حكومة الـــهند طلب ابن سعود وأوصت باقرار اعطائه قرضاً بمبلغ عشرين ألف جنيه يسترد منه على اقساط ملائمة. وأوصت علاوة على ذلك بمنحة ألـــف بندقية ومائتي ألف طلقة[3]. وقد أقرت الحكومة البريطانيـــة توصيـــة

(1) IOR, R/15/5/25, No. 51-c, keyes, Bahrain, to Sir P-cox, Basrah, dated 15-9-1915.

(2) IOR, R/15/5/25Cixm Gasrah, To C.C., Henjam, dated 15-9-1915.

(3) IOR, R/15/5/25, No. 1030-s, The Viceroy to the sec-of St- for India, dated 7-10-1915

حكومة الهند بشأن القرض، ووافقت على تزويد ابن سعود بالأسلحة المطلوبة عند توفر أنواع ملائمة غير مطلوبة لأغراض عاجلة[1]. ولم تكتف السلطات البريطانية بالدعم المالى والعسكرى لابن سعود ولكنها حرصت أيضاً على مساعدته من خلال حرمان أعدائه من أية مساعدة تصلهم من الخارج مثلما سيتضح ذلك من الفقرات التالية. ومن الحرى بالقول هنا أن بريطانيا لم تفعل كل ذلك حرصاً على صداقة مجردة تربطها مع ابن سعود، ولكن خدمة لمصالحها بالمقام الأول، فقد رغبت بمساعدته على تجاوز محنته هذه كى يتفرغ لمساعدتها فى جهودها الحربية الجارية ضد أعدائها العثمانيين ولو عن طريق تحييد حليفهم فى المنطقة ابن رشيد حاكم حائل على الأقل.

والطرف الخارجى الثانى الذى وقف الى جانب ابن سعود فى ذلك الوقت الحرج هو مبارك الصباح شيخ الكويت. فقد أرسل نجدة حربية لابن سعود بقيادة ابنه سالم اشتركت اشتراكاً فعلياً فى مقاتلة العجمان ومحاصرتهم حتى لقد قيل أن سالماً أصيب بجرح فى ذراعه أثناء العمليات[2]. كما أمد مبارك ابن سعود بأسلحة وذخيرة وصلت محملة فى "يوم" رسا فى ميناء العقير حسب المعلومات التى وردت للبحرين[3]. ويلاحظ على الرغم من ذلك كله أن دعم مبارك لابن سعود كان دعماً محسوباً بشكل دقيق. فحين أنفذ مبارك ابنه سالماً على رأس قوة النجدة أمره بأن يقف فى آبار الصبيحية الواقعة على بعد عشرين

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 1093-s, Foreign, Simlay to Cox, Basrah, dated 29-10-1915.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 49-c, Foreign, Simlay to Cox, Basrah, dated 7-9-1915.

(3) IOR, R/15/5/25, No. 61-c, Keyes, Bahrain, to Sir P. Cox, Basrah, dated 18-10-1915.

ميلاً فقط عن الكويت انتظاراً لإشعار آخر منه. وحين جاءه ذلك الإشعار فيما بعد تضمن أمراً له بمواصلة السير للانضمام لابن سعود ولكن دون أن يقدم له مساعدة فعالة حتى يستجيب لخطة مبارك المقترحة للقتال مع العجمان التى مر شرحها. وجاءت بعد ذلك ثالثة الأثافى حين قبل مبارك عروض السلام التى قدمها العجمان دون أن يشاور حليفه أولاً كما يفترض، خاصة وأن ذلك الحليف هو المعنى الأول بالمشكلة، علاوة على أن سبباً رئيسياً من أسباب صدام ذلك الحليف مع العجمان هو تعديهم على ممتلكات عائدة لرعايا كويتيين. ولكن كل تلك الأفعال التى تبدو متناقضة فى الظاهر هى متناغمة فى حقيقتها وتعكس سياسة كان مبارك يتمسك بها منذ زمن وتقضى بابقاء كفتى ابن سعود وخصومه متعادلتين بشكل يمكنه من أن يصبح الوزن المرجح الذى يسعى الجانبان كلاهما لإرضائه كى لا يرمى بثقله إلى إحدى الكفتين فترجح على الأخرى.

وقد ساعد شيخا قطر والبحرين ابن سعود أيضاً ـ إذ أمده الشيخ عبد الله آل ثانى ببعض الذخيرة، كما سمح لركائبه بالرعى فى الأراضى القطرية نتيجة لقلة المراعى فى الإحساء(1). ثم إنه اعتذر عن تقديم العون لخصومه حين طلبوه منه.

ولا شك أن دافع الشيخ عبد الله لذلك هو حرصه على حسن العلاقة مع جاره القوى ابن سعود، لا سيما وأنه كان على خلاف مع جاريه فى البحرين وأبو ظبى الذى أظهر شيخها ميلاً واضحاً للمتمردين ضد ابن

(1) IOR, R/15/5/25, No. 37-c, Keyes, Bahrain, to Sir P. Cox, Basrah, dated 22-7-1915.

سعود كما سيمر، فمن الطبيعى أن يميل خصمه الشيخ عبد الله للناحية المقابلة. أما شيخ البحرين فقد كان موقفه متعاطفا مع ابن سعود من خلال اقراضه بعض المال وامداده بكمية من الذخيرة. وكان ذلك الموقف نابعا من حرصه على عدم اساءة علاقته مع جاره القوى من ناحية، ومماشاة منه للدعم البريطانى لابن سعود، وهو الحريص على إرضاء الجانب البريطانى، من ناحية أخرى. وشذ عن هذا التعاطف من ابن سعود شيخ أبو ظبى حمدان ابن زايد الذى اتهمه ابن سعود بأنه العامل الرئيسى فى خلق المشكلة وطالب البريطانيين بمعاقبته لأنه لا يستطيع هو شخصيا القيام بذلك لكون ذلك الشيخ تحت الحماية البريطانية[1].

وكان سبب حنق ابن سعود الشديد هذا على الشيخ حمدان عائدا لاستقباله بعض العرائف ثم امدادهم ببعض الذخيرة أثناء احتدام المعارك. فقد أخبر عبد الله القصيبى وكيل ابن سعود فى البحرين والوكيل السياسى البريطانى فى البحرين فى السابع والعشرين من يوليو ١٩١٥ أن أربعة صناديق ذخيرة مرسلة من أبو ظبى الى المتمردين قد أنزلت على شاطئ البحرين فى موقع يسمى "أم حسن". وعلى إثر ذلك طلب الوكيل البريطانى من شيخ البحرين القبض على تلك الصناديق. ولكن الشيخ رد بأنه لا يريد أن تسوء علاقته مع العرائف أكثر مما هى سيئة الآن، ولذلك فهو يفضل أن يقبض عليها الوكيل البريطانى نفسه. فذهب ذلك الوكيل بالفعل الى أم حسن ووجد أن تلك الصناديق كانت قد أنزلت على الساحل من قارب قطرى لأن شيخ قطر

(1) IOR, R/15/5/25, Letter dated 30th Dil Qada 1333 from Ibn Saud....

منع انزالها على شواطئ بلاده مما اضطر الزورق لجلبها الى أم حسن بانتظار الحصول على قارب آخر ينقلها الى شاطئ الإحساء . ولكنها أعيد تحميلها على القارب نفسه الذى جلبها فى صباح اليوم التالى نتيجة لعدم تعاون السكان المحليين فى أم حسن[1]. ولا يبدو أن ذلك القارب كان هو الوحيد الذى حاول نقل الذخيرة للمتمردين، ففى نهاية شهر سبتمبر أخبر أمير القطيف الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين أنه جرت مطاردة لقارب محمل بالذخيرة للعرايف فى ساحل الظهران حتى البديعة فى البحرين. ومع أن جهود الوكيل السياسى أخفقت فى العثور على ذلك القارب إلا أنه طلب من شيخ البحرين ألزام كل القوارب المتجهة من البحرين الى البر المقابل بالخضوع للتفتيش الكمركى وحمل أوراق رسمية. وعلاوة على ذلك كله تصادف فى أثناء القتال أن استولت قوات ابن سعود على حقيبة سلمان بن محمد آل سعود، وعثر فيها على عدة رسائل موجهة له ولابن رشيد حاكم حائل من حمدان بن زايد شيخ أبو ظبى واخوته[2].

ولم يثر ذلك التأييد المادى والمعنوى من جانب شيخ أبو ظبى للمتمردين استياء ابن سعود فقط، بل واستياء بعض المسؤولين البريطانيين كذلك.. فقد كتب الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت فى الخامس والعشرين من نوفمبر ١٩١٥ معلقاً على موقف الشيخ حمدان بن زايد قائلاً: "إن هذا الرئيس الذى هو مثل غيره من شيوخ الساحل الآخرين على علاقات تعاهدية معنا قد اشترك فى المؤامرة ضد ابن

(1) iOR, R/15/5/25, No. 46-c, Keyes, Bahrain, to Sir P. Cox, Basrah, dated 22-7-1915.

(2) IOR,R/15/5/25, No. 61-c Keyes, Bahrain, to Sir P. Cox, Basrah, dated 22-7-1915.

سعود من خلال تزويد أو محاولة تزويد أعدائـــه بـــالذخيرة الحربيـــة وتأمين ملجأ لسلمان العرائف علاوة على تحريض قبيلة المرة علـــى مساندة العجمان. فإذا خولت مستقبلا بالقيام بزيارة الى قطر بخصـوص المعاهدة المقترحة مع الشيخ عبد الله بن جاسم فربما سيكون من الملائم أيضا السماح لى بالتوجه الى أبو ظبى وعرض وجهة نظرنـــا علـــى الشيخ حمدان بن زايد حول تصرفه فى هذا الأمر..."(١).

ولابد من التساؤل هنا عن السبب الذى حدا بشيخ أبو ظبى لانتـهاج هذا الموقف الصريح فى انحيازه ضد ابن سعود. ولعل ذلـــك السـبب كامن فى الصراع الطويل الأمد بين الرياض وابو ظبى حـــول ملكيـــة البريمى، بل وتطلع الدولة السعودية بأدوارهـــا الثلاثـــة الـــى فـــرض سيطرتها على ساحل عمان كله وليس على البريمى فقط. ولذلـــك رأى حمدان بن زايد أن خير وسيلة لمواجهة أية أخطار محتملة من جـــانب ابن سعود هى اشغاله بالمشاكل داخل بيته، ســـيما وان موقفـــه تجـــاه مشيخات الخليج قد تقوى كثيرا مـــن خـــلال علاقتـــه الجديـــدة مـــع البريطانيين ابتداء من أواخر سنة ١٩١٤. فلربما خشى حمدان بن زايد أن تدفع تلك العلاقة البريطانيين الى غض بصرهم عن توجهات ابـــن سعود نحو الساحل بعد أن أصبح حليفا لهم أو كاد.

ولعل ما يتمم الفائدة التعرف على مصير العرائـــف بعـــد اخفـــاق حركتهم والعجمان. ويظهر أن اثنين فقط من العرائف هما اللذان اسهما فى تلك الحركة أو أنهما لعبا دورا بارزا فيها غطى على نشـــاط بقيـــة

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. c- 37 of 1915, Keyes, Bahrain, to Sir P. Cox, Basrah, dated 25-11-1915.

العرائف. وهذان الرجلان هما سلمان بن محمد آل سعود وفهد بن سعد آل سعود. وقد قتل الأخير أثناء الصدام بين العجمان وبنى خالد كما مر. أما سليمان فقد انسحب من ميناء العقير الى الوكرة فى قطر فى أكتوبر ١٩١٥، واتجه منها الى أبو ظبى ثم الى قبيلة المرة. ولم يهدأ له بال هناك بل حاول الحصول على ركائب تمكنه من العودة للانضمام الى العجمان المحاصرين قرب جبيل فى الشمال[١]. وحين أخفق فى محاولته هذه اتجه الى جزيرة السرو بمعيته أربعة عشر رجلاً مسلحاً وذلك فى أواخر سنة ١٩١٥. وحين وصلت هذه المعلومة لمسامع الوكيل البريطانى فى البحرين اقترح على رؤسائه السماح له بالتوجه على ظهر سفينة حربية لاعتقال سلمان لأن ذلك الإجراء سوف يكون له تأثير ممتاز على امتداد الساحل بأكمله، كما أنه سيقنع ابن سعود بأن البريطانيين حريصون على مساندته[٢]. ولكن تلك الفكرة لم تتحقق لأن سلمان غادر جزيرة السر الى أبو ظبى ولكن شيخها رجاه مغادرة أراضيه، فكتب عندها الى شيخ قطر طالباً السماح له بالقدوم الى قطر. بيد أن الشيخ عبد الله اشترط عليه أن يعد بالتوصل الى سلام مع ابن سعود قبل السماح له بالقدوم الى قطر. وحين وافق سلمان على ذلك الشرط وقدم التعهد المذكور ذهب الى قطر[٣]. وقد توسط عبد الله آل ثانى بعد ذلك بين القريبين اللدودين[٤]. وأسفر توسطه عن موافقة ابن

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 64-c, Keyes, Bahrain, to Sir P. Cox, Basrah, dated 27-11-1915.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 6-c, keyes, Bahrain, to the Deputy Political Resident, Bushire, dated 4-1-1916.

(3) IOR, R/15/5/25, No. 64-c, Keyes, Bahrain, to Sir P. Cox, Basrah, dated 27-11-1915.

(4) IOR, R/15/5/25, No. 19-c, keyes, Bahrain, to the Pol-Res-in the P-G-, Bushire, dated 12-2-1916.

سعود على العفو عن سلمان واستقباله فى الرياض(١).

وإذا كان ذلك هو مصير آخر العرائف فإن مصير حلفائهم العجمان كان أكثر تعقيداً. إذ بعد أن اتفق مبارك الصباح وإياهم كما مر سمح لهم بالإقامة فى أراضيه ــ ولكنه ما لبث طويلاً حتى توفى فى التاسع والعشرين من نوفمبر ١٩١٥[٢].

وكان على خليفة جابر بن مبارك معالجة هذه المشكلة التى أصبحت تعكر علاقات الكويت بابن سعود. وقد بادر الأخير حال سماعه بوفاة مبارك الى كتابة رسالة ودية الى جابر أعاد فيها تأكيد موقفه الرافض للصفح عن العجمان وطالب جابراً بترحيلهم عن الكويت أو الأراضى المجاورة لها، فاضطر جابر للاستجابة لطلبه وأمر العجمان بالرحيل عن أراضيه. وقد أخبر جابر المقيم السياسى البريطانى فى الخليج أن عدد مقاتلى العجمان المرحلين عن أراضيه يبلغ حوالى ألفى مسلح بينهم حوالى مائتى خيال، وعبر عن اعتقاده فى أنهم سيحاولون الحصول على حماية من ابن رشيد[٣].

ولكن جابراً على الرغم من أنه رحل العجمان عن أراضيه ارضاءً لابن سعود إلا أنه حسب المعلومات السرية التى نمت لعلم الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت عقد معهم اتفاقاً سمح لهم بموجبه بدخول الكويت بين آونة وأخرى لأغراض التموين، وتعهدوا فيه من

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 28-c, keyes, Bahrain, to the Pol-Res-in the P-G-, Bushire, dated 29-2-1916.

(٢) حسين خلف الشيخ فزعل، تاريخ الكويت السياسى،بيروت، ١٩٦٢، ج ٢، ص ٢٩٩.

(3) IOR, R/15/5/25, "Note regarding interview with shaikh of Kuwait on 31st December 1915 "by Sir Percy Cox.

جانبهم بأن لا يضايقوا أى أحد فى أراضى الكويت وأن يعتبروا قبيلتى العوازم والدواسر وبعض قبيلة بنى خالد أصدقاء لهم حتى لو قابلوهم خارج حدود الكويت. وأفاد الوكيل السياسى أيضاً أن ضيدان بن حثلين شيخ العجمان أرسل عن طريق عجمى السعدون شيخ المنتفق رسالة الى قائد القوات العثمانية فى العراق بتاريخ الثانى عشر من يناير ١٩١٦. وجاء فى الرسالة: "أنك تعرف وتدرك بأننا كنا رعاياكم منذ أخذتم الإحساء، وكنتم تعيلوننا منذئذ وحتى أخذ ابن سعود الإحساء منكم. وقد صممنا هذه السنة على استعادتها وذلك ما كدنا أن نفعله لولا مساعدة ابن صباح لابن سعود. ونحن الآن رهن أوامرك وأوامر عجمى وإذا استطعنا الحصول على مائتى رجل [يقصد جندى نظامى] ومدفعين منكم فسوف نستعيد الإحساء بعون الله. نحن تحت تصرفك مهما كان أمرك[1].

وظلت السلطات البريطانية تتابع تحركات العجمان المرحلين عن الكويت. فكتب الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت فى الثالث من مارس ١٩١٦ يقول أن ضيدان وخميس شيخى فخذى الحثلين والسفران مع أربعة آلاف وثلاثمائة من تابعيهم موجودون فى جلاوه[2]. وهم بشكل جلى على علاقة صداقة مع عجمى السعدون. أما فخذ المتلقم Matalaggam[3] الذى يبلغ عدد مقاتليه أربعمائة رجل فهو موجود مع

(1) IOR, R/15/5/25, No. c-3 of 1916, Grey, Kuealt, to the Pol. Res. In the P.G., Basrah, dated 2-2-1916.

(٢) جلاوة بالجيم الفارسية موقع صحراوى به آبار شمال غرب الزبير.

(٣) لم يورد لورمير وهو يعدد أفخاذ قبيلة العجمان فخذاً بهذا الاسم. راجع: لوريمر، المرجع نفسه، ج١، ص ٧٨ و ما بعدها.

حمود السويط شيخ قبيلة الظفير والذى يوجد معه أيضا ابن طواله شيخ الأسلم من شمر. وهذه المجموعات الثلاث على علاقة صداقة وثيقة فيما بينهما[1].

وحيث أن ابن سويط وابن طواله كانا على علاقة جيدة مع السلطات البريطانية، فهذا يدل على أن فخذ المتلقم من العجمان فضل الارتباط بالبريطانيين بينما فضل فخذا الحتلين والسفران الارتباط بالعثمانيين. وهكذا حطمت الظروف وحدة هذه القبيلة مستقرا واتجاها سياسيا. وكان الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين يتابع أيضا تحركات العجمان فقد كتب فى الرابع من يناير ١٩١٦ قائلا أن حمد بن مقراد رئيس فخذ المحفوظ من العجمان وصل من الكويت وانضم الى حاشية الشيخ حمد بن عيسى، ابن حاكم البحرين، ولكن ابن سعود حين علم بوصوله طلب من شيخ البحرين عدم التوسط له لديه لأنه لن يصغى لشفاعته فيه. وأضاف الوكيل أنه سمح لابن مقراد بالبقاء ضمن حاشية الشيخ حمد شريطة أن لا يغادر البحرين لأى مكان دون إذن مسبق منه. وقال أيضا أن الكثيرين من العجمان يصلون بالسفن من الكويت الى البحرين بحثا عن عمل. ولكن ليس لأكثرهم، إن لم يكن لهم كلهم، أى اتجاه لمواصلة الصراع مع ابن سعود[2].

ولم تكن لابن سعود قناعة مثل قناعة الوكيل هذه، فظل يراقب تحركات العجمان فى البحرين بحذر كبير ويشعر الوكيل السياسى البريطانى فى البحرين بما يصله من معلومات عنها. فقد كتب له فى

---

(1) IOR, R/ 15/5/25, Grey, Kuwait, to the Chief Political Officer, asrah, dated 3-3-1916.

(2) IOR, R/ 15/5/25, No. 6-c, dated 4-1-1916.

فبراير ١٩١٦ يعلمه بوصول كل من مانع بن مزيدان وراسم بن خليفة وسعد بن صغير وآخرين من قبيلة العجمان الى البحرين، ويخبره بأنهم لا يميلون الى الهدوء ويحتمل أن يسببوا مشاكل انطلاقاً من قطر أو من ساحل عمان إذا ما تركوا أحراراً.

ولذلك فمن الضرورى للوكيل مراقبتهم بدقة واتخاذ الاجراء اللازم لمنعهم من ارتكاب عمل مؤذ ثم طردهم من البحرين بشكل كلى. ورجا ابن سعود الوكيل عدم اخبار شيخ البحرين بالأمر لأنه رجل فيه غفلة ولا يريد تعكير صفو العلاقات الودية معه لأنه يعتبره مثل والده[١]. وكان وكيل ابن سعود فى البحرين أيضاً يخطر الوكيل السياسى البريطانى بأية تحركات مريبة للعجمان. فقد أخبره بوصول ثمانية عشر رجلاً مسلحاً من العجمان بحراً من الكويت، وأعرب له عن خشيته من أنهم ينوون التسلل الى تلال الظهران حيث يهيمنون منها على طريق العقير ـــ القطيف ـــ وحصل من الوكيل السياسى على تعهد بمنعهم من مغادرة البحرين الى البر المقابل. ثم انتهى أمرهم بإرجاعهم الى الكويت فى الثانى من فبراير ١٩١٦ بموجب قرار من حاكم البحرين[٢].

وقد أبرق رئيس الضباط السياسيين البريطانيين السير برسى كوكس فى الثالث عشر من شهر فبراير ١٩١٦ الى الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت قائلاً أن المعلومات التى وصلته تشير الى أن

---

(1) IOR, R/ 15/5/25, Letter dated Rabi –ul- Thani 1334 (February 1916) from Shaikh Abdul Aziz bin Abdur Rahman to Major T.H. keyes.

(2) IOR, R/ 15/5/25 No. 19-c, dated 12-2-1916.

العجمان المتمردين حصلوا على ملجأ لدى عجمي السعدون وابن رشيد كما كان متوقعاً، ولكنهم لا يبدون حالياً عنصــراً ذا أهميــة خطــيرة. وأضاف يقول بما أن الوضع على هذه الشــاكلة فليــس مــن صــالح بريطانيا ولا صالح ابن سعود أن يعيش العجمان مع أعــداء بريطانيــا ويحصلوا فى الوقت نفسه على تموينهم من الكويت بموجــب ترتيــب بينهم وبين الشيخ جابر. وطلب من الوكيل تذكير الشيخ بمخاوف ابــن سعود من اتخاذ الكويت مركزاً لتموين العجمان، والتأكيد عليه بضرورة منعهم من التمون من الكويت[1].

وقد رد الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت على كوكــس فــى الثانى عشر من مارس ١٩١٦ بقوله أن كــل ارتبــاط بيــن الكويــت وأقسام من قبيلة العجمان التى انضمت لعجمي وفخذ العبدة من شــمر انتهى منذ عدة أسابيع مضت، وليس مسموحاً لها الآن بــالمجئ الــى الكويت أو الحصول على تموين منها. وتاريخ بدء ذلك الحظر هو اليوم الذى علم فيه أنها اختارت السبيل المذكور، ولأنها بعد ذلك نهبت بعض أبل الكويت داخل الأراضى الكويتية مما أوجد سبباً إضافيــاً للعــداء. ولذلك فليست هناك اتفاقية بينهما وبين الشيخ جابر الذى يعتبرهــا الآن عدوة له ولنا[2].

ولم يكن العجمان خلال ذلك كله قابعين فى مثاويهم الجديدة راكنين للدعة، ولكنهم كانوا يتحينون الفرص لمضايقة خصومهم. فقــد شــنوا

---

(1) IOR, R/ 15/5/25, No. 691, Cox, Basrah, to the Pol. Agent, Kuwait, dated 13-2-1916.

(2) IOR, R/ 15/5/25, No. c-16, Grey, Kuwait, to the Chief Political Officer, Basrah, dated 12-3-1916.

غارة خلال شهر مايو ١٩١٦ على قبيلة مطير حدث خلالها قتال بين الجانبين[1]. ولم يلبث العجمان إلا قليلاً حتى أغاروا قرب الصمان على أبل يبلغ عددها مائة بعير عائدة لأحد آل بسام كانت قادمة من نجد الى الكويت فاحتازوها[2].

وأعد نائب رئيس الضباط البريطانيين في البصرة في يوليو ١٩١٦ مذكرة تفصيلية عن تحركات العجمان بعد ترحيلهم عن الكويت كما مر. فذكر أن العجمان الذين وصلوا للكويت بعد قتالهم الفاشل مع ابن سعود يعدون أكثر من ألف مقاتل بقليل، وحين رحلوا من الكويت غادر حوالى ألف وأربعمائة مقاتل منهم فقط الأراضي الكويتية بينما تقسم البقية في مجموعات صغيرة بقيت في الكويت. وقد توقف مائتان من الألف والأربعمائة قرب جبل سفام حيث طلبوا في مايو ١٩١٦ موافقة شيخ الزبير على السماح لهم بالإقامة حول آبار سفوان الواقعة عند حافة أراضي الكويت الشمالية، فأجيبوا الى طلبهم[3].

أما البقية فإنهم انضموا جميعاً الى عجمي السعدون. وازداد عدد المقيمين منهم تدريجياً حول آبار سفوان. ولكن وصول ابن رشيد الى المنطقة غير الموقف فقد دعا العجمان المقيمين في سفوان للانضمام اليه في صدامه مع حمود بن سويط شيخ قبيلة الظفير وضاري بن طواله شيخ الأسلم، فاستجاب لدعوته زهاء ثلاثمائة مقاتل غادروا

(1) IOR, R/ 15/5/25, Grey, Kuwait, to Sir P-Cox, Basrah, dated 22-5-1916.

(2) IOR, R/ 15/5/25, No. C-43 of 1916, Grey, Kuwait, to the chief Political Officer, Basrah, dated 15-5-1916.

(٣) لاريب أن تلك الاستجابة جاءت بعد موافقة السلطات البريطانية لأن شيخ الزبير كان من اتباع البريطانيين وأتمر بأوامرهم ولا يجرؤ على اتخاذ قرار وقتل هذا دون موافقتهم.

سفوان دون استئذان شيخ الزبير، بيد أنهم أرسلوا له رسالة شفهية بعد مغادرتهم بيوم واحد تفيد بأن مغادرتهم لا تعنى أن نواياهم غدت عدائية تجاه البريطانيين. كما انضم الى ابن رشيد كل العجمان المقيمين مع عجمى السعدون الذى لم يبق معه منهم إلا خميس بن منيحز شيخ السفران وحوالى خمسين رجلاً من أتباعه. ولكن نقص التموين الذى أخذ العجمان المنضمون لابن رشيد يعانون منه جعلهم يتفرقون من حوله فعاد كثير منهم الى عجمى السعدون حتى بلغ عددهم ما بين مائتين الى ثلاثمائة مقاتل، كما عاد كثيرون للإقامة حول آبار سفوان، ولم يبق مع ابن رشيد فى العجمان سوى ضيدان بن حثلين الشيخ العام للقبيلة وعدد من أتباعه. وختم نائب رئيس الضباط السياسيين مذكرته بالقول أن توزيع العجمان أصبح فى أواخر يوليو ١٩١٦ هو ما بين ستمائة الى سبعمائة مقاتل يقيمون فى سفوان وحوالى مائتين الى ثلاثمائة مع عجمى السعدون وحوالى مائة مقاتل مع ابن رشيد، بينما انضمت مجموعة صغيرة الى ضارى بن طواله شيخ الأسلم فى شمر(١).

وقد حصل فى غضون شهر يوليو ١٩١٦ميل للتصافى بين ابن رشيد حاكم حائل وجابر المبارك شيخ الكويت. وكان لذلك تأثير على وضع العجمان بحكم تحالف شيخهم مع ابن رشيد كما مر. ولم تكن تلك التطورات خافية على ابن سعود فكتب الى رئيس الضباط السياسيين البريطانيين فى البصرة فى الخامس عشر من أغسطس ١٩١٦ رسالة

(1) IOR, R/ 15/5/25, No. 6553, Grey, Kuwait, to the chief Political Officer, Basrah, dated 26-7-1916.

جاء فيها: "... عليّ أن أخبرك أيضاً بأنني علمت مؤخراً بأن العجمان الذين كانوا مؤخراً مع ابن رشيد قرب الزبير توصلوا نتيجة للسلام بين ابن رشيد وابن صباح الى تفاهم مع ذنيك الرئيسين، وذلك بعد مغادرة ابن رشيد مباشرة من تلك الأنحاء أثر احتكاكه مع ابن طواله وابن سويط. ومفاد ذلك التفاهم هو ان العجمان سيستقرون فى أراضى ابن صباح. وهذا أمر لا يجب أن يكون. فقد بينت لمعاليك حول العجمان وموقفى منهم. إنهم رعاياى الخارجون على القانون وسبب تمردهم هو المساندة التى تلقوها من ابن صباح. واقامتهم فى الكويت ستسبب بالتأكيد احتكاكاً بينى وبين ابن صباح لأن رعاياى مصممون على استمرار العداء مع العجمان وأنا كذلك..."(١). ولكن ذلك الاحتكاك الذى توقعه ابن سعود لم يقع. إذ زار ابن سعود الكويت فى نوفمبر ١٩١٦ بدعوة بريطانية وتم خلال تلك الزيارة الاتفاق بينه وبين السير برسي كوكس والشيخ جابر المبارك على أن يقدم العجمان بضمانة بريطانية كويتية مشتركة تعهداً بعدم قيامهم بأية أعمال عدائية ضد ابن سعود. ولكن وفاة جابر المبارك بعد حين وانتهاج خلفه سالم المبارك لسياسة متشددة تجاه ابن سعود أثار مشكلة العجمان مجدداً. حيث أخذت عناصر من تلك القبيلة تغير من ملاجئها فى العراق على أطراف أراضى ابن سعود. وكانت فى غاراتها تلك تمر فى الأراضى الكويتية سواء بالتواطؤ مع الشيخ سالم أو برضاه الضمنى(٢). وحين تأزمت العلاقات بعد حين بين ابن سعود وسالم دعا الأخير بعض العجمان

---

(1) IOR, R/ 15/5/25, Letter from Abdul Aziz bin Abduw Rahman to the Chief Political Offiecer, Basrah, dated 15-8-1916.

(2) Philby, H. , Arabian, Judilee, London, 1952, pp. 62-4.

للإقامة فى أراضيه[1].

غدت عودة العجمان للإقامة فى الكويت واستمرار غاراتهم على أراضى ابن سعود أحد الحوائل بين الأخير وبين التفرغ للعمل ضد ابن رشيد حاكم حائل مثلما كان البريطانيون يريدون. لذا أخذ الأخيرون يسعون لحل هذه المشكلة، وارتأوا أن يوفدوا بعثة بريطانية لابن سعود من مهامها إزالة ما بينه وبين سالم المبارك من خلافات، ومن بينها مشكلة قبيلة العجمان.

وكانت البعثة مؤلفة من هاملتون الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت وهارى سنت جون فلبى أحد موظفى الإدارة البريطانية فى العراق. وقد وصلت البعثة الى الرياض فى نوفمبر ١٩١٧ وتطرقت مباحثاتها الى مشكلة العجمان حيث لام ابن سعود سالماً لايوائه العجمان مجدداً فى الكويت على الرغم من علمه بعدائهم له، وطالب بترحيلهم من الكويت ثانية[2].

وقد استجابت السلطات البريطانية لرغبة ابن سعود هذه، حين جمع الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت مشايخ العجمان فى الرابع من مارس ١٩١٨ ووقعهم على اتفاقية نصت على عفو السلطات البريطانية عن خرقهم للتعهد الذى قدموه فى نوفمبر ١٩١٦ وقبولها وضعهم تحت حمايتها لفترة تمتد سنة بعد نهاية الحرب العالمية الدائرة حينئذ.

---

(١) فتوح عبد المحسن الخترشى، تاريخ العلاقات السياسية البريطانية ـ الكويتية ١٨٩٠ ـ ١٩٢١، الكويت، ١٩٧٤، ص ٩٢.

(٢) عبد العزيز الرشيد، تاريخ الكويت، بيروت، ١٩٧١، ص ٢٣٧.

واشترطت الاتفاقية عليهم مغادرة أراضى الكويت وعدم دخولها مستقبلاً وعدم تموينهم منها وقررت أن يقيموا مؤقتاً فى أطراف الزبير لحين تحديد مكان آخر لاقامتهم. وتعهدت الحكومة البريطانية بمنح أولئك المشايخ مرتبات مالية إذا ما نفذوا التزاماتهم بموجب تلك الاتفاقية(١).

وقد أثبتت الوقائع اللاحقة أن تلك التسوية لم تكن مكيفة الأساس، فما كاد فلبى يعود للرياض ليستقر فيها ممثلاً مقيماً للحكومة البريطانية لدى ابن سعود حتى أخذ يرفع لمراجعه تقارير عن أنشطة جديدة للعجمان وعن شكايات من ابن سعود ضدها. فقد كتب فى السابع عشر من يوليو ١٩١٨ أنه استلم معلومات تفيد بأن جماعة مؤلفة من مائة رجل من العجمان والأسلم انحدرت مع الساحل عبر أراضى الكويت وشنت غارة محققة على أحد أفخاذ قبيلة المرة ثم هاجمت قبيلة سبيع بين القطيف والإحساء وغنمت منها ثلاثة أذواد من الأبل، ولكن سبيع طاردت المغيرين واستردت ابلها بعد أن قتلت خمسة رجال منهم وأسرت ثلاثة.

وذكر أن قادة العجمان المغيرين هم خميس بن منيحز وعيد بن متلقم وكومان بن مسيعية. بينما كان قائد الأسلم هو سطام بن طوالة أخو ضارى. وقد وفرت قبيلة العوازم وشيخها راعى الفهما الحماية للمغيرين. وجاء فى إفادات الأسرى أنهم أغاروا قبل ذلك على قافلة نجدية خارجة من الكويت تحت قيادة وكيل ابن سعود وغنموا منها

(١) فرغل، المرجع نفسه، ج٤، ص ٢٠٧.

خمسين جملاً. وذكر فلبى أن ابن سعود كان يحذر الشيخ سالم طيلة الأشهر الماضية من مكيدة يدبرها العجمان مع راعى الفهما شيخ العوازم، ولكن سالماً كان يرد عليه بنفى علمه بالأمر وأنه سوف يقوم بالتحقيق ومعالجة القضية. وأشار فلبى الى أن لديه رسالتين من سالم بهذا الشأن. وأضاف أن قبيلة سبيع استفسرت من ابن سعود عما ينوى فعله رداً على تلك الغارة وأن ابن سعود بدوره يسأل عما ينوى البريطانيون فعله. وعبر فلبى عن اعتقاده بوجود شك قليل فقط باطلاع سالم التام على تحركات تلك الجماعة المغيرة واغفاله اتخاذ اجراءات لمنعها. ولم يستبعد امكانية اطلاعه المسبق على خططها، ولذلك فهو يتحمل مسئولية الأمر بشكل جازم خارقاً تعهداته لابن سعود فى رسالتيه المشار إليهما كما أن العجمان بأعمالهم هذه يخرقون اتفاقيتهم مع الجانب البريطانى. وختم فلبى تقريره بالقول: "إن هذه وقائع أخرى جديدة تسبب امتعاضاً واسعاً فى نجد وتجعل الأمور صعبة للغاية لابن مسعود ولى. وستنجم عواقب وخيمة إذا سمح لهذا النوع من الأمور بالاستمرار إلى ما لا نهاية. إن ابن مسعود يشكو من أننا لا نمنحه دعمنا. ألتمس أن ينال هذا الأمر اهتماماً جدياً عاجلاً، وأقترح التفكير بما يلى لمعالجة الحالة:

١- منع كل المسايلة[1] عن العجمان والأسلم ويضمنهم ضارى الى أن يتم تسليم قادة الجماعة المغيرة والإبل المنهوبة، وفى هذه

---

(١) "المسايلة" هى التمون من سوق معينة بالحاجات الأساسية التى تتطلبها حياة قبيلة ما بإرسال قوافلها لتلك السوق، ولعل التسمية من "السبيل" حيث تسلك القوافل سبيلاً معيناً للوصول الى تلك السوق.

الحالة يجب أن يرمى أولئك القادة فى السجن.

٢- أن يحذر سالم من أن حدوث غارة أخرى من قبل العجمان أو شمر عبر أراضى الكويت أو قبائلها سيترتب عليه عزلة أو عمل خطير آخر. ويجب أن يدعى سالم أيضا لمعاقبة راعى الفهما بشكل يرضى البريطانيين.

لقد نال سالم قدرا كبيرا من حرية العمل، ولا يتوقع منا أن نتوانى معه إلى مالا نهاية بينما نفقد ثقة ابن مسعود بشكل واسع..."(١).

وما كاد تقرير فلبى هذا يصل الى الوكيل السياسى فى الكويت حتى بادر بالكتابة مؤكدا بأن اتخاذ السلطات البريطانية لإجراء قوى هو الوسيلة الوحيدة لإيقاف أمثال تلك الغارة واستعادة الهيبة البريطانية. واقترح، إذا وافقت مراجعه العليا على مبدأ استخدام القوة الحربية، أن يتمركز رتل متحرك صغير فى الجهراء قرب الكويت بالتعاون الأسمى مع شيخ الكويت لكبح تلك الغارات(٢).

وما لبث هذا الوكيل إلا أياما حتى طور فكرته فاقترح أن تقيم السلطات البريطانية على الفور مركزا عسكريا فى سفوان لحراسة آبار المياه ودفن بقية الآبار المجاورة التى لا تخضع لسيطرة ذلك المركز. وأن يخول ابن سعود احتلال آبار حفر الباطن وأن يرتب مع شيخ الكويت لاحتلال آبار الصفا علاوة على ما لديه حاليا من قوة فعلية فى الجهراء قوامها ثلاثمائة رجل. وبذلك كله يتم التحكم بالطرق التى قد

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M109, Philby, Rigadh, to Political, Baghdad dated 18-7-1918.

(2) IOR, R/15/5/103, No. 110-c, Political Kuwait, to Political, Baghdad, dated 4-8-1981.

يسلكها المغيرون. ومضى الوكيل فى اقتراحه قائلا أن من المستحسن تخويله إخبار الشيخ سالم أن البريطانيين سيتخذون بأنفسهم إجراء إذا حدثت غارة أخرى عبر الأراضى الكويتية. وختم الوكيل اقتراحه بالقول أن العجمان وضارى بن طواله مصدر دائم للمشاكل وأثبتوا أنهم غير جديرين بالثقة فمن الأفضل اعتبارهم أعداء صريحين لبريطانيا وسوقهم بالقوة حالما تكون الإجراءات المقترحة أعلاه قد استكملت، وبهذا تمكن مواجهة مشكلة الغارات[1].

وعلق وكيل المندوب السامى البريطانى فى بغداد على ما جاء فى تقرير فلبى وعلى مقترحات الوكيل السياسى فى الكويت بقوله أن الشكوى فى الغارات، حسبما يدعى شيخ الكويت، انعكاس لسوء العلاقات بينه وبين ابن سعود. وسوء العلاقات مؤخرا عائد بصورة أولية بقرار السلطات البريطانية عدم إرسال قوات الى الكويت من أجل تفعيل إجراءات الحصار الاقتصادى والاكتفاء بوضع مسؤولية تفعيلية بين يدى الشيخ. إذ لو أرسلت القوات كما كان ذلك معتزما من البداية لكانت فصيلتان من الجند كافيتين ولأمكن تجنب المشكلة التالية على الأرجح. وختم الوكيل تعليقه بالقول أنه يوصى فى الظروف الراهنة بإرسال نصف كتيبة من المشاة وسرية خيالة الى الكويت على الفور، وسيخدم هذا فى تثبيت الوضع هناك بشكل مباشر وبتثبيته فى بلاد العرب المركزية بشكل غير مباشر[2].

وسارع الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت حال اطلاعه على

---

(1)IOR, R/ 15/5/103, No. 8574, Political Baghdad, to Political, Kuwait, dated 10-8-1981.

(2) IOR, R/ 15/5/103, No. 6743, Political Baghdad, to Political, Kuwait, dated 18-8-1981.

توصية وكيل المندوب السامى الى تسليم السير برسى كوكس الذى تصادف مروره فى الكويت حينئذ فى طريق عودته للعراق مذكرة باليد جاء فيها أنه لم يقترح إرسال قوات الى بلدة الكويت ذاتها، ولكنه اقترح تمركز رتل متحرك فى الجهراء بالتعاون شكليا مع الشيخ علاوة على احتلال آبار سفوان والحفر والصفا وأضاف أن نتائج تنفيذ ذلك ستكون اكثر فائدة مما لو تم احتلال الكويت ذاتها التى مرت اللحظة الملائمة له بعد أن قبلت السلطات البريطانية صداقة الشيخ فى الخامس من يوليو ١٩١٨. وذكر الوكيل أنه منذ ذلك التاريخ لم تحدث، حسب معلوماته، أية غارة ولم تهرب سلع للعدو من الكويت. وأضاف أن احتلال الكويت ممكن أن يتم لاحقا على الفور إذا لم يستجب الشيخ للطلبات البريطانية(١).

أما الضابط السياسى البريطانى فى البصرة فقد علق على تقرير فلبى بقوله أن الغزو فى الصحراء ليس لعبة جديدة. فإذا كان العجمان قد مروا عبر أراضى الكويت للإغارة على أعدائهم فإن قبائل مطير وسبيع وبنى هاجر التى هى قبائل تابعة لابن سعود فعلت الشىء نفسه ووصلت مؤخرا لحد كابده والرميلة(٢) فى الشمال، حيث هاجمت قبائل شمر والظفير والعجمان. وهذا النوع من النشاط يتواصل فى كل طقس حار ويستحيل القول من الذى بدأه. وقد أنتهى الموسم تقريبا فمع عودة الطقس البارد ستتوقف المشكلة. ومضى ذلك الضابط يقول معلقا على الإجراءات التى اقترحها فلبى أن قطع العلاقات الودية بين البريطانيين

---

(1) IOR< R/ 15/5/103, Political, Kuwait, to Sir P. cox dated 19-8-1918.

(٢) موضعان فى الصحراء العراقية لا يبعدان كثيرا عن بلدة الزبير.

والعجمان سيدفعهم بالطبع للإنضمام الى ابن رشيد حالما يشعرون أن خطر ابن سعود عليهم حقيقى. وربما سيعجل ذلك بالصدام الذى يريده فلبى ولكنه لن يقلل من الغزو بالتأكيد.

واقترح الضابط قيام عمل منسق بين السلطات البريطانية المعنية بأمور الصحراء يوقف بموجبه ليتشمان Leachman نشاطات قبائل عنزة وفلبى نشاطات قبائل ابن سعود ولوك Loch نشاطات قبائل الكويت، وعندها تستطيع السلطات فى البصرة السيطرة على العجمان. كما اقترح أن تكون الإعانات المالية البريطانية وأذونات السمابلة مشروطه بعدم شن غزوات على قبائل صديقة وأن تؤخذ سندات بهذا المضمون مثبت فيها أسماء الأشخاص ذوى العلاقة ويضمنهم العجمان على قدم المساواة مع غيرهم وليس أكثر[1].

وقد أيد فلبى على الفور اقتراح وكيل المندوب السامى القاضى باحتلال الكويت ذاتها باعتباره سيؤدى لاستعادة ثقة ابن سعود بالبريطانيين. وانتقل بعدها للتعليق على آراء الضابط السياسى فى البصرة التى مرت أعلاه فقال إن كانت البصرة مقتنعة بأن العجمان سوف ينضمون إلى ابن رشيد فإنها بذلك تعطى لشكوى ابن سعود من نقص دعم البريطانيين له أساسا عادلا لأن البريطانيين يطعمون أعداءه حتى تحين ساعة انقضاضهم عَليه، وهذا أمر مخالف لأبسط قواعد الحرب. ومضى يقول أن الغزو فى الصحراء ليس لعبة جديدة بالتأكيد ولكن ابن سعود يود أن يسهم بها أيضا. فقد منعه البريطانيون لحد الآن

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 4619, Political, Basrah, to Political, Kuwait, dated 18-8-1981.

من ذلك، وكل ما يطلبه هو أن يمنعوا أصدقائهم من الإغارة عليه أو أن يتركوه حراً فى الانضمام الى اللعبة، وأشار فلبى الى ما ذكرته البصرة عن غزوات قبائل نجدية للأراضى العراقية وطالبها بتقديم معلومات مفصلة حتى يتمكن من اتخاذ إجراء. واتهم فلبى سلطات البصرة بأنها تتجاهل كون قضية العجمان قضية حادة حيث تتبادل هذه القبيلة المرعية ألد العداء مع ابن سعود، وقد منحها البريطانيون ملجأ آمناً أبعدها عن انتقامه وضمنوا مع شيخ الكويت حسن سلوكها ضماناً جازماً مقابل تعهد ابن سعود بعدم مضايقتها حيث تقيم فى الأراضى "البريطانية" وقد التزم ابن سعود بتعهده فى حين لم يفعل الجانب البريطانى ذلك. وعلى الرغم من كل ذلك فإن ما يطلبه ابن سعود هو إحلاله من تعهده أو التزام البريطانيين بتعهدهم فى المستقبل. ومضى فلبى يقول: "إن السلوك الحالى للعجمان معادل لتحالفهم مع ابن رشيد مع فرق واحد هو إننا نطعمهم ونؤمنهم من هجوم ابن سعود المضاد. وكل ما أطلبه هو وجوب أن نوقف نشاطاتهم أو أن نتركهم يجوعون حتى يلاقوا ابن سعود، وسنرى بعدها إن كانت الغزوات ستقل أولاً... أوافق بحرارة على عمل منسق، ولكن الخطوة الأولى يجب أن تكون بالتأكيد السيطرة على العجمان التى هى القبيلة الأكثر أهمية المعنية بكاملها بالأمر حيث قبلنا أمام ابن سعود مسؤولية الزامها باحترام النظام إن قيمة السندات موضحة جيداً بقلة احترام العجمان لاتفاقاتهم المكتوبة. لذلك فإننى استنكر الانغماس فى موضوع السندات فى حين أن كل المطلوب هو السيطرة الفعالة. إن الشؤون العربية تبدو الآن ضخمة بشكل يبرر تشكيل إدارة منفصلة للسيطرة عليها حيث أن

مشغوليات البصرة تجعل من المستحيل عليها بشكل جلي إيلاء أحداث الصحراء الاهتمام المستحق..."[١].

وجاءت عودة السير برسى كوكس الى المنطقة لتضع حداً للجدل الدائر بين المسؤولين البريطانيين المعنيين. فقد أبرق من الكويت فى العشرين من أغسطس ١٩١٨ قائلاً أن الوضع الذى تسببه الغارات صعب بشكل جلى وتعتمد معالجته على البريطانيين قدر اعتمادها على شيخ الكويت. وأضاف أنه ناقش الأمر مع الأخير وأسفرت المناقشة عن اتجاه لاتخاذ بعض الإجراءات وهى وضع مركز بريطانى فى سفوان واحتلال الجهراء وآبار المياه الكويتية الأخرى المجاورة من قبل أتباع الشيخ شرط قيام الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت بزيارات دورية لها، واحتلال ابن سعود لآبار الحفر الواقعة على حدود أراضى الكويت. أما الإجراءات الأخرى التى يمكن للسلطات البريطانية فى العراق اتخاذها لقمع غريزة الغزو لدى العجمان والأسلم فسيقررها بعد وصوله للبصرة[٢].

وبالفعل ما كاد يصل للبصرة حتى تشاور مع معاونيه هناك وقرر اتخاذ الإجراءات التالية وهى استدعاء رؤساء أفخاذ قبيلة العجمان الستة كى يطلب منهم تقديم تعهد مكتوب بالكف كليا عن التحرك عبر حدود الكويت وتقديم رهائن مقبولة ضمانا للتقيد اللازم بالتعهد. وسيحصل أولئك الشيوخ مقابل ذلك على التموين على أساس الحد الأدنى من حاجاتهم. وإذا رفض قبول هذا الشرط من قبل أى فخذ تربطه علاقة

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M167, Philby, Buraida, to Politcal, aghdad, dated 28-8-1918.

(2) IOR, R/ 15/5/103, No. B95, Cox, Kuwait, to Foreign, Simla, dated 20-8-1918.

حسنة بالبريطانيين سواء بعلاقة مباشرة معهم أو بعلاقة مع أحد الرؤساء المعانين من قبل بريطانيا ماليا فسيوقف عنه التموين ويعامل باعتباره عدوا من قبل البريطانيين وابن سعود على حد سواء. وتوقع كوكس أن يطلب الشيوخ المذكورون أن يفرض ابن سعود شروطا مماثلة بالمقابل على شيوخ قبائله المعادين لهم. ووصف كوكس ذلك الطلب بأنه أمر معقول(١).

وقد أقرت الحكومة البريطانية اقتراح إقامة مركز بريطاني في سفوان(٢). وقد أنيطت مسؤوليته بعشرين من شبانة(٣) الزبير على أن يقدم لهم ضارى بن طواله المساعدة حين يطلبون ذلك منه(٤). وقد اعترض الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت على ذلك قائلا أن الإجراء المزمع أصلا هو أن تكون قوة مركز سفوان من القوات البريطانية، أما وضع الشبانة فى المركز فسيكون بديلا فقيرا جدا. وذكر الوكيل أنه ليست لديه معلومات عن شبانة الزبير ولكنه لا يثق بغير الجند النظاميين لتنفيذ الغرض الذى سيقام المركز من أجله. وسيزيد الطين بلة الاعتماد على شخص مثل ضارى لتقديم المساعدة لأنه وغد Rogue. وبذا فإن الإجراء يفقد كل فعاليته ما لم يكن مركز سفوان فوق الشبهات وما لم ينفذ بطريقة تظهر لابن سعود والآخرين

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. B98, Cox, Basrah to Foreign, Simla dated 25-8-1918.

(2) IOR, R/ 15/5/103, No. 4788, Political, Basrah, to Political, Kuwait, dated 26-8-1918.

(٣) الشبانة اسم كان يطلق فى بداية الاحتلال البريطانى للعراق على قوات حلية تجند لحفظ الأمن والنظام داخل المدن والقصبات تحت إشراف ضابط بريطانى.

(4) IOR, R/ 15/5/103, No. 4916, Political, Basrah, to Political, Kuwait, dated 1-9-1918.

أن البريطانيين جادون فى معالجة المشكلة[1].

وأثناء ما كانت السلطات البريطانية معنية باتخاذ الإجراءات التـــى تضع حدا لأعمال العجمان العدائية ضد ابن سعود كان العجمــان مــن جانبهم يبحثون عن حليف يشد أزرهم ضده وربما يغنيهم عن الحاجـــة للبريطانيين. فقد أخبر الشريف حسين ملك الحجاز الممثل البريطـــانى لديه بأنه استلم رسالة من العجمان يعرضون فيها ولاءهم له ويعلنـــون عداءهم لابن سعود. وحين طلب الملك نصيحة ذلك الممثل فى كيفيـــة الرد عليهم نصحه بأن يشعرهم باستلام الرسالة ويحثهم على مراجعـــة أقرب سلطة بريطانية إذا واجهتهم مشكلة[2].

وكان من ين موقعى رسالة العجمان ضيدان ابن حثلين وسلطان بن فلاح بن حثلين. وقد رد الملك على رسالتهم شفويا عبر المندوبين الذين حملوها له بالقول أن عليهم مراجعة الممثل البريطـــانى فـــى الكويـــت واطاعته. وأوضح الملك للمندوبيـــن أن سياســـته وسياســـة الحكومـــة البريطانية متطابقتان وأنهم سوف ينالون ثقة بريطانيا إذا تقيدوا بأنظمـــة الحصار الاقتصادى الذى تفرضه السلطات البريطانية[3].

وفى غضون ذلك كان فلبى، الذى لا تصله المعلومات من مراجعه إلا بعد قرابة أسبوعين نتيجة لبعد مركزه وعدم ربطه بوسائل اتصـــال حديثة، يواصل الكتابة عن تطورات مشكلة غزوات العجمـــان نـــاقلا

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 1329, Political, Kuwait, to Political Basrah, dated 2-9-1918.

(2) IOR, R/ 15/5/103, No. A-B-079, Arbur, Cairo, to Arbur, Baghdad dated 9-8-1918.

(3) IOR, R/ 15/5/103, No. A-B-111, Arbur, Cairo, to Arbur, Baghdad dated 14-8-1918.

وجهات نظر ابن مسعود ومتأثرا بالمحيط الذى يعيش، فيه فقد كتب فى التاسع عشر من يوليو ١٩١٨ شاكيا من بعض الأمور القديمة والمعقدة التى تعكر صفو العلاقة بين ابن سعود وبريطانيا مثل توفير ملجأ آمن للعجمان دون أخذ ضمانات كافية منهم بحسن السلوك والفشل فى ترحيلهم بشكل تام من الأراضى الكويتية وتفشى أنشطتهم المعادية التى بلغت أوجها فى إغارتهم على إبل قبيلة مطير قرب الأرطاوية ونهبهم خمسين جملا من قافلة ابن سعود بجوار الكويت وأخيرا غارتهم تحت حماية قبيلة العوازم على قبيلة سبيع بين الإحساء والقطيف. وأضاف أنها أحداث يتلو بعضها بعضا فى تعاقب سريع يجعل موقفى هنا صعبا بصورة متزايدة وغير محسود عليه. بدأ ابن سعود يظهر علامات عدم ارتياح وغضب وشك إما بصدق سياستنا أو قوة تأييدى له ومفاتحاتى نيابة عنه. بدأ الشعور العام، وهو معادى لنا دائما وشاك بنوايانا، يتحدى للأسف صواب سياسة ابن سعود وتحالفه معنا، ويطالب بصراحة برد قوى على أعمال الشريف والعجمان... لقد أعطيت [ابن سعود] تأكيدات بأن الأمور أعلاه سوف تنال اهتماما كبيرا من لدن الحكومة، ولا شئ سوى نتيجة مادية لتلك التأكيدات سيعيد مكانتنا فى بلاد العرب المركزية التى عانت من انحدار خطير...[1].

وعاد فلبى بعد خمسة ايام للكتابة عن الموضوع قائلا أن ابن سعود سلمه وثيقة مكتوبة طويلة استعرض فيها اتجاه الحوادث الأخير، وبين أن تعهداته للعمل لصالح بريطانيا ضد ابن رشيد بنيت على أساس الفهم بأنها ستحمى مصالحه من أى خطر يتهددها سواء من الشريف حسين

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M111, Philby, Rigadh, to Political , Baghdad, dated 19-7-1918.

أو العجمان أو الكويت. ولكن الأحداث الأخيرة غيرت الوضع عمليا، وأظهرت له أن بريطانيا لا تحميه بشكل كاف من أعداء محدقين به من كل صوب، ولذلك فلا يمكنه، حفاظا على مصالحه الخاصة، الهجوم على ابن رشيد أو تحمل مسؤولينه عن تسرب المؤن الى العدو ما لم تعط بريطانيا ضمانات محددة. ومن تلك الضمانات عدم السماح مطلقا لأفخاذ العجمان وشمر الموضوعة تحت الحماية البريطانية بدخول أراضيه لأى سبب كان دون موافقته.

أما تلك الأفخاذ غير الموضوعة تحت الحماية البريطانية لا يجب السماح لها نهائيا بدخول الأراضى الكويتية أو الأراضى الخاضعة للإدارة البريطانية. كما لا يسمح بالمسابلة إلا للأفخاذ الصديقة فقط بموجب نظام جراية شهرية على أساس عددها الفعلى الحالى. وأضاف فلبى أنه بعد أن درس تلك الوثيقة مليا توصل لاستنتاج مفاده أن حدوث اعتداءات جديدة من قبل الشريف أو العجمان سيؤدى بالتأكيد الى اضطراب واسع النطاق لذا يجب الحيولة دونها بأى ثمن. ومضى فلبى يقول أنه تصرف دون الحصول على إذن مسبق من مراجعه وأعطى ابن سعود ضمانات مكتوبة كان من جملتها أن بريطانيا تمنح ابن سعود ضمانة تؤمنه ضد كل هجوم آخر من قبل الشريف أو العجمان وأفخاذ شمر الموضوعة تحت الحماية البريطانية وأن بريطانيا لن تمنح حمايتها للعناصر المعادية أو تسمح لها بالمسابلة. وحث فلبى مراجعه على اقرار ضماناته تلك(١).

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M123, Philby, Riyadh, to Political, Baghdad, dated 24-7-1918.

وكرر فلبى الكتابة بعد أيام ذاكرا وصول أخبار للرياض عن حدوث غارة جديدة شنها العجمان ولكن تفاصيلها لم تستلم فى حينه. وبين أن التوتر مستمر بشكل حاد[1]. وأفاد فلبى بعدها أن تقارير استلمت تنبئ بأن ابن طفلان وابن سرحان من فخذى الصالح والسفران من العجمان أغارا على قبيلة سبيع فى "حفر العتس"، وغنما منها ستة أذواد من الإبل يقرب عددها من ثلاثمائة بعير. وتعتبر هذه الغارة المغامرة الأجرأ التى شنها العجمان لحينه لأن حفر العتس تقع عبر صحراء الدهناء وعلى مسافة ثلاثة أيام فقط من الرياض. كما أن سلطان بن حثلين وأحد فخذ المتلقم أغارا مؤخرا منحدرين الى الجودى الواقعة على حد الإحساء. وعلى الرغم من أن هذا الخبر لم يؤكد تماما ولم تستلم تفاصيله إلا أنه لا يوجد سبب للشك فى صحته. وذكر فلبى أن زعماء قبيلة مطير ومن ضمنهم فيصل الدويش تقدموا مؤخرا الى ابن سعود ضاغطين عليه من أجل الاقدام على عمل ضد العجمان. ولكن ابن سعود بناء على تأكيد فلبى له بأن حكومته تدرس الأمر قرر الاكتفاء بإرسال عبد الرحمن بن معمر، أحد مرؤوسيه الموثوقين، للتجوال فى المناطق المعنية وجمع تفاصيل كاملة عن الغارات الأخيرة. وسيؤكد ابن معمر لقبيلتى سبيع ومطير أن ابن سعود يتابع القضية مع البريطانيين، ثم سيزور بعد ذلك الكويت والبصرة لتقديم ملف عن الغارات للسلطات البريطانية ومحاولة الوصول معها الى حل.

ومضى فلبى يقول أن هذا الإجراء سيمنع حدوث غارات مضادة بمبادرات مستقلة من لدن القبائل المعنية. وأضاف أن انفجار مشكلة

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M134, Philby, Riyadh, to Political, Baghdad, dated 30-7-1918.

العجمان هذه بالتزامى مع الاستفزازات الشريفية أمر مشؤوم للغايــــة. وعبر عن ثقته بأن كل جهد لازم سوف يبذل من أجل وضع الأمور فى نصابها، واقترح أن تقوم السلطات البريطانية على الأقل برفض منــــح أذونات المسابلة لحين إيجاد حل مرضى واحتجاز رهائن مهمين ضمانا لحسن السلوك فى المستقبل. وختم فلبى رسالته بـــالقول: "لازال ابــن سعود، بناء على ما جاء برسالة حكومة جلالته له، يتشبث بأمل تدخــل بريطانى يدرس الأمر من كل جوانبه. وهو يرى بشكل تام أن مصلحته الفضلى هى بالتذرع بالصبر ولكن مزاج الناس مختلف جــدا. أخشــى حدوث مشكلة ما لم تبرر الحكومة صبر ابن سعود قبل أن يندفع رعاياه للعمل بطريقة لا يمكن اعتبارها خاطئة"(١).

وكتب فلبى بعد عشرة أيام قائلا أن خبر غارة سلطان بن حثليــن على الجودى قد تأكد، وأضاف أن معاملة البريطانيين للعجمان تثير فى نجد قدرا كبيرا من الاستياء والنقد غير المرغوب فيه. وحث مراجعــه حثا قويا على وجوب إيقاف صرف الإعانات المالية للعجمان وشــمر، وكذلك حجب أذونات المسابلة عنهم لحين الوصول الى حلٍ جيد حقــا واتفاقية تضمن السلوك الحسن لأفراد هاتين القبيلتين فـــى المســتقبل. وأضاف أن عمليات العجمان باتجاه الإحساء تمثل خطرا حربيا جليــا على ابن سعود، وهى تمنع قبليتى سبيع ومطير مـــن الانضمـــام الـــى مجهود ابن سعود الحربى ضد ابن رشيد. ووجه فلبى حديثه الى الســير برسى كوكس شخصيا بالقول أن ابن سعود كان ينتظر عودتـــك الـــى العراق وهو يلتمسك على وجه الخصوص أن تحاول إيجاد حل لــــهذه

(1) IOR, R/ 15/5/103, No M164, Philby, Riyadh, to Political, Baghdad, dated 18-8-1918.

المشكلة دون تأخير كى تصبح يداه مطلقتين ويغدو حرا فى العمل ضد ابن رشيد[1].

وحين وصلت تفاصيل الإجراءات التى أزمع السير برسى كوكس فى الخامس والعشرين من أغسطس ١٩١٨ اتخاذها لمعالجة المشكلة كتب فلبى قائلا أن ابن سعود يوافق على تلك الإجراءات ويعتقد أنها تقدم فرصة لتسوية معقولة، ولكنها تستدعى ضمنا الغاء التسوية السابقة التى تمت فى مارس ١٩١٨. ونقل فلبى رجاء ابن سعود ثانية لكوكس باتخاذ اجراء فعال الآن، وبخلاف ذلك فإنه يجب عليه اتخاذ الإجراءات الضرورية لحماية مصالحه فى حالة تعرض أراضيه لغارة أخرى. وتعهد ابن سعود بامتناع قبائله عن الغزو حالما تصبح الاجراءات التى قررها كوكس فعالة. ومضى فلبى يقول: "اننى، لذلك كله، أوصى بالاجراءات التالية وهى اعادة كاملة لكافة المنهوبات وأخذ رهائن مهمين من العجمان وشمر المعادين، وارسال رسالة فورية لابن سعود تتضمن قائمة بأسماء الأفخاذ التى قدمت الضمانات المطلوبة مع التفاصيل الممكنة. وسيكون مفهوما بالطبع أن ابن سعود سيغدو حرا فى غزو أى فخذ لم يقدم هذا الضمان، كما أن أى فخذ قدم الضمان ولكنه يؤوى غير المضمونين أو يؤوى دبشهم سيتم ايقاع العقاب برهائنه وسيكون عرضه للإغارة عليه من قبل ابن سعود. ومن المستحسن لو ذكر ذلك فى الاتفاقية بشكل صريح. والنقطة الرئيسية هى أن التسوية يجب أن تكون فعالة حقا فى التصور وفى التنفيذ. وألتمس أن يوضع ضابط كفؤ مثل دكسن Dickson على رأس إدارة

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M167, Philby, Riyadh, to Political, Baghdad, dated 28-7-1918

مسؤولة مؤقتا عن كل الإفخاذ المعنية، وهو أمر مهم تماما الآن على الخصوص لأننا ما لم نراقب تحركات العجمان فربما تركنا ابن سعود محبطا بشكل سئ..."(١).

نفذت الإجراءات التى وضعها السير برسى كوكس لعلاج مشكلة قبيلة العجمان. ويبدو أنها نجحت فى تطبيقها العملى بدليل خلو الوثائق البريطانية والمراجع الأخرى المتاحة من ذكر أى نشاط حربى للعجمان خلال الأشهر التالية التى سبقت نهاية الحرب العالمية الأولى فى الحادى عشر من نوفمبر ١٩١٨. وقد جاءت تلك النهاية بمتغيرات كثيرة للمنطقة، إذ انتهى بنهايتها خوف السلطات البريطانية من انضمام العجمان أو غيرهم إلى أعدائها ــ ولذلك لم يعد لديها مبرر يوجب إعاشة تلك القبيلة واعانة شيوخها ماليا وتوفير ملجأ آمن لهم ولأتباعهم فى الأراضى العراقية التى كانت تحتلها.

وخرج ابن سعود من معمعة الحرب العالمية الأولى وهو أكثر قوة مما كان قبلها نتيجة لما أغدق عليه البريطانيون من أسلحة وذخائر وأموال حين كانوا يحتاجونه للوقوف بوجه ابن رشيد تابع العثمانيين المخلص لهم حتى النهاية. لذا رجحت كفة ابن سعود على كافة خصومه. وقد تأكدت هذه الحقيقة عمليا حين دحرت قواته قوات الملك حسين فى معركة تربة فى مايو ١٩١٩. ولعل مدارك شيوخ قبيلة العجمان قد وعت كل تلك المتغيرات. كما ربما أمضهم طول فراقهم لديرة الآباء والأجداد وهوان التطواف فى ديار الآخرين. ورأوا أن خير

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M181, Philby, Riyadh, to Political, Baghdad, dated 4-9-1918.

علاج لمشكلتهم بشكل نهائى هو الصلح مع ابن سعود. ولعل الأخير من جانبه بعد مضى كل تلك السنين خمد إدوارغضبه عليهم وأدرك أن ضم هذه القوة المحاربة الباسلة الى جانبه مجددا خير له من تركها غنيمة باردة لخصومه الذين قد يستغلونها ضده. ولذلك كله تهيأت الظروف الموضوعية للصلح بين الجانبين، فبادر شيوخ العجمان بالذهاب الى عبد الله بن جلوى حاكم ابن سعود على الاحساء طالبين منه التوسط لهم عند ابن سعود. وكتبوا للإمام عبد الرحمن الفيصل راجين شفاعته لهم عند ابنه. وقد أثمرت جهود الوسيطين فتقبل ابن سعود خضوع العجمان وعفا عنهم، وعادوا الى ديرتهم بعد مايو سنة ١٩١٩[١].

ويظهر أن أغلب شيوخ العجمان قد وعوا جيدا، ولو بشكل مؤقت، مغبة الصدام مع ابن سعود فالتزموا جانب الحذر وأخلدوا للسكينة. فقد حاول الشيخ سالم المبارك حاكم الكويت حين تصاعدت حدة الأزمة بينه وبين ابن سعود ابتداء من سبتمبر ١٩١٩ أن يضم العجمان الى جانبه. فأرسل الى ضيدان بن حثلين شيخ العجمان العام يعرض عليه مبلغا كبيرا من المال لقاء انشقاقه عن ابن سعود وانتقاله للإقامة فى أراضى الكويت. ولكن ضيدان رفض ذلك العرض وأبلغ ابن سعود به مما زاد من غضبه على سالم[٢].

ولكن اغراءات الشيخ سالم نجحت على ما يبدو فى إغواء أحد المشايخ الثانويين بالتحالف معه وشق عصا الطاعة مجددا على ابن

---

(١) الريحانى، المرجع نفسه، ص ٢٧٠.

(2) IOR R/ 15/5/25, "Note on the Political situation in Nejd at end of July 1920, "By the Political Agent at Bahrain.

سعود. فقد انتقل ذلك الشيخ مع أتباعه للإقامة فى الأراضى الكويتية، وقام من هناك بغارة على قبيلة المناصير قرب القطيف فى العاشر من أغسطس ١٩٢٠، ثم عاد بعدها الى الأراضى الكويتية(١).

وعلى الرغم من أن أغلبية القبيلة لم تشترك فى هذا العمل إلا أنه يدل على أن جذوة الحقد فى نفوس العجمان على ابن سعود ظلت كامنة تحت الرماد حتى جاء ما أججها فاندلعت نارها متوقدة من جديد بشكل واسع بعد سنين، وليس هنا مجال الحديث عن ذلك كله.

ولم يكن التوتر الذى سببته تلك المعركة قاصرا على المنطقة المحيطة بالخرمة، بل امتد الى نجد نفسها، إذ انتشر هياج واسع لا سيما بين الإخوان الذين أخذوا يضغطون على ابن سعود للقيام بهجوم مضاد على الشريف. وقد جعل ذلك الضغط ابن سعود فى موقف حرج لاحظه المبعوث البريطانى فلبى وسجله حين كتب: "بدأ ابن سعود باظهار علامات القلق وعدم الرضا والشك فى صدق سياستنا وقوة تأييدى والشعور العام المنتشر هنا معاد دائما والشك فى نوايانا بدأ يتحدى بصورة جدية حكمة تحالف ابن سعود معنا وسياسته نحونا، ويطالب بصراحة برد قوى على أعمال الشريف والعجمان. إن ابن سعود يدرك بشكل كامل أن الخصام معنا سيكون كارثة لمستقبله ولكنه فى موقف غاية فى الصعوبة. إذ لا يمكن السماح لى الى ما لا نهاية بابقاء يديه مكتوفتين بينما يقوم أعداؤه المتمتعون بحمايتنا بمهاجمته فعليا من جانبية كليهما. وما أخشاه للغاية هو أن

---

(1) IOR. R/ 15/5/925, No. 243-c, Political, Bahrain, to the civil comm., Baghdad, dated 15-8-1920.

الرأى العام سيبرهن أنه أقوى فى مقاومته. لقد تعهد بالتوجه لمســـاعدة أهل الخرمة إذا ما هوجموا مرة أخرى لأنه واثق من نيتنا وقدرتنا على كف الشريف عن ذلك... لقد أعطيت تأكيدات بأن الأمور أعلاه ســتنال اهتماما مواتيا من قبل الحكومة، ولا شئ سوى نتيجة ملموسة ســـيعيد مكانتنا فى بلاد العرب.

الفصل السابع

العلاقات بين الرياض ومكة المكرمة

أثناء الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨

العلاقات بين الرياض ومكة المكرمة
أثناء الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨

وسمت العلاقات بين آل سعود وجيرانهم أشراف الحجاز بسمة المنافسة والصراع منذ اتساع الدولة السعودية الاولى وحتى دخول قواتها الحجاز واستيلائها على الحرمين الشريفين ما بين سنتي ١٨٠٣ و ١٨٠٥م[١] ولم يرد في المصادر المتاحة ما يشير الى حدوث توتر بين الجانبين طيلة أيام الدولة السعودية الثانية (١٨٢٤ - ١٨٩١) بل على العكس هناك ما يدل على أن العلاقة بينهما كانت حسنة، حتى ان أمير الرياض كان يدفع ما يترتب عليه من خراج للسلطان العثماني عن طريق شريف مكة أحيانا[٢].

ولما ابتدأ الامير عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠٢م يعيد بناء الدولة السعودية الثالثة لبنة أثر لبنة لم تثر بينه وبين أشراف مكة مشكلة تذكر طيلة السنوات الثمان التي تلت استعادته الرياض. ولكن تسلم الاتحاديين مقاليد السلطة في الدولة العثمانية ثم تعيينهم للشريف حسين بن علي شريفا لمكة كان إيذانا ببدء مرحلة جديدة في العلاقة بين الحاكمين الجارين. إذ كان الشريف حسين ذا مطامع واسعة فأخذ يتطلع نحو الشرق لعله يمد نفوذه ويحقق بعض مطامحه – وكان نظره مركزا على منطقة القصيم التي كان يدعي

---

(١) تفاصيل ذلك كله في عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، ص٢، القاهرة، ص ص ١٢٦ – ١٥٣.

(٢) لوريمر، ج. ج.، دليل الخليج، القسم التاريخي، ترجمة ونشر ديوان حاكم قطر، الدوحة د.ت.، ج٣، ص ١٦٥٤.

لنفسه فيها حقا موروثا – وبناء على ذلك قاد حملة عسكرية نحو تلك المنطقة سنة ١٩١٠، ولكنه لم يجن من ورائها شيئا عمليا ذا بال[(١)] وعلى الرغم من أن العلاقات بين الجانبين تحسنت أثر انتهاء تلك الحملة[(*)]، إلا أنها يمكن اعتبارها الشرارة التى أججت نيران الصراع القديم بين البيتين الحاكمين.

ويبدو ان الشريف كف بعد تلك الحملة عن القيام بنشاط حربى نحو الشرق – إذ لا يرد فى أحداث السنوات الاربع التى تلت ما يشير الى حدوث احتكاك بين الجانبين على الرغم من ان العلاقة بينهما ظلت مشوبة بالريبة والتوجس ـ يستشف ذلك من خطاب ارسله الشريف حسين الى أخيه ناصر بن على فى اسطنبول سنة ١٩١٣ وعدد فيه ما اخذه على الحكومة العثمانية، ومنها انها تسلط ابن سعود عليه[(**)]. ونشبت بعدها الحرب العالمية الاولى فى أوروبا فى اغسطس ١٩١٤ فانفتح الباب لتنشيط العلاقات بين الجانبين – إذ غدا الزعيمان، وخاصة بعد انضمام الدولة العثمانية للحرب فى آخر أكتوبر ١٩١٤، عرضه لضغوط واغراءات من الجانبين المتحاربين للانضمام اليها. فقد قيل ان الحكومة العثمانية عرضت على ابن سعود تولى إمارة مكة المكرمة فى حالة وقوف الشريف حسين ضد تلك الحكومة، ولكن ابن سعود رفض

---

(١) خالد السعدون، حملة شريف مكة على القصيم سنة ١٩١٠، الدارة، السنة العاشرة، العدد الأول، شوال ١٤٠٤.

(*) سليمان الموسى، الحسين بن على والثورة العربية الكبرى، لجنة تاريخ الأردن، عمان، ط٢، ١٩٩٢، ص ٢٢٢.

(**) سليمان الموسى، المراسلات التاريخية ١٩١٤ ـ ١٩١٨، المجلد الأول، عمان، ١٩٧٣، ص١٠.

العرض[*] وبادر الشريف حسين من جانبه بالكتابة في يناير ١٩١٥ لابن مسعود يستشيره فيما يخص عمله حيال تلك الحرب. وجاءه رد ابن مسعود معبرا عن قناعته بعدم جدوى الوقوف الى جانب الحكومة العثمانية، وبأن خير سياسة تتبع هى الاكتفاء بمصانعتها[١]. والغريب أن أيا من الزعيمين لم يخبر صاحبه ولو تلميحا بأنه كان يجرى حينئذ مباحثات مع الجانب البريطانى. فابن سعود كان لديه فى غضون ذلك الشهر مبعوث بريطانى هو الكابتن شكسبير Shakspear الذى اتفق واياه على شن حملة ضد ابن رشيد لمنعه من الانضمام الى المجهود الحربى العثمانى – بينما كان الشريف حسين، مع تظاهره بالولاء للعثمانيين، يقوم بمراسلات سرية مع السلطات البريطانية فى القاهرة[٢].

ويدل حرص كل من الزعيمين على كتمان أخبار اتصالاته تلك عن صاحبه على وجود شعور متبادل بعدم الثقة – وقد زادت بعض الاحداث التالية فى حدة هذا الشعور – إذ انشغل ابن سعود طيلة أشهر صيف وخريف سنة ١٩١٥ بقمع التمرد الذى قامت به قبيلة العجمان ضده فى مقاطعة الاحساء[٣].وحدث فى أثناء ذلك ان تحرك عبد الله بن الشريف حسين على راس قوة نحو منطقة القصيم فى نوفمبر ١٩١٥ – ولم يكن هدف هذا التحرك واضحا، ولكن ابن سعود اعتبره عملا

(*) الموسى، الحسين بن على، ص ٢٢٢

(1) Beller, G., the Birth of Saudi Arabia: Britain and the Rise of the House of Saud, London. 1976, pp. 93-4.

(٢) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد واحسان عباس، بيروت د.ت.، ص ص ٢١٠ – ٢٧٥

(٣) خالد السعدون، العلاقات بين نجد والكويت، الرياض، ١٩٨٣، ص ص ١٧٠ – ١٧٨.

عدائيا فاحتج عليه لدى الحكومة البريطانية قائلا انها إذا لم تكن قادرة على كبح جماح الشريف فأنه سوف يفعل ذلك بنفسه(١). ويشير احتجاج ابن سعود هذا على انه كان مطلعا بشكل ما على علاقتها السرية مع الشريف حسين ولكن يبدو أن غضب ابن سعود من عمل الشريف كان زوبعة سرعان ما هدأت لحد ما ففي لقائه مع السيربرس كوكس Cox في العقيد في اواخر ديسمبر ١٩١٥ وصف ابن سعود علاقته بالشريف بأنها اعتيادية تماما وودية، ولكنه اضاف ان الشريف شخصية تافهة ومزعزعة ولا يمكن الاعتماد عليها – ونفى صحة التقارير المتداولة سابقا في توجه ابن الشريف على راس قوة كبيرة نحو حائل للتعاون مع ابن رشيد وأوضح حقيقة ما حدث وهو ان ابن الشريف عندما سمع بالمتاعب التي كان يعانيها من العجمان اراد الصيد في الماء العكر فاتجه على راس قواته نحو القصيم – لكنه حين سمع، بعد وصوله هناك، بانتصار ابن سعود على العجمان تخلى عن أية نوايا ربما كانت لديه، وكل ما فعله هو معاقبة فخذ من قبيلة عتيبة كان قد امتنع عن أداء الزكاة لسلطات مكة، ثم عاد بعد ذلك إلى الحجاز(٢).

ولكن ابن سعود ما لبث بعدها إلا حوالي شهر واحد ليغير رأيه السابق، ويتهم الشريف بالتعاون مع خصمه ابن رشيد – فقد كتب في اواخر يناير ١٩١٦ رسالة الى الوكيل السياسي البريطاني في البحرين شاكيا من أن الشريف قد اشترك مع ابن رشيد بمؤامرة ضده – وأنه قد أوفد رسولا يحمل رسالة منه الى الشريف نصحه فيها بالكف عن ذلك

---

(1) Troeller, op. cit. P. 94

(2) IOR,R/15/5/25, No. 9/2, Note regarding interview with Bin Saud on 26th December 1915

ويأمل ان تكون النتيجة جيدة[١].ويتناقض رأى ابن سعود هذا مع الانباء التى راجت حينئذ عن امكان التوصل الى تسوية سلمية بين ابن سعود وابن رشيد بمسعى كان يقوم به شريف مكة[٢].ولعل ريبة ابن سعود فى الشريف وحساسيته تجاهه هما اللتان جعلتاه يسئ تفسير تحركاته وتعتبرها موجهة ضده – ولا شك أن ريبته تلك تعززت بما كان يصله من اخبار عن مسعى الشريف الحثيث حينئذ لتجنيد أفراد من قبيلة شمر وقبائل نجد الاخرى وضمهم الى صفوف قواته[٣]. فلم يكن ابن سعود يعلم بان هدف الشريف من وراء تلك الاعمال ليس تهديده أو التآمر ضده، وانما الاستعداد لثورته ضد الترك التى كان يعد لها بالتنسيق مع البريطانيين – ولم يكن الشريف بقادر على التصريح له بهدفه الحقيقى ولكنه كان حريصا على تبديد اى سؤ فهم من جانب ابن سعود لتحركاته تلك – ولعله كان يؤمل أن يكتسبه إلى صفه فى ثورته المزمعة – يدل على هذا الحرص قيامه بإرسال هدية إلى ابن سعود مكونة من سيفين وتسعة خناجر ذات أغمار ذهبية وعدة بنادق علاوة على مبلغ ألف وخمسمائة جنيه – وبرر هديته تلك بكونها تقديرا منه للمساعدة التى قدمها ابن سعود سابقا حين منع شيوخ بعض القبائل من الإغارة على سكة حديد الحجاز. ولم يقنع ذلك التبرير أحدا فى نجد، إذ كان الاعتقاد السائد لدى الأوساط المطلعة هناك أن تلك الهدية أتت فى

---

(1) IOR,R/15/5/25, No. 14-c, Pol. Ag-, Bahrain, to the Pol-Res- in the P.G., Basrah, dated 31-1-1916.

(2) IOR,R/15/5/25, No. 11-c, Pol. Ag-, Bahrain, to the Pol-Res- in the P.G., Basrah, dated 23-1-1916.

(3) IOR, R/15/5/25, Pol. Ag. Kuwait, to the C.P.O., Basrah, dated 3-3-1916.

الحقيقة من الحكومة التركية[١] ويدل هذا على مدى نجاح الشريف في إخفاء حقيقة نواياه تجاه الترك.

أعلن الشريف حسين ثورته على الترك في مكة المكرمة في العاشر من يونيو ١٩١٦.فابتدأت بذلك حقبة جديدة في تاريخ المنطقة وفي العلاقات القائمة بين حاكمي نجد والحجاز- إذ تبدد معها الغموض الذي احاط بتحركات الشريف في الفترة السابقة والذي كان له انعكاس سيئ على علاقة الحاكمين كما مر ـ كما دخل على هذه العلاقة عامل جديد هو صلة بريطانيا بالاحداث وتدخلها في علاقة الحاكمين ببعضهما - إذ أصبح هدف بريطانيا هو اقناع ابن سعود بتأييد ثورة الشريف واقناعه بفكرة الاتحاد العربي التي يدعو اليها[٢]. ومن هنا جاء حرص الجانب البريطاني متمثلا بالسر برسي كوكس رئيس الضباط السياسيين المرافقين لحملة الغزو في العراق، وهو المقيم السياسي في الخليج في الوقت ذاته، على اطلاع الامير عبد العزيز آل سعود على نبأ اعلان الشريف ثورته في الحجاز- وقد رد ابن سعود على كوكس برسالة مؤرخة في العشرين من يوليو ١٩١٦ وجاء فيها: "سررت باستلام الاخبار المتعلقة بشريف مكة وبأنها وردت منكم رسميا تعتقدون بأنني ربما علمت فعلا بالاخبار قبل ذلك، ولكن ما أعتمد عليه، على أية حال، هو مراسلتكم- إنني في الحقيقة سعيد جدا بما حدث لأنه ضربة قاضية للترك من ناحية، ولأنني لا أرغب بأن يظل أو يوجد اى تركي في بلاد العرب من ناحية أخرى- وسيكون هذا الحادث أيضا بشير

---

(1) IOR, R/15/5/25, No. 28-c, Pol. Ag. Pahrain, to the Pol-Res. In the P.G., Basrah, dated 29-2-1916.

(2) Troeller, op. cit., p. 94.

خير إن شاء الله لصديقتي بريطانيا العظمى- وحالما تأكدت من صحة أخبار الشريف، وحتى قبل أن تصلني رسالتكم، نويت أن أكتب لسعادتكم حول ظروفي وموقفي تجاه الشريف وأيضا حول القضايا التي تهمكم بهذا الصدد - أشعر بأن من الواجب علي أن أبين لكم، على الرغم من أنكم أكثر مني اطلاعا على الامر، أن خوفي هو في أن يكون الشريف قد حصل من الحكومة البريطانية على تعهد لسيطرته المنفردة على الحجاز والعرب، فعلى الرغم من أنكم شخصيا ربما تقدرون مخاوفي إلا أن من المحتمل أن يكون ممثلو الحكومة البريطانية الذين أداروا المفاوضات مع الشريف غير مطلعين على الوضع. "

واستطرد ابن مسعود في رسالته قائلا: "لقد كانت هناك كما تعرفون حرب بيني وبين الشريف منذ سنوات- وكانت خططه ترمي دوما للحصول على موطئ قدم في نجد وما جاورها من البادية والحاضرة معا، وفي الحقيقة فإنه لم يكف عن التدخل في تلك الانحاء، وكان الترك يؤازرونه في أعماله ويمدونه بالاموال اللازمة لذلك فإن من الضروري أن توجهوا سعادتكم انتباه الحكومة الى حقيقة ان الحدود بين الحجاز ونجد معروفة جيدا وأن قبائل نجد لا يمكن ان تصبح تحت سيطرة أي أحد .. ، علاوة على أن مكة لم يكن لها قط منذ أقدم الازمان وحتى الآن رئيس مستقل بل كانت إمارة خاضعة للحكومة التركية، أن ما حثني على تأكيد ذلك لكم هو أنني لاحظت في البلاغ الرسمي أن الاشارة الى "العرب" قد تمت كما لو كانوا كلا واحدا acompendious whole ويجب عليّ ان أشرح لكم ارائي حول هذه النقطة، أن الشريف بضخم الامور دون شك علاوة على أنه لم يكن في تعامله معكم خاليا من

المكر السياسى والبراعة بكيفية صوغ العبارات – ان ما يريده هو الحصول على مساندتكم فى الحصول على استقلاله، أو بطريقة أخرى أن تجهدوا انفسكم معه من اجل تحقيق هذه الغاية، ولذلك فإننى أخبركم بذلك كى تقوموا – إن اتفقتم معى حوله – بنقله الى حكومة بريطانيا العظمى .. ومع ذلك ليس مهما أن تشاركوننى الاعتقاد بصحة ما قلت، إذ أننى لست مهتما كثيرا بما إذا استطاع الحصول على استقلاله عن هذا الطريق، ولكن الامر الحقيقى هو أن الحكومة التركية زودته بالسلاح والذخيرة والاموال وكان يؤملها بأنه سيحقق لها اشياء عظيمة فى سوريا، غير أنه حين حصل على كل ما يريده منها ثار عليها واعلن استقلاله– أن هدفه هو ان يضع الترك بتلك الوسيلة فى مواجهة مع الحكومة البريطانية، وبهذا يحصل منهم على استقلاله بضمان من الحكومة الالمانية.

وانتقل ابن سعود للقول: "ما يستنتجه صديقكم (يعنى نفسه) من الوقائع هو ان الشريف الآن ليس فى اى خطر يتهدده من جانب الترك، ان موقف الشريف يعتمد على أهل الحجاز وعلى البدو فإذا ساندوه فسوف لن يكون فى أى خطر من الترك، ولكنهم ان تخلوا عنه ووقفوا الى جانب الترك فسيصبح عندها موقفه فى الحجاز لا يساوى شيئا، أن ما أخشاه هو ان الترك حين يرون البريطانيين يساعدون الشريف فسيعطونه استقلاله فى الحال ويبقون مرتاحين من ناحيته، ولكنهم سيحولون انتباههم نحوه فيما بعد، أن نصيحتى هى أن تساعدوا الشريف الى حد جزئى فقط، وهكذا يمكن أن يظل الترك يتعللون بالآمال فى سحقه ويمكن ان يظل هو فى خوف من الترك أيضا –

وهكذا سيبقى الترك مرتبكين بصورة كبيرة فى الحجاز وسيكون هـــذا مساعدا لاعمالكم فى العراق وأى مكان آخر ، باختصار وبقـــدر مـــا استطيع إدراكه فإن اطالة أمد الاعمال العدائية بين الشريف والترك هو السبيل الاكثر ملائمة لكم، وآمل أن تأخذوا هـــذه الملاحظـــات بنظـــر الاعتبار المتآنى ، فما ترونه من أفكارى جديرا بالموافقة افعلوا به مـــا ترونه الأصوب، وما لا تقرونه منها فاعتبروه مجرد نصيحة أبديت لكم لأن مصالحكم هى مصالحى حسب اعتقادى"[1].

يظهر التدقيق فى مضمون هذه الرسالة الطويلة أن بن سعود قـــابل ثورة الشريف حسين بتحفظ وحذر كبيرين، وكان موقفه هذا نابعا مـــن تجربته السابقة مع الشريف وخوفه من طموحاته ، لا سيما وأن ثورتـــه جاءت باسم العرب عامة، ولذلك حرص ابـــن ســـعود علـــى اشـــعار السلطات البريطانية فى الحال بأن أهل نجد مستقلون ولا يدخلون ضمن العرب الذين يتحدث الشريف باسمهم، ولم يكتف ابـــن ســـعود بتـــأكيد استقلاله ورعاياه عن الشريف، بل حاول أن يكيد له عند البريطـــانيين بتصويره لهم رجلا مصلحيا لا يقيم وزنا لتعهداته بدليل تراجعه عـــن الوعود التى قطعها للترك من قبل وحاول أيضا تخويف البريطانيين من امكانية تراجع الشريف عن تعاونه معهم حالما ينال من الترك اسـتقلاله بضمان المانى، وجاءت اشارته للالمان هنا مقصودة باعتبارهم أعـــداء بريطانيا الألداء، ولم ينس ابن سعود ان ينصـــح البريطـــانيين بـــأن لا يقدموا للشريف المساعدة الكافية التى تمكنه من طـــرد الـــترك ونيـــل

(1) IOR, R/ 15/5/25, No. 7997, Translation of a letter from Abdul Aziz Ibn Abdur Rahman Al-Faisal dated 20th July 1916 to H.H. Sir Percy Cox, H. M's. Con-Fen- in the P.G.

استقلاله، وان يكتفوا بدلا عن ذلك بتقديم الحد الادنى من المساعدات حتى لا يتمكن اى من الجانبين من حسم الصراع لصالحه وقد صور ابن سعود مصلحة بريطانيا وكأنها كامنة فى انتهاج ذلك السبيل، ومن الطبيعى القول أن هدفه من وراء ذلك النصح لم يكن تحقيق مصلحة بريطانيا وانما مصلحته الذاتية ، إذ كانت تلك المصلحة تقتضى ابقاء الشريف فى صراع متواصل مع الترك بما لا يمكنه من الالتفات نحو فرض نفوذه على جيرانه فى بلاد العرب.

أما الشريف حسين فقد بادر من جانبه الى الكتابة لأبن سعود مخبرا إياه بثورته وطالبا مشورته ومساندته(*).وقد كتب ابن سعود فى الخامس عشر من اغسطس ١٩١٦ رسالة الى بيرس كوكس رئيس الضباط السياسيين البريطانيين فى البصرة ناقلا له ما وصله من الشريف والرد الذى أرسله اليه. وجاء فى الرسالة: "بعد ان كتب لكم رسالته السابقة استلمت رسائل من شريف مكة تنقل الاخبار الطيبة عن سيطرته على مكة بمساعدة مدافعكم. لقد طلب منى تقديم المساعدة له والاتحاد معه فكتبت له مجيبا بأننى، فيما يتعلق بالمساعدة، لن اتوانى عن تقديمها بكل ما فى طاقتى أما بخصوص الاتحاد معه فقد بينت أننى ليس لدى نوايا تجاه بلده الحجاز وما جاوره فى حين انه بالمقابل كان معتادا فى السابق على التدخل فى شئون قبائلى وأراضى، زاعما أن ذلك يتم بناء على طلب الترك الذين يحثونه على فعل ذلك. فقد اكدت له بأنه إذا كان

(*) ابراهيم العطار، الموسوعة الهاشمية فى القرن العشرين، المجلد الاول، عمان، ١٩٩٥، ص٢٤٨. ويقول البعض أن الشريف أرفق رسالة بهدايا وتحف بمبلغ عشرين ألف جنيه، راجع: الموسى، الحسينى بن على ، ص٢٢٢.

يزمع ان يكون مخلصا فى رغبته بالاتحاد معى والعمل سويا يدا بيد فيجب عليه ان يعطينى تعهدا ووعدا مقدسا بسلامة أراضى ورعاياى وان يكف عن التعدى على حدودى او التدخل فى شئون رعاياى. فإذا كان الرد ايجابيا وتصرف هو بإخلاص فلن أدخر وسعا لمساعدته بأقصى طاقتى إن شاء الله.

واستطرد ابن سعود فى رسالته قائلا: "ان دافعى لإجابته حسبما جاء اعلاه ليس ناشئا عن رغبتى بالتحالف معه، فانتم تعرفون علاقتى السابقة معه، ولكنه ناشئ فى المقام الاول عن حقيقة تحالفى معكم، ثم كراهيتى للترك فى المقام الثانى، أننى حريص على تعضيد أى شئ يمكن ان يساعد على طرد الترك. ولهذا فإنه إذا رد بشكل إيجابى وأكد لى أنه ليس له هدف آخر غير الصداقة الحقه فسيكون هذا أمرا حسنا. أما إذا كان يرمى لخداعى بحيث يمكنه تحقيق استقلاله ومن ثم يصبح متفرغا لاستئناف تدخله القديم فى شئوونى، فسيكون الامر حينئذ محصورا بينى وبينه فحسب، وسأدير أمورى بأقصى ما استطيع ، ولكن إذا كان الامر بعكس ذلك يهم حكومتكم الفخيمة، فإننى فى هذه الحالة ارغب فى عمل كل ما هو ملائم لكم. لذا فأننى أحيل الامر لكم، أن حدود الشريف وأراضيه معروفة جيدا على أية حال، وسيتم اخباركم مرة أخرى ان شاء الله حين استلم رده"[1].

ويلاحظ على هذه الرسالة ما لوحظ على سابقتها وهو أن مشاعر الريبة هى التى تتحكم فى تحديد موقف ابن سعود تجاه الشريف. إذ كان

(1) IOR, R/ 15/5/25, No. 885-8/912-111, Abdul Aziz Ibn Abdur Rahman AL-Faisal to the chief Political Officer, dated the 15th August 1916.

الاول يخشى ان يستغل الشريف ما تحقق له من قوة من جراء اسـناد بريطانيا له لمد نفوذه وسطوته الى نجد.

ويتضح من الرسالتين أيضا أن ابن سعود كان يحس ببعض الحرج من بريطانيا من جراء موقفه المتحفظ تجاه الشريف لان الاخير كـان يعمل بالتنسيق معها فى حركته فأى معارضة له قد تثير حنق السلطات البريطانية وكذلك حرص ابن سعود فى رسالتيه السابقتين على تـأكيد اخلاصه وعلى اقناع تلك السلطات بسلامة موقفه. ولقد ادركـت تلـك السلطات عمق مخاوف ابن سعود وتحفظاته وانشغلت بمعالجة الامـر، إذ نقل كوكس رسالة ابن سعود الاخيرة لمراجعه العليا موصيا بـاطلاع الشريف على معاهدة بريطانيا مع ابن سعود الموقعـة فـى ديسـمبر ١٩١٥ كى يدرك جدية التزامات بريطانيا تجاه الأخير مـن جـانب، ويحث ابن سعود من جانب آخر علـى القيـام بعمـل مشـترك مـع الشريف باعتبار ذلك هدفا رئيسيا من أهداف السياسة البريطانية.

وبعد أن تدارست الجهات المختصة ذلك الاقتراح تقرر أن ترسـل رسالتان للزعيمين. وقد أشار البريطانيون فى الرسالة الموجهة للشريف فى الثانى من أكتوبر ١٩١٦ الى وجود معاهدة بينهم وبين ابن سـعود، ولكنها لا تتعارض مع اتفاقيتهما مع الشريف. وذكروا أنهم سـيبذلون غاية جهدهم من أجل دفع ابن سعود لمساعدته، وحث الشـريف فـى الوقت نفسه على الوصول الى اتفاق سريع معه[1]. أما الرسـالة التـى وجهت الى ابن سعود فى الثانى عشر من أكتوبر فقد نصت على وجـوب

(١) مكى شبيكه، العرب والسياسة البريطانية فى الحرب العالمية الأولى، بيروت، ١٩٧٨، ج٢، ص ص ٢٦٣ ــ ٢٦٩.

مساعدته للشريف بصورة صريحة. وتركت له حرية تحديد شكل تلك المساعدة سواء بالمال أو الرجال أو بمهاجمة ابن رشيد أو بكسب الأخير الى صفه لفصله عن الترك[1]. ولكن تلك المحاولة البريطانية للتقريب بين الرجلين ذهبت أدراج الرياح حين رد الشريف برسالة مؤرخة فى الخامس من سبتمبر ١٩١٦ على رسالة ابن سعود السابقة التى طلب منه فيها تعهدا باحترام سلامة أراضيه وعدم التدخل فى شؤون رعاياه شرطا لتعاونه معه. وكان رد الشريف ذا لهجة عنيفة، إذ وصف كاتب تلك الرسالة بأنه فاقد لرشده ولذلك فهو يعيدها له. وكان ذلك الرد إهانة لا يمحوها إلا الدم على حد قول السير برسى كوكس[2]. ومما زاد من حراجة الموقف اعلان الشريف نفسه ملكا على "العرب" فى الثانى من نوفمبر ١٩١٦[*]على الرغم من تحفظ بريطانيا ونصحها له بالتريث[3]. فقد زاد ذلك من تخوف ابن سعود من نوايا الشريف وقد حاول البريطانيون تخفيف آثار هذا التطور الجديد حين اجتمع كوكس بابن سعود فى مقيمية القصير فى الحادى عشر من نوفمبر ١٩١٦ وأكد له أن بريطانيا أصرت على الشريف أن لا يدعى، وهو يتخذ هذا اللقب، سيادة على الحكام العرب الآخرين. أما ابن سعود فقد أبلغ كوكس بعدم وجود مجال عمليا لأى تعاون فعال مع الشريف، ولكنه مستعد لإرسال أحد أولاده مع قوة صغيرة من الخدم تعبيرا عن

---

(1) Troeler, op. cit., p. 98.

(٢) شبيكه، المرجع نفسه، ج٢، ص ٢٧٢.

(*) قيل أن البيعة للشريف تمت فى أول محرم ١٣٣٥هـ/ ٢٩ أكتوبر ١٩١٦. راجع: العطار، الموسوعة الهاشمية، المجلد الأول، ص ١٥٥.

(٣) طالب محمد وهيم،مملكة الحجاز ١٩١٦ ـــ ١٩٢٥، البصرة، ١٩٨٢، ص ٦٨.

مساندته لثورة الشريف، بشرط أن يصله طلب ودى من الأخير قبل ذلك[1].

لقد كان ابن سعود رجلا حذرا يحسب حسابا لكافة الاحتمالات ـ لذا فإن تخوفه من تحالف الشريف مع البريطانيين دفعه للبحث عن بديل يسنده ضد الشريف وربما البريطانيين عند الحاجة. ولعله أراد لاتصاله بذلك البديل أن يكون وسيلة ضغط على البريطانيين كى يخففوا من غلواء حماسهم للشريف، وكى يقللوا من ضغوطهم على ابن سعود للتحالف معه. ولم يكن أمامه من بديل سوى الترك. وقد نمى لعلم الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت فى غضون شهر أغسطس ١٩١٦ أن ابن سعود اتصل بالحكومة التركية[2]. وليس من المستبعد أن يكون ابن سعود نفسه هو الذى سرب خبر ذلك الاتصال حتى يعرفه البريطانيون خدمة للهدف المنوه عنه أعلاه. أما كيفية ذلك الاتصال فهى أنه كتب رسالة الى الشريف على حيدر الذى اختارته الحكومة العثمانية شريفا لمكة بدلا من الشريف حسين. وقد وجه له ابن سعود تلك الرسالة بعد وصوله الى المدينة المنورة. وجاء فيها: "إن عائلة الحسين لم تقدم بثورتها هذه سوى الفساد والضرر... إنه يطمع فى الاستقلال بأى طريقة كانت ولهذا انغمس بكل أنواع الخداع والحيل ضاربا سكان الجزيرة بعضهم ببعض خدمة لمآربه الخاصة فقط... واليوم أنا مستعد للقيام بما ترغب به، على أننا بحاجة لكميات كافية من الامدادات الحربية ... أن وضع الحسين ضعيف ويمكن دحره بسهولة

(1) Troeller, op. cit., p. 99.

(2) IOR, R/15/5/25, No. 399, Hamilton, Kuwait, to C.P.O., Basra.

إذا ما وصلت الامدادات والمعلومات الكافية انـــها اللحظـــة المناســـبة لمباغتته" واتصل ابن سعود أيضا بفخرى باشا قائد القوة العثمانية فـــى المدينة المنورة عارضا عليه المساعدة ضد الشريف(١).

وقد اغرى عرض ابن سعود هذا الحكومة التركية فاوفدت مبعوثـــا له هو موسى فرعون تحت شعار شراء أبل من نجد(٢). ولكن السلطات البريطانية تحركت لإجهاض المحاولة حين ألزمت ابن سعود بـــالقبض على ابن فرعون ومصادرته الابل التى اشـــتراها لحســـاب الحكومـــة التركية(٣).

ومن جانب آخر تآمرت السلطات البريطانية على سعيها من أجـــل تليين موقف ابن سعود تجاه الشريف ودفعه نحو مزيد من التعاون معـه على الصعيد المعنوى على الاقل لذا فقد دعته للاشتراك فى مؤتمر يعقد فى الكويت فى نوفمبر ١٩١٦ يحضره الى جـــانب جـــابر المبـــارك الصباح شيخ الكويت وخزعل شيخ المحمرة وبعـــض شـــيوخ القبـــائل الأخرى يهدف اعلان التأييد لثورة الشريف. فاستجاب ابن سعود للدعوة وحضر المؤتمر والقى من خلاله خطبة عدد فيها مطامع الترك وأثنـــى على حركة الشريف وناشد جميع العرب مساندته ولم يمر ذلك المؤتمر دون أن يبدر من الشريف ما يثير امتعاض ابن سعود ومشاركيه مـــن الحضور، إذ تصادف ان وصل رد من الشريف على رسالتين ســـابقتين ارسلهما له الشيخان خزعل وجابر، وقد اتسم رده بالتعالى والكبريـــاء

---

(١) وهيم، المرجع نفسه، ص ص ٢٨٤ – ٢٨٥.

(2) IOR, R/ 15/5/25, No. 367, Hamilton, Kuwait, to C.P.O., Basra, dated 1-9-1916.

(3) IOR, 15/5/25, No. 736 of 1916, Pol. Ag., Kuwait, to the Chief Political Officer, Basrah, dated 22-12-1916.

مما أثار حفيظة بعض المؤتمرين، وسارعت السلطات البريطانية لتدارك الامر فبعثت للشريف على وجه السرعة رسالة جاء فيها: "علمت حكومة جلالة الملك بكل أسف ان ثلاثة من زعماء العرب وهم شيخ المحمرة وشيخ الكويت وابن سعود لهم أسبابهم بان يشعروا بالاستياء من الطريقة التى قابل بها الشريف عروضهم ... ان مصلحة الشريف ومجاملة بريطانيا تلزمه لمقابلة ما عرضه عليه حلفاء جلالة الملك بود وأدب ... " ولم يجد الشريف بدلا من الانصياع لرغبة بريطانيا فأبرق فى التاسع والعشرين من نوفمبر برقية للزعماء الثلاثة(١).وكان نص البرقية هو:" بمزيد من السرور والفخر أرغب للتعبير عن تقديرى العميق للحماسة التى أظهرتموها فى اجتماعكم بالكويت، إننى اتمنى لو كنت قد استلمت اشعارا مبكرا عن هذا الاجتماع لأتمكن من إرسال مندوب يمثله فيه أيضا من أجل أن يصير هذا الاجتماع أوسع تمثيلا.ان المشاعر التى عبرتم عنها خدمة سامية للامة العربية كما لم يفعل عربى لحد الان وأنا أقدم لكم أصدق تبريكاتى على هذا الاجتماع الناجح"(٢).

وحال استلام برقية الشريف هذه بادر الشيخان جابر وخزعل لكتابة الرسالة المشتركة التالية: " بعد تقديم الاحترامات الفائقة لمقامكم الرفيع بكل فرح وسرور تلونا عباراتكم الودية الابوية التى [كذا] تلطفتم بها على مخلصيكم بواسطة [كذا] سعادت [كذا] مندوب دولتنا البريطانية العظمى بالقاهرة المشتملة على اظهار مسروريتكم وتهنئتكم القلبية

---

(١) شبيكة، المرجع نفسه، ج٢، ص ص ٢٧٢ ــ ٢٧٤.

(2) IOR, R/ 15/5/25, No. 13997, C.P.O., Basrah, to the Pol. Ag., Kuwait dated 2-12-1916.

بخصوص اجتماعنا المنعقد فى الكويت وحضره الامير عبد العزيز بن سعود ، أننا بكمال الاحترام نقدم لسيادتكم الطاهرة فائق التشكرات [كذا] وجزيل الامتنان وندعو الله ان يؤيد شوكتكم ويديم عزكم ويمدكم بامدادته الصمدانية فأعلم يا سيدنا أن جل قصدنا من هذا الاجتماع تقوية [كذا] مسائل الامة العربية والملة الاسلامية والارتباط مع سيادتكم الطاهرة والدولة الفخيمة البريطانية ونرجو أن يكون هذا الاتحاد الخيرى مقرون [كذا] بالعز والنجاح والسعادة فالواجب علينا الاخلاص فى هذا العمل القيم وجميع من فيه حمية للامة العربية فلا شك أن يكون مسرورا وممنون [كذا] فى ذلك ويكون تابع [كذا] مسلكنا فى سبيل الارشاد وفى ظل [كذا] فلا هادى له. وأمر سيادتكم أن لو كان علمتم عن ذلك الاجتماع قبل وقوعه لكان شرفتموه بمندوب لكى ينوب عن سيادتكم فأعلم يا سيدنا أن لو قسم الله ذلك لكان عندنا من اعظم النعم والمحظوظية ونحن أيضا منسوبين ومحسوبين [كذا] سيادتكم فى كل حال- ونسئل [كذا] الله ان يقرن جميع مساعيكم الحميدة بالعز والنجاح ويوفق لجلب رضاكم ومسرة خاطركم، هذا والمأمول دوام توجهاتكم القلبية ولازلتم رافلين بالعز والسعادة"[1].

ويلفت النظر هنا ان ابن سعود لم يرد مثل صاحبيه على برقية الشريف الذى لم يكتف بها بل اتبعها برسالة لكل من خزعل وجابر- وجاء فى رسالته: "بعد إرسال برقية التهنئة الخاصة بقراركم فى الاجتماع الاخير فى الكويت علمت بان الرسالة التى ارسلتها لك سابقا

(1) IOR, R/15/5/25, No. 675 of 1916, Pol. Ag., Kuwait, to the Chief Political Offiecer, Basrah, dated 11-12-1916.

قد اغضبتك بسبب انا محتار فى معرفته، ولكنى اثــق فــى حكمتــك ومعرفتك باحوالنا وعلى نبلك الشخصى وشهامتك لازالــة أى اعتقــاد خاطئ - لا لوم ولا قطع للعلاقات يمكن ان يوجه لشخص فـــى مثــل نبلك واهميتك ولا يمكن أن يكون هدف فعل اى شــى كــهذا محــالف لعادات كل العرب وتقاليدهم- إذ كانت هناك اعتقادات خاطئــة نتيجــة لبعد المسافة أو لضعف الطبيعة البشرية فى وقت يجب أن نوجه طاقتنا من أجل تأكيد استقلالنا فإننى انا الذى يعانى منها - أننـــا انـــا وانــت صديقان للحكومة البريطانية وحليفان لها وهى الصديق القوى للعـــرب ويجب أن نتحد ونتعاون مع بعضنا لطرد الترك المخــادعين اعدائنـــا الشخصيين واعداء الحق وتطهير بلاد العرب من قسوتهم وجورهـــم أن هذه هى الضرورة الاولى ويليها كل ما عداها - ليس لـــى مطمـــع شخصى فى الامر اطلاقا، وأنما هى تأمين أمننا أنا وانت وسلامة البلاد العربية وتطهيرها من شرور الترك اعداء الله - أما الماضى والمستقبل فهما بيد الله"[١]

ولم تأت سنــة ١٩١٧ بتحســن فـــى العلاقــات بيــن ابــن ســعود والشريف - بل استمرت ريبة أحدهما بالآخر على حالها - فحين تســربت بعض المؤن والتجهيزات المهربة عبر الكويت ونجد الى القوات العثمانيــة المحاصرة فى المدينة المنورة كرر الشريف اتهامه لابن سعود بأنه مرتبط بالترك[٢] ومما زاد من حدة الشــكوك والريبــة بيــن الرجليــن اخفــاق

(1) IOR R/ 15/5/25, No. 14669 D.C P.O. Basrah, to the Shaikhs of Mohammerah and Kuwait, dated 11-12-1916

2) Troller op cit pp 102-3

السلطات البريطانية فى تطويقها ومعالجتها من جراء تباين وجهات نظرها، فقد كان بريطانيو بغداد أكثر ميلا لأبن سعود بينما كان المسئولون البريطانيون فى المكتب العربى فى القاهرة يلتزمون جانب الشريف، ولقد أدركت السلطات البريطانية مغبة ذلك التباين والسعى لإزالته او تضييق شقته، فقرر المكتب العربى إيفاد رونالد ستورز الى بغداد لهذه الغاية، وقد اجرى ستورز فى بغداد مباحثات مع كوكس وتقرر فى مارس ١٩١٧ ان يسافر ستورز من بغداد لزيارة ابن سعود لعله يهدأ من مخاوفه تجاه الشريف ولكن مرض ستورز حال دون مواصلة السفر[١] وقررت السلطات البريطانية فى خريف تلك السنة ان تتوجه بعثتان من بغداد والقاهرة الى الرياض لتفهم موقف ابن سعود ودفعه نحو التعاون مع الشريف، وتقرر أيضا ان يتبادل ابن سعود والشريف مبعوثين لجعل كل منهما أكثر اطلاعا على وجهات نظر الآخر، وبالفعل وصل فلبى Philby الى الرياض فى أكتوبر ١٩١٧ على راس البعثة الاولى أما بعثة القاهرة فلم تأت نظرا لمعارضة الشريف العنيفة لها، وعندها قرر فلبى السفر بنفسه الى الحجاز فوصل غايته فى ديسمبر ١٩١٧ وأجرى محادثات مع الشريف بحضور مبعوث المكتب العربى فى القاهرة وقد أظهر الشريف موقفا متصلبا أثناء تلك المحادثات ورفض فكرة ارسال مبعوث من قبله الى الرياض وبدا بعد ذلك يقوم بمحاولات لشراء تأييد قبائل ابن سعود بالذهب، مما جعل التأزم فى علاقة الرجلين يصل حافة الانفجار[٢].

(١) وهيم، المرجع نفسه، ص ٢٩٠.

(2) Troeller, op. cit., pp. 107-12.

وكانت الشرارة التى ألهبت فتيل الانفجار هى الخلافات الحدودية التى انصبت على ملكية قرية "الخرمة" الواقعة على بعد ثمانين ميلا شمال شرق بلدة الطائف فقد نشط "الاخوان" فى نشر مبادئ الدعوة السلفية "الوهابية" بين سكان المنطقة وشن زعيم أخوان هجرة "الغطغط" سلطان بن بجاد هجوما فى أوائل سنة ١٩١٨ على إحدى عشائر عتيبة التى يعتبرها الشريف تابعة له. فكتب الشريف الى ابن سعود فى الثانى من فبراير ١٩١٨ رسالة عتاب وتحذير طالبا منه كف أخوان الغطغط عن مهاجمة عتيبة(*). وأخذ الشريف من جانب آخر يكرر الشكوى لدى المندوب السامى البريطانى فى القاهرة من قيام ابن سعود بنشر مبادئ الدعوة "الوهابية" بين رعاياه[١].

وجاءت بعدها مشكلة خالد بن لؤى ليصب الزيت على نار الخلاف. فقد شك الشريف بميول خالد بن لؤى الوهابية فاستقدمه من الخرمة حيث كان أميرا عليها. وأبقاه فى مكة المكرمة رهن الاعتقال الى أن التمس الأمير عبد الله والده الشريف حسين بإطلاق سراح خالد والسماح له بمصاحبته فى العمليات الحربية التى يقوم بها ضد القوات العثمانية ولكن خالدا تغاضب مع عبد الله وعاد أدراجه الى الخرمة حيث حصنها وجمع فيها أنصاره وطلب العون من ابن سعود ضد الشريف. وقد كتب الشريف الى خالد يأمره بالحضور الى مكة فلم يذعن للأمر. ثم أقدم على أمر آخر صعد فيه الخلاف مع الشريف حين

(*) سليمان الموسى، الثورة العربية الكبرى: الحرب فى الحجاز ١٩١٦ ـ ١٩١٨، عمان، ١٩٨٩، ص ٢٦٨.

(١) وهيم، المرجع نفسه، ص ٢٩١.

عزل قاضى الخرمة ثم أرسل قاضيا بدله ولكن خالدا أعاده من حيث أتى. وحين فشل الشريف من إغراء خالد بالتفاهم أصدر أمرا بعزله عن إمارة الخرمة وعين أحد أبناء عمه مكانه ولكن الأخير تعذر عليه استلام مهام منصبه بسبب قوة مركز خالد فى الخرمة(*).

وقد أخذت السلطات البريطانية تتدارس تلك المشكلة حيث تباينت آراؤها مرة أخرى بين القاهرة التى تؤيد الحسين وبغداد التى تؤيد ابن سعود وأخذ كل من الجانبين بإيراد حججه، ففلبى الذى يمثل وجهة نظر بغداد يؤكد أن الأغلبية العظمى من أهالى الخرمة تتمذهب ـ مثل ابن سعود ـ بالمذهب الحنبلى، وهم ينتسبون الى قبيلة سبيع النجدية. كما أن خالدا تولى الإمارة فى الخرمة عن طريق الوراثة لا عن طريق التعيين من قبل الشريف حسين. ولم تزد علاقته بمكة فى السابق على أدراجه فى سجلات الحكومة العثمانية من أجل أن يتقاضى شيئا من أموال "صرة الحج" مثل بقية الزعماء. أما قاضى الخرمة فقد كان مثل أبيه من قبله لا علاقة له بالشريف، بل تولى منصبه وراثة عن أبيه الذى كان الإمام فيصل بن تركى آل سعود قد عينه قبل زمن طويل.

وكانت وجهة نظر القاهرة تؤكد على أن الخرمة لا تبعد إلا ثمانين ميلا عن الطائف، وأن ابن سعود لو كان هو الذى عين خالدا أميرا

(*) الموسى، الحسين بن على، ص ص ٥١-٥٣ و ص ٢٥٥. ويشوب تواريخ الموسى وهو يورد روايته بعض الاضطراب. إذ يجعل اعتقال الشريف لخالد فى سنة ١٣٣٦هـ [تقع بين نوفمبر ١٩١٧ وتوفى سنة ١٩١٨] ويقول أن توسط عبد الله للرضا عنه ثم قبل حصار الطائف [يونيو ١٩١٦ حتى سبتمبر ١٩١٦]. والأرجح أن اعتقال خالد ثم قبل قيام ثورة الشريف فى يونيو ١٩١٦ وأن خلافه مع الأمير عبد الله وانسحابه للخرمة تم فى أواخر سنة ١٩١٧.

على الخرمة لما سكت على اعتقال الشريف له، ولما سكت أيضا على عزل القاضى لو كان معينا من قبله.

وأثناء ذلك حاول الشريف حسين حل المشكلة مع ابن سعود مباشرة حين كتب له فى السابع من مايو ١٩١٨ رسالة عتاب وملامة وتحذير لم تأت بنتيجة ، فاضطر الشريف الى استخدام القوة ضد خالد وأنصاره من "الإخوان"(١). فى مايو ١٩١٨ إذ أنفذ حملة مؤلفة من خمسمائة رجل بقيادة حمود بن زيد وهى مزودة بمدفع ورشاشين(*) ولكن خالدا وأنصاره تمكنوا من الفتك بها. وجهز الشريف حسين حملة ثانية مؤلفة من ألفى بدوى ومعها أربعة مدافع فلقيت مصير سابقتها(**).

حثت الحكومة البريطانية الشريف إثر هذين الصدامين على تجنب أى احتكاك مع ابن سعود. وطلبت من الأخير الكف عن اتباع سياسة متطرفة فى الخرمة وسحب أى وكلاء ربما يكون قد أرسلهم إليها. ولكن ذلك الحث البريطانى لم يمنع الشريف حسين من محاولة الثأر. فأنفذ حوالى منتصف يوليو ١٩١٨ حملة بقيادة شاكر بن زيد الذى منحه لقب "أمير قبيلة عتيبة" المتنازع على تبعيتها مع ابن سعود(٢).

---

(١) هم أبناء القبائل النجدية الذين أقنعهم ابن سعود بهجر حياة البداوة والاستيطان فى "هجر" أو قرى بنيت لهم حيث كان معلمون مختصون يعلمونهم أمور الدين ومبادئ الدعوة السلفية "الوهابية". وقد أطلقت عليهم تسمية "الإخوان" وغدوا جيش ابن سعود الذي يندفع نحو الموت ببسالة نادرة.

(*) الموسى، الثورة العربية الكبرى، ص ٢٦٨

(**) الموسى، الحسين بن على، ص ٢٢٦

(2) Troeller, op. cit., pp. 131-3

وكانت الحملة مؤلفة من مقاتلين بدو معظمهم من قبيلة عتيبة(*)، ويبلغ عددهم ألف وستمائة وتسعة وثمانين رجلا بينهم أربعة وعشرين خيالا(1). وقد تصدت لهم قوة من أخوان قبيلة سبيع مؤلفة من أربعمائة وخمسين رجلا. ودارت بين الطرفين معركة حامية أسفرت عن انتصار الاخوان وفرار المهاجمين بعد أن خسروا قرابة مائة وخمسة عشر قتيلا وكثيرا من الغنائم. بينما خسر الأخوان عشرة قتلى فقط. ولم يحل بين الاخوان وبين الحاق خسائر أفدح بالقوة المهاجمة إلا كونهم مشاة، في حين كان أفراد القوة المهزومة من الهجانة(2).

وكان من جملة الغنائم التى استولى عليها الأخوان ثلاثة مدافع وثلاثة رشاشات علاوة على عدد وفير من البنادق والذخيرة. وقد أدى ذلك الهجوم الى نشوء توتر كبير فى المنطقة المحيطة بالخرمة فى حالة تعرضها لهجوم آخر يشن عليها من قبل قوات الشريف(3). وكان الأخير قد أعد حملة رابعة بقياده صهره عبد الله باشا وكانت مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل. ولكنه أمرها بالوقوف عند جبل حضن انتظارا لوصول ابنه الأمير عبد الله لقيادتها فبقيت هناك شهرين تفتك بها الحرارة(*). ولعل ذلك الأمر كان نتيجة للتحذير الذى تلقاه من السلطات البريطانية. إذ أنها وجهت رسالة مزدوجة للشريف حسين وابن سعود تطالبهما بالكف عن

(*) الموسى، المرجع نفسه، ص ٢٢٦.

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M133, Philby, Riyad, to Political Baghdad, dated 30-7-1918.

(2) IOR, R/15/5/103, No. M115, Philby, Riyad, to Political, Baghdad, dated 20-7-1918.

(3) IOR, R/15/5/103, No. M133, Philby, Riyad, to Political, Baghdad, dated 30-7-1918.

(*) الموسى، الحسين بن على، ص ٢٢٦.

أى نزاع دموى آخر حول الخرمة[1].

ولم يكن التوتر الذى سببته تلك المعركة قاصرا على المنطقة المحيطة بالخرمة بل امتد الى نجد نفسها. إذ انتشر هياج واسع لا سيما بين الإخوان الذين أخذوا يضغطون على ابن سعود للقيام بهجوم مضاد على الشريف. وقد جعل ذلك الضغط ابن سعود فى موقف حرج لاحظه المبعوث البريطانى فلبى وسجله حين كتب: "بدأ ابن سعود بإظهار علامات القلق وعدم الرضا والشك فى صدق سياستنا وقوة تأييدى ومفاتحاتى على السواء. الشعور العام المنتشر هنا معاد دائما والشك فى نوايانا بدأ يتحدى بصورة جدية حكمة تحالف ابن سعود معنا وسياسته نحونا، ويطالب صراحة برد قوى على أعمال الشريف والعجمان. إن ابن سعود يدرك بشكل كامل أن الخصام معنا سيكون كارثة لمستقبله ولكنه فى موقف غاية فى الصعوبة. إذ لا يمكنه السماح لى إلى مالا نهاية بإبقاء يديه مكتوفتين بينما يقوم أعداؤه المتمتعون بحمايتنا بمهاجمته فعليا فى جانبيه كليهما، وما أخشاه للغاية هو أن الرأى العام سيبرهن أنه أقوى من مقاومته. لقد تعهد بالتوجه لمساعدة أهل الخرمة إذا ما هوجموا مرة أخرى لأنه واثق من نيتنا وقدرتنا على كف الشريف عن ذلك... لقد أعطيت تأكيدات بأن الأمور أعلاه ستنال اهتماما مواتيا من قبل الحكومة، ولا شئ سوى نتيجة ملموسة سيعيد مكانتنا فى بلاد العرب المركزية التى قاست من انخفاض جدى بسبب الأحداث الأخيرة..."[2].

---

(1) Troeller, op. cit., op. 134.

(2) IOR, R/ 15/5/103, No M111, Philby, Riyad, to Political, Baghdad, dated 19-7-1918

وبعد ذلك بعدة أيام قدم ابن مسعود مذكرة مكتوبة لفلبى اعتذر فيها عن القيام بأى عمل لصالح بريطانيا ضد ابن رشيد حليف الترك، وعن تحمل أية مسئولية تجاه تسرب المؤن الى العدو. وأشار أنه لا يستطيع القيام بهذين العملين مجازفاً بترك جناحيه مكشوفين أمام تحركات الشريف فى الغرب والعجمان والكويت فى الشرق. وطالب بإعطائه ضمانات بريطانية كان أبرزها أن تضمن له الحكومة البريطانية بصورة جازمة سلامة أراضيه ورعاياه ضد أى نوع من التدخل أو الهجوم من جانب الشريف. ويشمل هذا الضمان بالطبع الأراضى الحدودية المتنازع عليها فى الخرمة وقبيلة عتيبة انتظاراً للتسوية. ونتيجة لما لاحظه فلبى من حراجة الوضع فى نجد اضطر لأن يقدم لابن سعود الضمانات المطلوبة قبل الرجوع لمراجعه العليا وأخذ موافقتها، ولكنه اشترط عليه بالمقابل الشروع بالتحرك ضد ابن رشيد خلال عشرة أيام ـــ وقد برر فلبى لرؤسائه إقدامه على تلك الضمانات دون إذن منهم بتخوفه من حدوث اضطراب واسع فى نجد، وبرغبته فى توريط ابن سعود فى أعمال عدائية ضد ابن رشيد فى أسرع وقت كى تحول انتباهه عن الشريف من ناحية، وليمنع من ناحية أخرى امكانية تعاونه مع ابن رشيد فى جهد مشترك ضد الشريف، وهى امكانية لم تكن مستحيلة اطلاقاً وحث فلبى رؤسائه على إقرار الضمانات التى قدمها لابن سعود(١).

ويبدو حديث فلبى عن إمكانية تعاون ابن سعود وابن رشيد ضد الشريف مبالغة واضحة سيما وقد راجت أخبار عن مراسلات بين

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M123, Philby, Riyad, to Political, Baghdad, dated 24-7-1918.

الشريف وابن رشيد خلال هذه الفترة نفسها. فقد حدث أن وقعت بيد الأمير عبد الله بن الشريف حسين رسائل صادرة عن ابن رشيد يشكو فيها من معاملة الترك له. واستغل عبد الله الفرصة فأوفد رسلاً لابن رشيد يدعونه للسلم مع الشريف وبالتالى مع بريطانيا. وقد هون فلبى من شأن ذلك التطور حين بلغته أخباره حيث كتب قائلاً: "لا يعتقد ابن سعود أن ابن رشيد سوف يستجيب لأية عروض ولكنه يعتبر عمل عبد الله عملاً عدائياً "موجهاً" ضده، وهو استنتاج صحيح على الأرجح. أميل للظن بناء على عدة مؤشرات أخيرة بأن الروايات حول احتمال قوى لعروض تأتى من جانب ابن رشيد غير ذات أساس..."[١]. ولكنه عاد بعد أيام قلائل للقول بأنه أطلع على رسائل بعثها عبد الله الى شيوخ بعض القبائل فى نجد تفيد بالتوصل الى السلام مع ابن رشيد وأن المفاوضات متواصلة معه حول قضايا الشمال والجنوب. وطلب فلبى من مراجعه اعلامه عن مفاوضات ابن رشيد والشريف والمدى الذى ستؤيدها فيه الحكومة البريطانية. وأضاف إذا كان الشريف كما يبدو مرجحاً يمد ابن رشيد بأموال ووعود بالمساعدة ضد ابن مسعود فسيغدو موقف بعثته فى الرياض غير ملائم[٢].

وتفيد رواية أخرى عن تلك الاتصالات أن ابن رشيد هو الذى بادر بالكتابة للأمير عبد الله الذى أحال الأمر لوالده. وقد اشترط الشريف على ابن رشيد خضوعه لسيادته وقطع علاقاته مع الترك.

وطالب ابن رشيد بالمقابل أن تكون سيادة الحسين عليه اسميه وأن

---

(1) IOR, R/ 15/5/103 No M137 Philby, Riyad. to Political. Baghdad, dated 1-8-1918

(2) IOR, R/ 15/5/103 No. M143, Philby, Riyad, to Political, Baghdad, dated 6-8-1918.

يستعيد بعض المناطق التى كان الجيش الحجازى قد احتلها. وحين رفض الحسين تلك المطالب وأصر على أن يكون خضوع ابن رشيد غير مشروط لم يجد ابن رشيد سوى الإذعان وأرسل وفداً رسمياً لمقابلة الحسين بناء على طلب الأخير ولكن تلك الاتصالات لم تسفر عن شئ عملى محدد. وربما كان للسلطات البريطانية دور فى اجهاضها لأنها لا تريد للشريف وابن رشيد أن يتحالفا ضد ابن سعود فى الوقت الذى كانت تشجع فيه الأخير على حرب حائل لصرف انتباهه عن الشريف كما مر آنفاً.

واستمر فلبى فى غضون ذلكم يهول لرؤسائه حراجة موقف ابن سعود نتيجة لأحداث الخرمة السابقة والضغوط التى يتعرض لها من مراكز القوى النافذة فى نجد. ورد فلبى على ذلك بإيراد فحوى مقابلة تمت بين ابن سعود وبين من أسماه "رجل الدين الأكبر فى الرياض" الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب(١). إذ انتقد الشيخ سياسة ابن سعود وكان رأيه هو أن الإنكليز إذا لم يكونوا قادرين على كف الشريف والعجمان فمن غير المجدى الاعتماد عليهم ويجب على ابن سعود أن يتخذ الخطوات اللازمة لانقاذ الموقف قبل فوات الأوان ـ أما إذا كان الإنكليز قادرين ولكنهم غير راغبين بكف أولئك الأعداء فهذا يثبت سوء نيتهم. وقد رد عليه ابن سعود بالقول أن كل تلك الأحداث وقعت أثناء غياب السير برسى كوكس عن بغداد وأنه سوف يعالجها بطريقة حسنة عند عودته. وأطلع ابن سعود بعدها الشيخ عبد الله على الضمانات المكتوبة التى تلقها من فلبى. فاقتنع الشيخ عندها بصواب فكرة الانتظار.

---

(١) لعله يقصد الشيخ عبد الله حسن آل الشيخ.

زاد فلبى على ذلك بالقول أن قضية الخرمة التى أدت الى صراع مسلح بين الشريف وابن سعود قد أنعشت آمال الترك بفصل ابن سعود عن الانكليز. ودلل على ذلك بالرسالة التى تلقاها ابن سعود من ثلاثة شيوخ فى عسير بعثوها بإيحاء من السلطة التركية وهى تدعوه للانضمام الى الترك لحماية دين الاسلام الذى يسعى الحلف الى هدمه[1].

وفى الوقت الذى كان التوتر فى نجد بالغا أقصاه من جراء الخرمة على ما روى فلبى، أقدم عبد الله بن الشريف على عمل زاد من حدة ذلك التوتر. إذ وصلت الأخبار للرياض بأنه أرسل رجالا من قبيلة حرب بستة عشر ألف جنيه ليشتروا له بها إبلا من نجد. وقد أمر تركى بن عبد العزيز آل سعود باحتجاز أحد مشايخ القبيلة المذكورة لحين تسليمه نقود عبد الله. ولكن والده الأمير عبد العزيز حين علم بالأمر ألغى قرار تركى وأطلق الشيخ المحتجز وأمر بإعادة النقود من قبيلة حرب الى عبد الله، وقرر فى الوقت نفسه منع بيع الإبل الى الشريف نظرا لمواقفه المعادية مثل غلق سوق مكة بوجه قوافل القصيم والمعاملة القاسية التى يتعرض لها النجديون فى الحجاز وغير ذلك.

وقد علق فلبى على ما جرى بقوله: "لقد فكرت فى الأمر واعتبرت أن من قلة الذوق من جانبى الاعتراض عليه. فإذا كان عبد الله يريد الحصول على الإبل فإن أحسن وسيلة يتبعها هى كتابة رسالة مهذبة الى ابن سعود يرجوه فيها بذل مساعيه الحميدة بهذا الشأن. إن التعامل المباشر من قبل الشريف مع أهل نجد فى ظل حالة التوتر الراهنة أمر غير مرغوب فيه. قيل أن القوة الشريفية لازالت متمركزة فى

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M 134, Philby, Riyad, to Political, Baghdad, dated 30-7-1918.

عشيرة[١]. ويحتمل أنها فقط بقايا القوة المهزومة فى الخرمة، ولكن إبعادها سيكون أمرا حكيما لأنها تشكل تهديدا فى الظروف الراهنة[٢].

وحالما تلقى المندوب السامى البريطانى فى القاهرة أخبار ما حدث أبرق الى باسيت Bassett ممثل بريطانيا لدى الملك حسين يخبره بالأمر ويعلمه أن ابن سعود محق فى الإجراء الذى اتخذه، كما أمره أن يطلب من الملك الإيعاز لابنه عبد الله بالكتابة مباشرة الى ابن سعود حين يرغب بشراء الإبل باعتبار ذلك أمرا تتطلبه المجاملة[٣].

وعاد فلبى بعد أيام للحديث عن مشكلة الخرمة حين كتب: "إن الخرمة واحدة من القضايا المتنازع عليها بين الشريف وابن سعود الذى أبدى استعداده لاحالة الأمر للحكومة البريطانية لإصدار حكم قضائى Adjudication بشأنه ــ ان اعادة احتلال الخرمة أو محاولة أخرى لإعادة احتلالها سيعتبرها ابن سعود بالتأكيد سببا للحرب. اننى واثق من أن تأكيدات نهائية ستعطى له بدون تأخير وأن قوة عبد الله سوف تنسحب من عشيرة والمران[٤] لأنها تشكل بصورة ثابتة إثارة غير ضرورية وتهديدا لابن سعود ــ أستطيع أن أضمن سلامة أراضى الشريف من هجوم يشنه ابن سعود إذا ما عبر الأول عن أية مخاوف من هذه الناحية. وخلال ذلك تبلور لدى بعض المراجع البريطانية العليا رأى حول مشكلة الخرمة عبر عنه وزير الدولة لشؤون الهند حين

---

(١) موضع على بعد خمسة وسبعين ميلا شرق مكة المكرمة.

(2) IOR, R/15/5/103, NO. M139, Philby, Riyad, to Political, Baghddad, dated 1-8-1918.

(3) IOR, R/15/5/103, NO. 6949, Political, Baghddad to Philby, dated 23-8-1918.

(٤) موقع قريب من عشيرة.

أبرق لحكومة الهند فى الخامس من أغسطس ١٩١٨ قائلا: "... إن الخرمة لا تبعد إلا ثمانين ميلا عن الطائف فيبدو واضحا أنها تقع ضمن مجال نشاط حسين وخارج المجال الذى يسمح لابن سعود بالتدخل فيه. يجب أن يترك فلبى هذا الانطباع عن الحالة فى ذهن ابن سعود بينما يؤكد له أن مصالحه المستقبلية تنال اهتماما فعالا من لدن حكومة جلالته فى الوقت الراهن. ليست لدينا نية للتغاضى عن حقوق ابن سعود العادلة ولكن ما يجب أن يدرك هو أنه لا خدماته الماضية ولا فوائده المستقبلية المتوقعة قابلة للمقارنة مع مثيلتها لدى الملك حسين. وأننا لا يمكن أن نسمح بتضرر مصالح الأخير أو بصرف انتباهه عن المهمة الرئيسية المتمثلة فى دحر العدو من جراء نشاط ذى توقيت سيئ من جانب ابن سعود"[١].

ولم يسلم فلبى برأى وزير الدولة لشئون الهند حين نقل إليه، بل رد عليه قائلا: "أتجرأ على الاعتقاد بأن حكومة جلالته سوف تعدل الرأى المستند على بعد الخرمة عن الطائف. فالخرمة تقع على بعد عشرة أميال فقط شرق الحدود غير القابلة للنقاش بين قبيلة البقوم وقبيلة سبيع وهى شعيب شابا Shaba. ونقطة الخلاف لذلك هى السيادة على القسم الغربى من قبيلة سبيع الذى حاضرته هى الحزمة ويقع حدها الشرقى فى وادى نعيم Naim على بعد مائة وعشرين ميلا شرق الخرمة. ولذلك فإن الحكم بأن الخرمة للشريف يتضمن بالضرورة مد حدود الحجاز الى خط يبعد حوالى مائتى ميل أو أكثر شرق الطائف.

(1) IOR, R/ 15/5/103 No. M404, Political Baghdad, to Political, Kuwait, dated 6-8-1918

إن هذا يطرح للمناقشة قضية نجود عتيبة الممتدة مائة ميل أخـرى شرق وادى نعيم. وحيث أن الشريف يدعى السيادة على عتيبـة فـإن حدود نجد تتراجع الى ما يقرب جدا من خط طويق[١] أرجو أن أوضح بصورة جادة أولا أن الأمر معقد لا يعد كثيرا مما يفترض وله وجـهان وثانيا أن ابن سعود لا يمكنه أن يترك الخرمة لمصيرها دون المخاطرة بحدوث اضطراب واسع النطاق بين قبائل نجد التى سـيكون عملـها الأول على أية حال هو مهاجمة الشريف بمساعدة القبـائل الجنوبيـة، وثالثا أن الخرمة لن تستسلم فى أية حال للـهجمات الشـريفية. بينمـا ستجعل كل محاولة غير ناجحة من قبل الشريف لاستعادتها شعور بلاد العرب المركزية غير ملائم لنا بصورة متزايدة. طبقا لمعلوماتى فـإن عددا كبيرا من جنود نجد الذين كانوا يخدمون سابقا فى قوات الشـريف قد هجروه نتيجة لموقفه المعادى لنجد... إننى لم أتوقـف قـط عـن التوضيح لابن سعود أن حكومة جلالته لن تسمح بأى ضـرر يلحـق بمصالح الشريف تقديرا لمشاركته الفعالة فى الحرب وأهميته السياسـية العامة. ووضحت له بصورة مساوية أن حكومة جلالته ستصون حتمـا مصالحه الشرعية. إن ابن سعود لا يطلب منا أكثر من ذلك.

وكما أفدت مرارا فى السابق فإنه مستعد لأن يخضع كل الأمـور المتنازع عليها للحكومة البريطانية على الأساس أعلاه، وهو مصمم فى الوقت نفسه على عدم التنازل عن شئ من حقوقه الشـرعية وتركـه عرضة للعدوان من قبل الشريف..."[٢].

---

(١) جبل طويق هو سلسلة المرتفعات المشرفة على مدينة الرياض.

(2) IOR, R/ 15/5/103, No. M169, Philby, Wushaiqir, to Political, Baghdad dated 18-8-1918

وكانت السلطات البريطانية العليا تتابع تطورات الخلاف على الخرمة وتبحث عن وسيلة لنزع فتيل الصدام. يظهر ذلك واضحا من برقية أرسلها وزير الدولة لشؤون الهند الى حكومة الهند فى الخامس من أغسطس ١٩١٨، وجاء فيها: "درسنا ببعض القلق الوضع فى بلاد العرب المركزية، وخرجنا بانطباع مفاده إذا كان يجب تجنب الحريق الهائل الذى يخشاه ونغيت Wingate فإن وسيلة ما يجب أن توضع قيد التنفيذ لتحويل اهتمامات ابن سعود ومطامحه الى اتجاه لا يجره الى الصراع مع الملك حسين فهل يمكنك أو السير برسى كوكس اقتراح اى شكل من التحويل يرجع أن يكون فعالا، هل تؤيد اعطاءه أو السماح له بحيازة بساتين نخيل أو أراضى زراعية أخرى فى جنوب ما بين النهرين باعتبارها ملكا خاصا له؟ أرجو أن تعطينى وجهات نظرك بأسرع ما يمكن أننا نولى أهمية كبيرة لترتيب وضع بلاد العرب المركزية دون تأخير، ونحن مستعدون للنظر فى أية مقترحات معقولة وعملية تخدم تعزيز هذا الهدف"[1]. وقد رد وكيل المندوب السامى البريطانى فى بغداد على اقتراح الوزير أعلاه بالقول: "إننى لا ارى هدفا نافعا يمكن أن يخدم بإعطاء ابن سعود أو السماح له بحيازة بساتين نخيل أو أراضى زراعية فيما بين النهرين"[2].

أما فلبى فعلق على ذلك الاقتراح حين اطلع عليه بقوله: "... اننى مقتنع بأن مجرد هدية من المال أو أرض مربحه سوف لن تخدم الهدف لأن هدية مثل هذه سوف تترك ابن سعود عاطلا عن العمل. وأشك

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 6405, Political, Baghdad, to Political Kuwait, dated 5-8-1918.

(2) IOR, R/ 15/5/103, No. 6500, Political, Baghdad, to Foreign, Simla, dated 7-8-1918.

على أية حال فى أنه سيقبل هدية من الأرض فى ما بين النهرين، وأشك بصورة مماثلة فى حكمة إدخال عنصر وهابى فى ذلك القطر". واقترح فلبى بدلا من ذلك تزويد ابن سعود ببعض الأموال والأسلحة وتوجيهه لحرب ابن رشيد باعتبار ذلك الوسيلة الوحيدة لتحويل انتباهه عن الخلاف مع الشريف[1].

ولم يكف الشريف حسين خلال ذلك كله عن السعى لاسترجاع الخرمة ــ فقد أرسل ابنه عبد الله رسالتين لشيخين من مشايخ قبيلة عتيبة مؤرختين فى الثالث عشر من يوليو ١٩١٨، فأرسلهما الشيخان المذكوران لابن سعود. ويظهر من تلك الرسالتين أن عبد الله نفسه تولى قيادة قوة تأديب الخرمة وهو متمركز على رأسها قرب المران. وأنه يعتزم الزحف من هناك الى آبار الشضوب Shudhub فى وادى سبيع على مسيرة حوالى يوم واحد الى الشرق من الخرمة حيث وجه قبيلة عتيبة وأخرى للانضمام اليه هناك. وقد علق فلبى على ذلك بقوله أن مضمون هاتين الرسالتين يجعل نوايا عبد الله تجاه الخرمة غير قابلة للشك. وذكر بأنه قدم سابقا تأكيدا لابن سعود بأن حكومته سوف تمنع أى هجوم آخر على الخرمة مقابل موافقته على التذرع بالصبر والانتظار. وختم فلبى تعليقه بالقول أن هجوما آخر على الخرمة سوف يعجل باندلاع الحرب بالتأكيد[2].

وبناء على ذلك سعت السلطات البريطانية لتدارك الأمر، ووجه المندوب السامى البريطانى فى مصر الرسالة التالية الى الشريف:

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 169, Political, Baghdad, to Foreign, Simla, dated 18-8-1918.

(2) IOR, R/ 15/5/103, No. 143, Political, Baghdad, to Foreign, Simla, dated 6-8-1918.

"تدركون سموكم أن ابن سعود لا يستطيع إلا أن يعتبر رسائل كهذه معادية له بشكل مباشر. أن حكومة جلالته كانت مقتنعة تماماً بتأكيدات سموكم حول أن حملة الشريف شاكر على الخرمة كانت فقط من أجل استعادة النظام الداخلي، وعند استلامها تلك التأكيدات أخبرت ابن سعود بمشاعر سموكم الودية نحوه، وحثته في الوقت نفسه على اتخاذ موقف توفيقي مشابه. إنني واثق في أنكم لم تكونوا مطلعين على تصرف الشريف عبد الله في كتابة تلك الرسائل، ولكنكم ترون الآن كم أصبحت الأمور حرجة منذ وقعت تلك الرسائل بيدى ابن سعود إنني أحث سموكم بقوة على عدم إضاعة الوقت والكتابة لكل من الشريف عبد الله والشريف شاكر لاعلامهما كيف أنكم أعطيتم كلمتكم للحكومة البريطانية بعدم ارتكاب عمل عدائي ضد ابن سعود وأتباعه، ولتأمروا الأول بالعمل وفق سيادتكم وتكريس طاقاته لقتال الترك، وتأمروا الثاني بعدم التقدم أبعد من الخرمة أو الدعوة الى تجميع القبائل والتي يمكن أن تؤدي فقط الى إراقة الدماء ـ إنني أعلم بأنني استطيع الاعتماد على سموكم في اتخاذ الخطوات اللازمة حيال ذلك فوراً"(1).

ويلاحظ هنا أن المندوب السامي لم يكن يمانع في وصول قوات الشريف الى الخرمة ذاتها لاستعادة النظام فيها، ولكنه يعارض أي زحف لتلك القوات وراءها. بينما كان فلبي في رسائله السالفة الذكر يحذر من أن أي هجوم على الخرمة ذاتها سيؤدي الى تفجير الموقف بين ابن سعود والشريف.

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 6925, Political, Baghdad, to Political, Kuwait, dated 22-8-1918.

وكانت السلطات البريطانية، من جانب آخر، تدرس الضمانات المكتوبة التى قدمها فلبى فى الرابع والعشرين من يوليو ١٩١٨ لابن سعود كما مر.

فقد اقترح وكيل المندوب السامى البريطانى فى بغداد على حكومة الهند أن يكون موقف بريطانيا الرسمى من نزاع الشريف وابن سعود حول الخرمة هو اخبار الأخير كتابة أن المادة الثانية من معاهدة السادس والعشرين من ديسمبر ١٩١٥[١] معه تنطبق بصورة مماثلة على عدوان من قبل الملك حسين وأن لجنة خاصة سوف ترسل من قبل حكومة جلالته حالما تسمح الظروف لتضع حدود الأراضى المشار إليها فى المادة الأولى من المعاهدة[٢]، ولعقد الاتفاقية الأخرى المشار إليها فى المادة السابعة[٣]. ويجب على ابن سعود فى الوقت نفسه الكف عن مواصلة مطالبه فى الخرمة وأن يعمل كل ما بطاقته لكبح النشاطات الفوضوية لوكلاء الاخوان. وزكى وكيل المندوب اقتراح

---

(١) نص هذه المادة هو: "إذا اعتدت أية دولة أجنبية على أراضى بلدان ابن سعود المذكور واعقابه دون الرجوع الى الحكومة البريطانية ودون اعطائها فرصة تبادل الرأى منع ابن سعود وتسوية الأمر، فإن الحكومة البريطانية ستعاون ابن سعود الى الحد وبالطريقة التى تعتقد الحكومة البريطانية بعد التشاور مع ابن سعود أنه أكثر فعالية لحماية مصالحه وأراضيه".

(٢) نصت تلك المادة على "أن الحكومة البريطانية تعلن وتعترف بأن نجد والإحساء والقطيف والجبيل وملحقاتها وأراضيها التى ستناقش وتعين فيما بعد وموانيها على ساحل الخليج هى بلدان ابن سعود وآبائه من قبله..." وإشارة وكيل المندوب السامى تنصب على عبارة "ستناقش وتعين فيما بعد".

(٣) ونصت تلك المادة على" أن الحكومة البريطانية وابن سعود يوافقان على عقد معاهدة مفصلة إضافية تتعلق بالأمور التى تهم الجانبين".

فلبى بتوجيه أنظار ابن سعود ضد ابن رشيد، وربما تكـــون حصيلـــة النجاح فيها مربكة للملك حسين، ولكن الضرورة تحتمها مع ذلك(١).

أما المندوب السامى البريطانى فى مصر فقد علق على ضمانـــات فلبى ورأى بغداد فيها تعليقاً طويلاً جاء فيها: "فيما يخص الملك حســين وابن سعود فإن قضية الخرمة مظهر للكراهية القديمة بين حزب مكــة والحزب الوهابى. ان الزعيمين كليهما مرتهنان لنا، ولكن الأول يقــاتل الترك بصورة فعالة. ويرغب كلاهما فى انتزاع نتيجة ملائمة تمكنه من ترسيخ موقفه تجاه الآخر. أن نفوذ ابن سعود يستند بصورة كبيرة الــى الوهابية، وهى الطائفة التى يمكن أن تضم العناصر الرجعية والمعاديــة وان تصبح صعبة القياد وخطرة خصوصاً فى الأوقـــات المضطربــة كالوقت الراهن ــ والملك حسين يحس بهذا التـــهديد بصـــورة قويـــة، ويحتمل أنه شعر بأن ابن سعود وطائفته سوف يسيطرون بمســـاعدتنا على السياسية العربية. اننى واثق أنه سيكون من المسلم بـــه أن قيـــام حركة عربية مثل هذا سيغدو غير مرضى للمسلمين عموماً ومضـــاداً للمصالح والدعاية البريطانية. ومن جانب آخرْ فإن السياسة التى تؤيدها القاهرة مكرسة لتأمين أولوية الملك حسين دون الإضـــرار بـــالحقوق الإقليمية للزعماء العرب الآخرين. لقد برر الملك حسين تصرفه فـــى الخرمة بأنه ضرورى لحماية سلطته فى الشرق التى أضعفت، وأنكـــر اية خطط عدائية ضد ابن سعود. ويجب أن تقبل تلك التأكيدات على ما اعتقد، ويجب أن يؤيد حقه فى معاقبة الشيخ المتمرد خالد المعين مـــن قبله أصلاً. إن إذعان المستر فلبى لتأكيد ابن سعود على أن عمل الملك

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 491, Political, Baghdad, to Foreign, Simla, dated 7-8-1918.

عدائى يشكل برأيى أمراً طائشاً ويدعو للأسف الشديد.

لقد كانت مكة لحد الآن تعتمد فى الحماية على المساعدة الحربية العثمانية (مصرية أو تركية) وقد حللنا على أية حال محل العثمانيين مؤقتا فيجب أن نحاول حماية محمينا الأول وتقوية نفوذه وتعزيز الاتحاد المضاد للترك فى بلاد العرب. وإننى فى الوقت نفسه مقدر بشكل كامل بضرورة الاحتفاظ بصداقة ابن سعود الذى أدرك أنه يمثل العنصر الأقوى ــ إن لم يكن الأوحد فقط ــ المحب لانكلترا فى سياسة نجد. ولو كانت الوهابية بين يدى من هو أقل منه أمانة أو قدرة لتحولت بسهولة من تهديد كامن الى تهديد فعال. إننى أوافق على أن يعامل ابن سعود بسخاء فيما يخص الاعتمادات المالية التى يمكن أن تمارس أيضاً تأثيراً مهدئاً على الرأى العام المعادى الذى أشار إليه المستر فلبى، ولكنى أؤكد على أننا يجب ألا نزوده بمصادر القوة الحربية الأخرى ما لم تكن ضرورية بشكل ملح وأن يكون تزويدها بالكميات الدنيا اللازمة للإبقاء على شعوره الودى نحونا وسلطته.

وانتقل المندوب السامى للقول: "إذا قبلت حكومة جلالته تلك الأفكار فإنى اقترح أن تكون الرسالة المكتوبة الى ابن سعود، والمشار إليها فى الفقرة الأولى من برقية بغداد المرقمة ٦٤٩١، بالمعانى التالية: (إن الملك حسين أعطانا تأكيدات مشددة بأن عمله ضد شيخ الخرمة الأمير خالد شأن داخلى وليس موجهاً ضد ابن سعود وأنه لا يكن أية نوايا عدائية ضد الأخير. وعلى ابن سعود أن يكتب رسالة ودية الى الملك تعبر عن حرص كبير على الصلح الذى تشعر حكومة جلالته أنه

سيكون ذا فائدة كبيرة للجانبين كليهما وللعرب عموما ــ وإن حكومة جلالته مستعدة لبذل مساعيها الحميدة للجانبين من أجل عقد صلح وتسوية سلمية لمشاكلهما القائمة ولكن لا يمكنها إلا أن تشعر بأن الوقت الراهن للحرب والعناء غير ملائم لتسوية نهائية ومرضية لقضايا معقدة مثل التحديد الدقيق للحدود. ويجب على كل الزعماء العرب في الوقت نفسه أن يتحدوا ضد العدو المشترك وأن يمارسوا الصبر والتراضي وأن يبذلوا كل جهد لحصر النزاعات عند تعاملهم مع بعضهم البعض...). إنني أوافق على أن العمل من قبل ابن سعود ضد ابن رشيد ربما يمثل إنهاء ومنفذا أكثر أمنا لطاقات الأول..."[1].

ولم تمر آراء المندوب السامي هذه دون أن تلقى معارضة من فلبي الذي كتب: "أتجرأ على التعبير عن رأيي في أن العداء بين ابن سعود والملك مع أنه بلا ريب يمكن عزوه تاريخيا الى الكراهية القديمة بين مكة والوهابية إلا أنه عائد مباشرة الى الطموحات السافرة للملك في الزعامة العربية أولا، ولشعور ابن سعود ثانيا بأن الملك بمناوأته له قد أضر بمصالحه المادية كما في قضية تسليح وتمويل حائل مثلا. ويتصل بما مر أعلاه أن ابن سعود يقصر طموحاته على وجه الخصوص على السلامة التامة لأراضيه تحت قيادته باعتباره حاكما مستقلا بشكل جازم. وستقرر حدود تلك الأراضي من قبل حكومة جلالته طبقا لاتفاقية توضع في وقت يلائمها بشرط أن لا تتضرر أراضيه من جراء تصرف مبكر يقوم به الملك ويتعلق بمناطق الحدود والقبائل. إنني متفق مع ما جاء في الفقرة الثانية وأود أن أضيف أن الخطر يصبح مؤكدا إذا

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 1209, Wingate Bacos, Ramleh, to Foreign Office, dated 12-8-1918.

أثير تعصب طائفة كهذه بعمل أجنبى معاد يمكن تفسيره على أنه هجوم ضد الدين.

إن ذلك مستبعد طالما ظل ابن سعود فى هذا الموقف ولكن الخطو من وجهة نظرنا كاف فى أنه إذا أذعن لعمل معاد للدين فإنـــه سيفقد نفوذه وقيادته وستنتج الفوضى من ذلك. لم أفهم الإشارة الى "الإذعـان الجاهز من قبلى. إن امرءاً يقرأ برقياتى لا يمكن أن يجد أى شئ يبرر هذه الجملة، لأن ابن سعود يلتزم بالمقابل دائماً بموقف يتلخص فـى: أولاً أن حكومة جلالته لن تسمح بأى انتـهاك لاراضيـه مـن قبـل الشريف أو أى أحد آخر، وثانياً أن السيادة على الخرمة قضية متروكة لقرار حكومة جلالته. يبدو لى أن هذا واضح تماماً فـى تقـاريرى... ولكن بينما أحجم متعمداً عن تأييد قناعة ابن سعود بالطبيعة العدوانيـة لمسلك الملك انتظاراً لقرار من الحكومة فإننى أرى شخصياً أن هـذه القناعة تبررها الوقائع. إن رجلاً أرسله الشريف فى الصيف المـاضى الى الخرمة لكى يعمل قاضياً تقليدياً محل عالم وهابى أشـغل منصبـه بوراثة غير منقطعة من والده الذى عينه فيصل قبل خمسين سـنة. إن ذلك التصرف شكل تحدياً مباشراً للوهابية ترتبت عليه نتائج رويناهـا سابقاً. ومن جانب آخر فإن المندوب السامى يقبـل بسـرعة روايـة الشريف عن تعيين خالداً لمنصب الأمير ويشير له بصراحة باعتبـاره متمرداً. وحيث أن واجبى هنا هو منع غليان التعصب الوهـابى ضـد الشريف فيجب أن أعرض باحترام أن قبول هذه الفكـرة دون تحقيـق كامل وعدت به المعاهدة مع ابن سعود يشكل تهديداً خطيراً للسلم"(١).

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 185, Philby, Buraida, to Political, Baghdad, dated 4-9-1918.

وقد درست الحكومة البريطانية مقترحات بغداد والقاهرة حول صيغة الرسالة المزمع توجيهها الى ابن سعود، وأدخلت تعديلات عليها، وطلبت ابلاغ الصيغة النهائية الى فلبى كى يقدمها لابن سعود(١). وكانت تلك الصيغة كما يلى:

١- أننا نلتزم بتعهداتنا بممارسة كل تأثير فى طاقاتنا لمنع الانتهاكات لأراضى ابن سعود، ولكننا نشعر بأن من غير الممكن القطع بوقائع الحالات المنفصلة دون تحيز الى أن تناقش الحدود الدقيقة لأراضيه وتخطط حسبما اشترط فى معاهدة ديسمبر ١٩١٥.

٢- أن الملك حسين أعطانا تأكيدات مشددة بأن اجراءه ضد شيخ الخرمة العاصى الأمير خالد شأن داخلى وليس موجهاً ضد ابن سعود وأنه لا يضمر نوايا عدوانية ضد الأخير.

٣- أن الملك حسين يعد رسالة ودية لابن سعود ويبدو متلهفاً للوصول الى تسوية تشعر حكومة جلالته أنها ذات فائدة عظيمة للجانبين كليهما وللعرب عموماً. لقد عرض الملك حسين أن يزور بنفسه ابن سعود من أجل مناقشة صلح كهذا.

٤- أن حكومة جلالته مستعدة لبذل مساعيها الحميدة للجانبين كليهما من أجل الوصول الى صلح كهذا ومن أجل تسوية سلمية لمشاكلهما الباقية، ولكنها تشعر أن زمن الحرب والعناء الراهن غير ملائم لتسوية نهائية ومرضية لمشاكل معقدة مثل

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 207, Sec. of St. for India to the Viceroy, dated 15-8-1918.

التحديد الدقيق للحدود، وتشعر فى الوقت نفسه ،وجوب اتحـــاد القادة العرب كلهم ضد العدو المشترك ووجـــوب ممارســتهم الصبر والتراضى وبذل كل جهد من أجل حصر النزاعات فى تعاملهم مع بعضهم البعض.

٥- [فقرة عن تعديل إجراءات الحصار الاقتصادى فى الكويت].

٦- أننا سنتأكد من أن مصادر ابن سعود المادية لن تتضرر مـــن جراء أية أعمال حرب يتولاها لصالحنا..."

ووجهت الحكومة تابعيها الى ضرورة أن يكون تزويد ابن ســـعود بالأموال سخياً. ولكن الأسلحة والذخائر يجب أن تزود بالكميات الدنيـــا اللازمة للإبقاء على شعوره الودى وسلطته(١).

وحين وصلت هذه الرسالة الى فلبى عرض ترجمتها الشفهية علـــى ابن سعود قبل تقديمها مدونة له. وكان رد فعل ابن سعود الأولى كمـــا سجله فلبى هو: "لقد عبر عن سروره للفقرتين الخامسة والسادسة، وعن إدراكه للصعوبات المذكورة فى الفقرتين الأولى والرابعـــة ولحـــرص الحكومة البريطانية على إبداء اهتمام أكبر بصيانة مصـــــالح حلفائـــها العرب. وفيما يتعلق بالفقرة الثالثة عبر عن الأمل فى أن تفتح رســـالة الشريف سبيلاً لاعادة بناء علاقات ودية وأبدى استعداده لملاقاته فـــى منتصف الطريق، لم يجب الفقرة الثانية وعـــبر عـــن الأمـــل فـــى أن الحكومة البريطانية سوف لن تسمح بأى هجوم آخر على الخرمـــة لأن ذلك سيعيد إثارة المشكلة بين قبائل نجد التى هدأها بتأكيداتـــــه مؤقتـــاً.

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 802, Political, Baghdad, to political, Kuwait, dated 19-8-1918.

وبالمناسبة فإنه استلم للتو رسالة الحاج أخرى من الخرمة... منذ رسالة حكومة جلالته الأولى أجد الموقف هنا سهلاً. لقد كانت العاصفة مفاجئة وحادة جداً ولم يتم تخطيها لحد الآن إذ أن عمليات شاكر تشكل غيمة مدلهجة في الأفق لن يسمح لها بالتطور كما أثق باخلاص أن هجوماً آخر على الخرمة سيرمى نجداً ثانية في الهياج. وما يجب إدراكه هو أن أغلبية الناس يقضون أكثر من نصف يومهم في صلاة وممارسات دينية أخرى ولا يجب التعامل معهم باعتبارهم أشخاصاً عقلاء تماماً. إن بصائرهم محدودة بشكل يائس ونفوسهم فاسدة بالتعصب. إذا أمكن الوصول لترتيبات مرضية لمشكلة الخرمة فإن الأمل بإعادة تأسيس علاقات جيدة يبدو متألقاً بشكل كاف. وإذا كان الملك جاداً في أمر الزيارة فلم لا يرتب اجتماع في المران. إذا كان الحاكمان يستطيعان الوصول معاً إلى تسوية مرضية للحدود فذلك أمر مفضل للغاية..."[1].

وبعد أن استلم ابن سعود نص رسالة الحكومة البريطانية مدوناً قدم لفلبي رده الخطي عليها. وكان أبرز ما فيه حسب تلخيص فلبي له هو:

"١- إشارة الى الفقرة الثانية أنه يعترض بشدة على السماح للشريف بمهاجمة الخرمة ويبين أنه حتى لو تخلى عن الاعتراض فإن أهل نجد لن يقبلوا بالوضع. ويتنصل بصورة خاصة من أية مسؤولية عن العواقب إذا ترك الأمر يمضي قدماً.

٢- فيما يتعلق بعرض الشريف زيارته يعبر عن تقديره وامتنانه واستعداده للاجتماع بالشريف ولكنه يخشى أن تستغل حملة مثل

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 173, Philby, Buraida, to Political, Baghdad, dated 27-8-1918.

هذه ستارا لجمع القوات التى ستوجه نحو الخرمة فيما بعد. ويرغب أن يشترط أولا قدوم الشريف مع الحد الأدنى من الأتباع اللازمين لاظهار هيبته، وثانيا مصاحبة ممثل بريطانى مسؤول له".

وعلق فلبى على ذلك بالقول: "بعد إمعان التفكير وبالنظر لخطر الصدام المحتمل إذا لم يتم التوصل لاتفاقية مرضية فإننى أوصى عموما بعدم تشجيع الزيارة. إن مزاج أهل نجد غير ثابت تماما وأى نقاش دينى بين أتباع الحاكمين يمكن أن ينتهى باضطراب. أوصى فى هذه الظروف بدراسة المقترحات الواردة فى تقريرى المرقم (م١٤٧)... ووصلت أخبار اليوم بأن شاكر المتمركز فى المران أصدر أمرا بإرسال حملة لجباية الزكاة من ابن حميد وهو شيخ من قبيلة عتيبة يدفع الزكاة عادة لابن سعود. قرر ابن حميد بالذهاب مع كل أتباعه للانضمام الى أهل الخرمة. وروى أيضا أن أهالى رانية وبيسه وتثليث قد تجمعوا بأعداد كبيرة جدا فى الخرمة. أتجرأ على الحث بقوة على عدم السماح باستمرار هذا الوضع الخطر الى مالا نهاية. إن لشاكر أملا ضعيفا جدا بالفوز وهناك مجازفة خطيرة للغاية بأن تعقب فشله القادم ثورة دينية واسعة النطاق. ولا استطيع التأكيد على الأمر بعبارات أقوى مما فعلت. إننا نتصرف بطريقة تفضى الى كارثة بتركنا هذا التعصب يتطور. إن الوضع سهل حاليا وآمل بجد أن يستفاد من هذه الحقيقة بفرض سياسة "رفع الأيدى" مؤقتا على الجانبين بصورة متماثلة"(١).

---

(1) IOR, R/15/5/25103, NO. M178, Philby, Buraida, to Political, Baghdad, dated 29-8-1918.

ولقد كان للسلطات البريطانية فى بغداد رأى مماثل لرأى فلبى حول فكرة الزيارة التى يقوم بها الشريف لابن سعود. فقد كتب المندوب السامى البريطانى فى بغداد حال اطلاعه على الفكرة الواردة فى رسالة الحكومة البريطانية مبدياً تشككه فى جدية الشريف حسين فى تنفيذ تلك الفكرة. وأضاف أنه يعتبر فكرة اجتماع الحاكمين فى الظروف الراهنة ليست أمراً غير مرغوب فيه فقط، ولكنه خطر أيضاً(١).

وقد سارعت السلطات البريطانية فى القاهرة بالرد على تشكك المندوب السامى فى بغداد بالقول أن فكرة الزيارة جاءت من الملك حسين نفسه فى ثنايا رسالة بعثها الى الحكومة البريطانية(٢).

وكانت المقترحات التى ذكر فلبى أعلاه أنه أوردها فى رسالته المرقمة (م١٤٧) قد أرسلها لمراجعه فى الثامن من أغسطس ١٩١٨. ومهد لها بالقول أن ابن سعود موافق بحماس على ترك تسوية كل القضايا المتنازع عليها بينه وبين الشريف لقرار تتخذه الحكومة البريطانية سواء الآن أو فى المستقبل شريطة أن لا يثير أحد الطرفين الطرف الآخر بالتحرك خلال ذلك. وذكر أن ابن سعود، من أجل أن يظهر رغبته المخلصة فى تنفيذ سياسة الحكومة، ألغى باقتراح من فلبى أوامره السابقة القاضية بمنع بيع الإبل الى الأمير عبد الله بن الحسين، ومضى فبلى يقول: "افترض أن كل جهد سيبذل لإيقاف تنفيذ عبد الله لخططه فى الخرمة سيوفر فرصة ثمينة لالتقاط الأنفاس، وسينتج عن ذلك فائدة هى تحديد كل جانب لموقفه وتعيين حدود مؤقتة يتحرك كل

(1) IOR, R/15/5/25103, NO. M6766, Political Baghdad, to Pordrome, Cairo, dated 17-81918.

(2) IOR,r/15/5/103, No. 787M, Wingate Bacos, Ramleh, to Political Baghdad, dated 18-8-1818.

منهما داخلها. وبافتراض أن محاولة الوصول الى تسوية دائمة غير واردة خلال الحرب فإننى أقترح دراسة الترتيبات التالية: إن نقاط الاحتكاك هى:

١- الخرمة ٢- قبيلة عتيبة

٣- تراسل الشريف المباشر رسمياً مع قبائل نجد ولهجة رسائله ورسائل عبد الله لابن سعود

٤- الظلم المزعوم للنجديين المقيمين فى الحجاز.

فيما يتعلق بالفقرتين الأولى والثانية اقترح، دون الحاق أى ضرر مهما يكن بالتسوية النهائية أن ترسم حدود مؤقتة من المران نحو الجنوب الى تربه على طول شعيب شايه بصورة تقريبية وهو الحد الفاصل بين قبيلتى البقوم وسبيع. فما يقع الى الغرب فى هذا الخط، ويضمنه الموقعان المذكوران كلاهما، يعتبر نطاق سلطة الشريف، ويجب على أى من الجانبين ألا يعبر هذا الخط ولا يتدخل لأى سبب كان مع قبائل أو أشخاص فى الجانب الآخر منه. وتقع الخرمة بالطبع شرق هذا الخط. إننى مقتنع أن هذا هو الحد المؤقت الوحيد، وعلى الرغم من أنه يترك القاطنين من قبيلة عتيبة فى سهل الركبة Rakba للشريف فإننى أضمن قبول ابن سعود به إذا قدم له على شكل اقتراح جدى. وفيما يتعلق بالفقرة الثالثة فإن أياً من الفريقين أو أى شخص ينوب عنهما يجب أن لا يتراسل فى أى أمر رسمى مع أية قبيلة أو شخص فى الجانب الآخر من الخط أو مع بعضهما البعض إلا عن طريق الوكيل البريطانى المعين لديه. وفيما يتعلق بالفقرة الرابعة فيمكن

مفاتحة الشريف على أن تقدم الشكاوى المحددة فى المستقبل عن طريق الوكيل البريطانى فى جدة من أجل حسمها. وأثق أن ضرورة التحــرك بموجب تلك الخطوط سيعترف بها باعتباره الإمكانية الوحيدة للحفــاظ على السلم خلال الحرب لأن الجانبين كليهما سيعرفان بعدها أين يقفان. وبالنظر للتأثير المرضى الذى يحدثه هنـــا تدخـــل حكومـــة جلالتـــه المباشر فى أمور كهذه، على الرغم من أننى أتوقع تذمرات من جـــانب ابن سعود ضد التفاصيل، فإننى أوصى، إذا أقـــر اســـاس الاقـــتراح، بوجوب إرسال التسوية الى الجانبين كليهما باعتبارها أوامر نهائية مـــن حكومة جلالته يتم التقيد بها بإحكام باعتبارها تسوية مؤقتة خلال فـــترة الحرب. إننى استنكر أية محاولة أخرى للتفاوض لأنها فقـــط ســـتعزز الاحتكاك بينما سيقوى اصدار أوامر بالشكل الذى أقترحه قبضتى علـــى ابن سعود بشكل هائل. إذا لم يتم تحرك للنهوض بأعباء المستقبل فـــإن الأمور ستتحرف عـــائدة بصـــورة محتمـــة الـــى الوضـــع الخطـــر الحالى..."[1].

وقد علق المندوب السامى البريطانى فى القاهرة علـــى مقترحـــات فلبى هذه بقوله: "إن نقاط الاحتكاك التى حددها فلبى لا تعتـــبر أســـبابا ولكنها نتائج للاختلافات التقليدية والطائفية بين الحاكمين. إن كل واحـــد منهما سيرحب دون شك بتدخلنا المباشر فى نزاعهما شريطة أن يكـــون لصالحه وأن يكون نافذ المفعول. ولكن فى محاولتنـــا إبقـــاء التـــوازن متعادلا يرجح أن نزعج الجانبين كليهما. إن إكـــراه أحدهمـــا ســـيكون مشكلة فى المرحلة الراهنة. وكان على فلبى عند تقديـــم مقترحاتـــه أن

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M147, Philby, Barra, to Political, Baghdad dated 8-8-1918.

يعلم أن حكومة جلالته لم تكف يد الملك حسين عن العمل ضد الأمـــير المتمرد فى الخرمة، ولكنها استلمت تـــأكيدات جازمـــة بـــأن الحملـــة الشريفية لن تمتد الى الشرق فى الخرمة. تابعت مـــع الملـــك قضيـــة مراسلة عبد الله ورجوته أن يمنع اتخاذ إجراء عدائى من قبل عبـــد الله ومرؤوسيه انتهاكاً لتأكيداته لنا. فى الظروف الراهنة ومـــع معرفتنـــا الطفيفة بالأمور القبلية والجغرافية المحلية لا أعتقد أن تدخلنا المباشـــر فى قضية الحدود سيؤدى الى أية نتيجة مرضيه. فلن يقبل الملك بالتأكيد خط الحدود المؤقت المقترح. لقد بينت للملك سابقاً أن لهجـــة بعـــض رسائله ورسائل عبد الله الى الشيوخ الشرقيين [يقصد شرق الحجـــاز] كانت غير ملائمة وسيئة الصياغة بشكل لا يؤدى الى تعزيز علاقـــات جيدة ــ وسوف أؤكد أيضاً على الضرورة السياسية لاظهاره الرضـــى للفضل وأفراد عائلته فى مكة. إن الوضع معقد وخطر ولكنـــى لا أرى وسيلة ممكنة لتلطيفه سوى الاستمرار على التوضيح للجانبين معـــاً أن الصالح العام وصالحهما الشخصى يتمثل بمنـــع انـــدلاع الصدامـــات، وسوف نحاول اقناعهما بالتراسل فيما بينهما مباشرة أو عن طريقنا من أجل العثور على حل وسط(1). ويجدر التنويه بـــأن آل فضـــل الذيـــن ذكرهم المندوب السامى آنفاً هم عائلة نجدية من بلدة عنيزة كانت مقيمة فى مكة وسجن الملك حسين اثنين من أفرادها هما عبد الله بن صـــالح آل فضل وعبد الله بن محمد آل فضل(2).

وكان الأمير عبد الله خلال ذلك يقوم بحملة اقناع لشـــيوخ القبـــائل

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. 1265, Wingate Bacos, Ramleh, to Foreign Office, dated 26-8-1918.

(2) IOR, R/ 15/5/103, No. M112, Philby, Barra, to Political, Baghdad dated 19-7-1918.

وخاصة قبيلة عنيزة لتجنيدهم ضمن القوة التى يزمـــع بـــها اســتعادة الخرمة. ولكن الاستجابة لحملته كان طفيفة مما أوجد شيئاً من الانفراج فى جو التوتر المخيم على نجد. إذ أن ذلك ولد قناعة لدى ابن ســـعود بأن هجوماً آخر على الخرمة من جانب قوات الشريف لم يكن محتملاً. وإن كان فلبى قد ظل على اعتقاده بأن استمرار الشريف شاكر معسكراً على رأس قواته قريباً من الخرمـــة يـؤدى الـــى بقــاء حالـــة عـــدم الاستقرار(1).

وقد مر أن المندوب السامى البريطانى فى القاهرة قد اقترح تشجيع الحاكمين المتخاصمين على التراسل فيما بينهما لإيجاد جو مـــن الثقـــة بينهما، فاقرت الحكومة البريطانية الاقتراح ووجهت فلبى لحـــث ابـــن سعود على فعل ذلك. وسجل فلبى ما فعله فى هـــذا الصـــدد بقولـــه: "إن طلباً رسمياً منه لكتابة رسالة الى الشريف كان ســـيخلق انطباعـــاً سيئاً. مع ذلك فإننى فى مناقشة للأمور مع ابن سعود رجوته أن يحـــث نفسه بأية وسيلة ممكنة للمحافظة على علاقات ودية معه. واقــــترحت، وكأن الاقتراح صادر منى شخصياً، أن رسالة فى هذه المرحلة ربمـــا تعود بخير كثير ولا تضر ــ ناقش الفكرة فـــى البدايـــة علـــى أنـــها مستحيلة نظراً لردود الشريف على رسائله السابقة، ولكنى طلبت منــــه أن ينعم النظر فى الأمر ــ وبعد يومين من التفكير قرر دون ضغـــط إضافى منى أن يقوم بالتجربة ــ أرسلت الرسالة للشريف اليوم [الرابـع عشر من أغسطس ١٩١٨]. واعتقد أن ابن سعود الآن قد عمل كل مـــا هو ممكن للحفاظ على السلم والأمن، وأثق أن الشـــريف ســـيمنع فـــى

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M147, Philby, Barra, to Political, Baghdad dated 14-8-1918.

تطوير العمل ضد الخرمة الذى سيعجل بالأعمال العدائية بالتأكيد..."[1].

ولابد من الإشارة هنا إلى أن من عوامل ازدياد حدة التوتر بين الزعيمين؛ الموقف الانتهازى الذى كانت القبائل تتخذه كما هو دأبها فى أغلب الأحوال. إذ كانت تغير ولاءها من أحدهم للآخر، وتحاول اللعب على حبل التناقض بينهما بما يحقق مصالحها الذاتية. فحين اختلف بعض شيوخ قبيلة عتيبة مع الإخوان فى ديسمبر ١٩١٧ ذهبوا للملك حسين وأعلنوا ولاءهم له وشكوا له تصرفات الإخوان. ولكنهم ما لبثوا طويلاً حتى اختلفوا مع الحسين فعادوا لابن سعود ومنحوه ولاءهم ودفعوا له زكاته وذلك فى أغسطس ١٩١٨[2]. ومن جانب آخر فإن قبيلة العجمان التى كانت على عداء مع ابن سعود سعت لاستغلال الخلاف بين الزعيمين. فقد كتب بعض شيوخها رسالة الى الملك حسين يعلنون ولاءهم له وعداءهم لابن سعود. وقد طلب الملك نصح الممثل البريطانى لديه فى كيفية الرد على تلك الرسالة. فنصحه ياسيت أن يكون رده اعلاماً لهم باستلام رسالتهم ونصحاً بأن يتصلوا بأقرب سلطة بريطانية إن كانوا يعانون من صعوبات ما[3]. وبالفعل أبلغ الملك مندوبى شيوخ العجمان شفوياً بضرورة مراجعة الممثل البريطانى فى الكويت ووجوب اطاعته لتوجيهاته. وأضاف الملك قوله أن سياسته والسياسة البريطانية متطابقتان[4].

---

(1) IOR, R/ 15/5/103, No. M159, Philby, Barra, to Political, Baghdad dated 14-8-1918.

(2) IOR, R/ 15/5/103, No. M147, Philby, Wushaiqir, to Political, Baghdad, dated 18-8-1918.

(3) IOR, R/ 15/5/103, No. A.B. 79, Arbur, Cairo, to Arbur, Baghdad, dated 9-8-1918.

(4) IOR, R/ 15/5/103, No. A.B. 111, Arbur, Cairo, to Arbur, Baghdad, dated 14-8-1918.

لقد نجحت الجهود البريطانية فى نزع فتيل الصدام حول الخرمة مؤقتاً، إذ ظلت القوة الشريفية المعدة لاستردادها بقيادة الشريف شاكر تراوح خطاها فى المران دون أن تقدم على تنفيذ المهمة الموكلة إليها. وبقى الأمر هكذا حتى انتهت الحرب العالمية الأولى بإعلان الهدنة فى الحادى عشر من نوفمبر ١٩١٨. وعندها انتفت حاجة بريطانيا العسكرية الى الملك حسين، فانقلبت سياستها حيال قضية الخرمة رأساً على عقب، وقررت انتهاج سياسة "عدم التدخل" فى مشاكل الحدود بين نجد والحجاز. وبذلك أنارت بريطانيا الضوء الأخضر أمام الزعيمين المتنازعين للجوء الى القوة وامتشاق الحسام كى يكون الفيصل فى تقرير مصير الخرمة بل والحجاز كله. وهو تطور حدث بعد المدى الزمنى المحدد لهذا الكتاب فلا مجال للخوض فيه.

الفصل الثامن

النفوذ البريطانى فى العراق بين ١٩٠٨ و ١٩١٤

◻ التمثيل القنصلى والامتيازات القنصلية:

بدأ الوجود الانكليزى فى العراق سنة ١٦٣٥ مع وصول التجـار الإنكليز الى ميناء البصرة لأول مرة، وأعقب ذلك حصول شركة الـهند الشرقية الانكليزية على امتيازات تجارية من والى البصرة سنة ١٦٣٩. وكان ذلك الخطوة الأولى فى مسيرة طويلة تعـزز خلالـها الوجـود الانكليزى تدريجياً حتى غدت ربوع العراق بحلول سنة ١٨٦٠ منطقـة نفوذ بريطانية يصدق عليها المفهوم المعروف لمنطقة النفـوذ: فـهناك مصالح وامتيازات وأرجحية تتمتع بها دولة أجنبية فى قطر متأخر فـى مضمار المدنية[١].

وحظى البريطانيون نتيجة لذلك بتمثيل قنصلى كبير ــ فقد كـانت لهم فى بغداد قنصلية عامة وهى فى الوقت نفسـه مقيميـة سياسـية، وتعكس هاتان الصفتان طبيعة تطورها التاريخى التى حتمـت تبعيتـها الإدارية لكل من حكومة الهند ووزارة الخارجية البريطانية فى لندن فى الوقت نفسه. وكانت لهم فى البصرة قنصلية مرت بتطورات عديدة قبل أن تستقر نهائياً بصفتها تلك[٢]. وكان للبريطانيين تمثيل فى كربلاء منذ سنة ١٩٠٣ يتولاه نائب قنصل بعد أن كان قبلها يتولاه ممثل قنصلـى. وكان يدير تلك النيابة خلال فترة البحث فارس مسلم من رعايا بريطانيا اسمه محمد حسن [٣]. وكانت لبريطانيا فى الموصل أيضاً نيابة قنصليـة

---

(١) زكى صالح، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤، بغداد، ١٩٦٨، ص ص ٥٤، ٨٠، ١٧١.

(2) Tuson, Penelope, The Records of the British Residency and Agencies in the Persian Gulf, appendix, "British representation in Turkish Arabia and Iraq, 1635 – 1932", London 1979, pp. 175-7.

(3) IOR, L/p + s/10/212, summary of events in Turkish Iraq during July 1912.

منذ ما قبل منتصف القرن التاسع عشر. وقد تولاها خلال الفترة المعنية المستر غريغ Greig إلى أن خلفه المستر هنى Hony فى تشرين الثانى ١٩١١[١]، ولكن تلك النيابة كثيراً ما كانت تدار من قبل الترجمان وهو من النصارى المحليين.

ولقد حظيت القنصلية العامة البريطانية فى بغداد بعدة امتيازات ما كانت تتمتع بها قنصليات الدول الأخرى، وذلك بحكم قوة الإمبراطورية البريطانية حينئذ على الساحة العالمية، وما تحقق لها من مركز متميز فى الدولة العثمانية التى كانت تعيش فى هذه الفترة سنواتها الأخيرة وهى فى أدنى درجات الضعف قياساً بالدول الأوربية القوية. كانت تلك الامتيازات تسبب أحياناً احتكاكات بين السلطات العثمانية فى بغداد والقنصلية العامة البريطانية. ومن تلك الامتيازات وجود حرس فى الجيش الهندى البريطانى يتولى حراسة القنصلية العامة. ويعود ذلك الترتيب الى أيلول سنة ١٨٠٠[٢]. وعلى الرغم من تقادم العهد إلا أن قدوم حرس جديد لتبديل الحرس السابق كان يثير فى الغالب إشكالات متجددة بين السلطات المحلية والقنصل العام المقيم، فقد وصلت إلى بغداد فى التاسع والعشرين من كانون الأول ــ ديسمبر ١٩١١ الباخرة النهرية القادمة من ميناء البصرة مفرزة مؤلفة من ضابط (جامدار Jamadar) واحد، وستة وثلاثين من ضباط الصف والجنود علاوة على ثلاثة من الأتباع. وذلك كى تحل محل المفرزة السابقة التى كانت قد

---

(1) IOR, L?P + S/10/212, Summary of events in Turkish Iraq During November 1911.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار، المصالح البريطانية فى انهيار العراق ١٦٠٠ ــ ١٩١٤، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٨.

تولت حراسة المقيمية منذ الأول من نيسان ــ أبْرِيل من السنة نفســها. ولم تعترض السلطات على نزول أفراد المفرزة من الباخرة مع قادتهم، ولكن موظفي الكمرك اعترضوا على انزال واحد وعشرين صنــــدوق رصاص يحتوي كل واحد منها على ألف ومائتي طلقة. كما اعـترضوا على ادخال بندقية مارتيني واحــدة ذات طلقــات كبــيرة مخصصــة لاستخدام الحارس المناوب في المقيمية، وعلى بندقية ذات ماســورتين ومعها عشرون طلقة وهي مملوكة للضابط. وإزاء ذلك اضطر الضابط وستة من رجاله للبقاء على ظهر السفينة لحراسة الذخيرة والبندقيتيــن، حين أبرق المقيم للسفير البريطاني في اسطنبول يبلغه بالواقعة ويطلــب مساعدته في حل الإشكال بسرعة لأن الباخرة على وشك المغادرة فــي رحلة العودة الى البصرة.

تلقى المقيم في الوقت ذاته استفساراً مكتوبا من والي بغــداد عــن سبب زيادة عدد المفرزة الى أربعين رجلاً في حين كان العدد المألوف في المرات السابقة يتراوح بين خمسة وعشرين إلى ثلاثين رجــلاً(١). وحيث أن القضية لم تحسم حتى مغادرة الباخرة فقد رتب المقيــم مــع مؤسسة لبنج البريطانية المالكة للباخرة أن يتولــى القبطــان مســئولية الذخيرة والبندقيتين التي ستظل على ظهر البــاخرة أثنــاء انحدارهــا للبصرة، وعودتها منها الى بغداد ثانية.

وأمر المقيم مفرزة الحرس المستبدلة بألا تأخذ معها عند مغادرتــها صندوقي ذخيرتها الحاويين على ألف وثلاثمائة وســتين طلقــة. وقــد

---

(١) ذكر أن عدد اولئك الحراس يبلغ ستين رجلاً، راجع: عبد الكريم العلاف، بغداد القديمة، بغداد، ١٩٦٠، ص ١٧٩.

غادرت المفرزة القديمة بغداد بالفعل دون حدوث أى إشكال[1].

واستمر اصرار السلطات العثمانية على موقفها فظلت الذخيرة على ظهر الباخرة تروح وتجئ بها بين بغداد والبصرة، ولم يتسنى إنزالها إلا عند عودتها الى بغداد فى المرة الثالثة، ولقد تسربت القضية للصحافة البغدادية فكتبت صحيفتان تقولان أن مفارز الحرس الجديدة تجلب معها دائماً بنادق وذخيرة الى بغداد، بينما لا تأخذ المفارز المغادرة معها أسلحتها وذخائرها. فأوحت بذلك أن مستودعاً كبيراً للأسلحة والذخائر يؤسس فى المقيمية البريطانية فى بغداد لأغراض شريرة. وأسهبت احدى هاتين الصحيفتين فى الحديث عن زيادة عدوانية فى عدد الحرس الذى ذكرت أنه كان مؤلفاً فى الأصل من إثنى عشر رجلاً فقط، وقد فند المقيم البريطانى لمراجعة أقوال تلك الصحيفة فذكر أن الحرس حين أنشأت فى أيلول سبتمبر ١٨٠٠ كان يتألف من ضابط واحد وثمانية وعشرون رجلاً وطبال واحد وعازف ناى واحد. ولكن انتقال المقيمية سنة ١٩٠٤ الى مبناها الجديد الذى يتطلب حراسة أكثر استدعى إضافة عدة رجال آخرين للحرس بحيث أصبح عددهم خمسة وثلاثين رجلاً علاوة على الضابط وزيد الحرس بعد ذلك بواقاً آخر، فأصبح العدد ضابطاً وستة وثلاثين ضابط صف وجندى. ولمفرزة الحرس أيضاً عدة أتباع غير عسكريين يتذبذب عددهم طبقاً للظروف. واعترف المقيم أن الذخيرة التى جلبتها المفرزة فى الحالة الأخيرة لم تكن مطلوبة وشحنت من الهند دون علمه. واقترح على حكومة الهند تغيير الاجراء المتبع فى إرسال الذخيرة من أجل تجنب

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during December 1911

كرار الصعوبات[1]. ولكنه لم يكشف ماهية التغيير الذى يقترحه.

وقد تجاوزت القضية نطاقها المحلى فى بغداد حين اشتكى البـــاب لعالى لدى الحكومة البريطانية مما اكتنف التبديـــل الأخـــير لحـــرس لمقيمية فى بغداد من ظروف، وفى إقامة مستودع للسلاح والذخيرة فى لمقيمية. وقد رد المقيم البريطانى فى بغداد ــ بناء على أمر من السفير لبريطانى فى اسطنبول ــ على تلك الاتهامات، فنفى صحة الإدعاء بأن لحرس المستبدل قد ترك بنادقه وراءه فى بغداد، واتهم والـــى بغـــداد لامبالاة جديرة باللوم لعدم إفادته حكومته المركزية عن حقيقة الحال.

وفى لقاء خاص بين الوالى والمقيم جرى فـــى مـــنزل الأول فـــى سادس من آذار ــ مارس ١٩١٢ شرح له تـــاريخ حـــرس المقيميـــة الأعراف المتصلة به، وهو ما لم يكن الوالى مطلعا عليه مـــن قبـــل حسب قول المقيم ــ واعترف الوالى للمقيم أثناء الحديث أن كـــل مـــا يده هو اتباع اجراء عند تبديـــل الحـــرس لا يعرضـــه لانتقـــادات صحافة، وحاول المقيم استرضاء الوالى بالقول أن المقيمية تحرم على رسها الظهور فى الشارع العام وهم يحملون الســـلاح، كمـــا تمنـــع يارتهم للبلدة وهم بملابسهم الرسمية حتى حين يكون فى غير أوقـــات عمل على الرغم من عدم وجود قانون عثمانى يمنع ذلك. فرد الوالـــى لى هذه اللفتة بمثلها حين لاحظ بسرور أن أفراد الحرس لم يقصـــروا ى أداء التحية للضباط العثمانيين حين يصادفونهم فى الشوارع علـــى رغم من أنهم يرتدون اللباس المدنى. واقترح المقيم علـــى الســـفارة بريطانية فى اسطنبول وهو ينقل لها ذلك كله إجراء تغيير اختيـــارى

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during January 1912.

فى ترتيبات استبدال الحرس فى المستقبل[1]. ولكنه لم يحدد ثانية طبيعة ذلك التغيير المقترح.

ولكن ذلك التغيير المقترح لم يتم فى حينه على ما يبدو ــ فعندمــا اقترب موعد تبديل الحرس جرت مراسلات برقية مجددا بين المقيميــة فى بغداد والسفارة البريطانية فى اسطنبول وحكومة الهند حول كميــة الذخيرة التى يجب على حرس المقيمية الجديد جلبها معه، وقد أسـفرت المراسلات عن اتخاذ قرار بأن لا يجلب الحرس معـــه ســوى اثنيــن وثلاثين جعبة ذخيرة اسطوانية فقط. وتم بذلك تفادى أى احتكاك مـــع سلطات الجمرك حين نزلت مفرزة الحرس الجديدة من البـــاخرة فـــى الخامس عشر من تشرين الثانى ــ نوفمبر ١٩١٢، وغادرت مفـــرزة الحرس المستبدلة فى التاسع عشر منه دون حادث. ولكن والى بغـــداد كتب للمقيم رسالة "مهذبة" تسأل عن عدد الحرس الجديـــد وتشـكيله. فرد عليه المقيم فورا معطيا التفاصيل المطلوبة[2]. ولعل ذلك الموقـف من قبل ولاية بغداد تجاه عملية استبدال الحرس هذه المرة كان وليـــدا لسقوط حكومة الاتحاد والترقى فى اسطنبول فى تموز ــ يوليو ١٩١٢ ولاعتدال شخصية والى بغداد زكى باشا الذى خلف أحمد جمـــال بــك الاتحادى المتشدد الذى ثارت الأزمة السابقة فى عهده وقد عـــاد نـــهج التشدد من جديد مع عودة الاتحاديين للسلطة، فحين علمـــت سـلطات الجمرك أن حرس المقيمية البديل سيصل بغداد خلال يومين أو ثلاثـــة وذلك فى كانون الأول ــ ديسمبر ١٩١٣ أبلغت المترجم الأول للمقيمية أنها لن تسمح بنزول الجنود مع بنادقهم دون أوامر تتلقاها من الولايـــة،

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during March and April 1912.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during November 1912.

ولم تتطرق لذكر الذخيرة هذه المرة. وقد أجرت المقيمية محاولات لإنهاء الأمر دون الرجوع الى وكيل الوالى. ولكن مدير الجمرك ظل متمسكاً بموقفه بعناد مبيناً أن البنادق لا يمكن "استيرادها" دون إذن خاص. وعند ذلك رفعت المقيمية الأمر إلى وكيل الوالى الذى كتب حالاً لمدير الجمرك يأمره بالسماح بمرور البنادق والمستلزمات الخاصة بالحرس البديل والمستبدل. فتم أمر الاستبدال بعد ذلك بسلاسة[1].

ويتصل بامتياز وجود حرس هندى للمقيمية فى بغداد امتياز آخر هو مرابطة قارب المدفعية كوميت Comet فى نهر دجلة أمام مبنى المقيمية. وقد ابتدأ العمل بهذا الامتياز منذ سنة ١٨٠٠ أيضاً على الأغلب[2]. وكان ذلك الامتياز يثير ضيق السلطات العثمانية أحياناً مثله مثل الامتياز السابق. وقد علق المقيم البريطانى فى بغداد على ذلك الواقع بقوله أن قضية قارب المدفعية والحرس ستظل قائمة إلى أن تربط بغداد بالخليج العربى سكة حديد تؤمن إرسال نجدة عاجلة فى حالة تعرض المقيمية البريطانية المنعزلة فى الداخل لأى خطر. وأضاف ربما يكون ممكناً عندما يحين الوقت الملائم ترتيب الحصول على تسهيلات إقامة مطار للمقيمية لتعويض خسارة كوميت. ولكنه أوصى بأن تبقى كافة امتيازات المقيمية فى بغداد، مثل الحرس وقارب المدفعية، مصانة دون مس نظراً لتزايد الوجود الألمانى فى العراق.

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during November and December 1913 and January 1914. .

(٢) نوار، المرجع نفسه، ص ٣٠ ـ والطريف أن أهل بغداد كانون يسمون ذلك القارب "مركب كمد"، راجع: العلاف، المرجع نفسه، ص ١٨٠.

وخطط ألمانيا لبناء قنصلية ضخمة فخمة فى بغداد[1].

ويلاحظ فى هذا الصدد أن المقيمية البريطانية فى بغداد لم تكن تكتفى بالتمسك بامتيازاتها الموروثة بل تحاول استغلال الفرص السانحة لتوسيعها، فقد حاول المقيم ــ بموافقة السفير البريطانى فى اسطنبول فى آذار ــ مارس ١٩٠٩ الحصول على موافقة والى بغداد على قيام كوميت برحلة الى سدة الهندية صعوداً فى نهر الفرات فى القرنة بحجة نقل السير وليم ويكلوكس من أجل تفتيش مشاريع الرى هناك. وقد انطلى الأمر على الوالى فى البداية حين صرح بأنه لا يجد اعتراضاً على ذلك بشرط عدم تحمله أى مسئولية عن تصرف العشائر فى ولاية البصرة تجاه القارب. فرد عليه المقيم الكولونيل رامس مبيناً عدم وجود ما يخشاه من العشائر إذا تلقت السلطات فى البصرة أمراً بأن لا تكون معيقة للرحلة. وعند هذا انتبه الوالى الى ضرورة الحصول على موافقة الصدر الأعظم على الفكرة. وقد رد الصدر الأعظم بالاعتراض على ذهاب ويلكوكس بالقارب كوميت وفضل أن يستأجر مركب غيره. وعلى الرغم من أن المقيم هجر فكرة القيام بتلك الرحلة إلا أنه رأى أنها حققت للبريطانيين كسباً جديداً وهو عدم اعتراض السلطات العثمانية فى بغداد واسطنبول على "حق " كوميت فى الإبحار فى نهر الفرات، حيث انصب اعتراضها فقط على فكرة السماح لموظف عامل لديها باستعارة القارب من المقيم البريطانى.

وأعلن المقيم عزمه حين يذهب للبصرة على أخذ كوميت لمسافة صغيرة صعوداً فى نهر الفرات بحجة ظاهرية هى القيام برحلة صيد،

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during March and April 1912.

وبهدف مضمر وهو جعل موظفي ولاية البصرة معتادين على رؤية كوميت تتعدى القرنة مبحرة شمالاً في نهر الفرات[١].

وكان للمقيمية البريطانية في بغداد ــ أسوة ببقية القنصليات ــ قواسون تعينهم من السكان المحليين ــ وهم فراشون ومراسلون ينقلون المراسلات بين المقيمية ودوائر الدولة وغيرها. وكان عددهم أثني عشر قواساً[٢]. وقد خصصت المقيمية لقواسيها زياً خاصاً يرتدونه، ولكن والي بغداد الجديد حسين ناظم باشا اعترض على ذلك الزي بعد وصوله الى بغداد في مايو ١٩١٠. إذ وجه للمقيم رسالة رسمية طلب فيها إلغاء زي القواسين الحالي واستبداله بآخر من الطراز المستخدم لدى القنصليات البريطانية في غرب الدولة العثمانية. وبرر الوالي طلبه بتشابه الزي الحالي مع زي الجنود العثمانيين مما يخشى معه أن تنشأ عرضاً حادثة مؤسفة. فرد المقيم على ذلك الطلب بالقول أن ذلك الزي قد استخدم لسنوات سابقة ولم تحدث خلالها أية حادثة غير مقبولة. وأعرب عن ثقته في أن الوالي لن يصر على الأمر لكون تغيير الزي سيكون مكلفا[٣]. وكان المقيم في جوابه هذا مراوغاً إذ لم يذكر فيه أن أمر استبدال زي القواسين كان بالفعل مدار بحث في السفارة البريطانية في اسطنبول قبل أن يرسل الوالي رسالته. ولعله أراد عدم تقديم تنازل للوالي منذ أول وهلة، وفضل استبقاء الأمر معلقاً حتى تأتي فرصة تالية يساوم بها على هذا الأمر بدلاً من الاستجابة المجانية لطلب الوالي.

---

(1) IOR, R/15/5/7 Turkish Arabia, Memo. For March 1909.

(٢) العلاف، المرجع نفسه، ص ١٧٩.

(3) IOR, L/P + S/10/188 Summary of events in Turkish Iraq during April and May 1910.

لذا فإنه استغل زيارة سكرتير الوالى له فى الثلاثين من حزيران — يونيو ١٩١٠ للتباحث فى قضية أخرى، فعبر له عن سعادته لأنه يستطيع تلبية رغبة الحكومة العثمانية بتغيير زى القواسين، دون أن يذكر له أنه يفعل ذلك بناء على توجيهات تلقاها من سفارته. وقد رد السكرتير على هذه المبادرة بالقول أن عدة تعديلات مظهرية يمكن أن تكون كافية لجعل القواسين مميزين بسهولة عن الجنود الحكوميين، واقترح أن يتم تقرير تلك التعديلات بالتشاور فيما بينهما(١).

وتمتعت القنصلية العامة البريطانية فى بغداد بامتياز آخر هو وجود مكتب بريد تابع لها يتقبل الرسائل والطرود من الجمهور، وكانت احدى بواخر شركة لنج البريطانية مخصصة لنقل البريد فى أوقات محددة، حيث كانت ترسو أمام مبنى القنصلية العامة وتنقل البريد منها مباشرة(٢) ومقابل ذلك كانت الحكومة البريطانية تدفع للشركة مبلغ ستمائة جنيه استرلينى سنوياً.

وعلى الرغم من فرض غرامة تأخير مقدارها جنيه واحد عن كل ساعة تأخير فى وصول البريد، إلا أن ذلك لم يحل دون حدوث تأخير معتاد يتراوح بين يومين وأربعة أيام. وقد جعل ذلك البريد العثمانى عبر حلب أسرع من البريد البريطانى، إذ كانت رسالة من لندن تصل عبر البريد الأول خلال تسعة عشر أو عشرين يوماً، فى حين يستغرق وصولها عبر البريد الثانى ما بين سبعة وعشرين وتسعة وعشرين يوماً وأحياناً أكثر. ومع ذلك كان التجار يفضلون الثانى لأنهم لا يأتمنون

---

(1) IOR, L/P + S/10/188 Summary of events in Turkish Iraq during June 1910.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during December 1911.

البريد العثمانى على أوراقهم ووثائقهم المهمـــة كمـــا كــانت بعــض القنصليات الأجنبية العاملة فى بغداد تحبذ استخدام الـــبريد البريطـــانى لإرسال مراسلاتها إلى أوربا[١].

ولقد كانت السلطات العثمانية غير مرتاحـــة لوجـــود ذاك الـــبريد الأجنبى الى جانب بريدها الرسمى، فحاولت اقناع الحكومة البريطانيـــة بإلغاء مكاتب البريد التابعة لها فى الدولة العثمانية. وحين علم القنصـــل العام البريطانى فى بغداد بأمر تلك المفاتحات أبرق فـــى حزيـــران ــ يونيو١٩١٣ مطالبا حكومته بعدم الموافقة على إغلاق مكتبى البريد فى بغداد والبصرة حتى لو وافقت على مبدأ الإلغاء فى أماكن أخرى فـــى الدولة العثمانية، باعتبار أن هذين المكتبين امتياز مكتســـب لا يجـــوز التنازل عنه[٢].

وقد حرص المقيم على تطوير عمل البريد البريطانى فـــى بغـــداد فخصص له فى تشرين الأول ــ أكتوبر ١٩١٣ غرفتين كبيرتين بـــدلا من غرفة واحدة فى مبنى القنصلية العامة، كما زيدت شبابيك اســـتلام المراسلات من الجمهور. وذكر أن إحدى فوائد هـــذا التطويـــر هـــى تخصيص غرفة منفصلة للرسائل وأخرى للطرود، وبذلك فإن ممثلـــى الجمارك العثمانية لا يسمح لهم بالدخول إلا للغرفة الأخيرة[٣]. ويـــدل هذا على أن حق الإشراف الحكومى العثمانى كـــان مقصـــورا علـــى الطرود فقط.

أما الرسائل فكانت حرة من أى تدخل ــ وظل البريطانيون خـــلال

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February 1912.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during June1913.
(3) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during October 1913.

ذلك يسعون الى تمكين بريدهم من منافسة البريد الرسمى العثمانى. فقد ذكر المقيم البريطانى أن المستر سميث Smith مساعد مدير عام بريد بومباى قضى عشرة أيام فى بغداد فى كانون الثانى يناير ١٩١٤ للتحقيق من حالة مكتب البريد البريطانى غير المرضية، وأضاف أن البريد العثمانى بين حلب وبغداد وبالعكس تطور كثيرا فى الآونة الأخيرة، وحظى بإقبال أكثر من أولئك الذين يتراسلون مع أوربا. بينما كانت هناك شكاوى من بطء تسليم الرسائل فى مكتب البريد البريطانى[١].

وقد ظل مكتب البريد البريطانى فى بغداد ومثيله فى البصرة الذى كان أيضا يشغل غرفة فى مبنى القنصلية البريطانية هناك يمارسان أعمالهما الى ما بعد قيام الحرب العالمية الأولى فى ميدانها الأوربى. وفى الحادى والعشرين من أيلول سبتمبر ١٩١٤ أخبر مدير البريد العثمانى مسئول البريد البريطانى فى البصرة بلزوم إغلاق مكتبه فى موعد أقصاه الأول من تشرين الأول ــ أكتوبر ١٩١٤[٢]. وقد أكد السفير البريطانى فى اسطنبول على ضرورة الاستجابة لذلك الأمر بإغلاق المكتب وإزالة لوحاته الخارجية بحلول مساء الثلاثين من ذلك الشهر. وذكر مع ذلك أنه يحاول الحصول من السلطات العثمانية على مهلة انتقالية لتصفية الأعمال الجارية ــ ولكن السفير طلب إخبار والى البصرة بأن الاستجابة لأمر إغلاق المكتب لا يجب اعتبارها تخليا عن حق مستند إلى معاهدة تعتزم الحكومة البريطانية التمسك بحقوقها

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during Dec-1913 and Jan 1914.
(2) IOR, L/P + S/10/463 Summary of events in Turkish Iraq during November and Dec- 1913 and Jan. 1914.

الناشئة عنها، لكنها استجابة مؤقتة لحين حل المشكلة بالطرق الدبلوماسية المعهودة[1]. ولم يحل ذلك الموقف البريطاني المرن دون إقدام السلطات العثمانية فى العراق على اتخاذ إجراءات قوية ضد البريد البريطانى. فقد أبلغ القنصل الأمريكى فى بغداد سفارته فى العاشر من تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩١٤ إن أفرادا من القوات الحكومية صعدوا على ظهر باخرة شركة لنج المسماة "خليفة" واستولوا على البريد البريطانى عنوة[2].

وكان للقنصلية العامة البريطانية امتياز آخر هو وجود محكمة خاصة بها تدعى The Baghdad Political court وتنظر فى قضايا المتهمين البريطانيين، وكانت تعقد جلساتها أحيانا برئاسة مساعد المقيم السياسى البريطانى فى بغداد وبحضور مستشارين من الأوربيين المقيمين فى بغداد، وتقترن أحكامها بمصادقة المحكمة العليا البريطانية فى ممتلكات الباب العالى العثمانى The supreme court ومقرها فى اسطنبول، ويسجن من تقضى المحكمة بسجنهم فى سجن موجود داخل القنصلية العامة بشكل مؤقت الى أن يتم ترحيلهم الى أحد السجون الهندية تحت حراسة أفراد من القنصلية العامة[3]. وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يأتى أحد قضاة المحكمة العليا فى اسطنبول كى يتولى رئاسة جلسات المحكمة الإقليمية فى بغداد[4]. وكانت تلك المحكمة تتمتع بحق استدعاء رعايا عثمانيين للمثول أمامها للإدلاء

(1) IOR, L/P+s/10/364, tel. From H.B.M's. Amb., Const., to the Viceroy dated 26-9-1914.

(2) N°A - R-S-, RG 84, B.C.P. , file No. 885, No. E-36, The Am-Com. Bag., to the Am-Amb., Coust., dated 16-10-1914.

(3) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during September 1913.

(4) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during May 1913.

بشهاداتهم. وقد خولت ولاية بغداد فى حزيران يونيو ١٩١٠ القنصل العام البريطانى فى بغداد حق استدعاء أولئك الشهود مباشرة دون حاجة للرجوع الى الولاية أولا، وتعهدت الولاية أيضا بأنها ستتخذ خطوات لإجبار أولئك الشهود على المثول أمام المحكمة إذا رفضوا الاستجابة لاستدعائها لهم حين يخبرها القنصل العام بذلك الرفض. ولكن القنصل العام مقابل ذلك التنازل الذى قدمته له سلطات الولاية لم يتنازل لها تنازلا بسيطا بالمقابل، فقد طلب والى بغداد من القنصل العام برسالة مؤرخة فى الرابع عشر من الشهر نفسه قبول مراسلات الدائرة العدلية العثمانية التى ترده مباشرة دون حاجة لمرور تلك المراسلات على مكتب الوالى كما هو متبع سابقاً. ورد القنصل العام عليه أنه يقبل ذلك مؤقتاً فقط لحين استلام تعليمات السفير البريطانى فى اسطنبول الذى رفع الأمر له للنظر فيه(١).

ولقد كانت القنصلية العامة البريطانية فى بغداد حريصة غاية الحرص على عدم التفريط بأى من امتيازاتها تلك. إذ كتب القنصل العام البريطانى فى بغداد بهذا الصدد قائلاً: "... إن المقيمية البريطانية هنا يجب أن تظل كل امتيازاتها مصانة غير ممسوسة مثل الحرس الحربى وقارب المدفعية الى أن نرى المقياس الذى ستكون به الترتيبات النهائية للحكومة الألمانية فى هذا القطر..."(٢). وكانت فى الوقت نفسه حريصة على تحصين المؤسسات القنصلية البريطانية والعاملين بها من غير البريطانيين، ضد أى تصرف حكومى تعده متجاوزاً على حرمتها أو مقللاً لهيبة بريطانيا ومكانتها. فقد قام ــ على سبيل المثال ــ بعض

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during June 1910.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during March and April 1912.

الدرك في مدينة الموصل باقتحام منزل ترجمان نائب القنصل البريطاني هناك، وهو نصراني محلي اسمه رسام. وترتب على ذلك أن اجتمع القنصل العام البريطاني في بغداد ونائب القنصل في الموصل في العاشر من مايس ــ مايو ١٩١٠ مع والي الموصل محمد فاضل باشا الداغستاني في مكتبه. وتجاوب الوالي مع الشكوى لحد أدهش القنصل العام نفسه حيث سمح له باستجواب ضابط الدرك المعني أمامه. واتضح من الاستجواب أن الدرك دخلوا منزل رسام وهم مدركون أن عملهم غير نظامي. واقترح القنصل بعدها على الوالي أن يأمر مرتكبي الحادث بالاعتذار رسمياً لنيابة القنصلية بحضور شهود محترمين يختارهم القنصل العام، ولكن الوالي رفض ذلك الاقتراح.

وقد علق القنصل العام وهو ينقل ذلك كله بالقول: "إن هدف السلطات التركية من وراء عملها كان دون شك إلقاء القبض على مار إيليا، وليس إظهار الاستخفاف بالحكومة البريطانية. ولكن بالنظر للنزعة المتنامية نحو تجاهل الامتيازات القنصلية والتي كان لها في بغداد مؤخراً مثل أو مثلان يبدو من المرغوب فيه طلب ترضية حقيقية في الحالة الحاضرة". وذكر بأوامر وصلت من اسطنبول للسلطات المحلية في مطلع ذلك العام تقضي بتسهيل أعمال القنصليات الأجنبية ومعاملتها باحترام.

كما وصلت تأكيدات برقية الى بغداد يومي الحادي عشر والسادس عشر من مايس ــ مايو ١٩١٠ شدد فيها وزير الداخلية على ضرورة مسايرة الدول الأجنبية لأن التباحث جار معها في اسطنبول

حول أمور مهمة. وأعرب القنصل العام فى اعتقاده بأن الأمور المهمة التى عناها الوزير هى المتصلة بمشكلة جزيرة كريت[1].

وترتب على ذلك أن زار الوالى فى الثانى عشر من حزيران ـ يونيو ١٩١٠ بموجب أوامر تلقاها من وزارة الخارجية العثمانية نائب القنصل البريطانى فى الموصل وعبر له عن الأسف على انتهاك حرمة منزل السيد رسام. فأستدعى نائب القنصل رساما وأخبره بحضور الوالى عن الأسف الذى عبر عنه الأخير. وبذا اعتبرت القضية منتهية[2].

ويلاحظ أن مندوبى السلك القنصلى البريطانى لم يكونوا بالمقابل يتورعون فى بعض الأحيان عن انتهاك القوانين والأنظمة العثمانية دون وجل أو تردد. فقد حدث أن قام المستر هنى Hony نائب القنصل البريطانى فى الموصل فى أيلول ـ سبتمبر ١٩١٢ بجولة في بعض انحاء الولاية ـ وبينما كان مخيما فى إحدى الليالى بجوار إحدى القرى فى جبال الناطرة سطا عليه بعض السراق ونهبوا منه خرجا يحتوى أشياء قيمتها حوالى خمسة جنيهات استرلينية، ولم يتبع نائب القنصل القناة القانونية المعتادة لمعالجة المشكلة وهى أخبار اقرب سلطة حكومية، بل أناط بنفسه سلطة تنفيذ القانون كيفيا فاستدعى فى الصباح كافة سكان القرية وطلب اعادة مفقوداته فورا، وحيث لم يلب طلبه صادر بندقية وثلاثة خناجر من القرويين مبينا لهم أنه سوف يعيدها لهم إذا أعادوا له حاجياته المسروقة، ومضى بعدها مواصلا رحلته.

---

(1) IOR, L/P + S/10/188 Summary of events in Turkish Iraq during April and May 1910.
(2) IOR, L/P + S/10/188 Summary of events in Turkish Iraq during June1910.

أما القرويين فقد شكوه لزعيمهم المحلى وهو أغا كردى اسمه مرزا على. وقد استنفر الأغا أتباعه ولاحقوا نائب القنصل والقواس الذى كان معه حتى أدركوهما واستطاعوا انتزاع بندقية القواس. وأعقب ذلك إطلاق للنار بين الجانبين أصيب خلاله الأغا بجرح بليغ. وتمكن نائب القنصل وقواسه من الانسحاب سالمين. وبعد أن وصلا فى اليوم التالى الى بلدة جولامرك Julamerk شكا نائب القنصل أولئك القرويين لدى قائمقامهما. واتهم نائب القنصل فى تقريره عن الحادث ذلك القائمقام بأنه كان متحيزا ضده فى التحقيق الذى أجراه لكونه كرديا وضابطا حميديا اتحادى النزعة. وعلى الرغم من تلك الاتهامات قام القائمقام بتخصيص ثلاثة من الضبطية رافقوا نائب القنصل حتى أوصلوه الى مدينة الموصل[1]. ولم يرد بعدها ما يدل على أن السلطات العثمانية أبدت امتعاضها من سوء تصرف نائب القنصل وخرقه للقوانين السارية فى الدولة.

وكانت السلطات العثمانية مغلولة اليدين حتى حين تدخل على نظامها القضائى تعديلا تتطلبه الظروف. إذ سرعان ما كان البريطانيون يعارضونه بحجة أن ذلك التعديل يتناقض مع نظام الامتيازات الأجنبية. فحين ألغيت السلطات العثمانية فى ربيع ١٩١٤ المحاكم التجارية التى كان يحضرها بموجب نظام الامتيازات مستشارون أجانب وأحالت صلاحياتها الى محكمتى الصلح والبراءة أعلن القنصل العام البريطانى فى بغداد بمقتضى تعليمات تلقاها من السفير البريطانى فى اسطنبول رفضه الاعتراف بذلك الإجراء.

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during September 1912.

فرضخت السلطات العثمانية للضغط البريطاني واختارت حلا وسطا للمشكلة تنظر بمقتضاه القضايا التي قيمتها عشر ليرات تركية أو أقل أمام محكمة الصلح بحضور مترجم القنصلية البريطانية باعتباره مراقبا. بينما تنظر القضايا التي تزيد قيمتها عن ذلك المبلغ أمام محكمة البراءة التي تعقد بحضور مستشارين أجانب حين يكون أحد طرفي القضية بريطانيا[١].

ولم تكن القنصلية العامة البريطانية، تشاركها في ذلك بقية القنصليات الأوربية، تقدر حتى الظروف الاستثنائية التي تملي على السلطات العثمانية أحيانا اتخاذ قرارات فيها شئ من المس بالامتيازات القنصلية. فقد أملت ضرورات الحرب بين الدولة العثمانية والتحالف البلقاني على السلطات في بغداد اتخاذ قرارات السابع من شباط ـ فبراير ١٩١٣ يقضي بعدم إيراق برقيات مشفرة أو رمزية بالبرق العثماني حتى ولو كانت مرسلة من القناصل الأجانب العاملين في بغداد الى سفاراتهم في اسطنبول.

وحين علم القنصل العام البريطاني بذلك بعث على الفور رسالة الى والي بغداد يطلب فيها تفسيراً. فرد الوالي بأن إدارة البرق تلقت أوامر بهذا الصدد من اسطنبول، ووصف الوالي نفسه منع ممثلي دول صديقة ومحايدة من التراسل بشكل مكتوم مع سفرائهم بأنه خطوة خطيرة للغاية، ووعد بأن يرفع الأمر على الفور الى وزير الخارجية. أما القناصل الأجانب فقد اجتمعوا من جانبهم في التاسع من الشهر نفسه في منزل القنصل العام الروسي، وكان وقتها عميد السلك القنصلي في

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February and March 1914.

بغداد. وصاغوا احتجاجا جماعيا للوالى بينوا فيه أن قرارا مهما للغاية مثل ذاك القرار كان يجب على الولاية أن ترسله لكل واحد منهم بدلا من أن يعلموا به من دائرة البرق بعد المراجعة، وقد تراجعت السلطات العثمانية فى قرارها ذاك فى الرابع عشر من الشهر نفسه(١).

▫ رعاية المصالح التجارية البريطانية:

لم يكن وجود شبكة التمثيل القنصلى البريطانى فى العراق يستهدف ابراز مكانة بريطانيا وهيبتها فى القطر فقط، ولا حماية وتعزيز الامتيازات التى يتمتع بها ذلك التمثيل فحسب، ولكنه وجد فى الأساس لخدمة المصالح البريطانية فى العراق والسعى من أجل تطويرها وتنميتها. ولعل من أهم أوجه تلك الخدمة رعاية مصالح المؤسسات البريطانية العاملة فى العراق وتذليل الصعوبات التى تنشأ بينها وبين الدوائر الحكومية العثمانية المختلفة.

ولقد كان عدد الشركات التجارية الانكليزية العاملة فى بغداد فى مطلع القرن العشرين سبع شركات علاوة على شركة لنج الملاحية. كما كانت هناك أربع شركات هندسية ثلاث منها فى بغداد(٢). وتظهر الوثائق المتاحة أن القنصلية العامة البريطانية فى بغداد ومن ورائها من السفارة البريطانية فى اسطنبول والخارجية البريطانية فى لندن كانت تقدم لتلك الشركات دعما محدود حتى فى القضايا التى تدخل فى صميم عمل الأجهزة الإدارية العثمانية. فحين أقدمت السلطات البلدية فى بغداد

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February 1913.

(٢) لوريمر، ج. ج.ن دليل الخليج، القسم الجغرافى، ترجمة ونشر ديوان أمير دولة قطر، الدوحة، د.ت.، ج٣، ص ص ١٠٨٣ – ١٠٨٤.

سنة ١٩١٠ ــ ١٩١١ على هدم بعض العقارات من أجل شق شوارع جديدة، طالت تلك الهدميات بعض العقارات المملوكة لشركات ورعايا بريطانيين، وقد أثارت السلطات البريطانية زوبعة كبيرة بسبب ذلك لم تنته إلا بإذعان السلطات العثمانية لدفع التعويض الذى حدده البريطانيون(١).

وكان أحد الرعايا الهنود البريطانيون واسمه عبد العلى آدامجى يملك مؤسسة فى بغداد اسمها عبد العلى إخوان، وقد أنشأت تلك المؤسسة معملى ثلج أحدهما فى الرصافة والآخر فى الكوفة، علاوة على معمل مماثل فى مدينة كربلاء. ولم يكن ينافس هذان المعملين فى بغداد إلا معمل الثلج العائد للبلدية؛ وهو معمل ذو طاقة إنتاجية صغيرة، وبعد وصول والى بغداد الجديد حسن ناظم باشا أصدر قرارا فى تموز ــ يوليو ١٩١٠ بعدم بيع الثلج بأكثر من عشر بارات(٢) للكيلو جرام الواحد. ورأى القنصل العام البريطانى فى بغداد فى رسالة وجهها السفير البريطانى فى اسطنبول أن السعر المحدد استبدادى منخفض جدا لأن مؤسسة عبد العلى اخوان كانت تصل بأسعارها فى المواسم السابقة لحد خمسين أو ستين بارة للكيلو غرام، على الرغم من أن دخولها منافسة لمعمل البلدية أسهم فى انخفاض أسعار الثلج لأن ذلك المعمل كان يبيع انتاجه قبلها بما يصل الى ثمانين بارة أحيانا. وقال القنصل العام أنه تحرى عن السند القانونى الذى بنى عليه الوالى قراره فوجد

(١) أعددت بحثا منفردا لهذا الموضوع بعنوان "قصة شارع الرشيد".

(٢) "البارة" كلمة فارسية تعنى القطعة وهى تساوى ١/٤٠ فى القرش الصحيح. عباس العزاوى، تاريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية، بغداد، ١٩٥٨، ص ص ١٤٦-١٤٧.

أنه نص المادة الثالثة فى قانون البلديات المحلية الذى خـــول البلديـــات حق تنظيم أسعار بعض المواد الضرورية مثل الخبز. ولكن ذلك النص برأيه لا ينطبق على الثلج الذى هو سلعة كمالية لا ضرورية. وعلـــــل القنصل العام خطوة الوالى بأنها سعى وراء كسب شـــعبية رخيصـــة، خاصة بين الضباط الترك الذين وصلوا بغداد فى الآونة الأخيرة بأعداد كبيرة. وطالب فى الختام بتدخل السفير لدى الحكومـــة المركزيـــة لأن الأمر يؤثر على أعمال كل البريطانيين مـــن مـــالكى الآليـــات مثـــل مؤسسات ستيفن لنج Stephen Lynch وبلوكي وكـــرى Blockey and Cree وبلينى وسولمون Blaney and Solomon[1].

وقد فاتح السفير الجهات العليا المسئولة فى اسطنبول بالأمر وشـــفع مفاتحاته بمذكرة قدمها الى الباب العالى استعرض مسار المشكلة بيـــن سلطات ولاية بغداد ومؤسسة عبد العلى إخوان بالشكل الذى أطلعه عليه القنصل العام وأضاف أن سلطات ولايته حيـــن فشـــلت فـــى إجبـــار المؤسسة على بيع ثلجها بالسعر المحدد سلكت طريقا أخرى لمعاقبتـــها. إذ طلبت من القنصل العام البريطانى فى بغـــداد معاونتـــها فـــى إجبـــار المؤسسة على إغلاق معمليها فى بغداد باعتبارهما مشيدين داخل المدينـــة انتهاكا لبنود قانون سنة ١٨٦٤ فأصبح القنصل العام ضد اتخاذ أية خطـوة كهذه لأنها تستند إلى إساءة تفسير كاملة لذلك القانون الذى ينظـــم عمـــل المكائن البخارية والمراجل فقط، بينما يدار معملا ثلج المؤسسة بمكـــائن نفطية غير ذات دخان وليست خطرة. وطلب من الولاية إحالة القضية الى اسطنبول حينما علم أن مفاتحات السفير البريطانى هنـــاك أثمـــرت فـــى

(1) IOR, L/P + S/10/188, No. 768/38, Con-Geu-Lorimer to Sir G.Lowther, Dated 3-9-1910.

استحصال قرار من الحكومة المركزية يقضى بإيقاف كافة الإجـراءات ضد المؤسسة لحين إعادة النظر فى القضية. وخلصت مذكرة السـفير الى مطالبة الباب العالى بتوجيه ولاية بغداد للكف عن أى تدخـل فـى أعمال مؤسسة عبد العلى إخوان وتعويضها عن الخسارة التى لحقت بها من جراء إجبارها على بيع الثلج بعشر بارات للكيلو غرام خلال المـدة الواقعة بين الثانى والعشرين من تموز ـ يوليو والرابع والعشرين من آيار ـ أغسطس. وقدرت المذكرة تلك الخسارة بمبلغ مائتى وثمانيـة وعشرين ليرة تركية[١]. وظلت قضية التعويـض تلـك معلقـة بيـن الجانبين، وظل البريطانيون يصرون على دفع التعويض لأنهم كـانوا يرون ذلك ضمانا لعدم معاناة التجارة البريطانية والأملاك البريطانيـة غير المنقولة من أى تدخل حكومى عثمانى على حد ما كتب القنصـل العام البريطانى فى بغداد فى كانون الثانى ـ يناير ١٩١٢[٢].

ولم تكن محاولة سلطات ولاية بغداد تطبيق بنـود قـانون ١٨٦٤ قاصرة على معملى عبد العلى اخـوان، ولكنـها طـالت مؤسسـتين بريطانيتين أخريين عاملتين فى بغداد، هما مؤسسـة بلوكـى وكـرى وشركاهما ومؤسسة بلينى وسـولمون. إذ أخطـرت السـلطات تلـك المؤسستين بوجوب نقل معمليهما إلى أطراف المدينة على الرغم مـن أن المعملين يداران بمحركين نفطيين لا يبعثان دخانا كثيرا ولم يكونـا خطرين على السلامة العامة. وقد رفع القنصل العام البريطانى القضية الى مراجعه العليا حتى وصلـت لوزيـر الخارجيـة السـير إدوارد وغرى، فكتب رسالة فى السابع عشر من تشـرين الأول ـ أكتوبـر

(1) IOR, L/P + S/10/188 No. 756, Sir G.Lowther to Sir Edward Grey, dated 21-10-1910.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February 1912.

١٩١٠ الى السفير البريطانى فى اسطنبول موجها إيـــاه الـــى إخبـــار الحكومة العثمانية "بعدم وجود أى أساس مهما كـــان لتطبيـــق قـــانون ١٨٦٤ على هذين المعملين، كما أن تطبيقه سيكون أمرا غير معقـــول كليا ومرهقا جدا للمؤسستين، وأضاف أنه يجب أن تصر سعادتك علـــى ترضية تمنح لكل الرعايا البريطانيين وأن تقدم لهم الحمايـــة الكاملـــة والفعالة فى حكومة جلالته التى لا يمكن أن تعترف باستمرار الذى وقع عليها. ويجب ان نضيف القول أن حكومة جلالته لا يمكن التوقع منـــها قبول العجز الذى عبر عنه وزير الخارجية العثمانية حيال الإجـــراءات اللاشرعية لسلطات بغداد، وأن عجزا مثل هذا من جـــانب الســلطات المركزية يعد تنازلا من الحكومة عن حقها..."

وبعد أن أشار السير غرى لقضايا أخرى مثل أعمال هدم بعـــض ممتلكات الرعايا البريطانيين فى بغداد من أجل شق شارع جديد وقضية عبد العلى اخوان والوضع فى الخليج العربى والنزاع بين الشيخ خزعل وسلطات ولاية البصرة، قال: "إن هذه الوقائع التى كانت كـــل واحـــدة منها بمفردها سبب لدهشة مؤلمة لحكومة جلالته قد خلقـــت بتأثيراتـــها المتراكمة انطباعا غير ملائم حول الموقف الحالى للسلطات المحليـــة العثمانية، وهو موقف يظهر إنه موقف عداء واســـتفزاز. إن حكومـــة جلالته لا يمكنها التصديق بأن هذا الموقف قد حاز موافقـــة الحكومـــة المركزية أو إنه بنى على أوامرها المحددة. لذا فقد قـــررت توجيـــهك لإرسال ترجمة هذه الرسالة الى وزير الخارجية مـــن أجـــل أن يعلـــم سعادته بشكل تام بآراء حكومة جلالته وأسباب شكواها. وباتخاذك هـــذه الخطوة يجب على سعادتك بيان أن حكومة جلالته قد قـــررت إجـــراء

مفاتحات ودية معتقدة بأن الحكومة العثمانية ستنصف المظالم المشار إليها لأن وضعا بالغ الخطورة للغاية سينشأ بالطبع إذا ثبت أنها كانت نتيجة لسياسة عدائية متعمدة"(١).

وقد نفذ السفير تلك التوجيهات، ثم اجتمع مرة أخرى فى الحادى والثلاثين من الشهر ذاته مع رفعت باشا وزير الخارجية العثمانى، وأعاد طرح موضوع الإجراءات التى طالت الرعايا البريطانيين فى بغداد، وأخبره أن تلك القضايا وقضايا أخرى انتجت بتراكمها انطباعا سيئا للغاية ليس لدى الرأى العام البريطانى فقط، بل ولدى الحكومة البريطانية أيضا، خاصة وأن وعود الوزير السابقة بمعالجة تلك القضايا كانت بطيئة جدا فى تحقيقها، ورد رفعت باشا بالقول أن كل القضايا التى لفت السفير انتباهه إليها كانت قيد المعالجة، وقامت الحكومة العثمانية بحسم أغلبها،وقال أن فكرة نشأت فى أذهان البريطانيين ــ على ما يبدو ــ مفادها أن بريطانيا ورعاياها قد خصت بأشياء شاذة من النوع المشكو عنه، وهذا بعيد عن أن يكون واقع الحال، وعبر عن أمله فى اقتناع السفير بأن رغبة الحكومة العثمانية الملحة هى الإبقاء على أفضل علاقة مع الحكومة البريطانية، وأضاف إنه إذا كان هناك أجانب قد قاسوا فإنهم قاسوا جميعا بصورة متساوية، ويجب تفسير هذا بحقيقة أن الأمور الداخلية قد استحوذت على اهتمام الحكومة العثمانية بشكل كامل، وأن البلد كان يمر فى وجوه كثيرة بمرحلة تجريبية منذ مجىء النظام الجديد، وأن الموظفين الذين عينوا حديثا فى الولايات لم يثبتوا من حيث التجربة والنظام نجاحا فى كل الأحوال. وشكى رفعت

---

(1) IOR, L/P + S/10/188 No. 312, Sir Edward Grey to Sir G-Lowther, dated 17-10-1910.

باشا من جانبه فى آراء الصحف البريطانية المتحاملة على الدولة العثمانية. وحين كرر السفير الحديث عن مشاكل الرعايا البريطانيين الذى كانوا ـ حسب رأيه ـ ذوى حق جلى، وذكر أن السفارة كانت حريصة دوما على إيجاد حل توفيقى لتلك المشاكل لأنها لا تصر على نيل حقوقها كاملة، رد الوزير بالقول أن واقع الحال كان كذلك فعلا، وذكر انه أرسل مؤخرا تعليمات الى والى بغداد بأن يكون حذرا عند التعامل مع الرعايا والمصالح البريطانية، وأن يحاول تسوية الأمر بشكل منصف(1). ويتبدى من هذه الوثيقة وسابقتها مدى ما فى الموقف البريطانى من تصلب يقابله استرضاء عثمانى بلغ حد الاستمراء. وما ذلك إلا انعكاس لاختلال ميزان القوى بين الدولتين.

وكانت القنصلية العثمانية فى بغداد من جانب آخر حريصة قدر امكانها على منع السلطات العثمانية من فرض ضرائب على المصالح البريطانية العاملة فى العراق. فقد شكى أحد الرعايا البريطانيين وكان يملك مطحنة دقيق فى بغداد الى القنصل العام فى كانون الثانى يناير ١٩١٢ من أن موظفين عثمانيين دخلوا مطحنته دون الرجوع الى القنصلية أولا وطالبوه بدفع ضريبة غير معروفة على المطحنة تحت التهديد باغلاقها، كما أنهم خوفوا الرعايا العثمانيين من التعامل معه. فاهتم القنصل العام بالأمر واعتبره تدخلا غير شرعى. وتزامن مع ذلك قرار السلطات الحكومية فى كربلاء تقسيم كلفة كرى قناة الحسينية على مالكى الأراضى الزراعية المقتدرين المنتفعين منها. وحيث أن بعض أولئك الملاك كانوا رعايا بريطانيين فقد فاتحت السلطات نائب القنصلى

(1) IOR, L/P + S/10/188 No. 795, Sir G-Lowther to Sir Edward Grey to Sir dated 31-10-1910.

البريطانى فى كربلاء بشأن إسهاماتهم، وحين طلـــب نـــائب القنصـــل توجيهات القنصل بذلك الشـــأن رد عليـــه بوجـــوب إســـهام الرعايـــا البريطانيين باعتبار أن العمل ذو منفعة عامة على أن يفـــهم بوضـــوح أنهم أسهموا على سبيل التبرع وليس بمقتضى أى التزام قانونى، وعلى أن لا تعتبر تلك المساهمة سابقة لغيرها . وعندما اتضـــح لاحقـــا أن السلطات الحكومية تريد من المالكين علاوة على الاســـهامات الماليـــة تأمين العمال اللازمين للقيام بالعمل رفض القنصل العام ذلك قائلا بـــأن تلك القضية واحدة من القضايا التى يجب التزام الحذر حيالها من أجـــل تجنب اعتراف بريطانى رسمى بما هو بالتأكيد ضريبة غير نظامية(١).
واعترض القنصل العام البريطانى على قرار سلطات ولاية بغداد فـــى آذار ـــ مارس ١٩١٤ زيادة رسوم التقاضى فى المحاكم بنســـبة مائـــة بالمائة بصورة مؤقتة لمدة سنة. وكانت حجته أن تلك الرسوم مقـــررة بموجب اتفاقية متبادلة بين الدولتين مبرمة سنة ١٨٧٩(٢).

وحينما فرض والى بغداد فى مايس ـــ مايو ١٩١٤ ضريبة طـــابع بعشرين بارة على كل تذكرة دخول إلى صالة سينما بلوكى وكرى فـــى بغداد يخصص ريعها لصالح سكة حديد الحجاز تدخل القنصل العام فى الأمر وسأل الوالى عن القانون الذى يتم بموجبه فرض تلك الضريبـــة. وأوصى للمستر كرى Cree مدير المؤسسة فى بغداد برفض دفع تلـــك الضريبة على أساس أن تذاكر السينما فى اسطنبول لا تحمـــل طابعـــا مشابها(٣).

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during January 1912.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February and March 1914.
(3) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during May 1914.

وحرصت القنصلية العامة البريطانية على تذليل الصعاب الحكومية التى تواجه إنشاء مؤسسات بريطانية جديدة فى العراق، فقد تأسست فى مانشستر فى انكلترا شركة مشعل اخوان المحدودة. وكان من ضمن حاملى أسهمها رعايا أتراك أحدهم مديرها المحلى فى بغداد J.H. Mashal . وبدأت الشركة نشاطها فى بغداد صيف سنة ١٩١١ بهدف تسيير سيارات بين بغداد وخانقين وبغداد وكربلاء واقامة ورشة ميكانيكية فى بغداد. واستوردت الشركة بالفعل سيارتين إلا أنها لم تقدر على تشغيلهما ولم تنجح فى الحصول على إذن حكومى بفتح الورشة.

ولم يستطيع القنصل العام البريطانى فى بغداد فى البداية تقديم دعمه الكامل للشركة لأن التعليمات التى تلقاها من مراجعه تخوله فقط العمل وسيط اتصال بين الشركة والسلطات المحلية. وقد حاول السيد مشعل لذلك حل مشاكل شركته مع السلطات الحكومية مباشرة باعتباره مواطنا عثمانيا. ولكن حين أخفق فى ذلك بسبب شكوك السلطات الحكومية من أن جنسية الشركة بريطانية أخذ هو نفسه يؤكد على جنسية الشركة البريطانية. وطلب مقر الشركة الرئيسى فى بريطانيا دعم وزارة الخارجية البريطانية. وأسفر ذلك عن تلقى القنصل العام توجيهات من السفير البريطانى فى اسطنبول تقضى بتقديم كل الدعم للشركة فى بغداد. فقام القنصل العام بنقل طلب الشركة حول الترخيص لها بفتح ورشتها الى والى بغداد. وظل يتابع ذلك الطلب حتى أعلمه الوالى أن الأوراق قد أحيلت الى اسطنبول للبث فيها. وأخذ القنصل العام يتشكى ــ بعد أن تقررت رعوية الشركة البريطانية ــ من الخسائر التى تكبدتها الشركة من جراء عدم موافقة السلطات على

إجازتها قانونا وعدم السماح لها ببناء ورشتها[١].

وكرر القنصل العام مفاتحة الوالى بشأن قضيـــة شــركة مشــعل إخوان، فأعلمه الوالى فى مايس ــ مايو ١٩١٢ بــأن وزارة التجــارة العثمانية تعتبر تلك الشركة مجهولة الجنسية، ولا يمكن الســماح لــها بفتح ورشتها فى بغداد إلا إذا امتثلت للأنظمة المرعية وحصلت علـــى "بيان نامه" من الوزارة أو إذا قبلت الجنسية العثمانية. فرد عليه القنصل العام متسائلا عن ماهية "الأنظمة" المذكورة وامكانية تزويـــده بنســخة منها[٢]. واستجاب الوالى لطلبه وزوده بنسخة من "قـــانون الشــركات الأجنبية" المشرع فى سنة ١٩٠٦.

وينص ذلك القانون على السماح لتلك الشركات بممارسة أنشــطتها فى الدولة العثمانية بموجب شروط منها "الخضوع للقانون العثمــانى"، وهو شرط لاحظ القنصل العام أن القصد منه تجريدهــا مــن الدعــم القنصلي. ويشترط على تلك الشركات أيضا الكشــف عــن رأســمالها وخصوصياتها الأخرى للسلطات العثمانية. وبعد التداول بين القنصـــل العام والسفير البريطانى فى اسطنبول تم إخبار الســيد مشــعل بعــدم امكانية السماح لشركته بإقامة ورشة فى بغداد ما لم تخضع لمتطلبـــات ذلك القانون، وتركت له حرية اتخاذ قرار بذلك الشأن على مســئوليته. وأعلم بأن إحدى العقوبات المنصوص عليها فى ذلــك القــانون ضــد الشركة التى تزاول انشطتها دون التقيد بشروطه هى حرمانـــها مــن اللجوء للمحاكم العثمانية، فى حين يكون من حق الطرف الآخر اللجوء

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during March and April 1912.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during May 1912.

الى المحاكم للشكوى ضدها[1]. ولعل هذه إحدى المرات القليلة التي تقبل فيها القنصلية العامة البريطانية فى بغداد وجهة النظر العثمانية دون جدل ومماحكات طويلة.

ولم تكن القنصلية العامة البريطانية فى بغداد معنية برعاية مصالح الشركات البريطانية العاملة فى بغداد فقط، بل كانت تمد تلك الرعاية الى شركات عاملة عبر الحدود أحيانا. فقد كانت شركة النفط الأنكلو ـ فارسية تستغل حقل نفط فى كيا صرخ Chia Surkh فى فارس على الحدود العثمانية مقابل بلدة خانقين. وغدا التموين من هذه البلدة ضروريا للشركة فشقت طريقا خاصا بها فى ذلك الحقل فى البلدة. وأخذت عرباتها تسلك ذلك الطريق غدوا ورواحا بحرية كاملة حيث تجرى المعاملات الكمركية اللازمة عند الخروج والدخول فى الأراضى العثمانية فى بلدة خانقين ذاتها. ولكن قائمقام خانقين ـ بناء على تعليمات من مراجعه العليا حسب قوله - اعترض على ذلك الاستخدام الحر للطريق المذكور، وأخبر فى الرابع والعشرين من حزيران ـ يونيو ١٩١٢ المستر سوان Soan مدير الشركة فى كيا صرخ، وهو فى الوقت ذاته نائب القنصل البريطانى فى قصر شيرين، بأن عربة محددة واحدة فقط يسمح لها مستقبلا بعبور الحدود عبر ذلك الطريق على أن لا تقوم بأكثر من رحلة واحدة يوميا. وحين استلم القنصل أخبار ذلك الطلب قام بالاتصال بولاية بغداد[2].

وقد أثمر ذلك الاتصال الحصول على تأكيدات مكتوبة من الوالي

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during June 1912.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during June 1912.

بعدم اتخاذ أية خطوات لاغلاق طريق الشركة ذاك ــ كمــــا أوضــــح الوالى إنه وجه لوماً قاسياً لقائمقام خانقين على سوء تصرفه، لأن القيود التى تحاول فرضها على عربات الشركة كانت بمبادرة شخصية منـــــه ودون أية تعليمات من مراجعه العليا(١).

وما كان دعم القنصلية البريطانية العامة فــــى بغــداد للشــركات البريطانية العاملة فى العراق قاصراً علـــى حمايتــها مــن الســلطات الحكومية وتذليل صعوبات التعامل معها فقط، بل كانت تســعى أيضــاً لمساعدتها فى تذليل العقبات العملية التى تعترض سير أعمالها. فحيــن علم القنصل العام أن مؤسسة السير جون جاكسون المحدودة البانية لـــ "سدة الهندية" جنوب بغداد ستكون بحاجة إلى حفارة نهريـــة تســتخدم لكرى القناة الرئيسية الجديدة شمال السدة بعد إجراء الماء فيها، أخبرها عن وجود حفارة صغيرة فى البصرة كانت مؤسسة ألمانية قد جلبتـــها ولكنها فشلت فى تسويقها للسلطات العثمانية هناك(٢).

كما امتد ذلك الدعم الى متابعة ما كانت تلك الشركات تحققه مــن نجاح والإفادة عنه المراجع البريطانية العليا. فقد كتب القنصل العام فى كانون الثانى ــ يناير ١٩١٢ عن ازدهار تجارة شركة بلوكى وكــرى وشركائهما، وهى شركة بريطانية للهندســة الميكانيكيــة. وذكــر أن مبيعاتها من المضخات النفطية أو مضخات الرى يزداد باستمرار، وأن من المؤمل أن يصل عدد المضخات التى توردها مائتى مضخة تبلـــغ قوتها الحصانيه الاجمالية ألف وخمسمائة حصان(٣). ولاحظ القنصـــل

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during July 1912.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during March and April 1912.
(3) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during January 1912.

العام فى نيسان ــ أبريل١٩١٣ أن البنك الشرقى المحدود يحقق تقدمـــا جيدا فى بغداد حيث حاز على سمعة ممتازة فيها. وامتدح حسن اختيار البنك لممثليه المحليين فى بغداد وهم السادة ويـــر ومـــانويرنغ Messrs. Ware and Manwarg، وذكر أن البنك تولى عملية بيع ســـندات القـــرض العثمانى الداخلى، وهو يحظى من أجل ذلك بتعاطف دفتردار الولايـــة الذى وعد البنك بمزيد من الأعمال الحكومية فى المستقبل على الرغـــم من أن الدفتردار عضو فى جمعية الاتحاد والترقى.

وعلل القنصل العام ذلك التعاطف بمجرد الرغبة فى استخدام البنك الشرقى ضد البنك العثمانى الامبراطورى. وانتقل القنصل العـــام بعـــد ذلك للقول بأن شركة مشعل اخوان قد تجاوزت الصعوبات التى أحاطت بتأسيسها، وأنها غدت تحقق تقدما جيدا. إذ أنها تسير يوميا حافلتين تقل الواحدة منهما ستة وثلاثين راكبا فى الاتجاهين بين بغـــداد وبعقوبـــة، حيث تكون كراسى الحافلات مشغولة بكاملها عادة. وذكر أن للشـــركة مبان كبيرة فى ظاهر المدينة، من ضمنها ورشة ميكانيكية جيدة تتولـــى تصليح المكائن النفطية والمضخات والعربات الاعتيادية، وكان يعمـــل فى تلك الورشة مستخدمان أوربيان(١).

ولم يكن القنصل العام البريطانى يكتفى بـــدور الحـــامى والداعـــم للمصالح البريطانية والمتتبع لأنشطتها فقط، بل كان يتبرع أحيانا للقيـــام بدور الناصح الموجه لها. ففى أثناء رحلة قام بها الى كربلاء فى ربيـــع سنة ١٩١٢ حل ضيفا على أفضل خان مدير مزرعة أسرة قزل باشى، وهى أسرة هندية من لاهور. وكانت مزرعة الأسرة الواقعـــة قـــرب

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during April 1913.

كربلاء تشتمل على آلاف كثيرة من الأفدنة. ولاحظ خلال إقامته في المزرعة أن إنجاز سدة الهندية سيؤدى الى رفع مستوى المياه في قناة الحسينية حوالى مترين مما يجعل أراضى المزرعة كلها قابلة للإرواء بدلا من مئات الأفدنة منها فقط كما كان عليه الحال وقتها، وبذا ستغدو المزرعة منجم ذهب حقيقيا على حد تعبيره. وتطرق القنصل العام بعد ذلك الى المشاكل التى تعانيها إدارة المزرعة مع السلطات الحكومية ومع مالكى الأراضى المجاورة، وأضاف أنه كتب بشكل شخصى الى نواب قزلباشى، وهو راس الأسرة فى لاهور، الذى يعرفه شخصيا، مبينا له أن من الحصافة زيارة العراق فى وقت قريب من أجل تقويم الوضع الجديد الناشئ هناك بما يؤدى الى تطوير المزرعة(١).

□ القنصلية العامة وشركة لنج Lynch:

ينطبق على موقف القنصلية العامة تجاه شركة لنج نفس ما قيل عن موقفها تجاه الشركات البريطانية الأخرى فى توفير الحماية والدعم والمتابعة والتشجيع. ولكن شركة لنج امتازت عن غيرها من تلك الشركات بأنها الأقدم والأقوى والأكثر نشاطا فى العراق بما يؤهلها لحديث منفرد عنها. وكانت تلك الشركة ذات أنشطة متعددة، إذ تهيمن على جزء مهم من الملاحة النهرية فى دجلة، وتقوم بنقل البريد البريطانى فى بغداد وإليها على ظهر بواخرها، وتزاول التجارة على نطاق واسع فى مجالى الاستيراد والتصدير. ولذلك لا عجب أن لقيت تلك الشركة اهتماما كبيرا من السلطات البريطانية منذ إنشائها سنة

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during March and April 1912.

١٨٦١[1].فاعتبرت أن حمايتها أمر بالغ الأهمية للنفوذ البريطانى فـــى العراق سواء أكانت تلك الحماية تجاه السلطات العثمانية أو تجاه سـكان القطر. وتمثلت تلك الحماية خلال المدة المعنية بدعم موقـف الشـركة بشكل قوى تجاه السلطات المحلية فى قضية هدم بعض مبانيها فى بغداد سنة ١٩١٠ من أجل توسيع بعض طرق المدينـــة، وتمثلـت حمايـة السلطات البريطانية لها تجاه السكان بموقـف تلـك السـلطات تجـاه الهجمات التى تعرضت لها بواخر الشركة فى نهر دجلة علـى أيـدى رجال العشائر سنتى ١٩٠٨ و ١٩٠٩[2]. وستمر هنا ملامـح أخـرى لتلك الحماية تزيد الصورة وضوحا أمام القارئ الكريم الذى ربما ألـم بشىء من ذلك فى الكتابات الكثـيرة التـى تنـاولت أوجـها أخـرى للموضوع[3].

كانت شركة لنج تسير ثلاث بواخر فى نهر دجلة تحت اسم "شركة الفرات ودجلة للملاحة البخارية "The Euphretes and Tigris Steam Nav.Co". ولم تكن الشركة ذات شعبية لدى الرأى العام العراقى. يدل على ذلك أن أخبارا انتشرت فى بغداد خلال النصف الثانى مـن كـانون الأول ــ ديسمبر ١٩٠٩ تفيد أن الحكومة العثمانية قررت بيـع بواخـر الإدارة النهرية الحكومية السبع الى شركة لنج. وسببت تلك الأخبـار هياجـا شديدا بين سكان مدينة بغداد حسبما روى القنصل الأمريكى هناك. فبعد

---

(١) زكى صالح، المرجع نفسه، ص ١٨٦.

(٢) خالد السعدون، الأوضاع القبلية فى ولاية البصرة ١٩٠٨ ــ ١٩١٤، الكويت، ١٩٨٨، ص ص ٥٤ ــ ٨٨.

(٣) زكى صالح، المرجع نفسه، ص ص ١٥١ ــ ١٦٣ وعبد العزيز نوار، المصالح البريطانية فى أنهار العراق ١٦٠٠ ــ ١٩١٤، القاهرة ١٩٦٨.

أن أورد القنصل لمحة عن تاريخ شركة لنج ذكـــر أن وصـــول تلـــك الأخبار تصادف عرضا مع ارتفاع أجور الشحن فى نهر دجلـــة ممـــا سبب سخطا واسعا بين الشاحنين المحليـــن. وأضـــاف أن الرســميين العثمانيين أعلنوا قبل عدة شهور فى اسطنبول العزم على بيع الســـفن الحكومية العاملة فى نهر دجلة ووعدوا المزايدين الراغبين بالشراء الى تقديم عروضهم. وبناء على ذلك قدمت مجموعة مـــن ذوى الأمـــوال المحليين عرض شراء بمبلغ مائة وعشرين ألف ليرة تركية (حوالـــى خمسمائة وثلاثين ألف دولار أمريكى) للبواخـــر والجنـــائب ومبـــانى المكاتب فى بغداد والكوت والعمارة والبصرة، ولكن الحديث عن ذلـــك البيع خبا بعدها حتى عاد مرة أخرى فـــى أواســـط كـــانون الأول ـــ ديسمبر بوصول برقيات من اسطنبول تفيد بـــأن البرلمـــان العثمـــانى (المبعوثان) قرر السماح للأجانب بالملاحة فى نهر دجلـــة والفـــرات كليهما بعد أن كان السماح لهم بالملاحة مقصورا على نهر دجلة فقـــط. وأوردت الصحف المحلية خبرا عن عرض شـــركة الفـــرات ودجلـــة للملاحة البخارية شراء البواخر الحكومية بمبلغ مائتى وخمسين ألـــف ليرة تركية. وقد أدى ذلك الى قيام سكان بغداد بسلسلة من الاحتجاجات أخذت شكل اجتماعات تعقد فى نادى جمعية الاتحاد والترقى والمكتبات الحكومية، بلغت أوجها باجتماع جماهيرى حاشد ضم حوالى عشـــرين ألف شخص وعقد عند الباب الشمالى للمدينة. وقد جعل ذلك والى بغداد يأمر بمضاعفة دوريات الشرطة الليليـــة. وكـــان رد فعـــل الحكومـــة المركزية على تلك الاحتجاجات هو اتهام الصدر الأعظم لجماعات ذات أهداف أنانية بإثارتها. وأوضحت السلطات المركزيـــة أن المشـــروع

المقترح يقضى بدمج الإدارة النهرية الحكومية مع شركة لنج لتأسيس شركة جديدة ذات امتياز للملاحة فى النهرين معا لمدة خمسة وسبعين سنة، ويحق للحكومة إنهاء الامتياز بعد مضى نصف مدته. وسيدير الشركة الجديدة مجلس إدارة مؤلف من أربعة عثمانيين وخمسة أجانب. وسيتم اختيار أولئك العثمانيين من بين أهالى بغداد، كما أن بعض أسهم الشركة الجديدة ستطرح فى بغداد للاكتتاب بها. وعلى الرغم مما فى هاتين المعلومتين الأخيرتين من محاولة واضحة لشراء سكوت أهالى بغداد أو بعضهم على الأقل، إلا أنهم تمسكوا بمعارضتهم للمشروع. وذكر بعضهم بأن قسما من أسهم شركة الفرات ودجلة للملاحة البخارية كانت مملوكة أصلا من قبل لمواطنين عثمانيين إلا أن البريطانيين أزاحوهم بشكل تدريجى[1].

ولم يكن سخط الرأى العام على شركة لنج غائبا عن إدراك مسئوليها. ففى السابع من نيسان ـ أبريل ١٩١٠ زار مديرها المحلى فى بغداد المستر بارى Parry، تنفيذا لتعليمات من مراجعه فى لندن، القنصل العام البريطانى فى بغداد والتمسه استخدام نفوذه لدعم آراء الشركة حول مشروع دمج الإدارة النهرية الحكومية بها. ورجاه بذل جهده لإزالة أية اعتقادات خاطئة عن تلك الآراء ربما يجدها منتشرة فى الأوساط المحلية. وطلب منه أيضا حمل والى بغداد على منع الهجمات على شركته فى الصحف المحلية. فرد عليه القنصل العام معتذرا عن الاستجابة للالتماس الأول ما لم تخوله السفارة البريطانية فى اسطنبول القيام بذلك. واقترح عليه أن يقوم رؤساؤه فى لندن بمفاتحة السفارة بالأمر.

(1) N.A.R.S., RG84, B.C.P., No. 8, Am. Con., Bag., to Am. Amb., Coust., dated 23-12-1909.

وفيما يتعلق بالالتماس الثانى ذكره القنصل العام بأن الوالى نفسه كثيرا ما كان عرضة لهجاء الصحافة المحلية، لذا لا يتوقع منه أن يقوم بحماية أجانب منها. ولم يثبط ذلك الرد همة المستر بارى، فقد ذكر القنصل العام أنه انشغل بعد ذلك اللقاء فى محاولة للتأثير على الرأى العام المحلى فى بغداد والموصل بهدف استمالته لتأييد مشروع الدمج المقترح وما يرتبط به من مشروع لمد الملاحة النهرية شمال بغداد حتى الموصل. وتوقع القنصل العام أن تجد جهود المستر بارى نجاحا فى الموصل لأن سكانها متلهفون للغاية على الاتصال بالعالم الخارجى، ولا تهمهم الوسيلة التى يتم من خلالها ذلك الاتصال(1).

ويلاحظ هنا الموقف المتحفظ الذى اتخذه القنصل العام بشكل غير مألوف حيال استخدام نفوذه لدعم مؤسسة بريطانية كبرى. ولعل ذلك التحفظ يجد تبريره فيما أحاط بمشروع الدمج من هياج عام ضد الوجود البريطانى كله فى العراق كما سيمر بعد قليل، فلم يشأ القنصل العام، حفاظا للمصالح البريطانية كلها، إلقاء زيت على نار ذلك الهياج بالوقوف علنا موقف الداعم لمشروع مرفوض جماهيريا. كما أن القنصل العام كان يدرك بأن لشركة لنج وسائلها الخاصة التى تستطيع بها منفردة معالجة الأمر دون حاجة لدعم علنى منه قد يضرها ولا ينفعها فى ظروف الهياج العام تلك.

ومما يؤكد أن ذلك التحفظ كان أمرا آنيا فرضته ظروف محلية طارئة أن السفارة البريطانية فى اسطنبول ظلت تدعم بقوة شركة لنج لدى الحكومة المركزية فى اسطنبول فى القضايا ذات الصلة بعمل

---

(1) IOR, L/P + S/10/188 Summary of events in Turkish Iraq during April and May 1910.

الشركة فى العراق. فقد كتب القائم بالأعمال البريطانى فى اسطنبول رسالة للسير أدوار غرى وزير الخارجية البريطانية فى الثالث والعشرين من تشرين الثانى ـ نوفمبر ١٩١٠ تناول فيها بعض القضايا المتعلقة بشركة لنج. وكانت القضية الأولى هى تهديد السلطات الحكومية فى العراق بإلغاء الرخصة الممنوحة للشركة والتى تسمح لبواخرها بقطر جنائب أثناء رحلاتها. فذكر القائم بالأعمال أنه لفت انتباه وزير الداخلية العثمانى لهذه القضية، وذكره بأن تراكم الحمولات فى ميناء البصرة يجعل إثارة القضية حينئذ أمرا فى غير وقته.

والقضية الثانية التى وردت فى الرسالة هى مطالبة شركة لنج للسلطات العثمانية بالسماح لها بتسيير باخرة رابعة من أجل معالجة اكتظاظ الحمولات فى ميناء البصرة، وقد علق القائم بالأعمال على ذلك الطلب بالقول أن الحالة النفسية للسلطات العثمانية تجعل من غير المرجح استجابتها لرغبة الشركة. واستطرد القائم بالأعمال قائلا، أن رسالة مؤرخة فى العاشر من الشهر نفسه من شركة لنج تفيد أن السيد عبد القادر الخضيرى منح رخصة لتيسير بواخر بين بغداد والبصرة وأن هذا السيد على صلة وثيقة بوكلاء خط هامبورج ـ أمريكا الألمانى وتساءل عن السبب الذى لا يجعل صلة شركة لنج هى الوثيقة بل الأوثق مع عبد القادر الخضيرى. وذكر القائم بالأعمال تلقيه رسالة من الباب العالى شاكية رفع بواخر شركة لنج العلم البريطانى عند رسوها فى ميناء بغداد والبصرة. فاعتبر القائم بالأعمال ذلك الاعتراض نقضا لحق باخرتى الشركة الأصليتين فى رفع العلم البريطانى والذى كانت السلطات العثمانية قد اقرته سابقا، وبادر الى تقديم احتجاج فورى للباب

العالى على ذلك الاعتراض.

وردت وزارة الخارجية العثمانية على الاحتجاج موضحة احتمال أن تكون السلطات المحلية فى العراق قد خلطت بين الباخرتين الأصليتين والباخرة الثالثة التى منحت لها رخصة العمل فى نهر دجلة فى كانون الثانى – يناير ١٩٠٧ شريطة رفعها للعلم العثمانى. وأضافت الوزارة أن شكاوى السلطات المحلية تخص فقط مخالفات مرتكبة من قبل الباخرة الثالثة بذلك الصدد(١).

وظل القنصل العام البريطانى فى بغداد يهتم بكل ما يتعلق بعمل شركة لنج. وفى ذلك متابعتة لإضراب العاملين فى بواخر الشركة فى نهاية كانون الأول – ديسمبر ١٩١٢. فذكر أن الإضراب بدأ بين النوتية العاملين فى إحدى البواخر لأنهم لم يتلقوا زيادة فى أجورهم كانوا قد وعدوا بها أو كانوا يتوقعونها على الأقل. وأمتد الاضراب بعد ذلك لكل بواخر الشركة وشمل الوقادين علاوة على النوتية. وأضاف أن المستر تود Tod مدير الشركة المحلى فى بغداد قابل الإضراب بحزم فطرد اثنين وعشرين من العاملين المضربين، ثم زاد الأجور، ولكنه رفض إعادة العمال المفصولين الى أعمالهم(٢).

واستمر الاهتمام البريطانى فى غضون ذلك بمتابعة أنباء محاولة شركة لنج تسيير باخرة رابعة فى نهر دجلة. فكتب القنصل البريطانى فى البصرة فى أيلول – سبتمبر ١٩١٢ مبينا اعتقاده باحتمال وجود تعليمات سرية من الحكومة المركزية فى اسطنبول للسلطات المحلية

---

(1) IOR, L/P + S/10/188 , No. 843 Marling to Edward Grey, dated 23-11-1910.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during January 1912.

بعدم السماح مطلقا وتحت أية ظروف مهما كانت ضرورية لشركة لنج بتسيير أكثر من ثلاثة بواخر فى نهر دجلة[1].

وعادت فى شهر نيسان ــ أبريل ١٩١٣ التوقعات بقــــرب دمــج شركة لنج مع الإدارة النهرية العثمانية وعناصر أجنبية أخرى فى اتحاد ملاحى يحتكر الملاحة فى أنهار العراق تحت العلم العثمانى. وقد كتب القنصل العام البريطانى فى بغداد فى السابع عشر من ذلك الشهر الـــى السفير البريطانى فى اسطنبول مبينا أن اتحادا كهذا مثير للاعـــتراض فى جوانبه كافة. إذ ستقاسى التجارة العامة من احتكـــاريين يتحكمـــون بالنقل النهرى، كما أن الاتحاد الاحتكارى الذى ســيكون متنفـذا جـــدا سيبذل جهده للحيلولة دون إنشاء سكة حديد بين بغداد والبصرة، حتـــى إن أطراف ذلك الاتحاد المزمع قامت بخطوات فعلية فى ذلك الاتجاه.

وعلل القنصل العام ذلك بقوله أنه ناشئ من كون مصالح شركة لنج مرتبطة بالملاحة النهرية التى لا تريد لها بديلا، كما أن شــركة ســكة حديد بغداد الألمانية، وهى الطرف الآخر فى الاحتكار، ترغب فى جعل سبيل الوصول الى بغداد عبر حلب أيسر من مثيله عبر البصرة.

وقال أنه من وجهة نظر بريطانية خالصة ستكون هناك مخــــاطرة فى أن يتم فى النهاية ابتلاع الطرف البريطانى فى الاتحـــاد المزمـــع، فضلا عن قدرة السلطات العثمانية على منع شركة ملاحة عثمانية مـــن حمل البريد البريطانى. واقترح القنصل العام بديلا لذلـــك كلــه وهـــو جعل نهر دجلة مفتوحا للملاحة الدولية فورا كما هو حال نهر الكارون

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during September 1910.

منذ سنة ١٨٨٨ وتشريع بناء سكة حديد بين بغداد والبصرة. وأضاف الى ذلك اعتقاده بأن مشروعا بريطانيا لمد سكة الحديد سيكون قادرا على الصمود بشكل كامل فى ظل منافسة حرة، بشرط واحد هو أن تكون المنافسة عادلة(١). ويلاحظ هنا أن القنصلية العامة البريطانية فى بغداد مع حرصها على دعم الشركات البريطانية العاملة فى العراق إلا أنها كانت لا تتوانى فى معارضة كسب واضح تحققه إحدى تلك الشركات إذا رأت فيه ما يضر بالمصالح البريطانية العامة فى العراق سواء كانت حالية أو مستقبلة.

ولكن اعتراض القنصل العام ذاك لم يحل دون مضى شركة لنج قدما فى المشروع الذى وصل مرحلة الدخول فى التفاصيل العملية مع حلول سنة ١٩١٤. إذ أعلن فى النصف الثانى من شهر شباط ــ فبراير أن السلطات العثمانية قد أمرت بتقدير قيمة كل أملاك الإدارة النهرية الحكومية فى بغداد والبصرة، وأن قيمة تلك الأملاك فى البصرة قدرت بالفعل بمبلغ عشرة آلاف ليرة ذهبية عثمانية. أما تقويم أملاك الإدارة فى بغداد فقد تولته لجنة مؤلفة من المستر ولز Wills مدير شركة غرى مكنزى Gray Mackenzie فى البصرة ومهندس من شركة الهند البريطانية للملاحة التجارية The British India Steam Navigation Co. والمستر تود Tod مدير شركة لنج وممثلين عن الجانب العثمانى. وأنجزت تلك اللجنة أعمالها فى شهر آذار ــ مارس ١٩١٤، ولكنها لم تكن مجمعة فى آرائها، مما جعلها بحاجة الى مزيد من المباحثات للوصول الى تسوية ودية.

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during April 1913.

وعلى الرغم من ذلك انتشرت إشاعة تفيد بأن بواخر الإدارة النهرية سوف تسلم ابتداء من الرابع عشر من آذار ـ مارس ١٩١٤ الى شركة جديدة عثمانية، أو غير محدودة الجنسية، نصف رأسمالها بريطاني ونصفه الآخر عثماني ــ ألماني بالتساوي(١).

وأعطى نائب القنصل الأمريكي في بغداد تفاصيل أخرى عن ذلك المشروع فذكر أن الجهة البريطانية ستشتري الإدارة النهرية هي نقابة Sundicate يرأسها اللورد انجكيب Inchcape رئيس مجلس إدارة شركة الهند البريطانية للملاحة البخارية التي ستنضم لها شركة لنج. أما رأس المال الألماني الذي سيساهم في المشروع فيقدم بصورة رئيسية البنك الألماني في برلين، وسيقوم ذلك البنك أيضا بإدارة الحصة العثمانية في رأس مال الشركة الملاحية المزمعة(٢).

وقد أثار ذلك المشروع، كما أثار سابقه سنة ١٩٠٩، معارضة بين سكان بغداد. فقدمت غرفة تجارة بغداد احتجاجا الى الوالي ضد بيع بواخر الإدارة النهرية الى مؤسسة بريطانية. وعرضت استعداد موسري المدينة لجمع المبالغ الضرورية لشراء تلك البواخر شريطة منح امتياز الملاحة للرعايا العثمانيين فقط. ورفع الوالي ذلك الاحتجاج الى اسطنبول، ولكن مقدميه لم يكونوا يتوقعون أن يصيب نجاحا هناك. ولم تكن الصحافة البغدادية صامتة حيال ذلك الأمر، وكانت أبرزها في ذلك المجال صحيفة "المصباح". فقد نشرت في الثالث عشر من آذار ــ مارس ١٩١٤ مقالا كتبه ابراهيم حلمي وحذر فيه من مخاطر الهيمنة

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February to March 1914.
(2) N.A.R.S., RG84, B.C.P., File No. 885, Am.Vice Con., Bag., to the Sec. of St., Washington dated 19-3-1914.

البريطانية المحتملة على العراق محذرا من أن بريطانيا تتخذ من شركة لنج وسيلة لفرض تلك الهيمنة كما استخدمت شركة الهند الشرقية وسيلة للهيمنة على الهند .. واستعرض الكاتب تاريخ شركة لنج بالقول أنها ابتدأت بداية بسيطة، فمقابل المساعدة التى قدمتها بريطانيا للدولة العثمانية فى حرب القرم سمح للشركة بتسيير باخرة صغيرة، ولكن باخرتين أكبر وأسرع حلتا لاحقا محل تلك الباخرة، واستبدل العلم البريطانى بالعلم العثمانى الذى كانت ترفعه تلك البواخر أولا.

ثم ضللت الشركة فى وقت لاحق رجال الدولة العثمانية وأضافت باخرتين أخريين لأسطولها.

ولم تكتف بذلك كله بل أخذت تتطلع للاستحواذ على الإدارة النهرية، ولولا المعارضة الألمانية القوية لاحتكرت الملاحة فى الأنهار العراقية كلها بشكل مطلق. ولم تقتصر شركة لنج نشاطها على الملاحة النهرية فقط، ولكنها اشتغلت بالتجارة على نطاق واسع وأقامت فروعا لها فى البصرة والموصل وخانقين، وأغلب بلدان العراق، حتى يمكن القول دون مبالغة أنها تتمسك بأعنة التجارة العراقية بيديها الحديديتين، وأن التجار المحليين ليسوا إلا تابعين لها وسماسرة لديها. وذكر الكاتب أن الحكومة البريطانية تدعم شركة لانج من وراء ستار باعتبارها الرائد لإنشاء مستعمرة بريطانية فى العراق.

وانتقد مشروع الدمج لأن وضع الملاحْة النهرية فى أيد أجنبية تشبه إخراج الروح من الجسد. وستهتم شركة لنج فقط بمصالحها وبمن يؤيد مصالحها، ويرجح أنها سترفض نقل قوات حكومية فى بواخرها حين

يتطلب الأمر إرسال قوات لإخماد اضطرابات فى الألوية الجنوبية. كما أن المشروع سيحرم مئات من المواطنين من أعمالهم فى الإدارة النهرية، وسيضع الأجانب على تماس مباشر بسكان الريف، وبذا يمكنهم من زرع بذور الشقاق بين الحكومة العثمانية ورعاياها[1].

ولم يكن موقف الصحف البغدادية الأخرى تجاه مشروع الدمج مماثلا فى حدته. فقد اكتفت صحيفة "صدى بابل" في عددها الصادر فى الخامس عشر من آذار ـــ مارس بالقول أن "صاحب الدار أدرى بالذى فيها"، وأن الحكومة تنظر فى قراراتها لمصالح البلد فقط. أما صحيفة "الرياض" فى عددها الصادر فى التاسع عشر من الشهر نفسه، فقد وعدت بنشر تفاصيل كاملة عن المشروع. وذكرت أنها علمت بأن الحكومة المركزية قد أبرقت للوالى مفيدة بأن المصالح التجارية للبلد قد صينت. وعبرت الصحيفة عن أملها أن يكون الأمر كذلك بالفعل. وقد عقب القنصل العام البريطانى فى بغداد على ذلك كله بقوله: "إن مؤسسة ستيفن لنج وشركاه، سواء فى ممارستها التجارة لصالحها أو فى عملها وكيلة لشركة الفرات ودجلة للملاحة البخارية، ليست محبوبة محليا ولا تتمتع بسمعة عالية فى الاستقامة. ويبدو أنها فشلت فى الحصول على النمط الملائم من الرجال فى ملاكها الأوربى".

ولم تقتصر فى غضون ذلك معارضة مشروع الدمج على التجار والصحافة فى بغداد. إذ ذكر نائب القنصل الأمريكى فى بغداد أن السكان العرب فى العراق معادون تماما للمشروع لكونه ينقل المؤسسة التجارية العثمانية الخالصة الوحيدة فى هذا البلد للأجانب ويحولها من

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February and Marh1914.

إدارة شرقية الى نفوذ أوربى مكروه ومحسود.

وأضاف أن بعض التجار الأوربيين ذوى المكانة العالية فى بغداد لا يفضلون مشروع الدمج أيضا. إذ أنهم يتوقعون زيادة فى أجور الشحن النهرى بين بغداد والبصرة حالما تتوقف المنافسة الحالية وتصبح الشركة الجديدة المحتكرة الوحيدة للملاحة فى نهر دجلة(١). ولم يوضع مشروع الدمج موضع التنفيذ فى النهاية بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى.

□ الاهتمام بشؤون زوار العتبات المقدسة من الهنود:

لم تكن السلطات القنصلية البريطانية فى العراق معنية فقط بحماية ودعم الشركات البريطانية العاملة فى العراق فقط، بل كانت تبذل فى الوقت نفسه جهدا كبيرا من أجل مساعدة من يصل الى العراق من رعايا الهند البريطانية بهدف أداء الزيارة للمراقد الدينية فى النجف وكربلاء وبغداد والكاظمية وسامراء. وكان أولئك الزوار يتدفقون على العراق فى فترة اعتدال الطقس الممتدة بين تشرين الثانى ـ نوفمبر، ونيسان ـ أبريل من كل عام. ويتوقف قدومهم من الهند خلال فترة الطقس الحار(٢).

وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يبلغ عدد الزوار الهنود الموجودين فى العراق فى وقت واحد ما يزيد عن ستة آلاف نسمة. وكان كثيرون منهم يغادرون الموانئ الهندية دون أن يحملوا معهم نفقة

---

(1) N.A.R.S., RG84, B.C.P., File No. 885, Am. Con., Bag., to Am. Amb., Coust., dated 32-12-1909.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during June 1912.

كافية، فيتصلون فيما بعد بالقنصلية البريطانية العامة في بغداد طالبين مساعدة مالية. وقد أضطر ذلك الوضع القنصل العام البريطاني لمفاتحة حكومة الهند طالبا أن تشترط على الزوار المغادرين إثبات أن لديهم موارد مالية كافية تمكنهم من تغطية نفقات السفر والعودة بالطريقة نفسها التي تشترطها الحكومة المصرية على الحجاج المصريين المغادرين لأداء الحج في مكة المكرمة[1].

وكان من الأمور المساعدة على تدفق الزوار الهنود على العراق وجود مؤسسات وقفية تعين أولئك الزوار ماليا. ومن تلك المؤسسات وقف أوده الذي كان عدد الزوار الهنود الذين نالوا تذاكر تؤهلهم للحصول على مساعدة مالية منه قد بلغ ألف وخمسة وتسعين زائرا سنة ١٩١٠، وألفا ومائة وأربعة عشر زائرا سنة ١٩١١، وألفين ومائة وواحد وستين زائرا سنة ١٩١٢. بينما بلغ العدد خلال الأشهر الأولى من سنة ١٩١٣ تسعمائة وواحد وأربعين زائرا[2]. ومنها وقف حسين آباد التابع لضريح ملك أوده السابق محمد علي شاه الذي كان يصرف حوالي أربعة عشر آلاف روبية سنويا من أجل تمكين فقراء الهنود من زيارة النجف وكربلاء.

وقد حاول القنصل العام البريطاني اقناع إدارة ذلك الوقف بأن ترسل له جزءا من النقود المخصصة لكل زائر من أجل أن تتولى

---

(1) N.A.R.S., RG84, B.C.P., No. 12, Am. Con., Bag., to Am. Amb., Coust., dated 8-2-1910.

(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during August 1913.

ولمعرفة المزيد عن مؤسسة وقف أودة راجع: خالد السعدون، "إعادة التنظيم البريطاني. وقف أوده في العراق والموقف العثماني من خلال سنتي ١٩١٢-١٩١٣"، في "المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية"، العدد ٣، ٤، ديسمبر ١٩٩١، ص ص ٩١-١٠٨.

القنصلية العامة بنفسها استخدام ذلك الجزء لتغطية نفقات رحلة عودته الى الهند من بغداد. وذكر القنصل العام أن وقف حسين آباد ذاك كان فى الماضى وسيلة جلبت هنودا فقراء كثيرين الى العراق ولم يكونوا قادرين على مغادرته ثانية[1]. ولعبت مضافة الزوار الملحقة بضريح الشيخ عبد القادر الكيلانى فى بغداد دورا فى ذلك المجال. إذ كانت تؤمن سكنا وغذاء مجانيا للعوائل والعزاب الزوار. ووجد القنصل العام عند زيارته لها فى تموز ــ يوليو ١٩١٠ أن أغلب نزلائها كانوا من الهنود[2]. كما كان للزوار من طائفة البهرة Borahs، وهم العدد الأكبر من الزوار الهنود عادة، جهاز فعال لتأمين متطلبات سفرهم[3].

وكان اهتمام السلطات القنصلية البريطانية فى العراق منصبا بالدرجة الأولى على تأمين سلامة أولئك الزوار وتوفير الأمن لهم، حيث كانوا يتعرضون أحيانا لبعض الأخطار. فقد هوجمت مثلا عربة نقل بعض الزوار العائدين من كربلاء الى المسيب وذلك فى الخامس والعشرين من أيلول ــ سبتمبر ١٩١٢ على أيدى ثلاثة خيالة من قبيلة عنزة، وأسفر الهجوم على جرح سائق العربة ونهب ما قيمته مائة وسبعون روبية من الزوار. وتولى نائب القنصل البريطانى فى كربلاء متابعة الأمر بشكل قوى مع السلطات المحلية هناك. ولم يكتف القنصل العام بذلك بل اجتمع مع والى بغداد، واحتج لديه بشدة على الحالة الخطرة السائدة فى طريق الزيارة الكبير[4].

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during March 1913.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during July 1910.
(3) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during August 1913.
(4) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during September 1912.

وتعرض زوار هنود فى شباط ــ فبراير ١٩١٣ لحادثتى قطع طريق أحدهما قرب كربلاء، والأخرى قرب النجف، سرقت خلالهما بعض أموالهم، فتحرك نائب القنصل البريطانى فى كربلاء لحمل السلطات الحكومية على العمل الفعال ضد الجناة. وأفلحت جهود السلطات بالفعل فى استعادة بعض المسروقات من اللصوص. أما القنصل العام فى بغداد فقد لفت انتباه الوالى للأمر وطلب منه اتخاذ خطوات إضافية من أجل استعادة بقية المسروقات[1].

ولم يلبث القنصل العام البريطانى فى بغداد طويلا حتى فكر فى إيجاد تنظيم لمساعدة الزوار الهنود ميدانيا فى الأماكن التى يزورونها فى العراق. ويقوم ذلك التنظيم على تعيين مرشدين أو أدلاء مميزين يقومون بتهيئة الخدمات اللازمة لأولئك الزوار فى كل الأماكن التى يمرون بها. ويمول أولئك المرشدون بجزء من إيرادات وقف أودة المخصص لمساعدة الزوار، حيث كانت الحكومة البريطانية وقنصليتها العامة فى بغداد هى الوصية على انفاق واردات الوقف المذكور. ووضع ذلك التنظيم موضع التطبيق لأول مرة فى شباط ــ فبراير ١٩١٠ فى بعض الأماكن، وفى وقت لاحق فى أماكن أخرى. وأعرب القنصل العام البريطانى فى بغداد فى كانون الثانى ــ يناير ١٩١٢ عن رضاه عن عمل التنظيم الذى كان يتوسع باستمرار، وذكر أنه تلقى سيلا من رسائل الشكر من زوار عادوا للهند بعد أن استفادوا من خدمات ذلك التنظيم، وبين أنه عين وكيل زيارة أو مرشد فى ميناء البصرة، وعبر عن أمله فى أن يكون الوكيل ذا فائدة كبيرة للزوار

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February 1913.

حيث يساعدهم فى عمليات دفع رسوم الحجـــر الصحـــى واجــراءات الجوازات وصرف النقود ونقل الأمتعة وحجز الأماكن على البواخـــر النهرية المسافرة من البصرة الى بغداد.

وأضاف أن أغلب الزوار الهنود أناس فقراء جهلة لا يتكلمون لغــة غير لغتهم، فيقعون بسهولة ضحية للسراق الذين يحدقــون بـــهم عنــد نزولهم فى الميناء الى البر. وذكر أن ذلك الوكيــل ســيعمل مترجمــا للقنصلية البريطانية فى البصرة فى الحالات الهندية، حيث عبر القنصل كرو Crow عن استعداده للاستفادة منه ومنحه المساعدة الضرورية(١).

وقد تخوف القنصل العام من نتائج الاهتمام الكبير الذى لقيه ذلـــك التنظيم فى الهند. إذ نشرت الصحافة الهندية مقـــالات كثــيرة مشــيدة بالتنظيم الجديد، ولكنها تجاهلت عموما ذكر الصلـــة بيــن وقــف أوده والتنظيم مما يوحى بأن التنظيم أنشأته الحكومة البريطانية رسميا، وهذا سيؤدى الى إثارة احتكاكات مع الحكومة العثمانية. وعلى الرغم من أن ما تكتبه الصحف الهندستانية لا يحتمل أن يصل لعم السلطات العثمانيــة المحلية، إلا أن ذلك ليس مستحيلا(٢).

ولم يكن تخوف القنصل العام من حدوث أزمــــة مــع الســلطات العثمانية حول تنظيم وكلاء زيارة الذى ابتدعه بعيدا عن الواقع. فقـــد حدثت تلك الأزمة بالفعل، وكان مطلقها فى بلدة سامراء فى نيســان ــ أبريل ١٩١٢. فبعد أن ظل وكيل الزيارة يعمل فى سامراء لمدة ســنة، مثلما كان زملاؤه يعملون فى أماكن أخـــرى منــذ ســنتين، دون أى

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during January 1912.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during May 1912.

اعتراض من السلطات العثمانية، اعترض قائمقام سامراء على حمل وكيل الزيارة شارة مميزة على شكل نجمة معدنية مكتوب فى وسطها باللغة الإنجليزية "وكيل زيارة بريطانى". وقد زود أولئك الوكلاء بتلك الشارات ليسهل على الزوار تمييزهم باعتبارهم وكلاء مصرح لهم وليسوا محتالين. فجاء الوكيل من سامراء الى بغداد لشرح الأمر للقنصل العام البريطانى. وكتب الأخير فى الثلاثين من نيسان ــ أبريل رسالة للوالى جاء فيها: "إن وكيل الزيارة رعية بريطانى وواجبه أن يقدم للزوار الهنود أى مساعدة يحتاجونها خلال زيارتهم فى سامراء مثل الترجمة وتأمين المأوى والعربات، الخ. وهدف الشارة هو تمكين الزوار الهنود من التعرف عليه". والتمس القنصل العام الوالى بتوجيه القائمقام للتخلى عن اعتراضه على تلك الشارة.

ورد الوالى أحمد جمال بك على تلك الرسالة فى اليوم ذاته قائلا إنه باستثناء الضباط والموظفين المعروفين فى القنصلية العامة البريطانية فى بغداد والقنصلية البريطانية فى كربلاء لا يستطيع الاعتراف بأى موظف تحت أى مسمى كان سواء فى سامراء أو أماكن أخرى من ولاية بغداد، ولا يستطيع السماح لأى شخص بحمل شارة مميزة، لأن ذلك مخالف للمعاهدات بين البلدين. فرد القنصل البريطانى على رسالة الوالى فى اليوم التالى قائلا: "إن الوكيل ليس موظفا وليس مطلوبا الاعتراف به رسميا من قبل الموظفين الترك... قناعى هى (أولا) إننى كقنصل عام بريطانى مؤهل لتعيين رعية بريطانى خاص لمساعدة زوار هنود بريطانيين فى أى مكان يمكن أن يزوروه فى ولاية بغداد. و(ثانيا) إننى مؤهل لاعطاء رعية بريطانى من مثل هذا أى نوع خاص

من اللباس أو الشارات التى ربما تكون مطلوبة لتمكين الزوار من التعرف عليه". واستشهد القنصل العام فى رسالته على سبيل المثال بالمرشدين السياحيين ذوى النبرات الخاصة التابعين لمؤسسة توماس كوك Cook. ولكن الوالى كان قد غادر بغداد فى اليوم نفسه الذى أرسلت فيه تلك الرسالة، وقبل أن يتسلمها على الأرجح[1].

ويلاحظ القارئ الكريم دون ريب أسلوب التحدى الواضح الذى استخدمه القنصل العام فى رسالته. وقد أمضى فى مسلكه المتحدى ذاك، حين لم ينتظر عودة الوالى من رحلته ليعرف رده على ما تضمنته تلك الرسالة، بل أمر وكيل الزيارة فى سامراء العودة الى هناك وممارسة مهامه دون لبس الشارة لحين حسم موضوعها. ولكن قائمقام سامراء أرجعه قسرا مع عائلته الى بغداد حال وصوله. وامتدت المشكلة الى أماكن أخرى حين أمرت السلطات الحكومية فى بلدة المسيب وكيل الزيارة البريطانى هناك بعدم ممارسة مهام عمله، وإلا سيرحل من البلدة. وفى خلال ذلك أطلع الوالى على رسالة القنصل العام سالفة الذكر، فأرسل أوامره برقيا لمعاونه لطفى بك حول كيفية الرد عليها. وحين وصل رد الولاية المؤرخ فى الثانى عشر من مايو ١٩١٢ وجده القنصل العام استرضائيا فى أسلوبه ويشير الى خطوط يمكن الوصول بموجبها الى تسوية للقضية، واقتصر الاعتراض فيه على حمل الوكلاء شارات تظهر انتمائهم للقنصلية العامة البريطانية. واعتبر القنصل العام ذلك حقا من سلطات الولاية دل على أنها بدأت تفكر مليا فى القضية.

---

(1) Ibid.

وأكد معاون الوالى الاتجاه الاسترضائى ذاك حين زار القنصل العام فى مقره فى السابع عشر من الشهر نفسه، وناقش معه القضية بطريقة ودية، وإن لم تفسر عن نتيجة حاسمة حيث أن المعاون لا يمتلك صلاحية البت فى غياب الوالى. ولكن تلك الزيارة لم تحل دون تفاقم المشكلة، إذ استلم القنصل العام بعد مغادرة الوالى رسالة من نائب القنصل البريطانى فى كربلاء تفيد بأن السلطات المحلية فى النجف جردت وكيلى الزيارة هناك من شارتيهما، وأن وكيل الزيارة فى المسيب لا زال ممنوعا من مزاولة عمله. فكتب القنصل العام فى الحال رسالة شبه رسمية لمعاون الوالى تخبره وتحثه على اصدار أوامره بإعادة الشارتين وعدم مضايقة الوكيل فى المسيب، فيحول ذلك دون تفاقم المشكلة. ثم التقى القنصل العام فى اليوم التالى مع معاون الوالى فى السراى، ولم تسفر محادثاته معه إلا عن الاتفاق على إبقاء القضية على وضعها الراهن لحين عودة الوالى. ولكن معاون الوالى أرسل للقنصل العام بشكل رسمى فى الحادى والعشرين من مايس مايو الشارتين اللتين صودرتا من الوكيلين فى النجف[1].

وكان القنصل فى غضون ذلك يتراسل برقياً باستمرار مع السفير البريطانى فى اسطنبول حول الموضوع. فقد أبرق الأخير له فى الثالث من مايس ـ مايو فحوى المعلومات المضللة التى رفعها الوالى للباب العالى حول القضية، وطلب إفادته عن حقائق الموقف. وعاد السفير فى الحادى عشر من الشهر نفسه يخبره بأن الباب العالى أمر الوالى بحسم القضية فى بغداد مع القنصل العام مباشرة إن أمكن. وعزا القنصل

(1) ibid.

العام الموقف الاسترضائى الذى أظهره معاون الوالى الى تلك التعليمات. وحين علم السفير بطرد وكيل الزيارة فى سامراء والتهديد بطرد الوكيل فى المسيب، احتج لدى الباب العالى بقوة على ذلك وطلب إرجاع الوكيل المطرود وإيقاف كل مضايقة للثانى.

فرضخ الباب العالى لذلك الطلب وأمر والى بغداد بتنفيذه وحثه ثانية على تسوية القضية محليا مع القنصل العام. وقد رد الوالى على الباب العالى ببرقية من البصرة التى كان يزورها أنكر فيها علمه بطرد أى من أولئك الوكلاء، فأمره الباب العالى أثرها بكف سلطات ولاية بغداد عن التدخل أكثر فى أمر الوكلاء لحين تسوية القضية برمتها. وأبرق السفير للقنصل العام فى الثالث والعشرين من مايس ــ مايو مفيدا أن الوالى اشتكى للباب العالى من إقامة القنصل العام "محكمة" فى الكاظمين مؤلفة من رئيس وسكرتير وقواس مع لافته مثبتة على بابها. وتساءل السفير عن صحة ذلك الادعاء مبينا أن الباب العالى قلق جدا حيال ذلك، وناصحا القنصل العام بتجنب الابتكارات والاستحداثات فهى غير ملائمة فى ذلك الوقت الذى كانت فيه المباحثات تتقدم بين الحكومتين العثمانية والبريطانية لايجاد تسوية شاملة لقضايا العراق. فرد القنصل العام بقوله أنه تحقيقا فى أمر "المحكمة" تبين منه أن المقصود به "مكتب الزيارة" حيث يعمل مراقب وكاتب ووكيلا زيارة. أما كلمة "محكمة" فقد اتضح أن مراقب المكتب حين انتقاله للمبنى الجديد قبل عدة أيام وضع لافتة على بابه مدون عليها "Mahkamah Ihtimam Zairin" أى "مكتب العناية بالزائرين". وأضاف أن كلمة "محكمة" التى تعنى بالتركية "مكان التقاضى" تعنى بالهندستانية مع مرادفتها

"دفتر" كلمة "مكتب Bureau" ولا ثالث لهاتين المترادفتين يدل على المعنى نفسه في الهندستانية. وقال أن الالتباس ما كان ليزول لو استخدمت كلمة "دفتر" بدلا من "محكمة"، لأن الترك سيفهمون عندها انها تعني "الدفتر الخاقاني" أو دائرة التسجيل العقاري. وحين استلم الوزير ذلك التوضيح أبرق في السادس والعشرين من الشهر نفسه للقنصل العام مبينا أن استخدام كلمة "محكمة" غيرْ ملائم لأنها عرضة لسوء الترجمة، وموجها إياه بعدم الالحاح على قضية طرد الوكلاء شريطة عدم استمرار الطرد. كما أخبره بأن الباب العالي أرسل أوامر حازمة جدا للوالي تلزمه بمناقشة القضية مع القنصل العام في بغداد، حيث أن الحكومة المركزية لا تميل لدعم الوالي في أية سياسة عدوانية أو مغامرة(١).

وبناء على تلك التعليمات تلقى القنصل العام في السابع والعشرين من الشهر نفسه رسالة من الوالي يدعوه فيها لمقابلته في اليوم ذاته. وجرى حوار طويل وغير ودي في الاجتماع الذي تم مساء ذلك اليوم في منزل الوالي بحضور معاونه لطفي بك. وأسفر عن موافقة القنصل العام على إزالة لافتة مكتب الزيارة في الكاظمين، وعلى إجراء تعديل في شارات الوكلاء، وعلى تزويد الوالي بقائمة بأسماء العاملين في مكتب الزيارة. كما أسفر عن تعهد الوالي بعدم حدوث تدخل جديد في أمر الوكلاء على أساس التفاهم على أنهم غير موظفين وأنهم إن ارتكبوا أي جنحة فسيعاملون باعتبارهم رعايا بريطانيين عاديين. وعلق القنصل العام على ما جرى في الاجتماع بقوله إن من المضحك أن

(1) Ibid.

الوالى لم يكن مطلعا على الشارة المشكو منها حتى أراه إياهـا أثناء الاجتماع، فحدق بها طويلا بشعور من الخزى غطاه بالإصرار علـى وجوب تعديلها دون إبداء الأسباب. وكان الشيء الأكثر سـخفا بنظـر القنصل العام هو أن الشارة الجديدة المتفق عليها والحاملة لعبارة "مرشد زيارة هندى" باللغة العامية ستصحب مستقبلا بارتداء الوكـلاء لقبعـة خاصة سوف تضفى عليهم مظهرا مهيبا أكثر من السابق، وكان ذلـك باقتراح من الوالى نفسه، وبعد ذلك تبادل الوالى والقنصل العام رسـائل تصديق الاتفاق وتم نشر بيان فى الصحف لشرح سوء الفـهم حيـال "محكمة" الكاظمين. وختم القنصل العام روايته لكل ما حدث بالقول: "إن خوف الوالى من الصحف وغريزته الشوفينية ومزاجه العنيف تفسـر بشكل كاف كل المشكلة التى حدثت. وفى رسالتى الختامية للوالى كنت حريصا على بيان أن إزالة اللافتة من باب مكتـب الزيـارة وتعديـل الشارة كانا (بسبب الصداقة لك سيدى وليس لاعتقادى بأنـهما أمـران ضروريان رسميا)"[1].

ولا حاجة للإشارة الى ما فى عبارة القنصل العام هذه من غطرسة واضحة تعكس موقف التحدى الذى مارسه طيلة الأزمة والنـابع مـن احساسه بأنه الطرف الأقوى الذى يملى وجهة نظره علـى الطـرف الأضعف.

أما نص بيان الوالى عن "المحكمة" الذى نشرته صحيفة "الريـاض" حسبما نقله القنصل الأمريكى فى بغداد فهو: "نظرا للشائعات والانطباع السائد لدى العموم حول إقامة محكمة فى الكاظمين ونية إقامة فروع لها

(1) Ibid.

فى العديد من المناطق من قبل القنصلية البريطانية فإننا نوضح بموجبه أن المكتب المقام من قبل القنصل البريطانى فى الكاظمين معد للنظـــر في شؤون الزوار الهنود ولا يحظى باعتراف رسمي ولا صفة قانونية. إن القنصل وافق على إزالة اللافتة المعلقة على المبنى من أجل صيانة التفاهم الودى والصداقة بين الحكومتيـــن. وهـــو يعلـــن أيضـــا بـــأن الموظفين العاملين فى المكتب ليس لهم صلاحيات رســـمية. إن هـــذا الاعلان جرى من أجل عدم فسح المجال للتخريـــف ونشـــر روايـــات مكتوبة مغايرة للسياسات التركية"[١].

ولم تنته قضية وكيلى الزيارة فى سامراء على الفور، فبعد عودتـــه الى هناك بموجب التسوية المشار إليها أعلاه، حصل احتكاك آخر بينـــه وبين القائمقام الذى اعترض على لبسه عمامة عند صلاته فى المرقـــد، بحجة أن عليه ارتداء غطاء الرأس المحدد له وحمل شارته وزيه دائما وعدم ارتداء أى شئ آخر. وذكر القنصل العام أن مرشد الـــزوار ذاك "سيد" ويرتدى عمامة خضراء حين لا يكون فى الواجب. وقد عـــرض القنصل العام قضية المرشد تلك على والى بغداد الذى رد عليـــه بعـــد أربعة ايام مفيدا بأنه أمر القائمقام بعدم التدخل فى لبس المرشـــد إلا إذا ارتدى لبسا ممنوعا رسميا. واستنتج القنصل العام فى تـــأخر الوالـــى أربعة أيام قبل الرد على رسالته أنه أجرى تحقيقا أثبت فيه أن القائمقـــام تصرف بالشكل المشكو منه. أما ما نسب الى القائمقام من تفوه بألفـــاظ بذيئة فقد ذكر الوالى فى رسالته أن القائمقام أنكر هذه التهمة[٢].

---

(1) N.A.R.S., RG84, B.C.P., No. M.C. 226, Am. Con., Bag., to Am. Amb., Coust., dated 24-6-1912.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during June 1912.

ولم يفت على القنصل العام أن يشيد بعدها بخدمات مرشد الزوار في سامراء حيث أنه يخوض لصالح الزوار حربا منتظمة مع سائقي العربات وأصحاب القوارب ومبتزين آخرين، حتى أن بعض أولئك قد هددوا بقتله[1].

ويبدو أن التوتر في علاقة المرشد بالسلطات المحلية يتحسن بمضي الوقت. فقد لاحظ القنصل العام خلال زيارته لسامراء في مايس ـ مايو أن القائمقام يوسف أفندي، وهو نفسه الذي طرد المرشد العام الماضي، غدا يعامل ذلك المرشد معاملة جيدة حتى أنه على الرغم من عدم حمله لأي صفة رسمية يقوم بتسهيل خدماته للزوار في كل تعاملاتهم مع السلطات الحكومية[2].

وقد امتدح القنصل البريطاني في بغداد في نيسان ـ أبريل ١٩١٢ عمل وكلاء الزيارة لمساعدتهم عددا من الزوار الذين تلقوا عونا من أولئك الوكلاء منذ بدء العمل بذلك التنظيم لحوالي ألفا وخمسة وتسعين زائرا خلال الفترة الواقعة من ٣ فبراير ـ شباط حتى ٣١ كانون الأول ـ ديسمبر ١٩١٠، وألف وأربعة عشر زائرا سنة ١٩١١، وستمائة وثلاثة عشر زائرا خلال المدة من ١ يناير ـ كانون الثاني حتى ١٨ نيسان ـ أبريل ١٩١٢، ولا تتضمن الأرقام هذه الزوار الكثيرين من طائفة البهرة التي لها تنظيمات زيارة خاصة بها[3].

عاد القنصل في مطلع سنة ١٩١٤ لتقويم أداء نظام المرشدين، فذكر أنه يعمل بشكل جيد حتى أنه تلقى رسائل كثيرة من زوار عائدين

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during August 1912.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during May 1913.
(3) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during March and April 1912.

للهند تشيد بالخدمات التى قدمها المرشدون. إلا أن القنصل العـــام قــد شكى من كثرة عدد الزوار الهنود الذين يراجعونـــه زاعميـن فــراغ جيوبهم طالبين مساعدته المالية لتمكنهم من إطعام أنفسهم والعودة الــى بلادهم. وأبدى سعادته بأن قلة منهم فقط يتعرضون للسلب فى العــراق أو يصابون بمرض يتطلب بقاءهم مدة أطول مما كان مقررا. ولكـــن الأغلبية العظمى منهم ينطلقون من الهند وهم يحملــون أمــوالا غــير كافية. وذكر أنه يأمر بالتحقق من ادعاءات مراجعيه، فإذا اثبتت حقيقـة تعرضهم لمشكلة طارئة يتلقون الإعانة اللازمة.

بيد أن المشكلة هى وجود فكرة خاطئة منتشرة بين أولئك الـــزوار الهنود فى وجود مبلغ كبير من مال وقف أوده مكرس لغرض وحيد هو مساعدة الزوار الهنود على العودة إلى ديارهم[1]. وعاد القنصل العـــام فى مايس ـــ مايو ١٩١٤ للحديث عن مدى نجاح خدمـــات المرشـــدين المنتشرين فى البصرة وبغداد والكاظمين وكربلاء والنجف والمســـيب وسامراء، فذكر أنه حين وصل لأول مرة الى العراق لاســـتلام مـــهام منصبه وذلك قبل ستة شهور لم يسمح سوى الإشادة بخدماته.

إلا أن الحال عموما تحول الى العكس الآن، إذ أنه يتلقى شـــكاوى من زوار مغادرين من عدم كفاءة بعض أولئك المرشدين، وهى شكاوى يصعب التحقيق فيها، وأضاف أن الناس يدعون بـــأن تكـــاليف ســـفر الزوار الى العراق بعد إدخال نظام المرشدين قد زادت عما كانت عليه قبل تطبيقه. ووعد القنصل العام بأن يولى ذلك الموضوع عنايته[2].

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during Nov. and Dec. 1913 and Jan. 1914.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during May 1914.

◻ الاهتمام بشؤون الرعايا البريطانيين المقيمين فى العراق:

كان للسلطات القنصلية البريطانية فى العراق شاغل آخر هو الاهتمام بشؤون الرعايا البريطانيين المقيمين فى العراق سواء كانت متصلة بانجاز معاملاتهم لدى الدوائر الحكومية أو بحل المشاكل التى تثور بينهم وبين السلطات الحكومية، وكانت جالية كبيرة من الرعايا البريطانيين تقيم فى العراق، أقلها من أبناء الجزر البريطانية ذاتها وأغلبها من أبناء شبه القارة الهندية الخاضعة للحكم الاستعمارى البريطانى حينئذ. إذ كان عدد الآسيويين المقيمين كبيرا فى العراق ولهم حق التمتع بالحماية البريطانية فى السنوات الأولى من مطلع القرن العشرين حوالى ثلاثة آلاف نسمة[1].

ولعل أهم ميزة كانت توفرها الرعوية البريطانية لأولئك جميعا هى عدم قدرة السلطات الحكومية على التعامل معهم مباشرة. إذ كان عليها طبقا لنظام الامتيازات الأجنبية المطبق فى الدولة العثمانية أن تتعامل معهم عن طريق القنصلية البريطانية فقط. وكانت القنصلية العامة لا ترضى ــ فوق ذلك ــ بأن تتعامل مباشرة بشأنهم مع دوائر الدولة المختلفة إلا إذا أتتها المعاملات عن طريق الوالى نفسه مع ما فى ذلك من إجراءات طويلة وتأخير كبير. وقد استفسرت ولاية بغداد ــ من أجل معالجة ذلك الوضع ــ من القنصلية العامة بشكل غير رسمى عما إذا كانت تقبل باستلام استدعاءات لرعايا بريطانيين من قبل المحاكم والدوائر العثمانية إذا ما أرسلت اليها مباشرة دون مرور الاستدعاء

(١) لوريمر، المرجع نفسه، ج٣، ص ١٠٨٤.

عبر مكتب الوالى، فكان رد القنصل العام على ذلك الاستفسار هو أنـه لا يمكنه إلى أن يستلم تخويلا من السفير البريطـانى فـى اسـطنبول للتعامل رسميا مع أية سلطة أخرى غير الوالـى، وليـس باسـتطاعته إجراء أى تجديد فى الممارسة الراسخة الخاصة بالاسـتدعاءات[1]. ولا شك أن القارئ اللبيب قارن فى ذهنه بين هذا الرد وما ذكره آنفا مـن تخويل الولاية للقنصلية البريطانية العامة حـق اسـتدعاء العثمـانيين مباشرة للمثول أمامها، فأى تزمت هذا وأى تنازل هذا؟!

إن ذلك الامتياز الذى غل أيدى السلطات العثمانية عـن التعـامل المباشر مع الرعايا البريطانيين قد جعل للرعوية البريطانيـة جاذبيـة كبيرة فى أعين كثير من الأشخاص ذوى الأصول الأجنبية القاطنين فى العراق. إذ أخذ الراغبون منهم من التخلص من التزاماتهم المختلفة تجاه السلطات الحكومية بدعوى تلك الرعوية. وبـذا أصبحـت الرعويـة البريطانية واثباتها أو نفيها من المشاكل المزمنة بين السلطات العثمانيـة والقنصلية البريطانية.

وكانت وجهة نظر السلطات العثمانية هى أن الأشـخاص الذيـن يدعون الرعوية البريطانية مطلوب منهم بشكل ثـابت عـدم الاكتفـاء بابراز شهادات تسجيل الرعوية التى تزودهم بها السـلطات القنصليـة البريطانية فى العراق، بل عليهم أيضا تقديم وثائق أخرى مثل جـواز السفر، بينما كانت وجهة نظر القنصل العام البريطانى هى أن من غير المتوقع أن يكون لدى هنود مستقرين هم وذرياتهم فى العراق منذ أجيال وثائق أخرى غير شهادات التسجيل. وسيكون مـن الطبيعـى تمامـا

---

(1) IOR, L/P + S/10/188Summary of events in Turkish Iraq during April and May 1910.

فى غياب أوراق كهذه اللجوء الى روايات الشـــهود والـــى تحقيقـــات تجريها السلطات البريطانية فى الهند للتثبت من صحة وقائع مدعاة عن تاريخ الأسرة هناك[1].

ويلاحظ هنا أن السلطات البريطانية العليا كانت تشـــجع الرعايـــا الهنود المقيمين فى العراق على الحصول على شهادات الرعوية تلـــك. فقد أمر وزير الخارجية البريطانى فى كانون الثانى ــ ينـــاير ١٩١٢ بتزويد تلك الشهادات مجانا للفقراء الذين يثبتون للســـلطات القنصليـــة المعنية عدم قدرتهم على دفع الرسوم المقررة. وتوقع القنصل العـــلم أن يسهل ذلك الإعفاء إتمام عملية تسجيل الرعايا البريطانيين فى العـــراق بشكل سليم[2].

وأسفر ذلك التضارب فى وجهتى النظر بين الطرفين عن كثرة مـــا ورد فى وثائق القنصلية البريطانية من أحداث تقـــوم فيـــها الســـلطات العثمانية باعتقال شخص أو تقديمه للمحاكمة أو ســـوقه لأداء الخدمـــة العسكرية باعتباره مواطنا عثمانيا. وأرسل ذلك الشـــخص بطريقـــة أو بأخرى رسالة استغاثة للقنصل العام البريطانى مدعيا أنه من الرعايـــا البريطانيين. وتبدأ بعدها مراسلات طويلة بين القنصل العام والســـلطات العثمانية حول الموضوع، ومما كان يعقد تلك القضايـــا أن الســـلطات العثمانية كانت ترفض إيقاف اجراءاتها المقررة بحق ذلـــك الشـــخص المعنى لحين حسم موضوع رعويته. وقد شكى القنصل العام البريطانى فى آب ــ أغسطس من ذلك الموقف العثمانى على الرغم من أنه أقـــر

(1) IOR, L/P + S/10/212Summary of events in Turkish Iraq during March and April 1912.
(2) IOR, L/P + S/10/212Summary of events in Turkish Iraq during January 1912.

بحق السلطات العثمانية من التدقيق فى الأوراق التى تصدرها القنصلية حول رعوية الشخص المعنى واستعداده دوما لاثباتها ببرهان حين تطلب السلطات الحكومية منه ذلك بشكل ملائم. ولكن تلك السلطات كانت ـ حسب رأيه ـ تتجاهل القنصلية مما يؤدى فى النهاية الى حرمان الرعايا البريطانيين من مزايا الحماية البريطانية[1]. وذكر القنصل العام أن التمسك القانونى الذى تستند عليه السلطات العثمانية فى موقفها ذاك هو مادة فى قانون الجنسية العثمانى تؤكد على أن أى شخص فى الدولة العثمانية يفترض أن يكون من الرعايا العثمانيين، ويعامل على أنه هكذا الى أن يثبت ادعاؤه لجنسية أجنبية، وتكون للسلطات العثمانية وحدها الحكم فى كفاية الأدلة التى يقدمها لإثبات ادعائه. ونفى القنصل العام علمه بأن حكومته وافقت فى يوم ما على شرط وحيد للأجانب مثل هذا. لذا فإنه يتمسك دائما بأن أى شخص يدعى الرعوية البريطانية، خاصة من يكون حاملا لشهادة تسجيل قنصلية، لا يمكن معاملته باعتباره رعية عثمانى، سواء من قبل الإدارة او المحاكم، إلى أن تناقش قضية رعويته مع القنصلية البريطانية المعنية[2]. وبقيت هذه القضية قائمة بين الجانبين الى نشوب الحرب العالمية الأولى. إذ ظلت السلطات العثمانية تتمسك بالمبدأ المقرر فى قانونها، ولكنها كانت تضطر فى أكثر الأحيان للرضوخ للإصرار البريطانى على اعتبار الأشخاص الذين ثار حولهم القضايا رعايا بريطانيين. ولكن الاعتراف بذلك كان يتم أفراديا[3].

(1) IOR, L/P + S/10/186, No. 693/36, con. – Gen. Lorimer to Sir Gerard Lowther, Dated 14-8-1911
(2) IOR, L/P + S/10/212Summary of events in Turkish Iraq during May 1912.
(3) IOR, L/P + S/10/212Summary of events in Turkish Iraq during May 1914.

ولم تكتف القنصلية العامة البريطانية فى بغداد باصدار شهادات الرعوية للمقيمين فى العراق من الهنود، بل أرادت أن تربطهم بها من خلال تنظيم محكم. إذ كتب القنصل العام فى كانون الثانى ـ يناير ١٩١٢ أنه يعتزم تقسيم المدن والبلدان التى يقيم بها هنود كثيرون الى أحياء من أجل أن يعين لكل حى "رئيس هندى Lambardar" حيث يكون صلة وصل بين القنصلية والهنود القاطنين فى حيه. وذكر أن مهام الرئيس تكون التأكد من تسجيل كل الهنود أنفسهم فى القنصلية، وإفادة القنصلية عن المواليد والوفيات بين صفوفهم، ومراقبة وصول هنود جدد الى الحى ومغادرة الزائرين له، ومتابعة كل الأمور التى تؤثر على هنود الحى مثل الجرائم التى يرتكبونها أو ترتكب بحقهم والطلبات المقدمة لهم من السلطات العثمانية. وذكر أن التجربة أكدت استحالة الإبقاء على إشراف ملائم واتصال مع الهاجرين الهنود، وهم كثيرون جدا، دون إقامة نظام ما مثل النظام الذى يزمعه ـ وأضاف أن عدد قواسى القنصلية العامة فى بغداد ونيابة القنصلية فى كربلاء أقل بكثير من العدد اللازم لأداء ذلك العمل، فضلا عن أنهم ليسوا هنودا ولا أحد منهم يعرف الهندستانية إلا نادرا[1].

ونفذ القنصل العام عزمه بالفعل، فذكر فى نيسان ـ أبريل ١٩١٢ أنه عين ستة رؤساء فى بغداد وأربعة فى الكاظمين وستة فى كربلاء وواحدا فى النجف، وأضاف أنه سوف يعين رئيسا واحدا فى كل من المسيب وطويريج وسامراء. وامتدح عمل أولئك الرؤساء الذين عينهم، حيث اثبتوا فاعليتهم باعتبارهم وسائل اتصال بين الجالية الهندية

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during January 1912.

والقنصلية، كما أنهم نبهوا الى حالات كثيرة لرعايا هنود أهملوا القيام بالتسجيل فى القنصلية[1].

وقد لفتت تلك العملية التى جرت من وراء ظهر السلطات العثمانية انتباه الوالى، فاستخدم الشرطة السرية للتحقق من الأمر. كما أبرق للباب العالى مفيدا أن القنصل العام البريطانى عين موظفين رؤساء لأحياء مختلفة فى مدينة بغداد. وقد أقلقت تلك الأخبار الباب العالى وجعلته يستفسر عنها من السفير البريطانى فى اسطنبول الذى أحال الاستفسار بدوره الى القنصل العام فى بغداد.

وبناء على المعلومات الى قدمها الأخير طمأن السفير الباب العالى بأن الرؤساء معنيون بالأمور الداخلية للجالية الهندية، وأن وجودهم غير مثير للاعتراض. وقد قبل الباب العالى ذلك التوضيح قانعا أو مضطرا، ويبدو أنه أخطر به والى بغداد. واكتفى الأخير عند اجتماعه بالقنصل العام البريطانى فى السابع والعشرين من مايس ــ مايو ١٩١٢ بالقول أنه لا شئ لديه يقوله عن أولئك الرؤساء شريطة أن تظل مهمتهم مقتصرة على التعامل بين القنصل العام وبين الهنود البريطانيين[2]. وكان ذلك الإقرار ضوءا أخضر أمام ترسيخ نظام "الرؤساء الهنود" الذى يظهر فى المعلومات التى أوردها القنصل العام فى آب ــ أغسطس ١٩١٣ أن الرؤساء بموجبه كانوا موزعين على الأحياء المختلفة، وحسب الطوائف أحيانا مثل الباتان والكشميريين والبنجابيين. وأظهرت تلك المعلومات أيضا أن القنصل العام عين فعلا

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during March and April 1912.
(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during May1912.

رؤساء المسيب وطويريج والحلة، ولكنه لم يعين رئيسيا فى سـامراء، وأشاد القنصل العام بجهود أولئك الرؤساء على الرغم من أن مناصبهم شرفية تماما، إلا أنهم مسرورين بما صاروا يتمتعون به مـن مكانـة ونفوذ بين رفاقهم.

وذكر أن تسجيل الرعايا البريطانيون أصبح بوجودهم أكثر شـمولا وتنظيما، وإن لم يكن كاملا لأن الكثير من الهنود يخفون أنفسهم عـن القنصلية إلى أن يجدوا أنفسهم فى مشكلة ما، وبين أن القنصلية العامـة منحت خلال سنة ١٩١٣ ما مجموعه ثلاثمائة وثلاث وثلاثون شـهادة تسجيل تغطى حوالى ألف واثنان من الأشخاص فى بغداد والكـاظمين وسامراء ويعقوبة والمسيب، وثمانية وسبعون أوربيا بريطانيـا فقـط، حيث كانت الشهادة تعطى للرجل ومن يعولهم.

بينما كانت الشهادات التى منحت من القنصلية العامة سـنة ١٩١٢ تبلغ مائتى واثنين وستين شهادة تغطى سبعمائة واثنين وسبعين شـخصا يضمنهم الأوربيون. أما نيابة القنصلية البريطانية فى كربلاء فقد منحت سنة ١٩١٣ خمسمائة واثنتين وثلاثين شـهادة تسـجيل تغطـى ألفـا وثلاثمائة واثنين وثمانين شخصا. وكانوا يقيمون فى كربـلاء وشـفاته والنخيلة والمسيب وسدة الهندية وطريريج والحلة والشـامية والكوفـة والنجف والكاظمين وسلمان باك[1].

وكانت القنصلية العامة البريطانية تعنى أيضا بالقضايا الأخرى التى تمس مصالح الرعايا البريطانيين. فقد استلم القنصل العام مثلا فى بداية

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during August 1913.

نيسان ـ أبريل ١٩١٠ رسالة من والى بغداد وكالة تتعلق بخمسة أطباء بريطانيين يمارسون الطب فى بغداد تلزمهم بتقديم الدبلومات التى يحملونها ليتم تسجيلها إذا كانت مصدقة من اسطنبول. أما إذا لم تكن مصدقة فيجب عليهم الذهاب الى اسطنبول لتصديقها. وشكت الرسالة أيضا من وجود مستوصفات غير مجازة رسميا يديرها أولئك الأطباء. فرد القنصل العام على الرسالة طالبا إطلاعه على بنود القانون العثمانى الذى يتعلق بالدبلومات، واستجاب الوالى لطلبه. ولكن القنصل العام أهمل الموضوع بعد ذلك على أمل أن تكون الولاية قد نسيته، واتهم ثريا بك مدير الشئون الصحية بالولاية بالوقوف وراء إثارة الموضوع لاهتمامه الشخصى به باعتباره طبيبا من جانب، ولأنه عضو فى جمعية الاتحاد والترقى من جانب آخر[1]. ولكن الولاية لم تنسى الموضوع كما كان القنصل العام يؤمل. إذ زاره السكرتير السياسى للوالى فى الثلاثين من حزيران ـ يونيو ١٩١٠ وناقش معه قضية الأطباء الذين لا يحملون دبلومات مصدقة من اسطنبول ويديرون مستوصفات غير مجازة. فلم يجد القنصل العام ما يقوله سوى المطالبة بأن يكتب له الوالى رسالة رسمية حول الموضوع[2]. ولا يخفى ما فى تلك المطالبة من رغبة فى المماطلة وتمييع القضية، إذ سبق له أن تلقى رسالة رسمية حول الموضوع فأهملها كما مر.

ولم يكن القنصل العام يقصد من جهوده حماية مصالح الرعايا البريطانيين على المقيمين منهم فى بغداد فقط، بل شمل بها مقيمين فى مدن أخرى أحيانا. إذ روى أن متصرف كربلاء قام بموجب أوامر من

---

(1) IOR, L/P + S/10/188 Summary of events in Turkish Iraq during April and May 1910.
(2) IOR, L/P + S/10/188 Summary of events in Turkish Iraq during June 1910.

والى بغداد فى آب ــ أغسطس ١٩١٠ بمحاولة لتجديد مدينة كربــلاء. ولكن نقص الأموال اللازمة لتغطية تكلفة تعويــض المــلاك وأجــور العمال جعلته ينفذ التطويرات على نفقة الملاك دون اعتبــار للقــانون والعدل عن طريق استخدام التهديد لإجبار الناس على الخضوع فلم تعط السلطة البلدية فى البداية إشعارا نظاميا للملاك أو أصحاب الحوانيــت كى يقوموا بإخلاء حوانيتهم، لكن منادى البلدية أخبرهم خلال النـــهار بالنية المتجهة لهدم السوق. وجرى خلال الليل التالى هدم سقف السوق، مما اضطر الناس فى صباح اليوم التالى لنقل ممتلكاتهم من الحوانيــت وجاءت الخطوة التالية حين أمرت البلدية الملاك بهدم حوانيتهم وإعــادة بنائها حسب مخطط التطوير على نفقتهم.

وكان بعضهم رعايا بريطانيين فهب القنصل العام لحماية مصالحهم من تلك الإجراءات التعسفية المستبدة علــى حــد وصفــه. فــاجتمع بمتصرف كربلاء، وأصر على المراعاة الصارمــة لقــانون الملكيــة العثمانى. ووعده المتصرف بالعمل طبقا للقانون، ولكنه تجــاهل فــى الواقع ذلك الوعد، وأجبر الرعايا البريطانيين على هدم ملكياتهم وإعادة بنائها على نفقتهم حسب المخطط[1].

وكان اهتمام القنصل العام بمصالح الرعايا البريطانيين يشمل أحيانا قضايا بسيطة فيحولها الى مواضع احتكاك شديد بينه وبين ولاية بغداد. إذ كان مثلا منزل المستر تاديوس Thaddeus، وهو رعية بريطانى مــن أصل يونانى من مستخدمى القنصلية العامة البريطانيــة المتقــاعدين، يجاور فى وسط المدينة مستودعا للحطب. وكان تاديوس يعتــبر ذلــك

(1) IOR. L/P + S/10/188 No. 814, sir G Lowther to Sir Edward Grey. Dated 8-11-1910

المستودع مصدر تهديد خطير لمنزله من جراء احتمال اندلاع النار فيه. كما أنه كان يوفر مرقاة قد يستخدمها اللصوص للسطو على منزله. بناء على ذلك قدم تاديوس، وبعض جيرانه عريضة للبلدية تطلب نقل المستودع من مكانه. ولكن شهورا مضت دون أن تحرك البلدية ساكنا. فعرض تاديوس الأمر على القنصل العام الذى بادر للكتابة الى الوالى حول الموضوع. وتلقى منه ردا مسايرا، ولكن دون حدوث أى تطور عملي. فعاد القنصل العام للكتابة الى الوالى يحدثه حول الأمر. وكان الرد الذى تلقاه يتضمن رفض الوالى مناقشة الأمر معه لأنه يتعلق بملكية غير منقولة لا يحق للقناصل الأجانب التدخل فيها بموجب القانون العثمانى. ورد القنصل العام على تلك الحجة بقوله أنه لا يثير القضية من ذلك الجانب بل من جانب السلامة الشخصية لأسرة المستر تاديوس. وحذر الوالى من أنه يعرض نفسه لمسئولية كبيرة برفضه طلبه المعقول الداعى الى لفت انتباه البلدية للأمر. وتلقى القنصل العام ردا على تحذيره اتسم بالغلظة التى فسرها القنصل العام بأنها عائدة لكتابة الوالى لرسالته الجوابية فى اليوم الذى قدم فيه استقالته. واكتفى القنصل العام على أية حال بتلك المراسلات ملقيا المسئولية على عاتق الولاية إذا وقعت حادثة ناشئة عن تقاعس البلدية[1].

ولم تكن حماية القنصل العام البريطانى مبذولة للرعايا البريطانيين المقيمين فى العراق فقط، بل كانت تشمل أيضا الرعايا البريطانيين المارين فى الأرض العراقية. فقد حدث أن أطلقت النار فى الخامس

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during July 1912.

والعشرين من حزيران ــ يونيو ١٩١٢ على المستر سوان Soan مديـر شركة النفط الأنكلو ــ فارسية فى حقل كيا صــرخ فــى الأراضــى الفارسية حين كان مسافرا من خانقين الى الحدود. وجاء إطلاق النــار من مركز الحدود العثمانى من المنطقة. فاضطر المستر سوان للتوجـه الى ذلك المركز، ولكن آمره قابله بشكل غير مهذب، وهدده بإعادتـه الى خانقين تحت الحراسة. وحين وصلت أخبار الحادثة الى القنصـل العام كتب في الثلاثين من ذلك الشهر احتجاجا الى والى بغداد لمتابعـة القضية[1]. أما رد فعل الوالى على الاحتجاج فكان تشكيل لجنة مؤلفـة من موظف مدنى وضابط عسكرى وارسالها الــى خـانقين لإجـراء التحقيق ميدانيا. وفى أثناء ذلك وصـل المسـتر سـوان الــى بغـداد فاصطحبه القنصل العام الى لقاء رسمى مع الوالى فى الســراى فـى الرابع عشر من تموز ــ يوليو، وأخبرهما الوالى أن تحقيقات اللجنـة أظهرت أن النار أطلقت على المستر سوان جهلا بهويته وبكونه غريبا. ولكن اطلاق النار كان مع ذلك غير ضرورى وجديرا بالتوبيخ. وتعهد الوالى لهما بجعل قائد الفيلق يعاقب آمر الموقع الذى اطلقت منه النـار، وأخبرهما أنه قرر نقل آمر الموقع وأفراده جميعا الى مركز حـدودى آخر، وقد ضمن الوكيل كل ذلك فى رسالة اعتذار وجهـها للقنصـل العام، كما اعتذر شفويا من المستر سوان. وحين أخبر القنصل العــام السفارة البريطانية فى اسطنبول بكل ذلك اعتبرتـه كافيـا ليتـم فتـح الموضوع مع الباب العالى شريطة ألا تحمى السلطات العسكرية فــى بغداد اتباعها المدنيين من العقوبات الموعودة. وبناء على رأى السـفارة

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during July 1912.

ذاك كتب القنصل العام الى الوالى طالبا منه إخباره فى الوقت المناسب عن العقاب الذى أوقع بالمقصرين، فأخبره أن القضية ستظل مفتوحة لحين استلام رده[1].

وقد لاحظ القنصل العام بعدها أن الوالى ينزع نحو التحلل من وعوده السابقة. إذ أنه لم يفعل أكثر من التماس قائد الفيلق التصرف مع الضابط آمر المركز الحدودى بالشكل الذى يراه، والأمر بمحاكمة أحد جنود ذلك المركز أمام السلطات القضائية. لذا طلب القنصل العام من الوالى وجوب معاقبة الجناة بشكل عاجل وكاف، وعبر عن أمله فى أن يتلقى ردا منه بشكل عاجل. وذكر أن القضية لم ترفعها السفارة البريطانية فى اسطنبول للباب العالى، وهو إجراء قد يصبح ضروريا إذا لم تسفر الإجراءات المحلية عن نتيجة مرضية، وتلقى القنصل العام ردا على طلبه ذاك وصفه بأنه غير مبال فى لهجته لأن الوالى كان عند إرساله قد استقال وحزم امتعته لمغادرة بغداد. وأعرب القنصل العام عن خشيته من لجوء السلطات المحلية الى تكتيك المراوغة فى معالجة القضية إذا سمح لها بذلك[2].

وحين يأس القنصل العام فى نيل غايته من السلطات المحلية فى بغداد طلب من السفارة البريطانية فى اسطنبول مفاتحة الباب العالى بالموضوع. لكن وزير الخارجية البريطانية السير ادوارد غرى رأى أن من غير المستصوب فتح تلك القضية مع الباب العالى فى تلك اللحظة التى كانت تجرى فيها المباحثات لحل قضية النزاع على الحدود

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during July 1912.

(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during August 1912.

العثمانية ــ الفارسية[1].

وكان القنصل العام يوسع حمايته حتى تشمل الرعايا العثمانيين الذين يعملون فى مؤسسات بريطانية. فقد حدث ليلة التاسع والعشرين من شباط ــ فبراير ١٩١٢ أن اعتقلت الشرطة الكاتب المحلى المسؤول عن دار السينما العائدة لمؤسسة بلوكى وكرى Blockey and Cree البريطانية فى بغداد بحجة أن تشغيل السينما تلك الليلة يعد خرقا لأمر حكومى يقضى باغلاق أماكن اللهو تكريما لعيد المولد النبوى الشريف. وساقت الشرطة الكاتب الى المركز حيث ضرب ثم طرد وتم إنذاره بتلقى عقاب أكثر قسوة فى المرة القادمة إذا تجرأ على الجدال مع الشرطة معتمدا على الجنسية الأجنبية لأرباب عمله. وبعد أن قدم مدير مؤسسة بلوكى وكرى الى القنصل العام بيانا عن الوقائع التى جرت، قام الأخير بإرسال ذلك البيان الى الولاية مشفوعا برسالة تعبر عن أمله باجراء تحقيق رسمى بالواقعة واخباره بالنتيجة.

وعلق القنصل العام على الحادث بأنه فورة لمشاعر مضادة غذيت بها شرطة بغداد بشكل مثابر منذ سنة الى سنتين مضيتا. وأعرب عن الأمل فى أن الوالى لن يتغاضى عنها[2]. وتأخذ محاولة القنصل العام فى تقديم الحماية للرعايا البريطانيين فى بعض الحالات شكلا خارقا للقانون بصورة فاضحة حين استجاب القنصل العام لطلب حكومى عثمانى باصدار مذكرة توقيف بحق أحد الرعايا البريطانيين المقيمين فى كربلاء لاتهامه بارتكاب أعمال نصب. شفع القنصل العام مذكرته

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during October1912.

(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February 1912

بتعليمات خاصة الى نائب القنصل البريطانى فى كربلاء تقتضى بتمكين المتهم من الهرب من البلاد[1].

ولم تبد القنصلية العامة البريطانية فى بغداد ميلا للتعاون مع السلطات العثمانية بشأن ترحيل بعض الرعايا الهنود غير المرغوب فيهم عن البلاد. ففى غضون شهر حزيران ـ يونيو ١٩١٢ استفسر مدير شرطة بغداد من الترجمان الثانى للقنصلية العامة إذا كان القنصل العام مستعدا للتعاون مع الوالى فى ترحيل الرعايا الهنود الذين كانون يعيشون فى البلاد دون موارد معيشة ظاهرة أو حرفة بينة. فأوعز القنصل العام للترجمان أن يضمن رده القول بأن القنصلية العامة ليست لديها أموال مخصصة لترحيل جماعى للهنود،وأن الطرد بموجب القانون الانكليزى يكون مشروعا فقط حين يمكن اثبات شئ محدد غير محبذ ضد الشخص المعنى. وطلب القنصل العام أن يحتوى الرد الإشارة الى أنه كان مستعدا دوما للتعاون مع السلطات العثمانية فى التحقيق فى اتهاماتها للرعايا الهنود بارتكاب جرائم أو سوء استرزاق، ولكن أمثال تلك الاتهامات كانت نادرة[2]. وقد أدى غياب التعاون البريطانى ذاك الى ظهور نتائج أخذ البريطانيون أنفسهم يشكون منها. إذ لاحظ القنصل العام بعد سنة من التاريخ الآنف الذكر أن هناك تدفقا من الهنود على العراق من غير القادمين لغرض أداء الزيارة، وأن بعض أولئك المتدفقين كانوا ذوى طبائع غير مرضية.

ورغم أن لبغداد تأثيرا غير أخلاقى على الهنود الشبان المهاجرين

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during June 1913.

(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during June 1912.

عزاه جزئيا لنمط الحياة شبه الأوربى فى بغداد كشرب الخمور فى الفنادق، ولغياب الكوابح التى كان أولئك الشبان معتادين عليها فى موطنهم الأم(١).

□ رعاية المؤسسات التعليمية البريطانية:

أبدت القنصلية العامة البريطانية اهتماما ملحوظا بالمدارس البريطانية فى العراق. ولم تكن تلك المدارس كثيرة العدد، إذ اقتصرت على ثلاث مدارس فقط هى مدرسة الجالية الهندية فى كربلاء، ومدرسة تابعة "لجمعية الكنيسة التبشيرية The Church Missionary Society" فى بغداد، وأخرى صغيرة تابعة للجمعية نفسها فى مدينة الموصل. وانصب أكثر الاهتمام على مدرسة الجالية الهندية فى كربلاء كما يظهر من وثائق القنصلية العامة البريطانية فى بغداد. وكانت تلك المدرسة قد أسست سنة ١٩١٠ بتبرعات طوعية جمعت من الرعايا الهنود. وحين ذهب القنصل العام لزيارة كربلاء فى آذار ـ مارس ١٩١٢ تفقد المدرسة فوجدها تضم أكثر من مائة تلميذ أغلبهم هنود أيتام يتولى تعليمهم أربعة مدرسين تعليما مجانيا يشمل القرطاسية والكتب. ووجد التلاميذ سعداء أذكياء والانضباط والنظام سائدين فى المدرسة. واعتبر القنصل العام المدرسة بقعة وضاءة وسط ظلام البلدة الأخلاقى ومثلا رائعا على الاعتماد على النفس من جانب الجالية الهندية فى كربلاء. وقد قررت لجنة كربلاء لوقف أودة منح المدرسة إعانة مالية صغيرة، كما جمعت للمدرسة تبرعات مالية استثنائية خلال وجود

---

(1) OP. cit.

القنصل العام فى كربلاء. وقبلت إدارة المدرسة نصح القنصـــل العـــام بوجوب تدريس اللغة التركية الى جانب الانكليزية التى كانت الجـــهود تبذل لتأمين معلم كفء لها. وامتدح القنصل العام الفوائــــد المســـتقبلية للمدرسة التى يمكن إرسال المتفوقين من تلاميذها لمواصلة دراستهم فى مدرسة جمعية الكنيسة التبشيرية فى بغداد حيـــث يتقنـــون الانكليزيـــة والتركية هناك يهيئون لتولى الوظائف الرسمية فتحقق فـــائدة عظميـــة حيث تتمكن القنصلية العامة فى بغداد ونيابتا القنصليـــة فـــى كربـــلاء والموصل فى تأمين ملاك موظفيها بشكل كامل من جنود بريطـــانيين محليين(١).

ولم تسلم تلك المدرسة فى تدخل الإدارة الحكومية فى شؤونها، فقـد رفع سلامى بك مفتش المدارس الابتدائية تقريرا فى شهر حزيـــران ــ يونيو ١٩١٢الى مدير المعارف فى الولاية يتهمها بمزاولة التعليم بدون رخصة رسمية. وأكد نائب القنصل البريطانى فى كربلاء أن وراء ذلك التقرير مكائد رتبها الشيخ على المازندرانى والواعظ الحكومى محمـــد حسن، وهما عدوان للمصالح البريطانية عموما ــ وترتب على ذلك أن اضطرت إدارة المدرسة الى تقديم عريضة لمتصرف كربلاء طالبة إذن الولاية باستمرار المدرسة فى عملها. وحين علم القنصل العام بـــالأمر قابل مدير المعارف فى الولاية حول الموضوع حيث أعلمه المديـــر أن العريضة غير نظامية فى نقاط عديدة وتجب اعادتها للمدرسة لتعديلـــها. ولكنه وعده فى الوقت نفسه بعدم اغلاق المدرسة. وقد اعترف القنصل العام وهو ينقل تلك المعلومات فى وضع تلـــك المدرســـة الإســـلامية

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during March and April 1912.

الخاضعة للحماية البريطانية وضع غريب حقاً. كما أن السفير البريطانيْ فى اسطنبول أخبره بأن القانون العثمانى ليس واضحاً فيما يتعلق بها.

ولم تكن تلك المدرسة هى الوحيدة التى تدخلت السلطات الحكومية فى عملها فى غضون ذلك الوقت. إذ روى نائب القنصل البريطانى فى كربلاء فى أيلول ــ سبتمبر ١٩١٢ أن السلطات الحكومية فى النجف حاولت وضع المدارس الدينية هناك تحت نوع من السيطرة الحكومية من خلال تعيين علماء محددين اساتذة والإصرار على حصول الطلبة مستقبلاً على شهاداتهم العلمية من أولئك الأساتذة دون غيرهم. وكان على الطلبة بعدها مراجعة لجنة حكومية والتسجيل لديها، وعندها فقط تعترف السلطات بهم على أنهم طلبة. حيث كان عدد من أولئك الطلبة رعايا هنود بريطانيين فقد نصحهم نائب القنصل البريطانى فى كربلاء بعدم الإذعان لذلك التنظيم الحكومى الجديد. ولم يحل دون نشوب أزمة بين القنصلية العامة البريطانية وسلطات الولاية حول تلك القضية ألا تراجع تلك السلطات عن تطبيق خطتها تلك.

وقد علل القنصل العام الروسى محاولة السلطات تنفيذ تلك الخطة برغبتها فى الإمساك برعايا عثمانيين يحاولون التهرب من أداء الخدمة العسكرية الإلزامية عن طريق التخفى فى زى طلبة العلوم الدينية[1].

ويبدو أن إدارة المعارف كفت عن الالحاح على ضرورة حصول المدرسة الهندية على الرخصة الرسمية اللازمة. إذ ذكر نائب القنصل

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during September 1912.

فى كربلاء فى تموز ــ يوليو ١٩١٣ أن السلطات الحكومية تفعل شيئا لمضايقة المدرسة فى الآونة الأخيرة. ولكنه شكا من شقاقات حدثت بين أعضاء اللجنة المشرفة على إدارة المدرسة التى لولاها لكانت هى المدرسة الأفضل بين مدارس كربلاء كلها(١).

وكرر القنصل العام الشكوى نفسها فى الشهر التالى وأضاف أن الأسس التى تدار عليها المدرسة لا تبدو معقولة كما كانت حالها فى العام الماضى، وأن الأمر كان يستدعى القيام بزيارة لها لولا أنه لم يرد إعطاء المدرسة مظهرا رسميا بريطانيا سيما وهى لا زالت تتعارض مع إدارة المعارف من أجل الحصول على إذن رسمى يضفى الشرعية على وجودها. وذكر أن سبب المشكلة التى تعانيها المدرسة هو طموح إدارتها لجعلها المدرسة الأكبر والأشهر فى كربلاء، لذا فقد فتحت مجال القبول فيها لأكثر من مائة وخمسين تلميذا أكثرهم ليسوا هنودا ولا رعايا بريطانيين، يتلقون العلم فيها مجانا حتى لو كان آباؤهم من الموسرين. كما استأجرت إدارة المدرسة بناية كبيرة لها وزادت رواتب معلميها وأكثرت من المهرجانات والحفلات المدرسية التى تقيمها.

ونتج عن كل ذلك أن غدت المدرسة مدينة بمبلغ ست وستين ليرة عثمانية، وكانت أدارتها تتطلع الى وقف أوده من أجل مساعدتها فى تغطية ذلك الدين. وبين القنصل العام أنه رفض ذلك باعتباره تشجيعا للإدارة على سوء عملها وتبديدا لأموال وقف أوده. فلجأت الإدارة بدلا من ذلك الى تنظيم حملة تبرعات طوعية نجحت فى تغطية مبلغ العجز عدا اثنتى عشرة ليرة منه.

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during July 1913.

وقد وافق القنصل العام بعدهـــا علـــى قـــرار لجنـــة وقـــف أوده في كربلاء بتغطية ذلك المبلغ المتبقى ومنح المدرســـة اعانـــة ماليـــة قدرها ثماني وأربعون ليرة تركية في الأشهر الستة القادمة مقابل تعـــهد إدارة المدرسة بالعمل على جعلها فـــي وضـــع مـــالي أفضـــل قبـــل نهاية المدة المذكورة[1].

أما نائب القنصل البريطاني في الموصل فقد كان مشغولا من جانبه باتخاذ النشاط التعليمي وسيلة لتعزيز النفوذ البريطاني في تلك الولايـــة. وكان يقدر أهمية تلك الوسيلة تقديرا فائقا لدرجة أنه كتب في شـــباط ـــ فبراير ١٩١٣ قائلا أن البريطانيين في الموصل فـــي دفاعـــهم عـــن مصالحهم يتمترسون خلف المدرسة الصغيرة التابعة لجمعية الكنيســـة التبشيرية على الرغم من كونها مكرسة فقط للأطفال الصغار، حيث أي مكان آخر عداها يمكن تعلم اللغة الانكليزية فيه. ومن أجل التوسع فـــي ذلك المجال ونائب القنصل أنه فتح مؤخرا صفين لتعلم اللغة الانكليزيـــة وأقر لهما مدرسين جادين.

وأضاف أن صبيان المدينة أقبلوا إقبـــالا جيـــدا علـــى الالتحـــاق بتلك الصورة حتى أنه أضطر الى رد كثـــير مـــن المتقدميـــن لعـــدم توفر مكان شاغر لهم. وبين ذلك الاقبـــال أســـفر عـــن رد فعـــل كبـــير لصالح اللغة الانكليزية، فبعد أن كانت مـــدارس الـــروم الكـــاثوليك فـــي

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during October 1913.

البداية تعاقب أيا من تلامذتها الذين يلتحقون بتلك الصورة خوفا عليهم من انحراف عقيدتهم الصحيحة من جراء دراستهم فى دورة يتولاها بروتستانت، اضطرت فى النهاية الى اتخاذ خطوات من أجل ادخال تدريس اللغة الانجليزية فى مناهجها الدراسية حين تيقنت أن العقاب لم يحل دون إقبال تلاميذها على الالتحاق بتلك الدورة[1].

وانتقل نائب القنصل بعد ذلك الى بيان الصعاب التى يواجها فذكر أن أحد مدرسية حصل على وظيفة فى مكان آخر ، بينما كان الثانى يستعد لمغادرة مدينة الموصل. وبين عدم قدرته على دفع راتب مجز لمدرس متفرغ يكرس كل وقته لتعليم اللغة الانكليزية. واقترح عدة بدائل لمعالجة الوضع منها حق جمعية الكنيسة التبشيرية على توزيع مدرسيها فى الموصل واعانتها ماليا على ذلك. والبديل الثانى هو تشجيع المدرسة اليهودية فى الموصل على تعليم اللغة الانكليزية. وأوضح أنه فاتح بالفعل مدير مدرسة الاتحاد الاسوائيلى "The Alliance Israelite"، فرفع الأمر الى المركز الرئيسى للجمعية فى باريس لتذليل العقبة الرئيسية وهى توفير المال اللازم. وذكر ما نما الى علمه من أن جمعية توطين اليهود "The Jews Colonization Society"، فى لندن مستعدة لإعانة بعض المدارس ماليا شريطة أن تدرس اللغة الانكليزية.

واقترح أن يقوم وزير الخارجية السير أدوارد غرين بمفاتحة تلك الجمعية بالأمر ـــ والبديل الثالث هو من ارسالية رئيس اساقفة كنتربى "The Archbishop of Canterbury's Mission" لطلب إرسال بعثة تعليمية الى

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during Februry1913.

طائفة اليعاقبة فى الموصل مماثلة لبعثتها الى الناطرة حيث ستقابل طائفة اليعاقبة تلك الخطوة بامتنان كبير، علما بأن أفرادها محدودى الحال وسوف يتحملون الجزء الأكبر من الكلفة على عواتقهم، فكل ما يريدون منظمون ومعلمون انكليز فقط. وختم نائب القنصل طرحه للموضوع بالقول: "ربما تكون حكومة الهند ميالة للمساعدة فى هذا الأمر لأن الهند لا يمكن إلا أن تكون مستفيدة من ازدياد عدد الأشخاص المتكلمين باللغة الانكليزية. واعتقد بأن كلمة أو اثنتين من وزارة الخارجية ربما تخلق نجاحا كبيرا على أساس الخطوط المذكورة أعلاه. إذا لم تخط خطوات ما لتمكين أهالى الموصل من تعلم اللغة الانكليزية فإن الألمان بالتأكيد يخطون خطوات لتمكينهم من تعلم الألمانية خدمة لمصالحهم وبما يضر باللغة الانكليزية وبتجارة الانكليز ونفوذهم"[1].

□ مشاعر سكان العراق تجاه النفوذ البريطانى:

لم يبرز بين العراقيين خلال الفترة التى حدث فيها انقلاب تموز ــ يوليو ١٩٠٨ شعور واضح بالعداء للبريطانيين. بل أن مزاج الطبقة المتنورة من عراقيى بغداد كان أقرب للميل نحو البريطانيين خلال تلك الأيام. إذ كان يحضر حفل الاستقبال الذى تقيمه القنصلية العامة البريطانية فى بغداد سنويا بمناسبة عيد ميلاد ملك بريطانيا فى اليوم العاشر من تشرين الثانى ــ نوفمبر الوالى وقائد الفيلقين فقط لتقديم التهنئة. ولكن عندما حلت تلك المناسبة سنة ١٩٠٨ حضر حفل الاستقبال الصباحى وفد مثل جميع طبقات المجتمع فى بغداد حيث منهم

---

(1) Ibid.

ممثلين للنادى العثمانى وجمعية الاتحاد والترقى والصحافة المحلية والضباط والأطباء وغرفة التجارة وعلماء الدين. وألقيت باسم الوفد كلمة قصيرة مرتجلة أكدت على ثقة الرعايا العثمانيين فى صداقة بريطانيا لدولتهم. واستفسر عدد من أعضاء الوفد من القنصل العام عما إذا كان هناك أى اعتراض على ارسالهم برقية تهنئة لوزير الخارجية البريطانى، فرحب بتلك الفكرة. كما قامت السلطات العثمانية أيضا، بتزيين البواخر الحكومية الراسية فى نهر دجلة احتفاء بالمناسبة. ولم يكتف بعض أعضاء الوفد الذين حضروا فى الصباح بذلك بل عادوا مرة أخرى لمبنى القنصلية العامة لحضور الحفلة المسائية حيث ألقوا خطبا أكثر ودا لبريطانيا[1].

ولكن ذلك الشعور الودى سرعان ما تحول الى نفور تحت ضغط الأحداث الدولية التى اتخذت فيها بريطانيا مواقف اسخطت العثمانيين. وعمق ذلك الشعور سعى البريطانيين لتعزيز نفوذهم فى العراق كما مر فى الصفحات الماضية. ولم تكن السلطات الحكومية هى وحدها المتململة من هيمنة ذلك النفوذ الساعية الى كفكفته وحصره ما استطاعت. ولكن الرأى العام العراقى شاركها فى ذلك التوجه، بل واتهمها أحيانا بالتقصير فى محاربة ذلك النفوذ. وكان ذلك الشعور يطفو للسطح فى مناسبات معينة، فحين طرح مشروع بيع بواخر الإدارة النهرية الحكومية الى شركة لنج فى أواخر سنة ١٩٠٩ تفجر ذلك الشعور على شكل هياج عام شديد على حد ما لاحظ القنصل الأمريكى فى بغداد. ولم يكن ذلك الشعور ــ فى رأيه ــ آنيا بل هو

(1) IOR, 15/5/7, Turkish Arab, Memo-for December 1908.

وليد غيرة شديدة كامنة ضد تعد بريطانى "مزعوم"، ازدادت حدته منذ الانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ وخاصة عند احتفاظ القنصلية العامة البريطانية بحرس مسلح من الجنود الهنود واحتفاظها بقارب مدفعية راسى أمامها فى نهر دجلة. وقد دفع ذلك الشعور بعض المواطنين العراقيين للمقارنة بين الوضع حينئذ والوضع فى عهد السلطان عبد الحميد. فكانوا يرددون أن الحكم الدستورى لم يكن ذا فائدة لبلادهم، فعلى الرغم من أن السلطان المخلوع استحوذ على كثير من الأملاك العامة مثل الإدارة النهرية إلا أنه حافظ عليها عثمانية. أما فى ظل الحكم الجديد فإن أراضى العراق أخذت تنزلق تدريجيا الى أيدى البريطانيين.

وكان العراقيون يشكون من أن دولة صديقة مزعومة ليس لها حق بموجب الأعراف الدولية بإبقاء "مقيم سياسى Political Resident" فى بغداد، كما أن حقها أقل فى بناء قلعة حربية فى وسطهم. وأضاف القنصل الأمريكى أن انهيار السدة الأولى التى بناها المهندس البريطانى ولكوكس على الفرات جاء محفزا إضافيا للشعور ضد ما يسمى بـ "الغزو البريطانى British Invasion" على الرغم من الانهيار لم يكن نتيجة خطأ ذلك المهندس(١).

وظل القنصل الأمريكى يرصد تطور ذلك الشعور، فكتب فى شباط – فبراير ١٩١٠ قائلا أن مواطنى بغداد يظهرون تذمرا ضد ما يصفونه بـ "العدوان البريطانى". وكانت بعض المهيجات العرضية

RG84, B.C P., No. 8, Am. Con., Bag., to the Am. Amb., Coust.,

تزيد من حدة ذلك التذمر مثل اقتراح ولكوكس باستقدام آلاف من الهنود أو المصريين للعمل فى المشاريع الإروائية التى كان يشرف عليها[(١)].

وكان بعض الأشخاص يقومون أحيانا بإثارة المشـــاعر المعاديـــة للبريطانيين بين الناس بصورة متعمدة. إذ حاول السيد صالح الحلى فى كانون الأول ــ ديسمبر ١٩١١ استثارة مشاعر الناس ضد البريطـانيين والروس من خلال خطب عامة القاها فى الكاظمين، مما اضطر قائمقام الكاظمية لانذاره بالكف عن تلك المحـــاولات[(٢)]. وكـــانت الاشــاعات الرائجة فى بغداد تغذى ذلك الشعور، مثل الاشاعة التى تداولـــت فـــى نيسان ــ أبريل ١٩١١ وتفيد بأن بريطانيا ستقرض تركيا مبلغ خمســة وأربعين مليون جنيه استرلينى مقابل رهن ولايات بغـــداد والموصـــل والبصرة. وأن البريطانيين على وشك الحصول على امتيازات ملاحيــة مهمة فى دجلة والفرات[(٣)].

وكان بعض الأشخاص البريطانيين يلقون تعنتا فـــى بغـــداد مـــن جراء تفجر تلك المشاعر، فقد تعرض أحدهم للضرب فـــى أيلـــول ــ سبتمبر ١٩١٣ اثناء ذهابه إلى السينما. ولم يكن هنـــاك مـــبرر لذلـــك الاعتداء حسب رأى نائب القنصل الأمريكى فى بغداد ســـوى شـــعور العداء للأوربيين من جراء انتشار روح التعصب القوى اليـــائس فـــى أذهان جماهير المسلمين[(٤)]. واسهمت الصحافة المحلية فى تأجيج ذلـــك

---

(1) N.A.R.S., RG84, B.C.P., No. 12, Am. Con., Bag., to Am Amb., Coust., dated 8-2-1910.

(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during December 1911.

(3) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during April 1913.

(4) N.A.R.S., RG84, B.C.P., Am. Vice Con., Bag., to the Am. Charge d'aafaires, cost. dated 27-9-1913

الشعور المعادى للبريطانيين. فعندما تجدد الحديث عـــن بيــع الإدارة النهرية فى ربيع سنة ١٩١٤ نشرت صحيفة "المصباح" فى الثالث عشر من آذار مارس مقالا حذرت فيه القراء من أن بريطانيا تنوى أن تفعـلى بالعراق ما سبق أن فعلته بالهند. ونصح كاتب المقال المواطنيــن بـــــ "تسليح أنفسهم بالأسلحة اللازمة لقتال رواد الجيش الاستعمارى فى هذا البلد"(١).

ولم تكن القنصلية العامة البريطانية فى بغداد غافلة عن وجود ذلـك الشعور. ولكنها لم تبذل ــ حسبما يظهر من وثائقها ــ محاولة للتــأثير على الرأى العام من أجل كسبه الى جانبها أو تحييــده علـــى الأقــل. وركزت جهدها بدلا من ذلك على إقامة أوثق الصــلات مــع النخبــة المستفذة سواء أكانت من كبار الموظفين أو من الوجهاء المحليين. ولا ريب فى أن ذلك عائد لقناعتها بأن تلك النخبة هى المتحكمة فى توجيــه الرأى العام، وأن مواقفها تجاه المصالح البريطانية هى الأكثر أهميـــة. لذا كان القنصل العام البريطانى يظهر نشاطا كبيرا فى تنمية علاقاتـــه مع الموظفين الحكوميين والسكان المحليين على حد ملاحظة القنصــــل الأمريكى فى بغداد(٢).

وكان أكثر تركيز القنصل العام بالطبع على الولاة باعتبـارهم رأس الإدارة ثم على كبار حاشيتهم. لذا ما كان يمر شهر إلا ويلتقـــى فيـــه القنصل العام بالوالى فى حفلات ومناسبات خاصة متبادلة. فقد تعشــــى

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February and March 1914.

(2) N.A.R.S., RG84, B.C.P. No 12., Am. Vice Con., Bag., to the Am. Charge d'aafaires, cost dated 8-2-1910.

على سبيل المثال يوم التاسع من حزيران ـ يونيو ١٩١٠ مع الوالـــى حسين ناظم باشا فى منزل الأخير. وتعشى بعد ثلاثة أيام فى القنصليــة العامة كل من العقيد حسن رضا بك رئيس اركـــان الفيلــق والعميــد البحرى حكمت بك قائد البحرية وإيرام بك السكرتير السياسى للوالـــى. وعاد القنصل العام فى السابع عشر من الشهر نفسه لزيارة الوالى فـــى منزله الخاص حيث جلسا منفردين يتبادلان أطراف الحديـــث اســتمر نصف ساعة[١].

وفى الشهر التالى حضر الوالى وكبار رجال حكومته حفلتين فـــى حديقة القنصلية العامة يومى التاسع ثم الثلاثين منه، وعاد للعشاء فيـــها مع سكرتيره السياسى وفى الحادى والعشرين من الشهر نفسه[٢] أقامت القنصلية العامة فى الثالث من حزيران ـ يونيو ١٩١٣ حفل اســتقبال رسمى احتفالا بيوم ميلاد ملك بريطانيا حضره الوالى وقـــائد الفيلــق ومدير الشئون السياسية فى الولاية[٣].

وقد درجــت القنصليــة العامــة البريطانيــة علــى معاملــة كبــار الموظفين فى الولاية أيام حسين ناظم باشا باعتبارهم أوربييـــن. فكـــانت تدعوهم الى حفلات الرقص التى تقيمها. ولكنـــها بعــد مغــادرة الوالـــى تراجعت عن تلك الممارسات لعدم ملاءمتها. فعزفت عن دعوتهم وكـــانت تعتذر لهم برأى عامة المسلمين الذى يعتبر الرقص عمـــلا غــير لائــق. ولكنها ظلت مواظبة على إقامة ولائم العشاء للولاة وكبار الموظفين[٤].

---

(1) IOR, L/P + S/10/188 Summary of events in Turkish Iraq during June 1910.

(2) IOR, L/P + S/10/188 Summary of events in Turkish Iraq during July 1910.

(3) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during June 1912.

(4) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February 1912.

وكان القنصل العام حريصا على ادامة صلته أيضا مـــع وجـــهاء بغداد. إذ أبدى لهفة مثلا على إقامة صلة مـــع السـيد عبـد الرحمـن الكيلانى نقيب اشراف بغداد. وكان النقيب يتجنب زيارة القنصلية العامة البريطانية التى لم يكن يفصل منزله عنها إلا زقاق ضيق فقط. كمـا أن القنصل العام لم يبادر الى زيارته فى منزله الى أن تم لقاء بين الرجلين فى أرض "محايدة" وكانت العبارة الأولى التى قالها القنصل العام مثـلا عربيا هو "سلام يا جارى، أنت فى دارك وأنا فى دارى". ولكن النقيـب وهو يتحرج من زيارة القنصلية العامة لم يجد من المحرج لـــه إيـــواء قبطان قارب مدفعية القنصلية العامة "كوميت Comet" فى أحد سـراديب منزله حين يكون الطقس حارا جدا على ظهر ذلك القارب[١].

ولعل موقفى النقيب هذين يعكسان تمزقه بين الرغبة فـــى إقامـــة علاقة مع الانكليز المستنفذين وخوفه من غضب الرأى العام الذى كـان يحرص على مسايرته حفاظا على مكانته الدينية ومنزلته الأجتماعيـــة المرموقة. ولكن بقية وجهاء بغداد لم يكونوا مثل النقيب يتحرجون مـن زيارة القنصلية العامة لتقديم التهانى فى الأعياد والمناسبات[٢]. بيـــد أن وجود والى ذى نزعة معادية للبريطانيين مثل أحمد جمال بـــك كـان يضع حدا أمام رغبة بعض الوجهاء فى زيارة القنصلية العامة حيـــث كانوا يتخوفون من النتائج التى قد تترتب عليها[٣].

وقد لاحظ القنصل العام البريطانى فى مطلع سنة ١٩١٢ أن الرغبة

---

(1) IOR, L/P + S/10/188 Summary of events in Turkish Iraq during July 1910.

(2) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during January 1913.

(3) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during August1912

فى توثيق العلاقة مع القنصلية العامة البريطانية غدت واضحة لدى كبار موظفى الولاية الذين أصبحوا متسامحين ومعتدلين. وعلل ذلك التحول بالضعف الذى اعترى هيمنة جمعية الاتحاد والترقى نتيجة بروز الحزب الحر المعارض، وبالدروس التى ربما استخلصها أولئك الموظفون فى تجربة الدولة العثمانية المريرة فى حربها مع إيطاليا. ولم يغفل القنصل العام دور الموقف الحازم الذى وقفته قنصليته ضد ما أسماه انتهاك السلطات العثمانية لأملاك بعض الرعايا البريطانيين فى العراق والذى أسفر عن انتزاع تعويضات لهم من تلك السلطات مما زاد من مكانة بريطانيا فى أعين أولئك الموظفين. وأضاف: "فوجئت كثيرا بازدياد الصداقة واللطف تجاه شخصي... ففي العمارة على دجلة حيث قدم المتصرف السنة الفائتة عذرا مؤدبا لعدم استقبالى كليا منحنى خلفه استقبالا حارا، وتحدث لى عن شؤون لوائه بحرية غير معهودة هنا منذ وصول ناظم باشا، وبجل بريطانيا باعتبارها المثال السياسى الحقيقي لتركيا، وهو تملق مضى زمنه، وحتى أنه كتب لى رسالة خاصة بعد وصوله الى بغداد وكان قائمقام الكوت، وهو معرفة قديمة موقرا لى للغاية على الرغم من أنه كان أقل صراحة من المتصرف. وبدا قائمقام العزيزية فاقدا لكل شعور بمضى الوقت حين رد زيارتى له على ظهر "كوميت". وحتى والى بغداد ابتدأ منذ وصولى بعد غيبة شهرين ونصف باظهار جانب أكثر ملائمة من شخصيته الرسمية. واعتقد أن لديه أوامر من جهات عليا باقامة علاقات جيدة معى، وهو ما يبذل جهده لتنفيذه، وسوف لن يكون لديه سبب للشكوى من غياب التجاوب من جانبى. جاء قائد فيلق جيش بغداد منذ عدة أيام لرؤيتى بعد

حلول الظلام وبقى طويلا جالسا قبالتى وجها لوجه أمام نـــــار صالــة الاستقبال[1]. ولم تكن تلك المواقف ناجمة عن محبة أولئك الموظفيـــن لبريطانيا، ولكنها ناتجة عن معرفتهم بقوة النفوذ البريطانى فى العراق، بل وفى الدولة العثمانية كلها. ولقد كانت تلك المعرفة موجودة حتى فى أواسط عامة الناس فى الأرياف والبرارى. إذ أطلقت النار على الطبيب الأمريكى المبشر آرثر بنيث Bennett حين كان مسافرا على ظهر كلـك فى نهر الفرات قرب بلدة عانة. فصاح الكلاك بمطلقـــى النـــار مـــن الأعراب أن المسافر "قنصل بريطانى". فكف الأعراب عن إطلاق النار وسبح بعضهم فى مياه النهر الى الكلك للتحقق من وجود "البريطــــانى" على ظهر الكلك[2].

◻ الاهتمام بالوضع البريطانى المستقبلى فى العراق:

لم تنشغل السلطات القنصلية البريطانية فى العراق بمعالجة قضايـــا الواقع الآنى فقط، بل اهتمت أيضا باستشراق آفاق المستقبل، وفكـــرت فى كيفية تعزيز نفوذ بريطانيا فى العراق فيما سيأتى من الزمان. فحين علم القنصل العام البريطانى فى بغداد أن مناقشة ستكون وشيكة بيـــن الدول الكبرى حول مناطق نفوذها الاقتصادى فى الدولة العثمانية أبرق فى الخامس والعشرين مـــن نيســـان ــ أبريـــل ١٩١٣ الـــى الســفير البريطانى فى اسطنبول السير جيرارد لوثر قائلا أن العــــامل الأكــثر أهمية فى مستقبل العراق، وربما الدولة العثمانية كلها، هـــو منظومـــة

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during January 1912.

(2) N.A.R.S., RG84, B.C.P No 3., Am. Vice Con., Bag., to the Am. Amb., cost., dated 21-10-1909

الرى المخطط لها. ومن أجل أن تضم كل أعمال الرى المعتزمة يجب مد منطقة النفوذ البريطانى فى العراق حتى الخط الواصل بين هيت على الفرات وسامراء على دجلة شمالا وتنحدر بعدها الى الخليج العربى جنوبا، إذ بالإضافة الى موضوع الرى فإن سامراء مكان يقصده زوار هنود بريطانيون كثيرا. ولو أضيفت عانة الى تلك المنطقة لأصبحت منطقة النفوذ البريطانى مطابقة لحدود ولايتى بغداد والبصرة. وسيكون أمرا رائعا من وجهة نظر المصالح النفطية البريطانية، إضافة ولاية الموصل الى منطقة النفوذ البريطانى. ولكن ربما تكون محاولة كهذه مفرطة فى حجمها، خاصة إذا كان مقطع بغداد ـ سامراء فى سكة حديد بغداد سينقل للبريطانيين. وختم القنصل العام رؤيته لمستقبل النفوذ البريطانى فى العراق بالقول أن لدى بريطانيا ما تربحه وما تسخره فى العراق أكثر من أى مكان آخر فى الدولة العثمانية. وترك للسفير الحكم فى جدوى تعزيز وضع بريطانيا فى العراق مقابل تضحيات تقدم فى أماكن أخرى(1).

ولا شك أن القارئ اللبيب قد استشف من تلك الرؤية الخطة التى سار عليها البريطانيون بالفعل أثناء الحرب العالمية الأولى وما تلاها من أحداث.

وكان اهتمام القنصل العام بأمر ولاية الموصل مستندا، من بين أمور أخرى، على تقرير طويل تلقاه من نائب القنصل البريطانى فى الموصل قبل ذلك بشهرين. وجاء فى ذلك التقرير أن الموصل لا تتبع

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during April 1913.

أية منطقة نفوذ حينئذ، ومازالت قضية مفتوحة فكرة ضمها الى منطقة النفوذ البريطانية فى العراق، أو الى منطقة النفوذ الفرنسية فى سوريا، أو الى منطقة النفوذ التى تحاول المانيا خلقها لنفسها، أو الى منطقة النفوذ الروسية التى تتضخم بثبات الى الشمال الشرقى من الموصل. وعبر عن رأيه فى أن الموصل تعود جغرافيا بالتأكيد الى منطقة النفوذ التى تتبعها بغداد والبصرة. وبعد أن استعرض نائب القنصل واقع المصالح البريطانية التجارية فى الموصل وتفوقها على أى من المصالح الأجنبية الأخرى اقتبس من كتاب الدكتور رهربارخر Rohrbacherالموسوم بـ "Die Gaghdadbahn" الفقرة التالية: "لقد زرت شخصيا ينابيع نفط كركوك وينابيع نفط بابا كركر المجاورة لها، وكلاهما أضخم من الظاهرة المماثلة فى شبة جزيرة Aspcheron فيما وراء القفقاس الروسية قبل بدء الحفر فيها. وحين نرى الدور المهم الذى لعبته منتجات النفط فى روسيا كوقود للقطارات والبواخر وكثير من المهام الصناعية، ونفكر بالأهمية الهائلة للنفط فى تلك الأيام كمادة للوقود والإنارة، فيجب أن نولى الأهمية الفائقة لحقيقة أن سكة حديد بغداد ستمر بمحاذاة المناطق النفطية. والشىء الوحيد الذى يجب التخوف منه هو أن يفلح ذهب أجنبى أو مضاربون أجانب فى الحصول على حق تفضيلى فى تطوير نفط ما بين النهرين قبل اتخاذ أية خطوة تمهيدية ألمانية". وحث نائب القنصل وزارة الخارجية البريطانية ومجلس التجارة البريطانى على دفع رأس المال الانكليزى نحو فعل ما خشيه الدكتور روهرباخر بالفعل[1].

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during February 1913

وعاد القنصل العام الى تناول موضوع مستقبل العراق فى خلاصته لأحداث شهر تموز ـ يوليو ١٩١٣ ـ فتطرق الى عدة أمور باعتبارها المصالح الاقتصادية الأساسية فى العراق التى تتنازع عليها الدول الأوربية ـ وتتمثل تلك الأمور بالرى والسكك الحديدية والملاحة البخارية وانتاج النفط . ففيما يتعلق بالرى ذكر أن تجارة بغداد فى جوهرها تجارة مرور من فارس واليها ومن المحتمل ان تتحول تجارة المرور تلك عن طريق البصرة ـ بغداد خانقين الى طريق أخرى تربط مباشرة موانى فارسية مع قلب فارس الغربية. وعندما سيترك العراق للاعتماد على موارده الخاصة، وهى موارد زراعية بصورة رئيسية بل وربما مطلقة، وهى غير مطورة كليا فى وضعها الحالى مقارنة مع أقطار مماثلة. وأن تطويرها عن طريق الرى هو الذى سيعطى العراق يوما مكانا فى العالم ويجعله مساوما إن لم يكن متفوقا على مصر الدنيا فى تعداد سكانها وتأثيرها. وأن إدارة الرى المستقبلية هى التى ستسيطر بالتالى على الانتاج وعلى توزيع الثروة فى البلاد. إذ ستتولى تلك الإدارة تخمين إيرادات الأراضى وربما جبايتها أيضا وتحديد معدلات توزيع المياه، لذا ستكون قبضتها قوية على الناس. وإذا ما تولت ذلك العمل إدارة حكومية فإن سلطات الحكومة العثمانية ستقوى وخزائنها ستجتز بالأموال. أما إذا انزلقت الإدارة لأيدى شركة أو شركات فسيؤدى ذلك الى خلق مملكة داخل المملكة وستنخفض فائدة الحكومة العثمانية الى حدود ضيقة. وتطرق القنصل العام بعدها الى واقع مشاريع الرى فى العراق حينئذ مثل سدة الهندية والى احتمال تنفيذ بقية المشاريع التى خططها السيد وليم ويلكوكس مما سيترتب عليه

خسارة بريطانيا لموطئ قدم مهم أحرزته فى العراق. واقترح أن تقـدم حكومته للحكومة العثمانية قرضا ماليا من الخزانة البريطانية أو الهندية مقابل ضمانة ما لتمكين الحكومة العثمانية من استغلال المصدر المـالى الأعظم المتبقى للباب العالى[1].

ولم يكن دافع القنصل العام بالطبع هو الحرص على مصلحة الدولة العثمانية، بل كان يستهدف تنفيذ تلك المشاريع برأس مـال بريطـانى، وإبقاءها بيدى الدولة العثمانية الى أن يحين للبريطانيين نقلها لأيديـهم مباشرة، بدلا من أن تنفذ برأس مال آخر وتنزلق بذلك ادارتها لشـركة عائدة لدولة أخرى منافسة.

وفيما يتعلق بسكك الحديد ذكر القنصل العام أن تجـارة تصديـر عراقية ذات حجم أكبر معتمدة على انتاج زراعى أوسع وتقابلها تجـارة استيراد أنشط سوف تتطلب مواصلات مطورة على شكل سكك حديدية حديثة. أما الملاحة البخارية فهى الوسيلة الوحيدة المتاحة للنقـل فـى العراق حينئذ، فهى معادية للرى والتوسع الاقتصادى فى البلـد علـى الرغم من أنها لا مستقبل لها حيث لن تستطيع الصمود بوجـه سـكك الحديد المتوقعة. ونقل عن ويلكوكس قوله: "وفر لدجلة والفرات قنوات تصريف الى الصحارى فتنافس باب مصر ثانية، وستغدو سكك الحديـد هناك المشروع الأكثر ربحا فى العالم". وذكر القنصل العام أن الملاحة البخارية مصلحة بريطانية راسخة الجذور فى العراق، ولكن وجـوب التضحية بها سيكون أمرا حكيما حقا من جانب بريطانيا إذا ما أخـذت

---

(1) IOR, L/P + S/10/212 Summary of events in Turkish Iraq during July 1913.

المستقبل أكثر من الحاضر بنظر الاعتبار إذ لا أمل لبواخر عتيقة تئن وهى تزحف مصعدة بعناء ضد تيار النهر المنحدر ستخلى يوما مكانها بهدوء لمراكب القطارات بألوانها الزاهية. وانتقل القنصل العام بعدها للإشارة الى النفط، وذكر أنه تعمد وضعه فى آخر القائمة لأنه مصلحة لم تتأكد أهميتها بعد، فعلى الرغم من وجود النفط والغاز فى القيارة وابوزخرماتو وكركوك ومندلى وهيث وغيرها إلا أنه لا شئ معروف بشكل رئيسى عن كمياتها ونوعياتها وامكانيات استغلالها. وختم القنصل العام الحديث عن توقعاته المستقبلية بالقول: "أن السياسة التى ستتبع يجب أن تعتمد بشك كبير على النظرة الى المستقبل المحتمل لتركيا. فإذا كان من المعتقد أن تركيا يمكن أن تستمر فإن مزجا للمصالح فى ما بين النهرين وتدويلها ربما يكون مفضلا لتفادى وقوع مسؤولية سياسية (عن صيانة النظام وسلامة حياة الأوربيون، الخ) على عاتق دولة مفردة. أما إذا كان من المعتقد، من جانب آخر، أن تركيا يجب أن تتفتت وأن ما بين النهرين سيصبح منطقة نفوذ بريطانية على نحو مميز فسيغدو عنها تطفل مصالح أجنبية غير بريطانية الى الجنوب من الموصل أمرا مشحونا بعواقب مستقبلية خطيرة"[1].

---

(1) Ibid

الخاتمـــــــة

وبعد، فتلك هى صورة النفوذ البريطانى فى عراق مطلـــع القـــرن العشرين، وهى صورة موحية معبرة تصارع فيها طرفان. طرف هرم أثقلت السنون حركته، وشلت الأمراض والمحن قوته حاول الصمـــــود أمام طرف آخر كان فى عنفوان قوته وفورة نشاطه. تذمـــر الطـــرف الأول أحيانا وتمرد حينا، ولكنه لم يكن يلبث طويلا حتى يكتم تذمـــــره وينسى تمرده ويستسلم لإرادة القوة الغالبة لدى الطرف الخصم الـــــذى كان لا يترك فرصة سانحة إلا ويستغلها لتأكيد تفوقه وتعزيز مواقعـــــه استعدادا للإطباق النهائى على فريسته.

المحتويـــــات


أحداث فى تاريخ
الخليج العربى
دكتور/ خالد حمود السعدون
جامعة الشارقة
٢٠٠١